فقهُ واتّباع

على الخطى الرسول ﷺ

للأحاديث الكلية في أبواب الدين

الجزء الأول



مركز أصول
www.osoulcenter.com
Rabwah

فقهُ واتّباعٍ

للأحاديث الكلية في أبواب الدين

الجزءُ الأول

ⓒ **جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالربوة ، ١٤٤٥هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أصول ، مركز

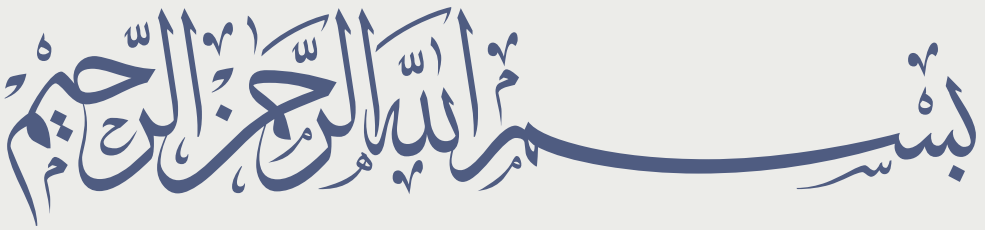
الأحاديث الكلية في أبواب الدين؛ فقه واتباع (الجزء الأول - الجزء الثاني). / مركز أصول -

ط ١..- الرياض، ١٤٤٥هـ

٨٤٤ ص، ٢١ سم x ٢٨ سم

رقم الايداع: ١٤٤٥/١٩٧٠٢

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٣٨-١١-٤


بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

بعد كلام الله تعالى : فلا توجد معاني أعظم من معاني كلام رسوله ﷺ ، ولا يوجد كلام أولى اتباعًا من كلامه ﷺ .

وهذا هو كتاب (**في الأحاديث الكلية: فقه واتباع**) . وهو كتاب يتناول ١٥٠ حديثًا من كافة أبواب الدين، مقسمة بطريقة علمية كما يتضح من الفهرس، مع شرحها شرحًا مختصرًا .

يبتدئ بعنوان الحديث، ثم بعد ذكر الحديث يتناول بعض الآيات ذات العلاقة بالحديث، ثم التعريف بالراوي .

ثم يكون القسم الأول (فقه) وهو توضيح مختصر لمعاني الحديث، وكل فقرة من الحديث لها رقم يقابلها شرح بنفس رقم الفقرة، وكذا اللون الأحمر الدال على الكلمات الغامضة يكون مقابله شرح لمعناه باللون بالأحمر .

ثم يكون القسم الثاني (اتباع) وهو خطات عملية في حياة الإنسان، تنطلق من معاني الحديث، وبأرقام سردية غير مرتبطة بالحديث .

وهذا المشروع (فقه واتباع) ضمن مشروع متعدد عنوانه (الأحاديث الكلية)، وكل حديث منها يخدم خدمات متعددة: من شرح موسوعي، ومقرر تعليمي، ومقاطع مرئية، وتسجيلات صوتية، وبطاقات، وترجمات متعددة، وغير ذلك .

يندرج هذا المشروع ضمن مبادرة كبرى إحدى مبادرات أصول، بعنوان : (**على خطى الرسول** ﷺ) والذي يعنى بالتقريب والدلالة على السنة النبوية ومعانيها بلغات العالم .

وهناك المزيد من المنتجات والخدمات يمكن الاطلاع عليها في منصة الأحاديث الكلية .

والحمد لله رب العالمين،،

sunnahsteps.com

الفهرس

قسم أبواب أصول الإيمان

أصول الدين

١) أَوَّليّاتُ الدِّين ١٧

٢) شَهادةُ ألا إلهَ إلا الله ٢٣

٣) شَهادةُ أنَّ محمدًا ﷺ رسولُ الله ٢٩

٤) مَراتبُ الدِّين ٣٣

٥) الدِّينُ النَّصِيحة ٤٣

٦) طَعمُ الإيمَان ٤٩

٧) كَمالُ الشَّريعة ٥٥

٨) شُعَبُ الإيمان ٥٩

الإيمانُ بالله

٩) من توحيدِ الربوبيَّة لله تعالى ٦٥

١٠) من توحيدِ الأُلوهيَّة لله تعالى ٧١

١١) من أَسماءِ الله تعالى ٧٧

١٢) من صفاتِ الله تعالى ٨٣

الإيمانُ بالملائكة

١٣) خَلْقُ الملائكة ٨٩

الإيمانُ بالكتب

١٤) بدءُ الوحي ٩٣

الإيمانُ بالرسل	
١٥) الإسلامُ دينُ الأَنبياءِ	١٠١
١٦) معرفةُ الرَّسولِ ﷺ	١٠٥
١٧) لزومُ اتباعِ الرسول ﷺ	١١١
١٨) نَسخُ الرِّسالات بالرسول ﷺ	١١٥
١٩) محبةُ الرَّسول ﷺ وما يتبع ذلك	١١٩
٢٠) مَنزِلَة الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم	١٢٥
٢١) فَضلُ القُرونِ الأولى من السَّلف الصالح	١٢٩
الإيمانُ باليوم الآخر	
٢٢) المَوتُ والقبرُ	١٣٥
٢٣) من أشراطِ السَّاعةِ الصُّغرى	١٣٩
٢٤) من أشراطِ السَّاعةِ الكُبرى	١٤٥
٢٥) الدَّجالُ	١٥١
٢٦) نهايةُ أعمالِ الدُّنيا	١٥٥
٢٧) البَعثُ والحِسَابُ	١٥٩
٢٨) النَّارُ	١٦٥
٢٩) الجَنَّةُ	١٦٩
الإيمان بالقدر	
٣٠) الرَّحمةُ والعَدلُ في قَدَرِ الله تعالى	١٧٣
٣١) من أنواعِ القَدَرِ السَّابق	١٧٧
٣٢) من آثارِ الإيمانِ بالقَدَر	١٨٣
٣٣) الجمعُ بينِ العَملِ والإيمانِ بالقَدَر	١٨٩
٣٤) الطِّيَرةُ والفَأْل	١٩٥
٣٥) الرِّضَا بالقَدَر	٢٠١

جَامعُ الإيمانِ بالغيب	
٣٦) لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهَ تعالى	٢٠٧
٣٧) تحريمُ السِّحر وادعاءِ علمِ المغيبات	٢١٣
من لوازمِ الإيمانِ وأعمالِ القلوب	
٣٨) مَنزِلَة أعمالِ القلوب	٢١٧
٣٩) عبادةُ الله في الحبِّ والكُرهِ والولاءِ والبراءِ	٢٢٣
٤٠) تركُ مشابَهةِ المُخالفين	٢٢٩
تجنُّب نواقضِ الإسلامِ ونواقِصِه	
٤١) تجنُّب الرِّدةِ من الكفرِ والشركِ الأكبر	٢٣٥
٤٢) تجنُّب الشِّركِ الأصغر	٢٣٩
٤٣) تجنُّب النِّفاق	٢٤٥
٤٤) تجنُّبُ البِدْعة	٢٥١
٤٥) تجنُّبُ الغُلو	٢٥٧
قسمُ أبواب العبادات	
جَامِعُ العِبادات	
٤٦) جَامعُ العبادات	٢٦٣
باب الطَّهارة	
٤٧) من خِصال الفِطرةِ وآدابِ الخَلاء	٢٦٩
٤٨) طَهوريَّة المَاء	٢٧٥
٤٩) الوُضُوءُ	٢٧٩
٥٠) التَّيمُّم	٢٨٥

باب الصَّلاة	
٥١) مَنزِلَة الصَّلاة	٢٨٩
٥٢) جامعُ أحكامِ الصَّلاة	٢٩٥
٥٣) من صِفَة الصَّلاة	٣٠١
٥٤) الفاتِحةُ في الصلاة	٣٠٧
مُلحق الصلوات	
٥٥) الجمُعة	٣١٣
٥٦) الأعياد	٣١٧
٥٧) صلاةُ الجماعة	٣٢٣
٥٨) المساجِدُ	٣٢٩
باب الزَّكاة	
٥٩) فضلُ الزَّكَاة	٣٣٥
٦٠) الصَّدَقة بالطيب	٣٤١
٦١) زكاةُ الفِطْر	٣٤٧
باب الصَّوم	
٦٢) مَنزِلَة الصَّوم	٣٥٣
٦٣) فضلُ رمضانَ وما فيه	٣٥٩
٦٤) حِفْظُ الصَّوم	٣٦٥
باب الحج	
٦٥) مَنزِلَة الحَجِّ	٣٦٩
٦٦) حُكمُ الحَجِّ	٣٧٣
٦٧) جَامِع أحكامِ الحَجِّ	٣٧٩

قِسم أبوابِ المعاملات	
٦٨) أُصولِ النِّعَم	٣٨٣
٦٩) الجمعُ بين الإيمانِ وطلبِ الرِّزق	٣٨٧
العُقُود	
٧٠) بيعُ المحرَّمات	٣٩٣
٧١) النهيُ عن الغشِّ	٣٩٩
٧٢) النهيُ عن الربا	٤٠٥
٧٣) النهيُ عن الغَرَر	٤١١
أحكامُ الأُسْرة	
٧٤) فَضلُ النِّكاحِ والمُبادرةِ فيه	٤١٩
٧٥) اختيارُ الزَّوجين	٤٢٣
٧٦) من أحكامِ الرَّضَاعة	٤٢٧
٧٧) كَرَاهية الطَّلاق	٤٣١
٧٨) من أحكامِ الطَّلاق والعِدَّة	٤٣٧
٧٩) مَن أحكامِ الحِدَاد	٤٤١
٨٠) الفَرائِض	٤٤٧
من أحكام الأطعمة والأشربة	
٨١) المِسْكِرات	٤٥٣
٨٢) الاعتدال في الطِّعام	٤٥٩

الحقوق	
٨٣) حُرمة الدِماءِ، والأموالِ، والأعراض	٤٦٣
٨٤) تجنُّب الأَذَى	٤٧١
٨٥) حقُّ الوالدَين والقُربى	٤٧٥
٨٦) حقُّ الجَار	٤٨١
٨٧) المُحبةُ للمسلمين	٤٨٥
٨٨) التعاطُف بين المُسلمين	٤٨٩
٨٩) الرَّحمةُ بعمومِ الخلق من الإنسانِ والحيوانِ وغيرهم	٤٩٣
٩٠) حقُّ الوصيَة	٤٩٧
من أحكامِ الوِلايات	
٩١) كراهةُ طَلَب الوِلاياتِ	٥٠٣
٩٢) حقُّ وُلاةِ الأمور	٥٠٩
٩٣) الحُدودُ والتَّعزيراتُ	٥١٣
من محاسنِ الأخلاق ومساوئها	
٩٤) الصَّبرُ والشُّكر	٥١٩
٩٥) الصِّدق	٥٢٥
٩٦) الحَياءُ	٥٣١
٩٧) حسنُ الكلامِ والمُعاملة	٥٣٧
٩٨) الإحسانُ في كلِّ شيء	٥٤٣
٩٩) ذمُّ الكِبرِ والتعاظُم	٥٤٩
١٠٠) ذمُّ الغَضَب	٥٥٧

قسمُ أبوابِ الأوامر والنواهي والرقائق

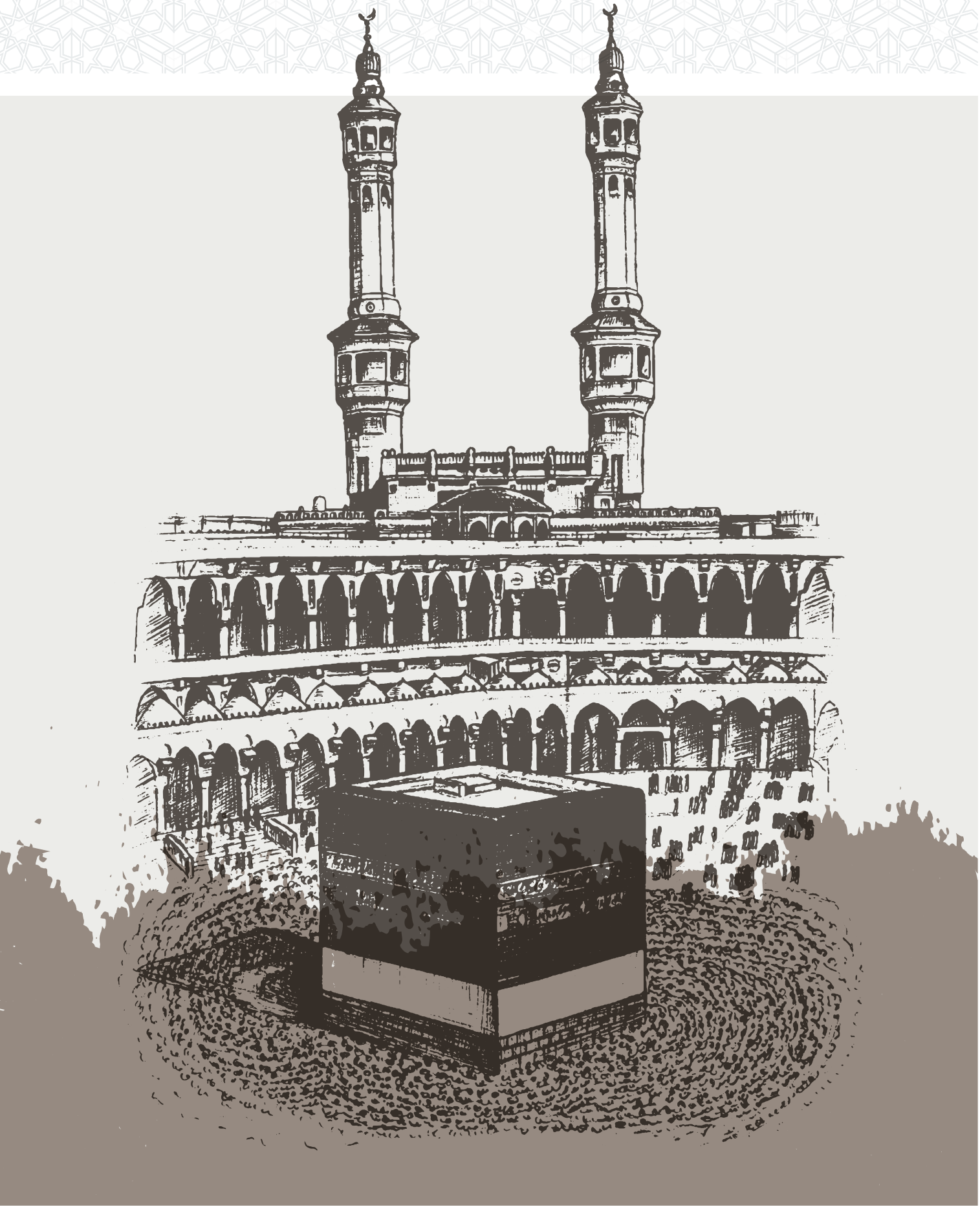
المُجَاهَدةُ والاستقامة	
١٠١) المُجَاهَدة	٥٦٥
١٠٢) لُزُومُ الاستقامة	٥٧١
١٠٣) المُحاسَبَة	٥٧٧
١٠٤) الوَرَع	٥٨٣
١٠٥) الزُّهْد	٥٨٩
بابُ العِلم	
١٠٦) مَنزِلَة الفِقْهِ في الدِّين	٥٩٥
١٠٧) فَضلُ العلمِ وأهلِه	٦٠١
١٠٨) أقسامُ النَّاسِ مع الوَحْي	٦٠٧
١٠٩) بَلاغُ الدِّين	٦١٣
١١٠) حِفظُ الحديثِ وبلاغُه	٦١٩
١١١) مَنزِلَة الاجتهادِ	٦٢٥
١١٢) العملُ بالسُّنة وتجنُّب المُحْدَثات	٦٢٩
بابُ النيَّة	
١١٣) الأعمالُ بالنيَّات	٦٣٥
ذِكرُ الله تعالى	
١١٤) فضل الذِّكر	٦٤١
١١٥) الإكثارُ من الذِّكر	٦٤٧
١١٦) سِيِّدُ الاستغفار	٦٥١

فضائلُ القرآنِ الكريم والسُّوَر والآيات	
١١٧) فضلُ القرآنِ الكريم وتعلُّمه وتعليمِه	٦٥٧
١١٨) فضلُ الفاتحة	٦٦١
١١٩) فضلُ آيةِ الكُرسيِّ	٦٦٧
١٢٠) فضلُ سورةِ الإخلاص	٦٧١
١٢١) فضلُ سورتَيِ المعوِّذتين	٦٧٥
١٢٢) فضلُ أهلِ القُرآن	٦٧٩
من أصولِ الواجبات و المستحَبَّات	
١٢٣) مَنزِلَة الوَلاية	٦٨٣
١٢٤) من أفضلِ الأعمال	٦٩١
١٢٥) من فَضائلِ الأعمالِ الجزء١	٦٩٧
١٢٦) من فَضائلِ الأعمالِ الجزء٢	٧٠٧
١٢٧) من فَضائلِ الأعمالِ الجزء٣	٧١٣
١٢٨) سَعةُ أبوابِ الخَير	٧١٩
١٢٩) من فضائلِ الأيَّام	٧٢٥
١٣٠) تقديمُ اليمين	٧٢٩
١٣١) الاستخارةُ	٧٣٣
الحَسَناتُ والسيئات	
١٣٢) البِرُّ والإثم	٧٣٩
١٣٣) حسابُ الحَسَناتِ والسَّيِّئات	٧٤٣
من أصول المحرَّمات والمكروهات:	
١٣٤) السَّبعُ الموبقات	٧٤٩
١٣٥) من المكروهاتِ	٧٥٩
١٣٦) التجاوزُ عن حديثِ النفس بغير عمل	٧٦٥

في سبيل الله	
١٣٧) الدعوةُ إلى الخيرِ	٧٦٩
١٣٨) فَضل الحِسْبة	٧٧٣
١٣٩) وجوبُ إنكارِ المُنْكَر	٧٧٧
١٤٠) ظُهورُ أهلِ الحَقِّ	٧٨٣
الرُّؤيا	
١٤١) جامعُ أَدَبِ الرُّؤيا	٧٨٧
الفِتَن	
١٤٢) كثرةُ الفِتَن	٧٩١
١٤٣) العِبادةُ في الفِتَن	٧٩٧
١٤٤) الصَّبرُ في الفِتَ	٨٠١
التوبةُ وحُسنُ الظَّنِ باللهِ تعالى	
١٤٥) فَضلُ التَّوبة	٨٠٥
١٤٦) من شُروطِ التَّوبة	٨١١
١٤٧) من مكفِّراتِ الذُّنوب	٨١٧
١٤٨) حِفظُ التَّوبة للحسناتِ السابقة	٨٢١
١٤٩) سَعةُ رَحمةِ الله تعالى	٨٢٥
١٥٠) تَعظيمُ الرَّجاءِ في اللهِ تعالى	٨٢٩

في كل حديث وباختصار: شرح علمي يبين المعاني، وهدايات عملية ترشد إلى الطريق.

إنه فقه واتباع.



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ:

١ «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،

٢ فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،

٣ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،

٤ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،

٥ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،

٦ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

آيات

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].
- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨].
- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٣- ١٠٤].
- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].
- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

الراوي

هو: أبو العبَّاس، عبدُ الله بنُ عبَّاسِ بنِ عبد المطَّلِب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، الْمَدَنيُّ، وُلد بشِعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاثِ سنين، وهو ﷺ حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وكان يُقال له: البَحر؛ لكثرة عِلمِه؛ فقد دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]، وهو من الصحابة الْمُكْثِرين من رواية الحديث، أسلم صغيرًا، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخِرِ عُمُره، وتُوفِّيَ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)[2].

خلاصة

أرسل النبيُّ ﷺ معاذًا إلى اليمن، فأخبره بما يدعو إليه الناس، فأوَّلُ ذلك التوحيد، فإن أطاعوا وأسلموا، أخبرهم بفرضية الصلاة، ثم أعلمهم بوجوب الزكاة.

ثم أرشد معاذًا إلى أن يجتنب كرائم أموالهم وخياره فلا يأخذها في الصدقة، وإنما يأخذ أوسط المال؛ لا الأفضل ولا الأردأ. كما حذَّره من الظلم؛ فإنَّ دعوة المظلوم لا تُرَدُّ.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، سالاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

أرسل النبيُّ ﷺ معاذًا إلى اليمن داعيًا وحاكمًا، قرابة سنة ١٠ هـ:

١ وأخبره أنه سيأتي جماعةً من اليهود أو النصارى ممن كان لهم كتاب التوراة أو الإنجيل، ليستعدَّ لهم لأنهم أهلُ عِلم في الجُملة[١].

٢ ثم أوصاه أن يبدأ بدعوتهم إلى الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولنبيِّه ﷺ بالرسالة؛ لأنهما أصلُ الدين الذي لا يصحُّ شيء من فروعه إلا بهما، فهم مطالَبون أوَّلًا بالجمع بينهما[٢]، فاليهود والنصارى لم يحققوا ما ينجِّيهم من شهادة التوحيد والإقرار بالرسالة، فهم أشركوا مع الله بعزير أو بعيسى، وكذبوا بدعوة الرسول ﷺ[٣].

٣ ثم أخبره ﷺ بأنهم إن انقادوا بما أمرتَهم بأن تلفَّظوا بالشهادتين، وأقرُّوا بتوحيد الله ورسالة النبيِّ ﷺ، فأَعلِمْهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة، وعرِّفهم كيفيَّتها.

وقد دلَّ قوله ﷺ: «فإن هم أطاعوا لك بذلك» على الانقياد والفعل لا مجرد الإقرار بالوجوب والفرضية، فلا بد أن يُقِرُّوا ويؤدوا الصلاة في أوقاتها[٤].

٤ ثم تدرَّج بعد الإقرار بوجوب الصلاة وأدائها إلى الزكاة، فأمره أن يُعْلِمَهم أن الله فَرَضَ على أغنيائهم زكاةً، وهو قدرٌ يسير معلوم يُجمَع من أموالهم، ويفرَّق على فقرائهم.

٥ ثم أمر ﷺ معاذًا إذا أطاعه القوم وبذلوا له المال ليأخذ منه قدرَ الزكاة بأن يتوقى إخراج **نفائس الأموال التي يُحبها أصحابها وتتعلق نفوسهم بها**؛ كأن تكون له شاةٌ يحبها ويهتم بها لغزارة لبنها أو غير ذلك، فلا يجوز أخذها في الصدقة؛ رفقًا بأصحاب الأموال، فلم يجعل اللهُ مواساة الفقراء على حساب الإجحاف بالأغنياء، لكن إن طابت نفسُ ربِّ المال بشيء من كرائم أمواله، جاز أخذها منه.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٥٨).

(٢) «كشف اللثام شرح عمدة الأحكام» للسفارينيِّ (٣/ ٤٠٠).

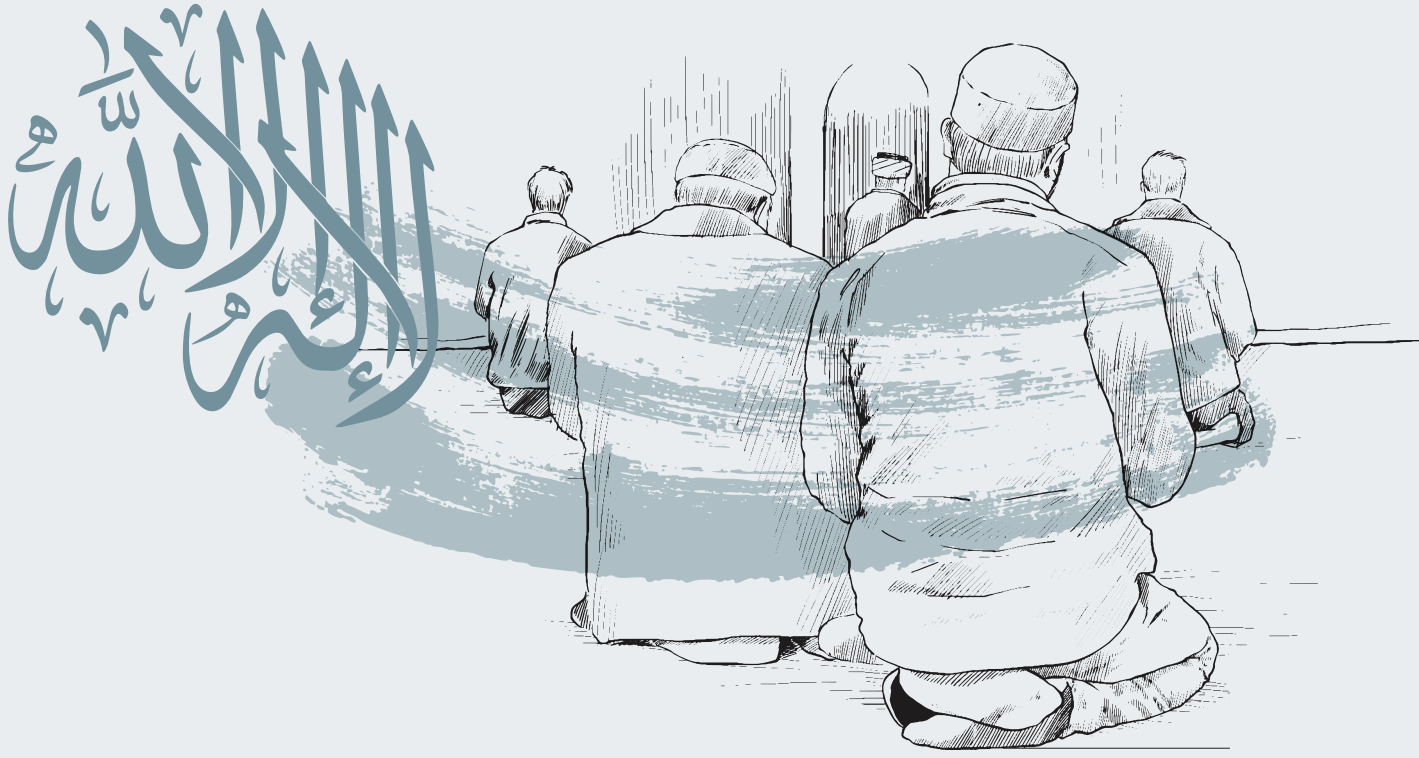
(٣) «إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض» (١/ ٢٣٩).

(٤) انظر: «العدة في شرح العمدة لابن العطار» (٢/ ٧٩٨).

وقد قال عمر بن الخطَّاب لرجلٍ أرسله لجمع الصدقات: «ولا تأخُذِ الأكولةَ، ولا الرُّبَّى - التي تُربى في البيت ولا تُترك تَطلب رزقها في الأرض لنفاستها عند أصحابها -، ولا الماخِضَ - الحامل على وشك الولادة -، ولا فحْلَ الغَنَمِ»[1].

٦ ثم حذَّره ﷺ من عاقبة الظلم، في أخذ الصدقات أو في سائر أمور الولاية والحكم، ومراده بتجنُّب دعوة المظلوم: تَجَنُّب سببه؛ لأن الظلم باعثٌ إلى الدعاء على الظالم.

ودعوة المظلوم مسموعةٌ مستجابة لا تُرَدُّ، تُفتح لها أبواب السموات السبع، وليس بينها وبين إجابتها حجابٌ[2]، وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»[3].



(١) مالك (٢/ ٣٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٣٩٥). وصحَّحه النووي في "المجموع" (٥/ ٤٢٧)، وجوَّد إسناده ابن كثير في "إرشاد الفقيه" (١/ ٢٤٨).

(٢) «فتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين لاشين» (١/ ٧٠).

(٣) الترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، عن أبي هريرة، وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» (٥/ ١٥٢)

استنباط

١ بعث النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل إلى اليمن وهو في العشرينات من عمره، فتحمَّل المسؤولية والغربة عن أهلِه وديارِه في سبيل الله تعالى وطاعة لرسوله ﷺ، فكم نتحمل نحن لأجل ذلك؟

٢ كان رسولُ الله ﷺ يحمِّل أصحابه المسؤوليات الكبار وهم في أوائل شبابهم، وهم لم يكونوا يتهربون منها، فعلى الأب والمعلم والمربي ونحوهم أن يعوّدوا من تحتهم على المسؤولية، وألا يستصغروهم، وعلى أولئك أن يكونوا أهلًا لذلك.



٣ خذ ما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ ولو كان ناقله واحدًا، فقد أرسل النبي ﷺ معاذًا بالأمور العظام من العقائد والفقه، وبالسُّلطة حتى في أموال الناس، وكل ذلك دالٌّ على اعتبار خبر الآحاد.

٤ تعرَّف على طبيعة من تقابلهم، فقد أخبر النبيُّ ﷺ معاذًا بأنه سيأتي أهل الكتاب، ليراعي ما يجب في دعوتهم[1]، من الأولويات الأدلة والأساليب وغيرها، ولكونهم أهل علم وجدل، فاحرص على جمع المعلومات المؤثرة قبل أي مشروع تقوم به.

٥ اهتم النبيُّ ﷺ بإرشاد عُمَّاله ووعظهم، فهو لم يرسل معاذًا حتى بين له الواقع، ورتّب له الأعمال، وأمره بالعدل، وحذَّره من الظلم، مع كمال معاذ ﷺ في دينه وعلمِه، فلا تقصِّر في وصية من معك، وعلى الموصَّى ألا يتكبر عن ذلك.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٥٨).

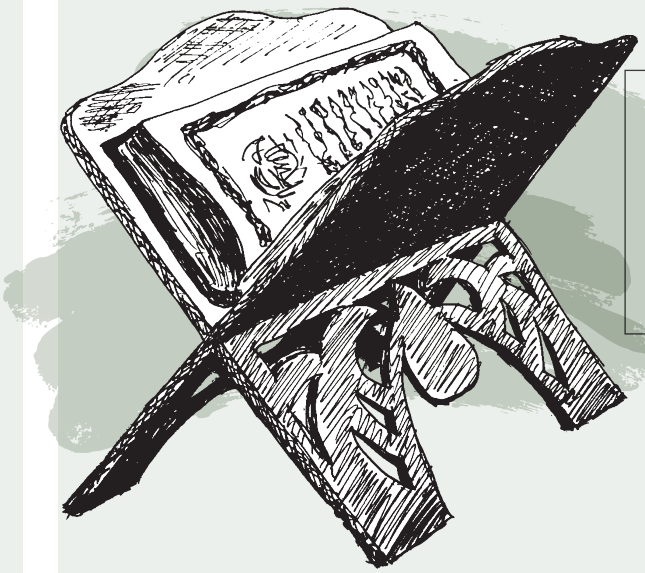
٦ اهتم النبيُّ ﷺ بالأولويات، وتدرج بها، فلم يأمر معاذًا بالبدء بذنوب لا يخلو منها الناس في سلوكياتهم، مع أهمية معالجتها، بل بدأ بأصل الدين ومفتاح الإيمان وهو الشهادتان، ثم الصلاة، ثم الزكاة، وهكذا علينا في تربيتنا ودعوتنا وتعليمنا، بل في عامة مشاريعنا: أن نبدأ بالأهمِّ فالمهم، قالت عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نزل الحلالُ والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا»[1].

٧ الإيمان والصلاة والزكاة: هي أصول الإيمان العظام التي تكرر اقترانها في القرآن والسنة كثيرًا، وفيها من الأجر والتأثير الإيماني ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فحتى لو كنتَ ومن معك قائمًا بأصلها: فاحرص على كمالها.

٨ حذَّر النبي ﷺ معاذًا أن يأخذ الصدقة مما تعلقت به النفوس من كرائم المال، بل أمره بالعدل، وفي ذلك من العدل ومراعاة الشعور وفهم الناس ما على كل داعية وأب ومربٍّ ومسؤول أن يعمل بمثله، فيراعيه في أمره ونهيه.

٩ احرص أن تنام وليس هناك مظلوم لم ينم حزنًا مما قلته أو فعلته، سواء كان زوجًا أو ابنًا أو طالبًا أو عاملًا أو بائعًا أو قائد مركبة في الطريق، ولا تستسهل الظلم مع من تراه دونك، ولو كان من أهل المعاصي، وقد خوَّف النبيُّ ﷺ معاذًا من الظلم غاية التخويف، حتى وهو يرسله إلى كفَّار من أهل الكتاب، وقد يؤمن بعضهم وقد لا يؤمن.

وتنبّه إلى أن الظلم كما يكون في الدماء والأموال، فقد يكون بالكلمة التي لا تلقي لها بالًا؛ فتجرح قلبًا، أو تهدم بيتًا، أو تفسد صداقة، أو تعيق نجاحًا.



قال الشاعر:

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... فالظُّلْمُ آخِرُه يَأْتِيكَ بالنَّدَمِ

نامَتْ عُيُونُكَ والمظلومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

(١) البخاريُّ (٤٩٩٣).



عَن مُعاذِ بنِ جبلٍ ﷺ قال:

١ كنتُ رَدِيفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ،

٢ فقال: «يا معاذُ!، أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟ وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟»

٣ قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ.

٤ قال: «فإنَّ حقَّ الله على العبادِ أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا.

٥ وحقَّ العباد على الله أن لا يُعذِّب مَن لا يُشرك به شيئًا».

٦ قلتُ: يا رسول الله، أفلا أُبشِّر الناس؟ قال: «لا تُبَشِّرْهم فيتَّكلوا»

متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

آيـــات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]

الرّاوي

هو: أبو عبد الرحمن، معاذُ بنُ جبلِ بنِ عمرٍو الأنصاريُّ، أَسلَم وعمره ١٨ سنةً، وشَهِد بيعة العقبة والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وكان أَعلَم الصحابة بالحلال والحرام، جَمَع القرآن في حياة النبيِّ ﷺ. بَعَثه النبيُّ ﷺ أميرًا على اليمن، توفِّي ﷺ في طاعون عَمْوَاسَ في خلافة عمرَ سنة (١٨هـ)، وعمره ٣٤ أو ٣٨ سنةً[1].

خلاصة

يُخبر النبيُّ ﷺ أنَّ لله حقًّا على عباده، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما أنَّه سبحانه تعهد بألَّا يعذب مَن لا يشرك به.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٥/ ٢٤٣١)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٤٠٢)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ١٨٧).

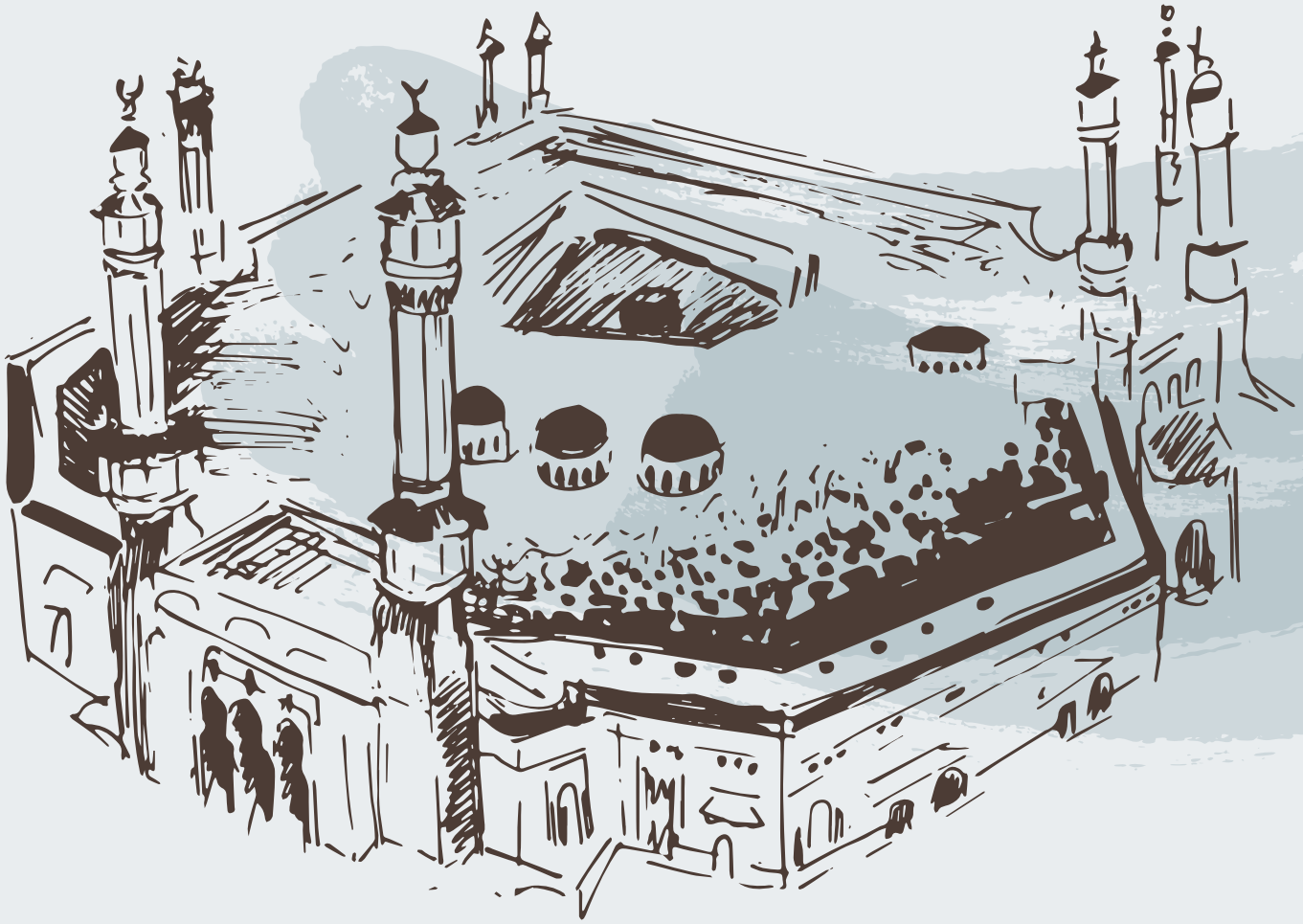
فقـــه

١ كان معاذٌ **راكبًا خلفَ النبيِّ** ﷺ على حمارٍ :

٢ فأراد ﷺ أن يثير تعلمه فسأله : هل تَعرِف ما الذي يستحقُّه على عباده مما جَعَله واجبًا عليهم ؟ وما حقُّ العباد الذي أَوجَبه الله على نفسه؟

٣ فأجاب معاذٌ رضي الله عنه بـ«الله ورسوله أعلم» ؛ أي : أنا لا أدري . .

وهذه العبارة تقال في أمور الشرع ، أما إذا سُئل الإنسان في أمرٍ من أمور الدنيا أو أمور الغيب ونحوها مما لا يعلمه رسول الله ﷺ فيقول : "الله أعلم" .



٤ فبيَّن النبيُّ ﷺ الجوابَ؛ فذكر أنَّ حقَّ اللهِ -جلَّ وعلا- على عباده أن يتوجَّهوا بالعبادة إليه، والعبادة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه اللّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة[١]، وهي حالة من الذل والطاعة وتوجه القلب للمعبود، ولا بد مع عبادة الله[٢]: ألا يُشركوا معه في العبادة أيَّ أحد -ولو كان نبيًا أو ملكًا أو صالحًا-، ولا بأيِّ شرك -ولو قل، ولو بمجرد اللفظ-، فهذا حق الله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، .

٥ وحقُّ العباد على الله -وهو حقٌّ أوجبه الله تعالى كرمًا منه على نفسه ولم يكن واجبًا عليه[٣]-؛ أنهم إن عبدوه ولم يشركوا به: ألا يُدخِلهم النار فـ«مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»[٤]: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومعنى ذلك أنَّ المسلم المُوَحِّدَ لا يُخلَّد في النار أبدًا؛ فإن كانت حسناته أغلب دخل الجنة وحَرُم على النار، وإن كان من أهل المعاصي وسيئاته أغلب فأمره إلى الله؛ إن شاء عذَّبه ما شاء ثم صرفه إلى الجنة، وإن شاء غفر له وأدخله الجنة. وأما من مات على الشرك، فإنه لا يدخل الجنَّة، بل يُخلَّد في النار أَبَد الآباد، من غير انقطاع عذاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨][٥].

٦ فلمَّا سمع معاذٌ تلك البشرى من النبيِّ ﷺ أحبَّ أن يُبَشِّر الناس بذلك، فاستشار رسول الله ﷺ، فأشار عليه ﷺ ألا يفعل ذلك؛ لأنَّ بعضهم ربما إذا علِمَ ذلك اعتمد بقلبه على توحيده، وتكاسل عن الطاعات وتركها.

وجاء في الروايات الأخرى ما يشير إلى أن معاذًا فهم أن النهيَ وصية نبوية لمصلحة عدم الاتكال، وأن ذلك لا يمنع من التحديث لمصلحة العلم ونحوه، ولهذا أخبر معاذٌ بها عند موته تأثمًا أن يكتم العلم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩، ١٥٠).

(٢) «فتح الباري لابن حجر» (١١/ ٣٣٩).

(٣) «الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري» للكورانيّ (٥/ ٤٣٨).

(٤) مسلم (٩٣)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبيِّ» (١/ ٢٩٠)

اتّبعني

١ لا تتكبر عن المركب غير الفاخر، وراقب نفسك حين تنفر من الجلوس بجانب طبقات الناس، أو الأكل معهم، مما قد يشير لكبر ظاهر أو خفي، فقد ركب النبيُّ ﷺ على حمارٍ، وركب معاذٌ خلفه، وهو أسوتنا في التواضع، والانبساط مع الناس.

٢ لا تمتنع من الانتفاع بما سخره الله تعالى من الدواب، واستعمل ذلك باعتدال، فقد ركب النبي ﷺ هو ومعاذ على دابة واحدة ، وانتفع من وقتك عليها في التعلم والإفادة في الفرص المناسبة، كمن يعلم ولده وهو خارج لنزهة برية، أو في طريقه لمدرسته أو جامعته؛ لاسيما هذا الزمان الذي قد يطول فيه الطريق بالزحام فتهدر فيه أوقات كثيرة.

٣ اتبع النبيُّ ﷺ في تعليم معاذٍ أسلوب السؤال؛ ليستحثه على إعمال العقل، وليثبت في قلبه الجوابَ بعد أن عجز عنه، فينبغي على الداعية أن يختار من الوسائل ما يستثير الهِمَم، وينشط العقول، ويجذب الأسماع والأفهام.

٤ ليس عيبًا أن يجهل الإنسان شيئًا من أمر الدنيا أو الدين، فما ضرَّ معاذٌ - وهو أعلم الناس بالحلال والحرام - أن يقول لما لا يعلم: «الله أعلم». فتجنب أن تفتي في الدين بغير علم لكبر أو حياء: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨- ١٦٩]، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦- ١١٧].



٥ كلُّ حق تطلبه من الناس أو يطلبه الناس منك: فهناك حقٌّ أعظم منه، وهو حق ربك عليك، وهو حقٌّ أزيد من عددِ كلِّ نعمة منه عليك، فتذكره دائمًا، ولتكن حياتك دائرة عليه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

٦ الله يريد منك ألا تشرك به شيئًا، أي شيء، فكما تجتنب الشرك الأكبر من عبادة الأصنام، والاستغاثة بالنجوم، والتوسل بكلمات للقوى الخفية، فتجنب الشرك الأصغر، كالحلف بالمخلوقين ولو كان النبي ﷺ، ووضع الخرز التي تدفع العين -زعموا-، أو الشرك بإرادة الناس بتحسين الصلاة ونحوها، وفي الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

٧ راقب قلبك، وقاوم كلَّ شرك يغزوه، وأبشر بالخير، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا [أي من الذنوب]، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»[2].

٨ أحاديث الرُّخَص لا تُشاع في عُموم الناس؛ لئلَّا يَقصُر فَهْمُهم عن المراد بها، وقد سَمِعها معاذٌ فلم يَزدَد إلا اجتهادًا في العمل وخشية لله عزَّ وجلَّ، فأما من لم يبلغ منزلته، فلا يؤمَن أن يُقصِّر اتِّكالًا على ما يفهمه من الخبر[3]. وقريبٌ من هذا قولُ ابن مسعود ﷺ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[4]، وعليه فبعض العلوم تناسب بعض الناس دون بعض كما قال علي رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»[5].

---

(١) مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠).

(٣) «فتح الباري لابن حجر» (١١/ ٣٤٠).

(٤) انظر: مسلم بعد حديث رقم (٥).

(٥) البخاري (١٢٧).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

١ «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»،

٢ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟

٣ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» البخاري[1]

(١) رقم (٧٢٨٠).

آيات

- ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].
- ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].
- ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].
- ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ جميع أمته يدخلون الجنة بفضل الله تعالى ورحمته، إلا من أبى دخولها وامتنع عنها، وهم الذين عَصَوْا أمره وخالفوا سُنَّته.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ جميع أمَّته يدخلون الجنة إلا من رفض ذلك.

والمراد بالأمة هنا أُمَّةُ الدعوة، ممن بلغته دعوته من الإنس والجِنِّ، فكُلُّ من سَمِع بالنبيِّ ﷺ ووصلته آياتُ الله وشرعُه فهو من أُمَّتِه التي أُرْسِل ﷺ إليها.

٢ فتعَجَّب الصحابةُ لذلك: كيف يرفض عاقلٌ دخول الجنة التي فيها من أنواع النعيم ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟، فسؤالهم استنكاريٌّ تعجبيٌّ.



٣ ففَصَّل لهم النبيُّ ﷺ حقيقة ذلك، وهو أنَّ من اتبعه ﷺ وانقاد لأوامره واجتنب نواهيه، فقد فاز بدخول الجنة والابتعاد عن النار. أما من عصاه وخالف أمره وضادَّ سُنَّته وصدَّ عنها، فقد امتنع بسوء فعله واعتقاده عن دخول الجنة.

وهذا الموصوف بالإباء عن دخول الجنة إما أن يكون من الكُفَّار الذين أعرضوا عن الإسلام أصلًا، فهذا لا يدخل الجنة أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وإما أن يكون من المسلمين الذين اتبعوا الشهوات، وتركوا المأمورات، فسلكوا مسالك الفاسقين، أو ابتدعوا دينًا لم يأذن به الله: فهؤلاء لا يُخَلَّدون في النار؛ إذ لا يُخَلَّد في النار مسلمٌ، فيكون المرادُ أنهم لا يدخلون الجنَّة مع السابقين الأولين، وإنما بعدَ سبق عذاب أو مناقشة وعتاب.

اتّباعي

١ روى أبو هريرة ﷺ من الأحاديث ما لم يروه غيره؛ لحرصه على حديث رسول الله ﷺ وتفرُّغه له، حتى إنَّه كان يبيت مع أهل الصُفَّة في المسجد، يأكل من طعامهم ويشرب من شرابهم، لا يشغله عن رسول الله ﷺ شاغل. وهو من عظيم اجتهاده وعلوِّ هِمَّته، فينبغي على من أراد الهِمَّة في طلب العلم أو الاجتهاد في أمرٍ من الأمور أن يتمثَّل بفعل أبي هريرة وصبره وملازمته لرسول الله ﷺ.

٢ صدَّر النبيُّ ﷺ كلامَه بعبارةٍ مجملة تحتاج إلى توضيح وتفصيل، وذلك لتتعلق النفوس إلى استماعه وحفظه، ولهذا بادر الصحابة إلى السؤال عن توضيح ذلك الإبهام. فينبغي على كلِّ مُعَلِّمٍ أو مُرَبٍّ أو داعيةٍ أن يحرص على استعمال الأساليب التي تجلب الانتباه وتساعد على التركيز والحفظ.

٣ دخول الجنَّةِ فوزٌ عظيمٌ، يحتاج إلى أمرٍ هين، وهو اتباع النبيِّ ﷺ وطاعته، فمَن فرَّط في تلك الغنيمة وأدركه الخسران المبين، فهو المُضَيِّع الرافض.

٤ ما أوضح هذا الطريق وما أيسره، وما أبعده عن التكلف والتعنت في العبادة، فهي الطاعة لله تعالى بطاعة رسوله ﷺ، قال عبد اللّه بنُ مسعود: «إنّا نقتدي ولا نَبتَدي، ونتَّبع ولا نَبتَدع، ولن نَضِلَّ ما تمسَّكْنا بالأثر»[1].

قال الشاعر:

إِنْ لَمْ تَكُنْ لِمُحَمَّدٍ تَبَعًا فَقُلْ لَمْ أَرْشُدِ
دُنْيَاكَ مَاذَا بَعْدَهَا مَا دُمْتَ غَيْرَ مُخَلَّدِ؟
هَلْ هَذِهِ دَارُ البَقَاءِ أَوِ النَّعِيمِ؟ أَلا ازْهَدِ
اصْبِرْ عَلَى أَهْوَالِهَا وَاجْهَدْ لِتَنْعَمَ فِي الغَدِ



(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٤/ ١١٥).



عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ:

١ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،

٢ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ،

٣ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ،

٤ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،

٥ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ،

٦ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ،

٧ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ،

٨ وَتَصُومَ رَمَضَانَ،

٩ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»،

١٠ قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ،

١١ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ،

١٢ وَمَلَائِكَتِهِ،

آيـــات

- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
- ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].
- ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].
- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
- ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].



١٣ وَكُتُبِهِ،

١٤ وَرُسُلِهِ،

١٥ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

١٦ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ،

١٧ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»،

١٨ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»

١٩ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا،

٢٠ وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»،

٢١ قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». مسلم[1].

(١) برقم: (٨).

الراوي

هو: أبو حفصٍ، الفاروق، عمرُ بنُ الخطَّاب القرشيُّ العَدويُّ ﷺ، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحدُ العشَرة المبشَّرين بالجنَّة، كان سفيرَ قريشٍ قبل الإسلام؛ إذا وقع بينهم حربٌ بعثوه للصلح والحُكم، أسلم في السنة السادسة من البعثة، وكان إسلامه عزًّا للإسلام والمسلمين، وشهد المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وتولَّى الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصدِّيق ﷺ سنة (١٣هـ)، واشتهر بالعدل والإنصاف مع الشدة والجرأة في الحق، وفي عهده فُتحت أكثر البلاد مثل العراق والشام ومصر وغيرها، استُشهد سنة (٢٣هـ)، ودُفن في حجرة عائشة ﷺ، بجوار النبيّ ﷺ وأبي بكر الصدِّيق ﷺ[1].

خلاصة

هذا الحديث عليه مدار الدين كله، بيَّن فيه ﷺ أهمَّ مراتب الدين، وهي الإسلام والإيمان والإحسان، كما ذكر بعضًا من علامات يوم القيامة.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (١/ ٣٨)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٤/ ١٣٧)، «الإصابة لابن حجر» (٤/ ٤٨٤).

هذا الحديث من أعظم ما بيَّن أو يُبيِّن مراتب الدين، ويجمع أصولها ولهذا قال القاضي عياض: «هذا حديث عظيم قد اشتَمَل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلومُ الشريعة كلُّها راجعة إليه، ومتشعِّبة منه»[1].

يروي عمر ﷺ أنهم:

١ بينما هم جالسون عند رسول الله ﷺ إذ طلع عليهم رجلٌ عجيب الهيئة؛ فهو شابٌّ شديد سواد الشعر، وليس من أصحاب النبيِّ ﷺ المعروفين، ولا يبدو أنه مسافر إذ لا تبدو عليه أمارات السفر من شعث الرأس وغبرة الوجه والثياب.

٢ ثم إن هذا الرجل اقتحم الحلقة حتى جلس أمام النبيِّ ﷺ وألصق ركبتيه بركبتي النبيِّ ﷺ ووضع كفَّيه على فخذي نفسه، متهيئًا مستعدًا لطلب العلم، متواضعًا للنبيِّ ﷺ في جلسته تلك.

٣ ثم قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. وإنما قال: يا محمد؛ ليشتبه عليهم أنه من الأعراب؛ فإنَّهم من كانوا ينادون النبيَّ ﷺ باسمه المجرد؛ إذ لم يكن لديهم من العلم والأدب ما عند الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين سمعوا أمر الله تعالى وامتثلوه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ أي: لا تنادوه كما ينادي بعضكم على صاحبه وأخيه؛ فلا تقولوا: يا محمد، وإنما قولوا: يا رسول الله[2].

٤ فأجابه النبيُّ ﷺ عن الإسلام، وذكر له أنَّه يقوم على الخمسة أركان المعروفة، وأولها: شهادة أن لا إله إلا الله؛ كلمة التوحيد التي أرسل الله بها جميع الأنبياء والمرسلين، يجب فيها النطقُ باللسان، والاعتقاد بالقلب، والعمل بمقتضاها بالجوارح؛ فلا يعبد إلا الله، ولا يتوسل إلا له، ولا يدعو غيره، ولا يخاف سواه خوفَ السِّرِّ، ولا يشرك به في المحبة والرجاء والنذر وسائر العبادات، وأن يُوقن أنه الضارُّ النافعُ، لا يملك أحدٌ غيره نفعَ عبدٍ أو ضرَّه إلا بإذنه، فهو المعبود الحقُّ وما سواه باطل.

٥ ومن مقتضى كلمة التوحيد تصديق رسوله ﷺ فيما أتى به، والإيمان أنَّه مُرسلٌ من ربه، مُصَدَّقٌ فيما جاء به من عند الله، ويستلزم ذلك الإيمان بما شرع والامتثال بما أمر واجتناب ما نهى، وتعظيمه وتوقيره ونصرته والدفاع عنه والجهاد معه.

---

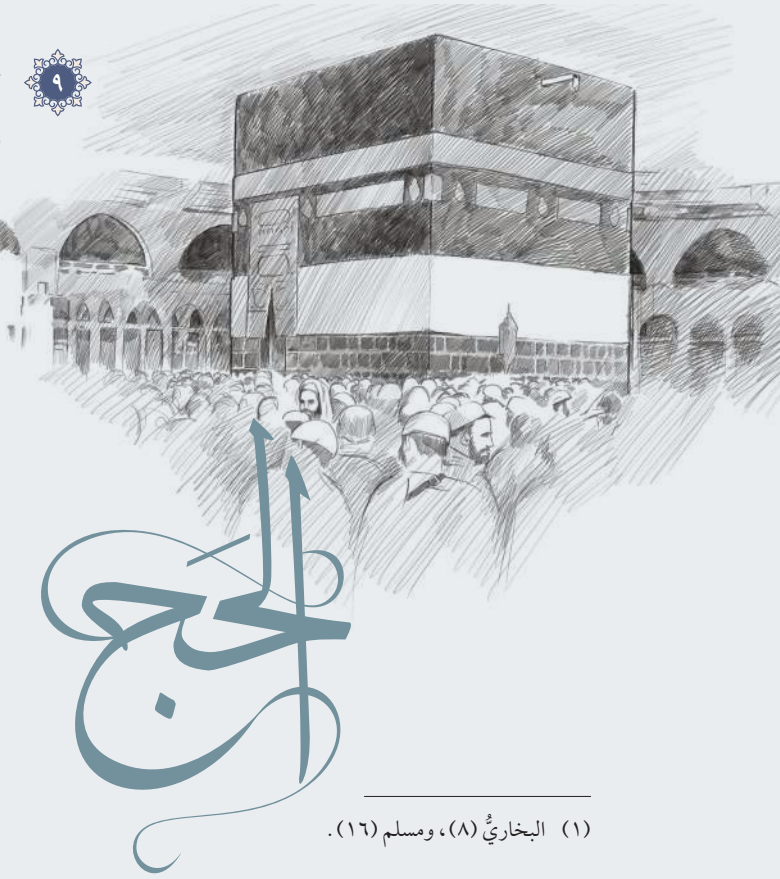
(١) «إكمال المُعلم» للقاضي عياض (١/ ٢٠٤).

(٢) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (١/ ٣٤٧).

٦ الركن الثاني من أركان الإسلام: إقامةُ الصلاة، وهو إقامتها على الوجه اللائق بها، كما ينبغي أن تُؤدى، بعد استيفاء الشروط وأداء الأركان، فيخشع في صلاته ويستحضر عظمة الله سبحانه فيها، ولهذا لم يقل: «وتؤدوا الصلاة».

٧ والركن الثالث: أداء الزكاة، وهي ما يجب على الإنسان في ماله الذي رزقه الله، على التفصيل المشروع الذي بيَّنه الشرع الحنيف. فيُخرج الإنسانَ زكاتَه طيبة بها نفسه، مؤمنًا بوجوبها عليه، محتسبًا الأجر والثواب عند الله، لا ينتقي أردأ ماله ليخرجه للزكاة، بل يؤثر رضا الله وثوابه.

٨ والركن الرابع من أركان الإسلام هو الصيام، بالإمساك عن المفطرات من الطعام والشراب والجماع في شهر رمضان، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، كما ورد تفصيل ذلك في كتب الفقه، فيصوم الإنسان مؤمنًا محتسبًا طائعًا غير مُكْرَهٍ ولا متأفف.



٩ ثم الركن الخامس: حجُّ بيتِ الله الحرام في مكة، وما يتبعها من مناسك وعبادات، بأحكام مخصوصة، وهي تجب مرة في العمر بشرط الاستطاعة البدنية والمالية.

والملحوظ أنَّه جمع في تعريف الإسلام بين أركانه الخمسة التي بُني عليها، كما في حديث عبد الله بن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[1].

وليس معنى هذا أن الإسلام ينحصر في تلك العبادات فحسب، بل هي أركانه التي لا يقوم بدونها، وسائر العبادات من تتمات ذلك البناء التي يؤثر فقدها في تشويه البناء مع بقائه، بخلاف الأركان التي إن فُقدت انهدم البناءُ أصلًا.

(١) البخاريُّ (٨)، ومسلم (١٦).

١٠ فلمَّا انتهى النبيُّ ﷺ من جوابه قال له الرجل: صدقتَ، فتعجَّب الصحابة كيف يسأله عن شيء مستفهمًا عنه ثم يُصَدِّقه عليه؛ فإن المُصَدِّق من شأنه أن يكون عالمًا بما قيل، لا جاهلًا يسأل عنه.

١١ ثم سأله عن الإيمان، وهي المرتبة الثانية من مراتب الدين بعد الإسلام، فقال ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله؛ أي: تؤمن به ربًّا خالقًا رازقًا مالكًا مدبِّرًا، وتؤمن به إلهًا معبودًا مُطاعًا، وتؤمن بأنَّ له الأسماء الحسنى والصفات العُليا.

١٢ والإيمان بالملائكة: أن تؤمن بوجودهم، وأنَّهم مخلوقون من النور، وأنَّهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وتؤمن بما ذكر الله منهم بأسمائهم وأعمالهم؛ فجبريل أمين الوحي وهو سيِّد الملائكة، وميكائيل الموكل بالمطر والنبات، وإسرافيل المُوَكَّل بالنفخ في الصور، ومالك خازن النار، ونحو ذلك.

١٣ والإيمان بالكتب: الإيمان بأنها منزلة من عند الله تعالى، وذلك يقتضي تصديق ما فيها والعمل بما ثبت من أحكامها، إلا أنَّ القرآن جاء ناسخًا لسائر الشرائع قبله، كما أنَّ تلك الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل قد تعرضت للتحريف والتبديل.

١٤ والإيمان بالرسل: تصديقُهم بما أَتَوا به، وأنَّ الله قد أوحى إليهم أَمْرَه، وأنهم خير خلق الله تعالى، نؤمن بهم جميعًا، مَن جاء ذكره في الكتاب والسُّنة وعَلِمنا خبره ومَن لم نعلم عنه شيئًا، ولا نُفَرِّق بين أحدٍ منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

١٥ والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث والحساب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والشفاعة وحوض الكوثر، وسائر ما صحَّت الأخبار به.

١٦ والإيمان بالقَدَر: أن نؤمن بأن الله عزَّ وجل عَلِم أفعال العباد وما يجري لهم، وأنه سبحانه كتب ذلك عنده في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، وأن أعمال العباد تجري وفق ما سبق في علم الله تعالى وكتابته، وأنَّ أفعال العبادِ جميعًا مخلوقةٌ لله تعالى؛ الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان[1].

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٠٣).

١٧ ثم سأله عن الإحسان، وهي المرتبة الثالثة من مراتب الدين، فأخبره أنَّ الإحسانَ أن يعبدَ الإنسانُ ربَّه على أتمِّ صورةٍ كأنَّه يرى ربَّه أمامه، فإذا لم يستطع الإنسانُ أن يصل لتلك المرتبة من المراقبة والخشية، فدونها أن يستحضر مراقبة الله تعالى، ويعلم أنه يراه. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠].

ومراتب الدين كلها متداخلة؛ فالإسلامُ أعمُّ من الإيمان والإحسان، وهما داخلان فيه، والإيمان أعمُّ من الإحسان، فمن خرج عن دائرة الإيمان لم يزل مسلمًا، ومن خرج عن مرتبة الإحسان لم يزل في مرتبة الإيمان. قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

١٨ ثم سأله السائلُ عن الساعة؛ متى تقوم؟ فقال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: ليس علمي فيها أكثر من علمك؛ فإنَّه لا يعلم ميعادها إلا الله جل شأنه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

١٩ فاستعاض عن هذا السؤال بأن يسأله عن **علاماتها**، فأجابه ﷺ بأن من علاماتها أن تَلِد الجاريةُ **سيدتَها**، وهو أن يكثر الرقيق حتى تلد الأمةُ لسيِّدها بنتًا، فتكون البنتُ حُرَّةً سيِّدَةً، وأُمُّها أَمَة. وقيل: بل معناه أن الإماء تلد الملوك، وقيل: تلد العجمُ العربَ، والعربُ سادةُ الناس وأشرافهم[1].

٢٠ ومن علاماتها أيضًا أن يصير الفقراء الذين كانوا يمشون حُفاةً لا نعال لهم، عُرَاةً لا يجدون ما يستر ثيابهم، فقراء لا يجدون من يعولهم، من رُعاة الأغنام من الأعراب والبدو - أغنياءَ مُوسرين، حتى إنَّهم يتطاولون في البنيان. ولعلَّ ذلك يشير إلى حديث: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة»[2]، فقد أُسندت الأمور إلى غير أهلها حتى صار الأعراب الجهلة الجفاة رؤوسًا في أقوامهم، من أصحاب الثروة والجاه[3].

٢١ ثم انطلق الرجل، فمكث عمر فترةً يسيرةً، ثم قال له ﷺ: أتدري من هذا الرجل؟ فقال عمر: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: هذا جبريل، جاءكم يعلمكم دينكم.

وقد أعطى اللهُ سبحانه الملائكةَ القدرةَ على التشكُّل في صورة الآدميين وغيرهم، وقد كان جبريل عليه السلام يأتي النبيَّ ﷺ مرارًا في صورة دحية الكلبي الصحابيِّ رضي الله عنه.

---

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٣٦ - ١٣٧).

(٢) البخاري، برقم: (٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

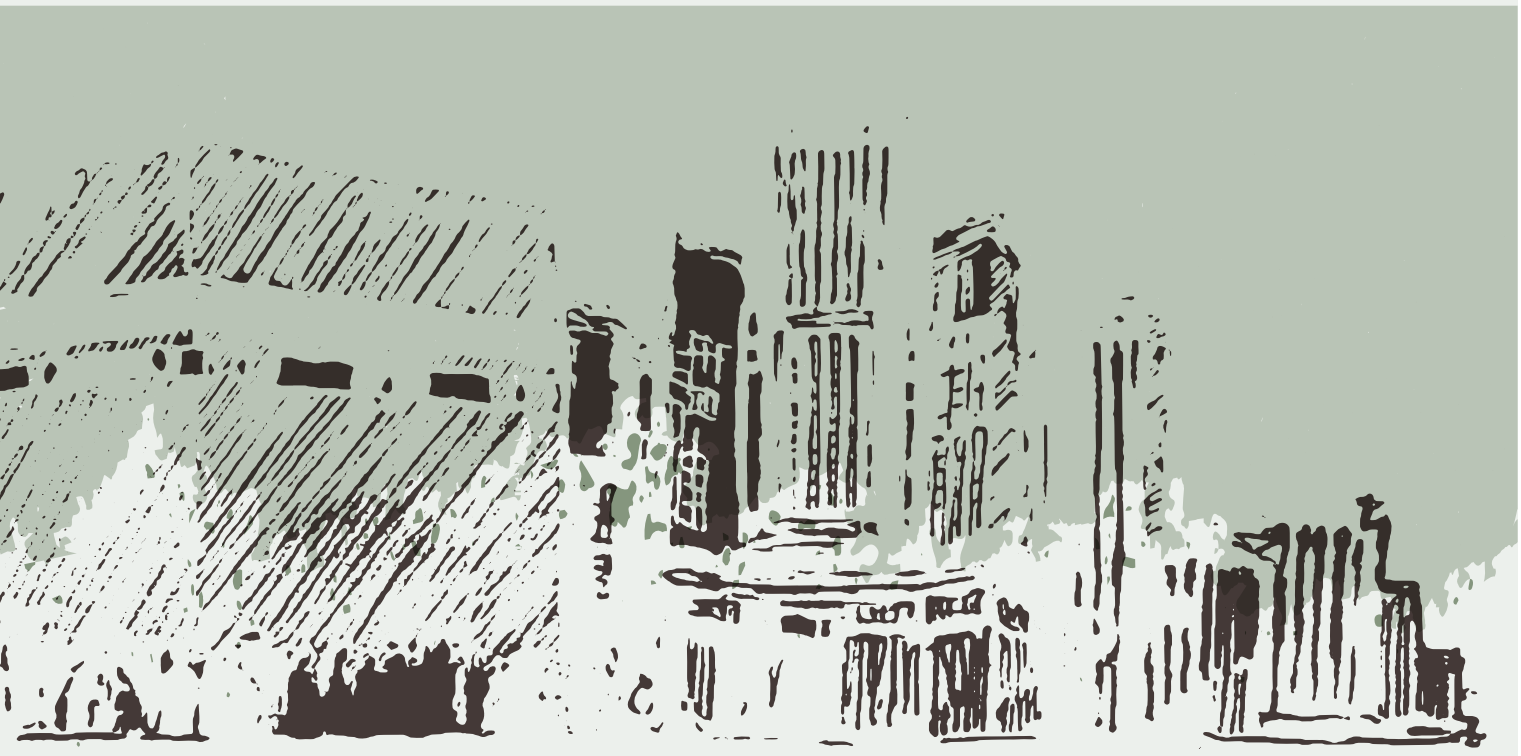
(٣) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٣٩).

التأمل

١ لمَّا دخل جبريل عليه السلام على النبيِّ ﷺ جلس إليه مجلس طالب العلم المُنصت المستعدِّ لقبول ما يقال من العلم، دون غرورٍ بمنزلته وفضله، وهو أمين الوحي وروح القدس. وهو أدب لكل من يسأل عالمًا أن يُحسن الأدب في الجلوس إليه، ولا يسأله بهيئة المتكبر المستغني، كالمتكئ بطريقة لا تليق، أو نبرة لا تليق.

٢ أركان الإسلام من أولى المسائل التي ينبغي أن يعتني بها المسلم في خططه السنوية واليومية، وأن يحاسب نفسه عليها، وأن يكمل كل واحدة منها بإحسان أدائها والزيادة بالمستحبات من جنسها: فينظر في قوة شهادته لله تعالى، ويكملها بكثرة الذكر، ويحسن فرائض صلاته، ويكملها بالنوافل كالوتر والسنن الرواتب وأذكار الصلاة، ويؤدي الزكاة كاملة بطيب نفس، ويزيد بصدقات متفرقة، ويصوم رمضان ولا يخرمه بذنوب، ويزيد ما تيسر من التطوعات، ويحج لبيت الله تعالى ولو مرة، ويزيد ما تيسر له ذلك من حج وعمرة.

٣ قف مع كل ركن من أركان الإيمان، وماذا قام بقلبك في كل ركن منها، كيف إيمانك بالله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؟، ما منزلة استحضارك لأثر الملائكة وتوقيرك لهم؟، ما مدى فرحك بكتب الله تعالى لخلقه، وتعظيمك لها، وخصوصا لخاتمها الناسخ لها وهو القرآن؟، ما مدى توقيرك لرسله، ومحبتك لهم محبة تدعوك



لتطلّب تفاصيل حياتهم، واهتمامك بهديهم؟، ما تعظيمك لليوم الآخر وتذكرك الدائم له؟، ما قوة إيمانك بقدر الله تعالى والرضا بما يجري عليك منه؟

٤ أعلى مراتب الدين مرتبة الإحسان، فهل جربت أن تحمِلَ نفسك على أن تعبد الله وكأنك تراه؟، أو إن لم تكن تراه فاستحضر أن تعبد الله وتعلم أنه يراك، أعظم مما لو نُصبت عليك العيون والمصوِّرات، ولا يكون اللهُ أهونَ الناظرين إليك.

٥ إذا أيقن الإنسانُ واستشعر معيَّة الله ورؤيته إياه ومراقبته له، استحى أن يراه متكاسِلا عن الطاعات، فضلًا عن أن يراه على معصية. قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠].

٦ الإسلام عظَّم شأن اليوم الآخر، وهو إن لم يخبر بوقته فقد أخبر بعلامات له، وهي وغيرها تحفز على الاستذكار الدائم له، فمتى جلسنا مع أنفسنا وتخيلنا اليوم القادم لا محالة؟





عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

١ «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»،

٢ قُلْنَا: لِمَنْ؟

٣ قَالَ: «لِلَّهِ،

٤ وَلِكِتَابِهِ،

٥ وَلِرَسُولِهِ،

٦ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،

٧ وَعَامَّتِهِمْ»[1].

(١) مسلم (٥٥).

آيات

- ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].
- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
- ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].
- ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]

الراوي

هو: أبو رُقَيَّةَ تميمُ بنُ أَوْسِ بنِ خارجةَ الداريُّ (جدٌّ له اسمه الدار) من قبيلة لخم، كان نصرانيًا من أهل الشام، ووفد على رسول الله ﷺ سنةَ تسعٍ من الهجرة، فأسلَم وأقطعَه رسولُ الله ﷺ حبرى وبيت عينون بالشام، وصحِب تميمٌ رسولَ الله ﷺ وغزا معه، وروى عنه، ولم يزل بالمدينة حتى تحوَّل إلى الشام، وتوفي بفلسطين سنةَ (٤٠هـ)[1].

خلاصة

يؤكد النبيُّ ﷺ على أن الدين يدور على النصيحة، ببذل ما يقدر عليه الإنسان من إتمام الحق، تجاه الله، وكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامتهم.

(١) تراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ٤٠٨)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ٢١٩٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ١٩٣).

١ أخبر النبيُّ ﷺ أن الدينَ هو النصيحة، وهي كلمةٌ عامةٌ دالة على أن الإنسان يبذل صافي الجهد بالخير تجاه غيره، كما ينصح -أي يصفو- العسلُ مما يشوبه[١].

وجعل الدينَ كلَّه في النصيحة؛ من باب التعظيم، مع أن في الدين خصالًا أخرى غير النصيحة، كما تقول العرب: المالُ الإبلُ[٢].

٢ فاستفسر الصحابةُ: لِمن تجب تلك النصيحة؟ فأجابهم ﷺ ببيان أهلها، فقال:

٣ لله، ومعنى النصيحة لله -عزَّ وجلَّ- عام في الاجتهاد وتصفية العمل له فيما يطلبه، من الاعتقادات والأعمال.

٤ والنصيحةُ لكتابه سبحانه معنى عام في الاجتهاد، وتصفية العمل: فيما فيه توقيره، واتباعه، ومحبته.

٥ والنصيحةُ لرسوله ﷺ معنى عام في الاجتهاد، وتصفية العمل: فيما فيه توقيره، واتباعه، ومحبته أيضًا.

ومن النصيحة للنبيِّ ﷺ تقديم ذلك لمن يتصل به من أهله وصحابته.



(١) ينظر: «أعلام الحديث» للخطابي (١/ ١٨٩)، «المعلم بفوائد مسلم» للمازري (١/ ٢٩٣).

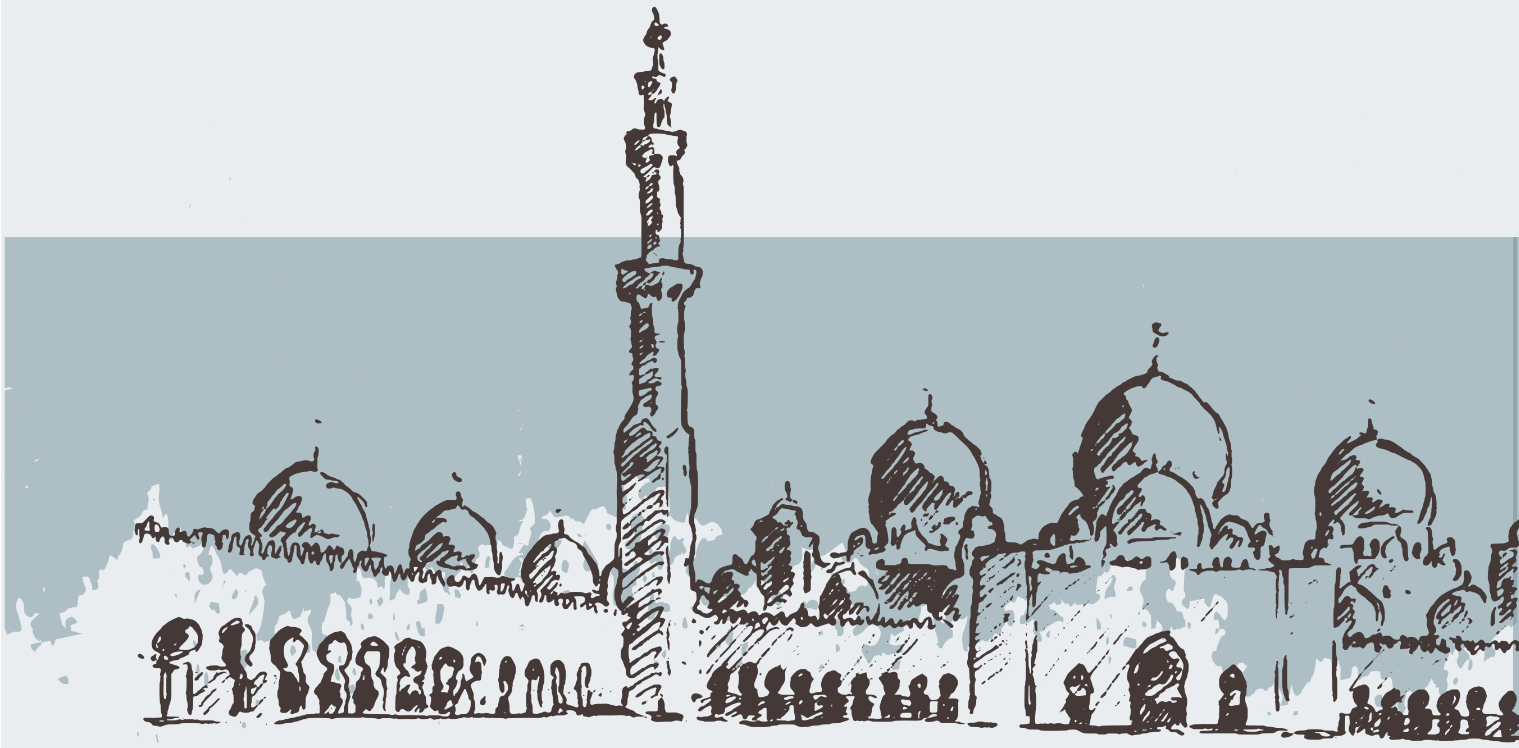
(٢) انظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» لابن الجوزيِّ (٤/ ٢١٩)، و«رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام» للفاكهانيِّ (١/ ٣٤٦).

٦ أما أئمة المسلمين فهم الأمراءُ والعلماء؛ فالنصيحة لهم هي في بذل صافي الجهد في فعل ما أمر الله تعالى به تجاههم، ومنها الطاعة في المعروف، والإعانة على الخير، والصلاةُ خلفهم، والجهادُ معهم، وتركُ الخروج عليهم، وألَّا يتتبَّع الإنسان زلَّاتهم وما يُخطئون فيه، ويدافع بالحق عنهم[١].

٧ وأما عامَّة المسلمين، فالنصيحة لهم هي في بذل صافي الجهد في فعل ما أمر الله تعالى به تجاههم من تحصيل مصالح الدين والدنيا لهم.

وهو معنى جامع، ولهذا بايع النبيُّ ﷺ أصحابه على النصح؛ فعن جَرِيرِ بنِ عبدِ الله البَجَلِيِّ ﷺ قَالَ: «بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَلَقَّنَنِي: فِيمَا اسْتَطَعْتُ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٢].

وحقيقةُ النصيحة كلها راجعةٌ للعبد نفسه؛ فإنه المأجورُ على ذلك، والله سبحانه غنيٌّ عن نُصح كلِّ ناصح[٣].



(١) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢/ ٣٩٣).

(٢) مسلم برقم: (٥٦).

(٣) ينظر: «أعلام الحديث» للخطَّابيِّ (١/ ١٩١).

١ كان تميمٌ ﷺ نصرانيًا، فأسلم في آخر حياة النبي ﷺ، وغزا معه، وأصبح عابدًا، قوَّامًا، تلَّاءً للقرآن، فإذا أمكن هذا لمن كان نصرانيًا فلا تيأس من صلاحك أو صلاح غيرك، واجتهد.

٢ تحمل المسؤولية، والصدق في أدائها، هي من معاني النصيحة، بأن يقوم بمسؤوليته أمام الله تعالى، وكتابه، ورسوله ﷺ، وأئمة المسلمين، وعامّتهم، بإخلاص واجتهاد.

٣ هل بذلت صافي اجتهادك لله تعالى؟ حاسب نفسك وتذكر حقوقه عليك، ومنها: الإيمان به، وترك الشِّرك معه، وبَذْل الطاعة له، وإجابة داعيه بالصلاة وغيرها، وإخلاص العمل فيما أَمر به ونَهى عنه، وتعظيم المحبة والخضوع له.

٤ هل بذلت صافي اجتهادك لكتاب الله تعالى؟ حاسب نفسك وتذكر حقوقه عليك، ومنها: تعظيم الإيمان به، وكثرة تلاوته، وتدبر معانيه، ودعوة الناس إلى الإيمان به وتلاوته، وأن يدافع الإنسان عنه ضدَّ من حرَّف ألفاظه أو معانيه، ومن ذلك أيضًا احترامُ قُدسيته، فلا يُمَسُّ إلا من طاهرٍ من الحدَثَين الأصغرِ والأكبر، إلا أن يمسَّه من وراء حائل، وألَّا يوضَع في مكان يُمتهَن[١].

٥ هل بذلت صافي اجتهادك لرسول الله تعالى؟ حاسب نفسك وتذكر حقوقه عليك، ومنها: تصديقه، وطاعته فيما شَرَع، وترك التقديم بين يديه، وتعظيم حقِّه، وتعزيره، وتوقيره، ومؤازرته، ونُصرته، وإحياء طريقته في بثِّ الدعوة، وإشاعة السُّنة، ونفي التُّهمة في جميع ما قاله، ونَطَق به[٢]، ومنها: احترامُ أصحابه، وتعظيمُهم، ومحبَّتهم؛ لأن أصحاب الإنسان هم خاصَّتُه من الناس.

٦ هل بذلت صافي اجتهادك لأئمة المسلمين من أمراء وعلماء، وما في حكمهم من مسئولين عليك..؟ ومنها: طاعتُهم في الحقِّ، ومعونتُهم على مصالح الدين والدنيا، وتذكيرُهم بما غفلوا عنه، أو جهِلوه، وأن يُدعى بالصلاح لهم، ولا يكون من نصيحتهم الكذبُ عليهم، والمدح المفرِط لهم، وتسهيل الباطل في أعينهم[٣].

٧ هل بذلت صافي اجتهادك لعامة المسلمين؟ ومنها: إرشادُهم لمصالحهم، ومعونتُهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والعمل، وتنبيهُ غافلهم، وتعليمُ جاهلهم، ورِفْدُ محتاجهم، وسَتر عَوْراتهم، ودَفْع المضارِّ عنهم، وجَلْب المنافع في الدين والدنيا إليهم، وأن يريد الخيرَ لهم في الدنيا والآخرة، وكفَّ الأذى عنهم، وأن يحبَّ لهم من الخير ما يحبُّ لنفْسه[٤].

٨ أحد معاني النصيحة تنبيه غيره على خطأ وقعوا فيه، فإن كان منكرًا أنكر عليهم بحسب مراتب الإنكار، وبحسب المصلحة، وحتى ولو رفع أمره لوليِّ الأمر أو غيره؛ فإن هذا من النصيحة لله عزَّ وجلَّ[٥]، ومن هَدْي النبيِّ ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم في

---

(١) انظر: «المفهم» للقرطبيِّ (١/ ٢٤٣)، «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢/ ٣٨٨).

(٢) «أعلام الحديث» (شرح صحيح البخاريِّ) للخطَّابيِّ (١/ ١٩٢).

(٣) انظر: «أعلام الحديث» (شرح صحيح البخاريِّ) للخطَّابيِّ (١/ ١٩٣)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (١/ ٢٤٤).

(٤) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياضٍ (١/ ٣٠٧)، «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» للكرمانيِّ (١/ ٢١٨).

(٥) ينظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢/ ٣٨٤).

النصيحة : أن يُنصح الرجلُ سرًّا ؛ فإنَّ الرجل إذا نُصح على رؤوس الناس فقد وُبِّخ . ولهذا قال الفضيل بن عياض : المؤمنُ يَسْتُرُ ويَنصَح ، والفاجرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ[1] .

٩ نصيحة أصحاب السلطة والقوة هي على قَدْر الاستطاعة ؛ فإذا أَمِن مِن ضُرِّهم فعليه أن ينصحَهم ، فإذا خَشيَ على نفْسه ، فحسبُه أن يُغَيِّر بقلبه ، وإن علِم أنه لا يقدر على نُصحهم فلا يفعَل ما يظنون به تأييده ، فإنه يغشُّهم ويَزيدهم فتنةً ، ويُذهب دينَه معهم .

١٠ من حكمة الناصح للناس أن يُعَرِّض بالنصيحة ولا يُصَرِّح بها إلا لمن لا يفهم التعريض ، وأن ينصح الإنسانُ من غير اشتراط أن يُقبل منه ، بل ينصح ويؤدي ما عليه ، فإن عمل المنصوح بقوله فهو المطلوب ، وإلا فهو مأجورٌ على نُصحه وإخلاص القول لأخيه .

١١ من سُبُل النُّصح : أن ينصح ببيان صحيح الحديث من سقيمه ، وأن يُبين للناس -على بصيرة- أحوال الرجال ، ومَن يصلح للأخذ عنه ومن لا يصلح لذلك . قيل لأحمدَ بنِ حنبلٍ : الرجُلُ يصوم ، ويُصلِّي ، ويَعتكف ، أحبُّ إليك ، أو يتكلَّم في أهل البِدَع؟ فقال : إذا قام ، وصلَّى ، واعتكف ، فإنما هو لنفْسه ، وإذا تكلَّمَ في أهل البدع ، فإنما هو للمسلمين ، هذا أفضلُ[2] . فينبغي على الداعية والفقيه أن يتكلم في تلك الأمور مخلصَ النية لله تعالى محتسبًا ذلك في النُّصح لله ورسوله .

١٢ كان جرير بن عبد الله ﷺ إذا عَرَضَ سلعةً بصَّر المشتريَ عيوبَها ، ثم خيَّره ، فقال : إن شئتَ فاشترِ ، وإن شئتَ فاتركْ ، فقيل له : إذا فعلتَ هذا لم ينفذ لك بيعٌ ، فقال : إنا بايَعْنا رسولَ الله على النُّصح لكل مسلم[3] . فالنصيحةُ لا تقتصر على مجرد إبداء الرأي والمشورة ونصرة الدين ، بل هي شائعة في كل أمور الحياة ؛ فالعامل ينصح في عمله بأدائه على أكمل وجه ، والتاجرُ يُبَصِّر الناس بعيوب سلعته ، والطبيبُ ينصحُ بإتقان عمله واعتماد الأدوية الفعَّالة ولو قلَّ ثمنها ، والطالبُ بالحرص على طلب العلم ومساعدة إخوانه فيه لنفع نفسه وأمته ، وهكذا .

قال الشاعر:

تَعَمَّدني بِنُصْحِكَ في انْفِرَادِي ... وجنِّبني النصيحةَ في الجماعهْ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... من التوبيخِ لا أرضى استماعه
وَإِنْ خَالَفْتنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي ... فَلاَ تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَه

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبليِّ (١/ ٢٢٥) .
(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٢٣١) .
(٣) «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (١/ ١٣١) .



عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

١ «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ:

٢ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا،

٣ وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا،

٤ وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١).

(١) مسلم (٣٤).

آيات

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

الراوي

أبو الفضل ﷺ، العبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلِب بنِ هاشمِ بنِ عبدِ مَنَافٍ، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، المكِّيُّ، عمُّ رسول الله ﷺ، وُلد سنة (٥١ قبل الهجرة)، من أكابر قُريشٍ في الجاهلية والإسلام، وإليه كانت عمارةُ المسجد الحرام، قيل: أَسلَم قبل الهجرة وكَتَم إسلامه إلى أن أُسِر ببَدْرٍ، فأظهر إسلامَه، توفِّي سنة (٣٢هـ).

خلاصة

أخبر النبيُّ ﷺ أن للإيمان ثمرةً حلوةَ الطعم، لا يتذوقها إلا من تشَرَّب بالإيمان وامتلأ قلبه به؛ فرضي بالله ربًّا، وانقاد للإسلام راضيًا بها دينًا ومعتقدًا، وأذعن لنبيه محمد ﷺ واعترف برسالته ووجوب تصديقه.

يخبر العباس ﷺ بهذا الحديث عن النبي ﷺ وفيه :

١ أن للإيمان طعمًا ولذَّةً وحلاوةً، وقد استخدم النبيُّ ﷺ لفظة : «ذاق» مع الإيمان مع أنه ليس بشيء ماديٌّ لإيصال المعنى؛ **فإذا كان الإنسان يتذوق الأكل والشرب ويحسُّ لهما طعمًا لذيذًا، فكذلك يحسُّ للإيمان أثرًا في نفسِه يعرفُه من جرَّبه**[1].

ومن معنى هذه اللذة انشراح الصدر وراحة البال والأنس بالله، وبذلك تهون المعاصي في عين الإنسان فيجتنبها، وتسهل عليه الفرائض فيتحمل مشاقَّها، ولا يقنط من رحمة ربه ويرضى بقضائه، وهذه اللذة لا تنال إلا بشروط.

٢ الشرط الأول الرضا بالله ربًّا، **والرضا** : الاقتناع بالشيء والاكتفاء به عن غيره، ومن الرضا بالله تعالى تصديقه في أخباره، والتسليم له في أحكامه الشرعية، والصبر وتطمين النفس في أحكامه القدرية.

وليس المراد من الرضا الإقرار بوجود الله تعالى أو ربوبيته؛ فهذا شرطٌ في الإسلام أصلًا ويقول به أكثر الكفار، وإنما المقصود هو الرضا الخاص، وهو أن يرضى به مُدَبِّرًا خالقًا مُشرعًا، فيرضى حكمه ويرتضي تشريعه، فيعبده ويحبه ويرضاه ويتوكل عليه ويخلص الإنابة إليه، ولا يخاف غيره خوف السِّرِّ، ويرضى بقضائه وقدره، فلا يصدر عنه ما يُغضبه سبحانه عليه[2].

٣ الشرط الثاني : الرضا بالإسلام دينًا، ومعنى ذلك أن يرضى به شرعًا؛ فيتبع أمره ويجتنب نهيه، ويختاره على سائر الأديان، ويجعله ركنه الركين الذي يأوي إليه، فيوالي ويعادي عليه، ويُضَحِّي من أجله بكل غالٍ ونفيس.

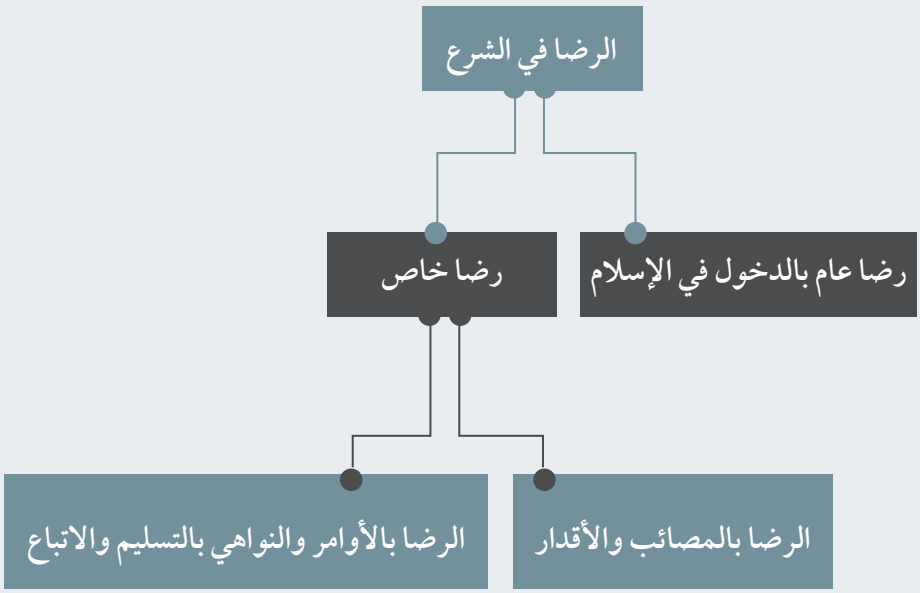
٤ والشرط الثالث : الرضا بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ويتضمن ذلك الإقرار والتصديق بأنه رسولٌ من الله، والرضا بما جاء به من عند الله من الأمر والنهي، وقبول ذلك الشرع والتصديق له والانقياد والعمل والخضوع. وهو رضا المحبِّين المتَّبِعين، المهتدين بهَدْيِه، المقتدِين به، الممتثلين لطاعته، الباذلين النفسَ والنفيس في الدفاع عن سنَّته، المتشوِّقين للقائه.

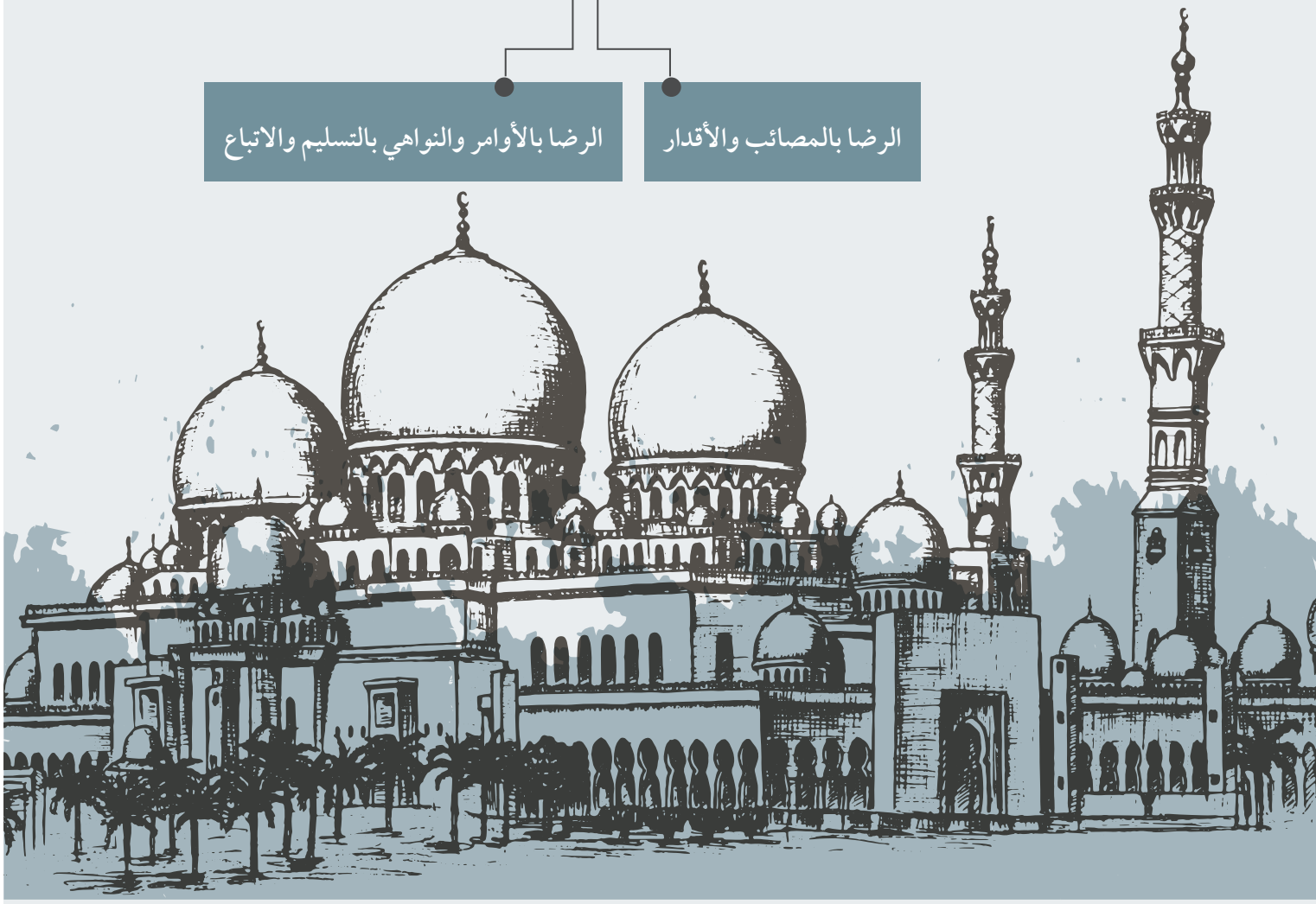
---

(١) انظر : شرح المشكاة للطِّيبيِّ الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٤٤٦).

(٢) ينظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبيِّ (١/ ٢١٠)، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٣٩٣).

ويتبين بهذا أنه لا يأتي أحدٌ بمفهوم الإيمان إلا إذا اجتمعت لديه أصول الدين الثلاثة؛ الإيمان بالله ونبيه ودينه.





التّباعي

١ آمن العباس بن عبد المطلب ﷺ بابن أخيه، مع أنه أكبر سنًا منه، وقد تحمَّل في سبيل ذلك عداوة قومه وأهله، وهي صفة تدفع العاقل أن يتقبل الحقَّ ممَّن كان؛ صغيرًا أو كبيرًا، قويًّا أو ضعيفًا، غنيًّا أو فقيرًا.

٢ ثبت العباسُ ﷺ مع النبي ﷺ حين فرَّ أكثر أصحابه من حوله يوم حنين. وهذا يدل على صدق إسلامه وذوقه لطعم الإيمان رغم قرب إسلامه، فكيف بمن وُلد على الإسلام أو له فيه أعوامٌ عديدة ولم يزل يعبد الله على حرفٍ؟! لا بد أن يتحقق فينا الإيمان، فنكون كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٣ للإيمان لذة قد لا يدركها من عاش في الإيمان زمنًا لعدم تحقيقه لحقائقها، أو عدم استشعاره المقارنة بسواها، فكلما رأيت نفسك تؤثر لذائذ الدنيا على لذائذ الإيمان فذَكِّرْها وحثها على طلب لذة الإيمان.

٤ تطلَّب الرضا بالله ربًا بتذكرك أنه الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، وبكل شيءٍ عليم، وغير ذلك من صفاته التي تطمئن فيها النفس إلى تصديقه في خبره، وتسليمه لأمره ونهيه، والطمأنينة لقدره، وبتذكر نعمه الظاهرة والباطنة، وأن ما لم نعلم من نعمه أعظم مما علمناه، وما لم نعلم من خلقه وحكمته في تدبيره أعظم مما علمناه.

٥ تطلَّب الرضا بالإسلام دينًا بتذكرك أنه شرعُ الله تعالى، الذي لا أعلمَ منه، ولا أحكمَ منه، ولا أرحمَ منه، وأن العاقل يعلم من الكمال الذي في بعض تفاصيل هذا الدين ما يقنعه بكمال ما لم يعلم.



٦ تطلَّب الرضا بالنبيِّ ﷺ رسولًا، بتذكَّر كماله في كل صفة بشرية، ومنها كمال علمه، وعقله، وتأييد الله تعالى له وعصمته له، وتذكر عظيم بذله لأمته، وشفقته عليهم، وأنه لو قارن من قارن من الخلق به لظهر قصور جميع الخلق أمامه ﷺ.

٧ هذه الدنيا على ما فيها من بلاء ومشقة وتعب وإيذاء، تصير جنةً للمؤمن بالرضا والتسليم والإيمان، ولهذا قيل: «الرضا جنة الدنيا، ومستراحُ العارفين». فهلَّا غرسنا جنتنا في الدنيا بأيدي الرضا! فإذا أصابت المسلم مصيبةٌ أو فاته بابٌ من أبواب الرزق والخير سلَّم أمره لله، وآمن بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب اللهُ لنا، فحينئذ تدخل السكينةُ قلبه، ويرتاح من اليأس والقنوط والتحسر على ما فات.

٨ كان أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبدِ العزيز يدعو بهذا الدعاء: «اللهم رضِّني بقضائك، وبارك لي في قَدَرك؛ حتى لا أحبَّ تعجيل ما أخَّرتَ، ولا تأخير ما عجَّلتَ»[1].

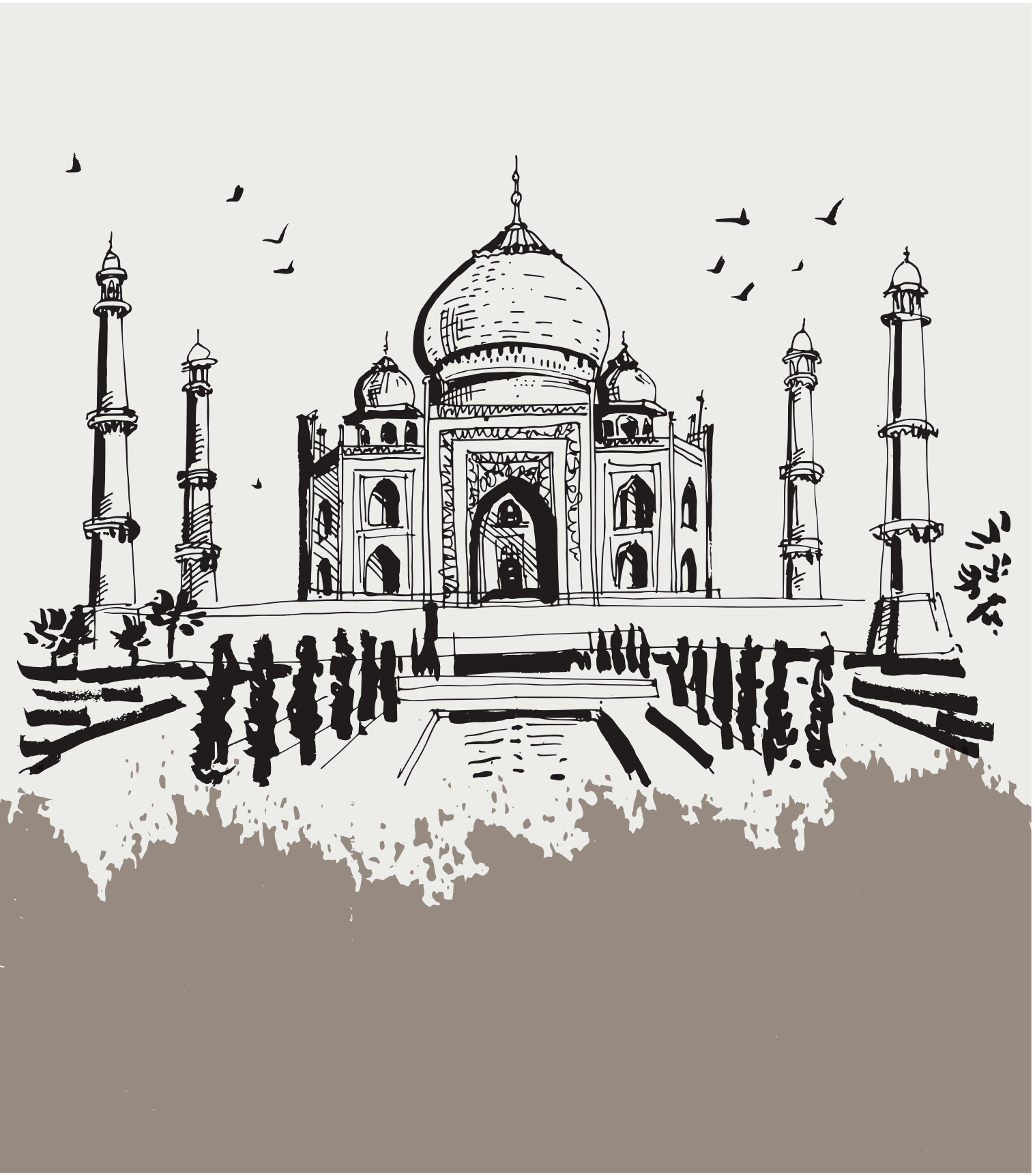
٩ سُئل يحيى بن معاذ: متى يَبلُغ العبدُ مَقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نَفْسَه على أربعة أصول في ما يُعامِل به رَبَّه، يقول: إن أعطَيْتَني قَبِلْتُ، وإن مَنعْتَني رَضِيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتَني أجبتُ[2]. فعلينا أن نفتش في أنفسنا؛ هل توافرت فينا تلك الصفات؟ وبقدر ما تتوافر فينا صفة فقد بلغنا من الرضا شيئًا.



قال الشاعر:

رِضَاكَ خيرٌ من الدنيا وما فيها ... يا مالكَ النَّفْسِ قاصِيها ودانِيها
فليس للروح آمالٌ تُحقِّقها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرةٌ منك يا سُؤلي ويا أَمَلي ... خيرٌ إليَّ من الدنيا وما فيها

(١) انظر: «أدب المرتعى في علم الدُّعا» لابن عبد الهادي (ص: ١٦٤).
(٢) «لوامع الأنوار البهية» للسفارينيِّ (١/ ٣٥٩).



عن طارقِ بنِ شهابٍ قال:

١ جاء رجُلٌ من اليهودِ إلى عمرَ ﷺ، فقال: يا أميرَ المؤمنِينَ، آيةٌ في كتابِكم تَقرؤونها، لو علينا نزلت معشرَ اليهود، لاتَّخَذْنا ذلك اليومَ عيدًا.

٢ قال: وأيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٣ فقال عمر ﷺ: إني لأعلمُ اليومَ الذي نزلتْ فيه، والمكانَ الذي نزلتْ فيه: نزلتْ على رسول الله ﷺ بعرفاتٍ في يوم جُمعة[1].

(١) البخاريُّ (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

آيـــات

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الرّاوي

هو: أبو حفص، عمرُ بنُ الخطَّاب بنِ نُفيلٍ، القرشيُّ، العَدويُّ، يجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب بن لُؤَيٍّ، الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول مَن لُقِّب بأمير المؤمنين، وهو وزير رسول الله ﷺ، توفِّي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، توفِّي سنةَ (٢٣هـ)[1].

خلاصة

يغبط اليهودُ المسلمين على آية: «اليوم أكملت لكم دينكم»، ويتمنون لو أن مثلها كان نزل عليهم، فأخبرهم عمر ﷺ أنَّه يعلم الزمان والمكان الذي نزلت فيه، وأنَّ المسلمين يُعَظِّمون مكان نزولها وزمانه.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٣٨)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٢٣٨)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٦٤٢).

١ جاء أحدُ علماءِ اليهود - وهو كعب الأحبار الذي أسلم بعد ذلك[١] - إلى عمر بن الخطاب ﷺ يخبره بأنَّه يغبط المسلمين على آيةٍ نزلت في القرآن الكريم، وأنَّ معشر يهودٍ يتمنون لو كان نزل عليهم مثلها، فإنهم كانوا سيُعَظِّمون ذلك اليوم الذي نزلت فيه ويتَّخذونه عيدًا لهم.

٢ فسأله عمر ﷺ عن تلك الآية، فأخبره الرجل أنها قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وإنما احتفى اليهودُ بتلك الآية لأنَّ فيها إخبارًا بإكمال الدين، وهو حاصلٌ بأمورٍ؛ منها: اكتمال الشرائع والحدود والفرائض، ونفي المشركين عن المسجد الحرام وعدم دخوله، وعزُّ الإسلام وظهوره، وذلُّ الشركِ وأهلِه، وزوال الخوف من العدو، ورفع النسخ عن الدِّين، فلا ينزل ما ينسخه من الأحكام أو الديانات التالية، فهو الدين الخاتم، وفتح مكة[٢]. ومن كماله كذلك أنَّه لا تعارض بين نصوصه، ولا بينها وبين العقل الصريح، وأنه دينٌ صالحٌ للثَّقلين في كلِّ زمانٍ ومكان، وأنَّ تشريعاته تراعي حاجة الإنسان وتُلَبِّي مطالبه وتحقق الأمنَ والنظامَ بين أفرادِه.

وفيه إتمامُ النعمة بظهور الشرع وتحقيق الأمن ونشر الدين في ربوع الأرض، وإعلانُ الرِّضا الإلهي عن دين الإسلام، فلا نسخَ فيه بعد اليوم، ولن تنسخه شريعةٌ أخرى من الشرائع، فهو الدين الخاتم[٣].

٣ فأخبره عمر ﷺ بأنَّ المسلمين أكثر اهتمامًا بالوحي منكم، فإننا نعلم زمان نزول تلك الآية ومكانها، ونُعَظِّمهما؛ فقد نزلت على النبيِّ ﷺ وهو واقفٌ بعرفة، وكان يومَ جمعة، فذلك عندنا عيدان لا عيدٌ واحد؛ العيد الأسبوعي يوم الجمعة، ويوم عرفة وهو عيدٌ للمسلمين كذلك، قال ﷺ: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ، عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»[٤].

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٢٧٠).

(٢) انظر: «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزيِّ (١/ ٥١٣)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٧/ ٣٣٩)، «تفسير ابن رجب الحنبليِّ» (١/ ٣٨٤).

(٣) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٧/ ٣٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذيُّ (٧٧٣) والنسائيُّ (٤١٨٦).

اتّباعي

١ أعداء الإسلامِ يدرسونه جيِّدًا بحثًا عن شُبهاته التي يُثيرونها، فعلى كلِّ طالبِ علمٍ أن يتجهَّز للدفاع عن الإسلام ويرد شبهات المشككين.

٢ لا تغترَّ بمسالمة الكافرين؛ فإنهم أكثر النَّاس حسدًا للمسلمين على ما أوتوا.

٣ غير المسلمين يحسدوننا على ما أنعم اللهُ تعالى علينا من الوحي، وأنت غافلٌ عن قراءته وفهم معانيه!

٤ اعلم أنَّ الإسلامَ دينٌ كاملٌ لا نقصَ فيه، ولا تعارض بين نصوصه وبعضها، ولا بينها وبين العقل الصريح. فإن رأيتَ تعارضًا أو إيهامًا بالنقص فارجع إلى أهل العلم يحِلُّون لك المشكل ويوضحون لك الغامض المبهم ويزيلون التعارضَ المتوهَّم.

٥ ليست الأعيادُ بالرأي والاجتهاد، وإنَّما بالنَّصِّ عليها. فلا تحتفل بما لم ينصَّ عليه الشرع من أعياد الأمم السابقة.

٦ على المسلم أن يعتزَّ بدينه، ويتعلَّم العلم الشرعيَّ، ويَربَأ بنفسه أن يُظهره أحد من الكفَّار في مظهر من لا يعرف دينه، أو أنه جاهل بدينه.

قال الشاعر:

وَتَنَـزَّلَ الْقُـرْآنُ يَبْنِـي أُمَّـةً ... حَتَّـى أُتِـمَّ الدِّيـنُ وَالْإِنْعَـامُ

يَـا سَـيِّدَ الْأَحْـرَارِ يَـا رَأْسَ الْإِبَـا ... يَـا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِـينَ تُـدَامُ

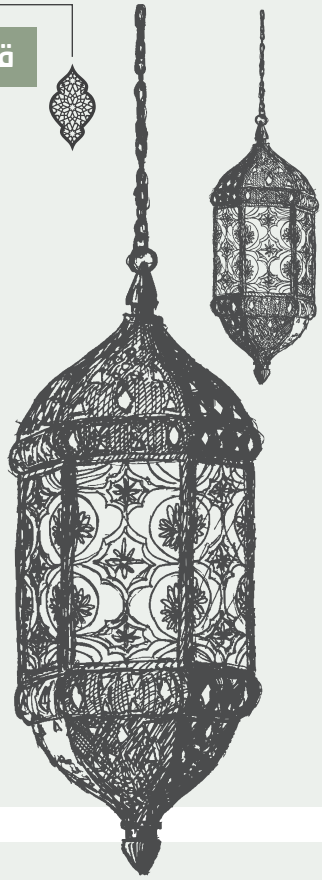
أَدَّيْـتَ أَمْـرَ اللهِ وَحْـدَكَ حَامِـلًا ... أَمْـرًا تَنُـوءُ بِحِمْلِـهِ الْأَعْـلَامُ

وقال غيره:

جـاءَ النَّبِيُّون بالآيـاتِ فانصرمت ... وجئتَنـا بحـكيمٍ غـيرِ مُنصَـرمِ

آيَاتُـه كلَّمَـا طَـالَ المـدَى جُـدُدٌ ... يَـزِينُهنَّ جَـلالُ العِتـق والقِـدمِ

يَكَـادُ فـي لفظـةٍ منـه مشـرَّفةٍ ... يـوصِيك بـالحقِّ والتقوى وبالرَّحِمِ





عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً،

٢ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،

٣ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ،

٤ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥).

آيـــات

- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].
- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].
- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

ذكر النبيُّ ﷺ في الحديث أن الإيمانَ ذو أجزاء متفاوتة في الفضل، فأعلاها التوحيد، وأدناها تنحية الأذى عن طريق الناس، وبين هذا وذاك شُعَبٌ كثيرة، يدخل فيها الحياء وغيره.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يخبر النبيُّ ﷺ أن الإيمان كالشجرة ذات الفروع، وبعضها أعلى مقامًا وأرفع من بعض، وقد ذكر ﷺ أنه بضعٌ **وسبعون قِطْعة وخصلة، والبضع ما بين الثلاثة إلى التسعة**، فكأنه قال: الإيمان ما بين ثلاث وسبعين إلى تسع وسبعين خصلة.

وقوله: «أو: بضعٌ وستون» شكٌّ من الراوي، واختلاف الروايات في تحديد العدد لا يضر، لأن المقصود بيان تعدد شُعَب الإيمان..، وقد حاول بعض العلماء تحديد تلك الشُّعب بذكر الأعمال الفاضلة في كتاب الله وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، وهي اجتهاداتٌ تقريبية.



٢ ثم بيَّن ﷺ أنَّ أفضلَ تلك الشُّعَب تحقيقُ التوحيد، وهو قول لا إله إلا الله، وليس المقصود بالقول مجرد لفظ اللسان، بل هو تبنّي القول، بما يتضمنه من علمٍ، ويقينٍ، وصدقٍ، وإخلاصٍ، ومحبةٍ، وانقيادٍ، وقبول لمقتضياتها، وكفرانه بما سوى الله تعالى، واجتناب مضاداتها من الشرك الأكبر والأصغر والخَفِيِّ.

وهذه الشُّعبة أصل الإيمان؛ إذ لا يُقبل سائر خصاله بدونها، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

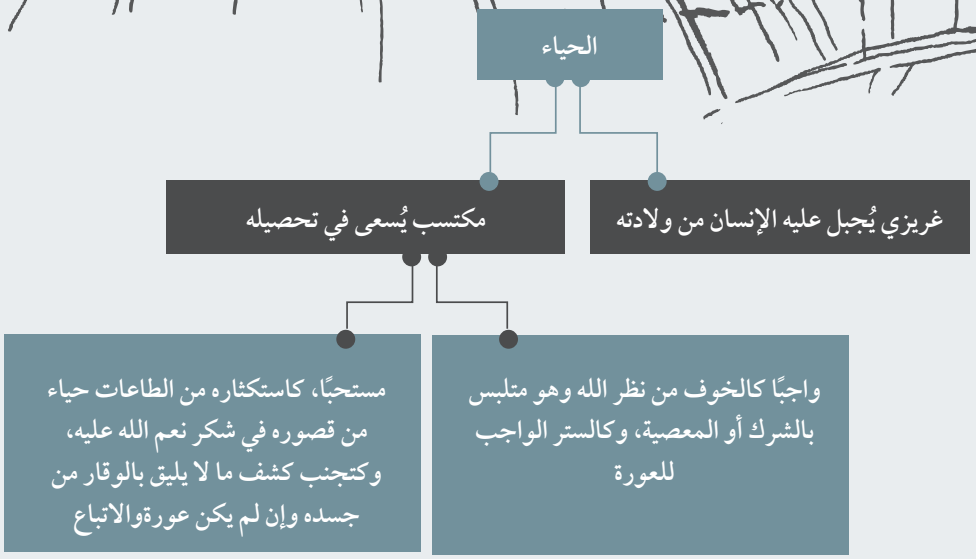
٣ وأقلُّ تلك الشعب فضلًا: **إبعادُ** أي شيء يؤذي الناس في طرقهم؛ كالشُّوكِ، والأحجارِ، والقاذورات، والمسامير، والعجلات الساقطة، وغيرها.

وإذا كان إماطة ما رماه غيره في الطريق من الأذى من الإيمان، فعدم إيذاء الناس في طريقهم ومجلسهم من باب أولى.

٤ من ضمن شعب الإيمان : الحياء ، وهو خُلُقٌ في النفس ، يدعوها لإتيان الفضائل واجتناب الرذائل ، سواء كان هذا الخلق في الإنسان وحافظ عليه ، أو لم يكن فيه ابتداءً وجاهد نفسه عليه ، والحياء شعور يعرفه الإنسان من نفسه ولو في بعض الأحوال ، وثمرة الحياء التي تجمع معناه : ألا يراكَ الله حيث نهاك ، ولا يَفقِدُك حيث أمرَكَ . .

ودل ما سبق على أن الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ؛ فقول «لا إله إلا الله» قول باللسان والقلب، ويتبعه عمل الجوارح ، وإماطة الأذى من أعمال الجوارح ، والحياء من أعمال القلوب وإن ظهر أثره على اللسان والجوارح .





التأمل

١ كان أبو هريرة ﷺ صاحبًا لرسول الله ﷺ، وعالمًا كبيرًا، وتولى إمارة بعض المدن الكبيرة، ومع ذلك كان من أهل التواضع والرقة والعبادة، فما مقدار تواضعنا في مقابل ما يسره الله لنا من علم أو منصب أو مال؟

٢ الإيمان أعظم شيء وهو ما يريده الله تعالى من خلقه، وهو مع ذلك واسع وله شُعَب كثيرة، فما مقدار تعلمنا لذلك، وما مقدار سعينا لتكميل أنفسنا بما أراده الله تعالى منا في تلك الشُّعب؟، أو نحن مقتصرون على بعضها مهملون لبعضها؟

٣ ينتقد بعض الناس أناسًا آخرين على إهمالهم لبعض الشُّعب، ويغفل أنه هو قد يهمل شُعَبًا أخرى، كمن يحرص على عبادات صوم وصلاة، ويهمل عبادة الخُلُق الحسن والقيام بمصالح الأهل، أو يعنى بالخُلُق وينسى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل ذلك يدفعنا إلى الترفق بالآخرين، وعلى محاسبة أنفسنا بميزان الشريعة لا بما تعودنا.

٤ الإيمان درجاتٌ، فله أعلى وأدنى، وكلها من الإيمان الذي يحبه الله تعالى، ولكن لا ينبغي أن يُشغل بالأدنى عن الأعلى، فبين بعضها أزيد من سبعين درجة، فجهدنا وإنفاقنا في الدرجة الأعلى أولى وأعظم، فلنعرف حاجتنا إلى العلماء، ولنزدد من العلم الشرعي بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ لنعرف أولويات الشريعة.

٥ أفضل شعب الإيمان: (قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فما أحوجنا إلى أن نتعلم معانيها، وكيفية تكميل مقتضاها، وأن ننطقها ونحن نملأ قلوبنا بها بحبٍّ وانقياد وقبول لما تقتضيه من اعتقادات وأقوال وأعمال.

٦ يدخل في إماطة الأذى عن الطريق ألوانٌ من أفعال الناس في حياتهم اليومية، منها: إزالة كل ما يؤذي المارة والسيارات من أحجار ومسامير وبقايا إطارات، وسواء أزاله بنفسه أو كلَّم أهل الشأن ليزيلوه،

٧ إذا كانت إماطة الأذى عن الطريق وغيره من الإيمان، فالامتناع عنها ابتداء من محاسن الأعمال، وأذى المسلمين بها من مساوئ الأعمال، والأذى كلمة عامة، تشمل الحسي والمعنوي، كرمي بقايا العلب، وكالأصوات المزعجة، والروائح الكريهة، والأذى بأسلوب قيادة أو طريقة إيقاف سيارة.

٨ إذا نهي عن الأذى في الطريق فمن المشروع في مقابله: التسهيل على الناس، بوضع أدوات الراحة، والترفيه في

الطريق، كالمظلَّات وأماكن الاستراحة، ويجمع ذلك قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ»، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا»، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ»[1].

٩ هناك أجرٌ في إزالة الأذى عن الطريق، مع أن الناس لا يسكنون الطريق، وقد لا يمر عليه المرء إلا قليلًا بعبورٍ سريع، فمن باب أولى إزالة الأذى عن مجتمعات الناس، وأمكنة استقرارهم، كأمكنة العمل، والتعلم، وكذلك البيوت؛ ولتنظيف بيت الأهل مزيد فضل لما فيها من صلتهم وقضاء حقهم، وللمساجد مزيد فضل فهي بيوت الله التي أذن الله أن ترفع، فلنستحضر هذه العبادة في تفاصيل حياتنا.

١٠ إذا كان إزالة الأذى من الطريق من الإيمان، فإزالة الأذى من قلوب الناس أولى، برفع الجهالة عنهم، ودفع الشبهات، والوساوس، ومعاني القلق، والكآبة.

١١ الحياء شعبة من الإيمان يُخصَّ بالذكر لما فيه من مَيزة التأثير، فهو خلق يقوم في النفس فيدعو لكثير من الخصال الحسنة، ويمنع كثيرًا من الخصال السيئة، وقد يكون في الإنسان ولا يشعر به، أو يموت فيه فلا يشعر به أيضًا، خصوصًا إذا مات بالتدريج لكثرة ما يضعفه من مظاهر الفحش والجفاء، فهل نراقب هذا الشعور في نفوسنا؟ وهل نتعاهده بالتنمية؟

١٢ الحياء ليس فعلًا سلبيًا يكون بالخَجَل من العَمَل، بل هو خلق إيجابي يدفع لترك القبيح ولفعل الحسن أيضًا، كمن يستحي من الله أن يراه أنعم عليه بعلم ولا ينشره، وبمال ولا يبذل منه، وبصوت أو بيان ولا يدعو بهما، ويستحي من كشف عورة، أو ظهور بذنب، أو تلبس بخلق ناقص؛ كالجبن والبخل والكسل.

١٣ أعظم الحياء الحياء من الله، وإذا أردت تقريبًا لمعناه في حياتك فتذكَّر الأثر: «أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»[2].

---

(١) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أحمد في الزهد (٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٤٥) مرفوعًا، من حديث سعيد بن يزيد ﷺ.



عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ، قَالَ:

١ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ،

٢ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»،

٣ قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ،

٤ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»،

٥ قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،

٦ قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ.

٧ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ،

٨ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ،

٩ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ،

١٠ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»

١١ فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا بْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ،

١٢ فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا[1].

(١) البخاري (٣١٩١).

آيات

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

الراوي

عِمرانُ بنُ حُصَيْنِ بنِ عُبَيْدٍ الخُزَاعِيُّ، أبو نُجَيْدٍ، أسلم عام خيبر ٧هـ، وكان صاحبَ راية خُزاعةَ يومَ الفتح، بَعَثه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ إلى البصرة ليفقِّه أهلَها، وكان مجُابَ الدعوة، ولم يَشهَد الفتنة، توفِّي سنة ٥٣هـ[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ عن بعض الأمور الغيبية من صفات الله تعالى وأفعاله، فيذكر أنه كان في الأزل قديمًا قبل كل شيء، وكان عرشُه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم ذكر أنَّه كتب في اللوح المحفوظ مقادير العباد وما يجري لهم، وبعد ذلك خلق السموات والأرض.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ٢١٠٨)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٢٠٨)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٢٦٩)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٥٨٤).

١ دخل عمران بن الحصين ﷺ على النبيِّ ﷺ وربط ذراع ناقته برِجْلها حتى لا تتفلت أو تهرب.

٢ فبينما هو جالسٌ عند النبيِّ ﷺ إذ دخل عليه وفدٌ من قبيلة تميم، فقال ﷺ: «أبشروا»، وكان المستحسن منهم أن يقبلوا البشرى الصادرة من رسول الله ﷺ أيًا كانت، خصوصًا أنه يبشرهم بأن من أسلم نجا من الخلود في النار[١].

٣ فلمَّا سمع بنو تميم البشرى جنحوا إلى طلب الدنيا، فقالوا: «قد بشَّرتنا فأعطنا»، فغضب منهم ﷺ إذ لم يهتموا بالبشرى وعلَّقوا آمالهم بالدنيا الفانية، ولم يفهموا من البشرى إلا العطاء المادي فقط.

٤ ثم بعد ذلك دخل عليه ناسٌ من اليمن، وهم الأشعريون، قوم أبي موسى الأشعري ﷺ، فقال لهم: «اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم» مع أنَّ بني تميم أسلمت ولكن لحداثة إسلامهم وقتها لم تقبل البشرى القبول المطلوب حيث قرنت القبول بطلب المال، فكأنها لم تقبلها[٢].

٥ وكان أهل اليمن أفقه من بني تميم، فقَبِلوا البشرى دون قيودٍ أو مطالب، ولهذا قال ﷺ: «الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ»[٣].

٦ ثمَّ إنهم بعد أن قبلوا البشرى سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عن هذا الكون أو الخلق المشاهد الذي يشهدونه، ولم يظهر في السؤال ما سألوا عنه، غير أنَّه ظهر من إجابته ﷺ.

٧ فأجاب ﷺ عن سؤالهم بأنَّه تعالى كانَ ولم يكن شيءٌ معه من هذا العالم المشاهد، لا السموات ولا الأرض، ولا يمنع أن يكون خلق قبل ذلك أشياء، فالعرش مخلوق قبل ذلك وموجود كما دل عليه الحديث، والله يخلق ما شاء[٤].

٨ ثم أخبرهم بأنَّه تعالى كان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، ولمَّا خلق السموات والأرض استوى

(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٤٠٩).
(٢) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٤٠٩).
(٣) البخاري (٣٤٩٩)، ومسلم (٥٢).
(٤) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية، وقارن: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٢٨٩).

على العرش فوق السموات، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وعرش الرحمن أعلى المخلوقات وأعظمها وأكبرها، والعرشُ يقصد به سرير المُلْك.

٩ ثمَّ بيَّن ﷺ أن الله تعالى كتب مقادير العباد وما يجري للعالم كلِّه في اللوح المحفوظ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

١٠ ثم أخبر ﷺ أنه تعالى خلق السماوات والأرض بعد أن خلق الماء والعرش وكتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ. وقد بيَّن اللهُ سبحانه شيئًا من خلق السموات والأرض فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

١١ ثمَّ إنَّ أحدًا أخبر عمرانًا ﷺ أنَّ ناقته قد تفلَّتت من عقالها وهربت، فخرج يراها، فإذا هي قد غابت عن الأنظار، وحال بينه وبينها السَّراب، **وهو ما يُرى في الصحراء في شدة الحرِّ كأنَّه ماءٌ**.

١٢ فتحسَّر عمرانُ ﷺ على خروجه من عند رسول الله ﷺ؛ حيث قام ولم يسمع باقي حديث النبيِّ ﷺ.

---

(١) مسلم (٢٦٥٣).

استنباط

١ ربط عمران بن حصين ناقته على باب مسجد النبيِّ ﷺ، وهذا مقتضى التوكل على الله تعالى، من حيث الأخذ بالأسباب ثم تسليم الأمر إلى الله تعالى، فلم يقل: أتركها دون قيدٍ وأتوكل.

٢ كان النبيُّ ﷺ يحبُّ أن يُبَشِّر أصحابَه بالمبشرات الطيبة، فزيِّن حديثك مع الآخرين بكل أنواع البشرى، كالبشرى بما أعده الله تعالى لأهل الإيمان والصبر من الجنة العاجلة والآجلة، ومن البشرى بزوال الهموم وتبدد المخاوف، وعلى المعلمين ألا يقتصروا على بيان أحكام الفقه والعقيدة وغيرها دون حديث النفوس.

٣ على المسلم أن يكون همه منصرفًا إلى الآخرة لا إلى الدنيا.

٤ **الفوز** في الآخرة لا يعادله فوزٌ، ولهذا غضب النبيُّ ﷺ من بني تميم حين لم يكتفوا بالبشرى وطلبوا العطاء، فكم نخسر حين نتطلع لأجر الدنيا وندعو لأجل الدنيا ونغفل عن عالم الآخرة الأعظم.

٥ لا تستحيِ أن تسألَ عن شيءٍ من أمور الدين، سواءً من أحكام الشريعة وما يحل ويحرم، أو عن أحوال القيامة وأخبار الأمم السابقة.



٦ أَحْسِن الظنَّ بربِّك؛ فهو قادرٌ على تحقيقِ ما تتمنى؛ أوليس الذي لا يعجزه خلقُ مثل هذا الكون الفسيح وإمساكُه بيده قادرًا على إجابة دعوتك؟!

٧ إذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد كتب مقادير الخلق قبل خلق السموات والأرض، فلا ينبغي لعبدٍ أن يتحسر على ما فاته مما كان يرجو من الخير، ولا يجزع لما أصابه مما كان يحذر من الشرِّ، فإنَّ العبدَ إذا فعل ذلك كان ساخطًا على قدر الله تعالى.

٨ ندم عمران بن حصين ﷺ حين خرج ينظر ناقته وترك حديثَ رسول الله ﷺ، وفيه دلالة على فضل العلم الشرعي، وأنَّ تحصيلَه وفهمَه خيرٌ من الانشغال بالدنيا وما فيها. فلا يليق بعاقلٍ أن يغفل عن تلك الفضيلة.





عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

١ «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلا تَظَالَمُوا.

٢ يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

٣ يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

٤ يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

٥ يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

٦ يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

٧ يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ.

٨ يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[1].

(١) مسلم (٢٥٧٧).

آيات

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].
- ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].
- ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].
- ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩].
- ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

الراوي

أبو ذَرٍّ، جُنْدُبُ بنُ جُنادةَ الغِفاريُّ، الزاهد، الصادق، مِن كبار الصحابة وفضلائهم، كان يتعبَّد قبل مَبعث النبيِّ ﷺ ثلاث سِنين يقوم من الليل مصلِّيًا، أسلم بمكةَ في أوَّل الدعوة، حتى قيل هو رابعُ مَن دَخلوا في الإسلام، خرج بعد وفاة أبي بكر ﷺ إلى الشام، فلم يزَلْ بها حتى وَلِيَ عثمانُ ﷺ، ثم استقدمه عثمانُ، وأسكنه الرَّبَذة، فمات بها، وصلَّى عليه عبدُ الله بنُ مسعود ﷺ، تُوفِّي سنةَ (٣٢هـ)[1].

خلاصة

يخبر ربنا سبحانه عن نفسه أنَّه حرَّم الظُّلم، ونهى عنه النَّاس، ثمَّ تودَّد إلى خلقه بأنه الهادي الرازق الغفور الرحيم، وبيَّن أنَّه لا يقدر أحدٌ من خلقه على إضراره أو نفعه، وأخبر عن سعة خزائنه التي لا تنفد أبدًا، وأنَّ ما يلقاه العبدُ إنما هو نتاج عمله، فليحسن امرؤٌ ما يدَّخره لآخرته.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعَيم (٢/ ٥٥٧)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢٥٢)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٢١١).

يروي النبيُّ ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالى حديثًا قدسيًّا، والحديث القدسي هو كلامُ اللهِ تعالى غير القرآن الكريم، ألفاظُه من النبيِّ ﷺ ومعانيه من الله تعالى، بخلاف القرآن الذي هو كلامُ الله لفظًا ومعنًى.

١ ينادي الله تعالى عباده رحمة بهم: يا عبادي، ويخبرهم أنَّه منع الظلم عن نفسه مع أنه قادر عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، والله تعالى له الملك، وله الخلق والأمر، ومع ذلك امتنع عن الظلم، وهذا تمهيدٌ ليخبر أنه جعل الظلمَ محرمًا بين الناس، ونهاهم عن أن يظلم بعضهم بعضًا.

والظلم هو ترك الحق بوضع الشيء في غير موضعه، والله حرم الشرك وجعله ظلمًا عظيمًا؛ وكل ظلم بين العباد في نفسٍ أو مالٍ أو عرضٍ فهو محرم شديد التحريم، ولو كان شبرًا من الأرض، والله هدد صاحب الظلم: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وأمر بالعدلِ حتى مع ذوي العداوة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٢ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويخبرهم أن جميع الخلق في ضلالٍ تامٍّ إلَّا مَن بيّن الله له الحق، ووفَّقه إليه، لأنهم خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، والإنسان بقدرته المحدود لا يستطيع الجزم بصواب رأيه في كل مسألة، ولا يحيط بها علما ولا قدرة، وقد تفرق الناس في المذاهب، وكثرت الشبه، وغلبت الشهوات، وليس الأمر بالذكاء، فكم زل من أذكياء الناس، فالمهتدي من هداه الله تعالى وثبَّت على الحقِّ قدمه، ولهذا أمرهم سبحانه بأن يسألوه الهداية[1].

وليست الهداية مقتصرةً على التوفيق لقبول الإسلام والدخول فيه، بل شاملة لمعرفة أحكامه وشرائعه، والانقياد لما جاء به النبيُّ ﷺ من الأوامر والنواهي، ولهذا أمر الله عباده المؤمنين أن يُرَدِّدوا في الصلوات: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦][2].

٣ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويخبرهم أنَّ جميع الخلق جائعٌ إلا من أطعمه الله تعالى، فهم بحاجة أن يطلبوا طعامهم منه، لأنه لو شاء سبحانه لأفسد أطعمة الأرض، أو أفقر الإنسان، أو منعه الطعام بسبب مرض أو حبس أو غيره، فلا يطعم إنسان إلا بفضل الله.

٤ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويخبرهم أنَّ جميع الخلق عارٍ عن اللباس، إلا من كساه الله تعالى فهم بحاجة أن يطلبوا

---

(١) ينظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للقرطبيِّ (٦/ ٥٥٢- ٥٥٣).

(٢) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبليِّ (٢/ ٤٠).

لبساهم منه ، ، ولو شاء لمنعهم بما شاء. والطعام واللباس نموذجا من الرزق، فالخلق مفتقرون إليه في الرزقِ كما هم مفتقرون إليه في الهداية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

٥ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويذكرهم بنقصهم المستمر بارتكابهم الذنب والخطأ في الليل والنهار، وأنَّه مع ذلك يغفر الذنوبَ جميعًا مهما كثرت ومهما كبرت، وأنَّهم محتاجون إلى طلب مغفرته: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد أخبر ﷺ أنَّ الله تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا[1].

٦ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويخبرهم أنَّ ليسوا بشيء أمام الله تعالى، فلا يضرونه لا بكفر ولا بحرب ولا غيره، لعجزهم وكونهم في ملكه، ولا ينفعونه لا بإيمان ولا بنصرة ولا غيرها، لاستغنائه عنهم وعما يقدمونه، ثم ذكر أمثلة لبيان استغنائه عنهم.

٧ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويخبرهم أنَّ طاعةَ العباد جميعًا لا تنفعه، فلو كان إيمانُ الإنسِ والجِنِّ جميعًا كإيمانِ النبيِّ ﷺ ما زاد ذلك في مُلك الله شيئًا، قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

٨ ثم يكرر الله النداء لعباده، ويخبرهم أنَّ معصيتهم جميعًا لا تضرُّه، فلو كان كُفرُهم وفجورهم على مثل كُفر إبليس ما نقص ذلك من ملك الله شيئًا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦- ١٧٧].

٩ ثم يصف سبحانه عظيم فضله ونعمه التي لا تُعد ولا تحصى، فيذكر أن جميع الخلائق منذُ خَلَق اللهُ السماواتِ والأرضَ إلى أن تقوم الساعةُ لو قاموا جميعًا في أرضٍ واحدة، فدعا كلُّ واحدٍ منهم ربَّه بما يريده من العطاء والرزق، فأعطاه الله تعالى ما يريد، ما أثَّر ذلك في مُلك الله شيئًا، وما نقص ذلك من فضله وخيره، وضرب لذلك مثلًا فصوَّره بالإبرة إذا أُدخلت في البحر، أفتراها تنقص من مائه شيئًا؟! فكذا فضلُ اللهِ تعالى لا آخِرَ له.

١٠ ثم أخبر سبحانه وتعالى أنَّ عاقبةَ الإنسانِ متوقفةٌ على عمله، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكتب علينا أعمالنا ثم يجازينا عليها، فمن وجد يومَ القيامةِ خيرًا أعدَّه الله تعالى له، فليحمد الله أنْ هداه للإيمان ووفَّقه لفعل الخير، وإن وجد شرًّا فإنما هو حصادُ عملِه، فهو الملوم المؤاخذ فلا يلومن إلا نفسه.

(١) برقم: (٢٧٥٩)، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

التّباعي

١ احذر من الظلم، فهو شر الذنوب، وتفكر في معناه لئلا تقع فيه، فمن الظلم الشرك الذي هو جعل شريك مع الله فيما ينبغي ألا يكون إلا لله، ولو كان شركا أصغر بالرياء للمخلوقين في صلاة أو علم أو غيره، ومن الظلم الاعتداء على حق العباد ولو كان بخصم راتب عامل بغير حق، أو في موقف سيارة، أو بكلمة سخرية، ومن قبيح الظلم أن يظلم الإنسانُ نفسَه فيورِدَها النار للذة تزول أسرع ما يكون.

٢ تفكر في كثرة الاحتمالات لكل عمل تسلكه، وتذكر دائما أن تسأل ربَّه من ربك الهدايةَ والرزقَ؛ فذلك بيد الله وحده، وهو يُحبُّ أن يسمع دعاء عبده.

٣ لا تقصر سؤالك لله تعالى على حاجات الآخرة، فنحن محتاجون لله تعالى في كل لحظة، وعراةٌ جياعٌ ضالُّون إلا بفضله.

٤ الله خلقنا لنطيعه، وسخر لنا الليل والنَّهار لنعبده فيهما، ومع ذلك فكم نزلُّ بالذنوب في وضح النهار أو ستر الليل، ، فلنرقع ذلك باستغفار دائم وعبادة، وخصوصًا في طرفي النهار.

٥ إذا عملت طاعة فلا تمنَّ على الله تعالى بها، ولا تظنَّ أن لك حقًا بإجابة دعوتك أو رفعتك بسببها، فالله غني عنك، وأنت محتاج إليه.

٦ لا تحزن ولا تهن إن رأيت معصية أو كفرًا بالله تعالى، فذلك لن يضرَّ الله شيئًا، ولو شاء ربك ما فعلوه، فافعل ما تؤمر به من العبادة والنصح، ولا تحزن عليهم.

٧ لا تستكثر دعاءك لله، ولا تظنَّ أن الله تعالى يتعاظمه شيءٌ أعطاه؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال ﷺ: «يَدُ الله ملأى لا يَغِيضُها نفقةٌ، سحَّاءُ الليلَ والنهارَ؛ أرأيتُم ما أنفق منذ خلق السمواتِ والأرضَ؟؛ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه»[1].

(١) البخاريُّ (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

٨ ضرْبُ الأمثال من الأساليب الفاعلة في التعليم والتأثير فانظر كيف تستقر هذه الصورة وتتضح: (كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)؛ فاحرص أن تقرب المعانيَ المعقولةَ لأذهان الناس بضرب الأمثال المحسوسة القريبة إلى أفهامهم[1].

٩ الاقتداءُ بالمربِّي والمعلِّم خيرُ وسيلة؛ فإذا أراد الْمُرَبِّي أن يغرِسَ في نفوس أبنائه فضيلةً ما، فإنه يجب أن يتحلَّى بها أولًا، ولهذا قال الله: «إني حرمتُ الظلمَ على نفْسي».

قال الشاعر:

أمَـا واللهِ إنَّ الظُّلْـمَ لُـؤْمٌ ولكـنَّ المـسيءَ هـو الظَّلُـومُ
إلى ديَّـانِ يـومِ الدِّيـنِ نمـضي وعنـدَ اللهِ تَجتَمِـعُ الخُصـومُ

وقال غيره:

لا تَسْـأَلَنَّ بُنَـيَّ آدَمَ حَاجَـةً وَسَـلِ الَّـذِي أَبْوَابُـهُ لَا تُحْجَـبُ
اللهُ يَغْضَـبُ إِنْ تَرَكْـتَ سُـؤَالَهُ وَبُنَـيُّ آدَمَ حِـينَ يُسْـأَلُ يَغْضَـبُ



(١) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عُثيمين (٢/ ٤٣٣).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

١ «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا؛

٢ مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا،

٣ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»،

٤ زَادَ في رواية: «إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

آيات

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ لله تعالى تسعةً وتسعين اسمًا من الأسماء الحسنى، من أحصاها بالقيام بما تتطلبه؛ من تعلم لمعناها، وعمل بمقتضاها: دخل الجنة.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

هذا الحديثُ من أصول الأحاديث في أسماء الله تعالى الحُسنى:

١ يذكر النبيُّ ﷺ أن لله تعالى من الأسماء تسعةً وتسعين اسمًا.

واتَّفَق العلماءُ على أنَّه ليس في الحديث حصرٌ لأسمائه سبحانه وتعالى، وإنما مقصودُ الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين مَن أحصاها دخَل الجنة، لا الإخبارُ بحصر الأسماء [١]، فلله تعالى ما لا يُحصى من الأسماء الحسنى والصفات العُلى، كما في الدعاء النبوي: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[٢].

٢ وهذه الأسماء التي يريد الكلام عنها هنا: «مائةً إلا واحدًا» وهو تأكيدٌ على أن الرقم مقصود، لئلا يلتبسَ ذلك على مستمعٍ أو قارئٍ.

٣ وقد تفضَّل الله عزَّ وجلَّ على خلقه بأن جعل جزاء إحصاء تلك الأسماء دخول الجنة، وكفى بذلك فضلًا وثوابًا، **والإحصاءُ الذي به يَدخُل العبدُ الجنةَ، له معانٍ كثيرة**، دل عليها القرآن وكلام العرب، ومنها الحفظُ، والعَدُّ، وكذلك الإطاقة للعمل بها، والإحاطة بتلاوة القرآن كله؛ لأنه مُستَوفٍ لهذه الأسماء[٣].

المرادُ:

مَن آمن بها، وأحْصاها عدًّا، وحَفِظها وعمِل بها دخَل الجنة[٤]، ولم يحدد النبيُّ ﷺ تلك الأسماء الحسنى، وذلك ليترُكَ العقولَ تتدبَّر القرآن والسنة، ويعيش حياة البحث عنها، فيُدركوا مطلبَهم، ويزيدوا معرفة بكتاب الله ومعانيه، كما أخفى ساعةَ الإجابة يوم الجمعة، وأبهم ليلةَ القدر.

(١) ينظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (١٧/ ٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٣١٨)، وابن حبان (٩٧٢) عن ابن مسعود ﷺ، وصحَّحه الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٦).

(٣) ينظر: «أعلام الحديث» (شرح صحيح البخاري) للخطَّابيِّ (٢/ ١٣٤٢)، «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (١٠/ ٤٢٠)، «المسالك في شرح موطَّأ مالك» لابن العربيِّ (٣/ ٤٩٣).

(٤) ينظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقِّن (٣٣/ ٢٣٠).

٤ ثم أخبر ﷺ عن اسمٍ عظيمٍ من أسماء الله تعالى، وهو اسم الوتر، ومعناه: **الفرد**، فالله سبحانه وتعالى لا شريكَ له ولا نظيرَ؛ ولذلك يحبُّ الوِترَ؛ فلذلك جعلَ الأعمالَ وِترًا؛ جعل الصلواتِ خمسًا، والطهارةَ أثلاثًا، والطوافَ سبعًا، وأيامَ التشريق ثلاثًا، والسمواتِ والأرَضين سبعًا[1].



(١) ينظر: «إكمال الْمُعلِم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٨/ ١٧٧)، «شرح النوويِّ على مسلم» (١٧/ ٦).

الاتباع

١ امتنَّ الله على عباده وأظهر لهم ما يحبُّ أن يُدعى به، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وذكر ﷺ أنَّ من دعا الله بهذه الأسماء دخل الجنة. فلا يليقُ بمسلمٍ عاقلٍ يعلم أن الله يحب أن يُدعى بتلك الأسماء، وأنه جعل الجنة لمن دعاه بها ثم يفرط فيها!

٢ السعيدُ من أعمل عقله وتأمل كتابَ اللهِ وسنَّةَ نبيِّه ﷺ واستنبط أسماءه الحسنى، وفهم معانيها، وعمل بمقتضاها، ودعاه بها، ليضمن الفوز بدخول الجنة.

٣ من إحصاء أسماء الله تعالى أن يُحصيَها في الدعاء بها، فيكثرَ الابتهال باسم الله، ويدعوَ بأسماء الله تعالى بما ناسَب حالَه، فيقول: يا رحمن ارحمني، يا غفورُ اغفرْ لي، يا رزَّاقُ ارزُقْني، وهكذا.



٤ من إحصاء أسماء الله تعالى: أن يُطيق العبدُ القيامَ بحقِّ هذه الأسماء، والعمل بمقتضاها؛ فإذا علِم أن الله تعالى هو الرزاقُ، كان على ثقة ويقين من أنه سيرزقُه، وإحصاءُ اسم الله تعالى الرحيم أن يرجوَ رحمتَه ويرحم خلقه ليرحمه خالقهم، وإحصاء اسمه الرزاق يقتضي محبته على فضله، وعدم طلب الرزق فيما حرَّمه؛ لأن الرزق منه وهو واسع العطاء..، وهكذا.

٥ إذا نزلت بك نازلة؛ من نعمةٍ، أو مصيبةٍ، أو أمرٍ يحتاج لتفكير؛ فاستحضر أسماء الله تعالى، وتعرّف ما يقتضيه كل اسم منها مما يناسب حالك، وادعُ الله بها، ستجد عندها برد اليقين، وراحة القلب.

٦ تدبر أسماء الله تعالى، فما كان منها يحسنُ بالإنسانِ العملُ بمثلها - كالرحيم، والكريم، والعفوِّ، والغفور، والشكور- فاعمله؛. وما كان منها لا يصلح إلا لله العظيم -كالمتكبر..- فاتركها الذي يستحقها وتذلّل لها، وأشفق منها.

٨ ليكن لك وِردٌ مع نفسك وأهلك وأصحابك، تتذاكرون فيه كل حين اسمًا من أسماء الله تعالى، تعيشون معه، وتتعرفون معانيه، والآثار الإيمانية المترتبة على معرفته، وتستعينون على ذلك بالكتب الموثوقة في بيان معاني أسماء الله تعالى، التي تعتمد ما بينه رسول الله ﷺ والأئمة الأولون، لا التي تتوهم بمجرد الظن.

قال الشاعر:

أَدْعُـوكَ بِالْحُسْنَى مِنَ الأَسْمَا اسْتَجِبْ أَحْصَيْتُهَـا لَأَنَـالُ مِـنْ نَعْـمَاهُ
تِسْـعُونَ زَادَتْ تِسْـعَةً نُقِشَـتْ عَـلَى قَلْبِـي وَلَفْـظُ اللهِ رُوحِـي فِـدَاهُ
وَبِهَـا أُدَنْـدِنُ باحِثًـا متعلِّـمًا كَالطَّـيْرِ يَرْجُـو الْقَطْـرَ بُـلَّ صَـدَاهُ
أَيَـردُّ جُـودُكَ رَاجِيًـا مُتَوَسِّـلًا أَحْيَـا الدُّجَـى يَرْجُـوكَ يَـا أَللهُ؟!



عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ:

١ «إِنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - لَا يَنَامُ،

٢ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ،

٣ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ،

٤ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ،

٥ حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ -

٦ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

(١) مسلم (١٧٩).

آيات

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

الراوي

أبو موسى، عبدُ الله بن قَيسِ بنِ سليمٍ، الأشعريُّ -جدٌّ لهم يقال له أشعر-، القارئُ، الفقيه، صاحب رسول الله ﷺ، ذو الهجرتَين: هجرة الحبشة والمدينة، تولَّى إمارة البصرة في زمان عمر، فعلَّم أهلَها وفقَّههم في الدين، وأقرأَهُم القرآن، وكان أحسنَ الصحابة صوتًا بالقرآن. تُوفِّي سنةَ: (٥٠هـ)[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أصحابَه بعضًا من صفات الله عزَّ وجل، فمنها أنَّه لا ينام، ويمتنع النوم في حقه عزَّ وجل لأن النوم صفة نقص، والله منزه عن كل نقص، يقبل الأعمال الصالحة فيرفعها إليه ويرد غيرها، وترفع الملائكةُ إليه عملَ الليل قبل الشروع في عمل النهار، وعملَ النهارِ قبل الليل، وأنَّ حجابه دون خلقه من النور -أو من النار-، لو أسقط ذلك الحجاب لأحرقت أنوار وجهه جميع الخلق.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (٤/ ١٧٤٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٤/ ١٧٦٢)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٥/ ٣٠٦).

قام النبي ﷺ خطيبًا أمام الناس، فذكر منها خمسَ جُمَلٍ عن الله تعالى، وهي:

١ الأولى: أنه سبحانه لا ينام؛ فإنَّ النومَ نقصٌ، والله سبحانه لا يُنسب إليه النقصُ ولا يعتريه، فالمخلوقُ يحتاج إلى النومِ لما أصابه من التعب والإرهاق، والله سبحانه غنيٌّ عن ذلك، خلق السموات والأرض جميعًا وما أصابه تعبٌ أو إرهاق. ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ والثانية: أكَّد فيها ﷺ تلك الصفة، فأخبر أنه **يستحيل عليه النوم**، فأفادت الجملة الأولى عدم حدوث النوم عليه، وأفادت الثانية أنه يستحيل عليه ذلك أصلًا[١].

وإنما يستحيل عليه النومُ لأنَّ النومَ غفلةٌ تتنافى مع معيته وإحاطته بجميع المخلوقات وإمساكه السموات بيده، فلو نامَ لسقطت السماءُ على الأرض ولاختلَّ نظام الكون.

٣ والثالثة: صفة أخرى، وهي أنه سبحانه **يدبِّر الأمور بالعدل**، فقد يقلل نصيب قوم من الرزق ويزيد آخرين، ويذل قومًا ويعز آخرين، لحكمة وعدل، وكذلك يزن الأعمال المرتفعة إليه بعدل، فيرفعُ الأعمال الصالحةَ ويردُّ غيرها، قال سبحانه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

٤ والرابعة: أنه سبحانه يُرفع إليه أعمالُ العباد جميعًا كلَّ يومٍ، فترفع الملائكةُ الموكَّلون بكتابة الأعمالِ أعمالَ العبادِ في النهار إلى الله عز وجل قبل أن يأتي الليل، وترفعُ إليه عملَ الليل قبل أن يأتي النهار، دون تأخيرٍ أو توانٍ، قَالَ ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[٢].

٥ والخامسة: أنَّ الله تعالى مستترٌ عن خلقه بحجابٍ من النور، وفي رواية: من النار؛ فإنه سبحانه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

---

(١) «كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه» للسنديِّ (١/ ٨٥).

(٢) البخاريُّ (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

ولا تعارض بين روايتي النور والنار؛ لأن النار تتضمن صفتين: الإشراق والإحراق، فمن الممكن أن يكون الله تعالى سلبها صفة الإحراق وأبقى فيها صفة الإشراق، بخلاف نار جهنم؛ فإنها نارٌ مُحرقة ولا نور فيها، وبخلاف سائر أنوار الدنيا من الشمس والمصابيح؛ فإنها نورٌ وإحراقٌ معًا[1].

٦ ولو كشف اللهُ ذلك الحجاب لأحرقَ **جمالُ وجهه وبهاؤه وضياؤه** كلَّ شيء يراه اللهُ تعالى أو يرى اللهَ تعالى، ومقتضى ذلك أن يحرق به جميع الخلق؛ فإنه سبحانه لمَّا تجلَّى للجبل لم يستطع الجبل -وهو الجماد الصُّلب- أن يحتمل ذلك: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فكيف إذا تجلى للإنسان؟



(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٦/ ٣٨٧).

١ أعظم ما قام به المتكلمون: هو عن الكلام عن الله تعالى، فليكن حديثك معطَّرًا بذكره، فحينًا في الإخبار عن أسمائه وصفاته، وحينًا عن أوامره ونواهيه، وحينًا عن مواعظه وما أخبر به من قصص الأولين، وعاقبة الآخرين.

٢ صفات الله تعالى من الأمور الغيبية، فخذها من قول الله تعالى وقول نبيه ﷺ، وقفْ على ما جاء عنهما ولو كان كلامًا قليلًا في نظرك، وآمن بها من غير تعطيل لها عن معناها، ولا تمثيل لها بصفات المخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٣ إذا أويت إلى فراشك، ففوّض أمرك إلى الله ثم نم مطمئنًا، فالله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، والله خير حافظًا، وهو أرحم الراحمين، ولهذا جاء في الذكر قبل النوم: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وجْهِي إِلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ ولَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»(١).

٤ تذكر دائمًا قرب الله تعالى وشهوده ، فالله لا ينام إذا نامت عين الظالم، ولا ينام حين ينام الرقيب فتميل بعض النفوس إلى معصية، ولا ينام حين يراك تقوم وتتقلب في الساجدين، تدعو الله أن يرحمك ويعطيك.

٥ كن راضيًا بقضاء الله تعالى فيما يدبره الله تعالى فيرفعه أو يخفضه، من رزق وحرمان، وعزٍّ وذلّ، سواء كان ذلك في دارسة، أو مال، أو ثناء من الناس، أو منصب وظيفي، فهو سبحانه يوزع لكل أحد قسطه ونصيبه بحكمة وعدل، واجتهد فيما يرضي الله تعالى.

٦ بادر بالصالحاتِ كلَّ ليل ونهار، قال داودُ الطَّائِيُّ -رحمه الله-: "إنّما اللّيل والنّهار مراحلُ ينزلها النّاس مرحلةً مرحلةً حتّى ينتهيَ ذلك بهم إلى آخِر سَفَرهم، فإن استطعتَ أن تقدِّم في كلِّ مرحلة زادًا لما بين يديها، فافعل؛ فإنّ انقطاع السَّفَر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزوَّدْ لسفرك، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنّك بالأمر قد بَغتَّكَ"(٢).

(١) البخاريُّ (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٢).

٧ على العبد أن يُسارع في التوبة، ويبادر إلى الاستغفار مما وقع منه من الزلّات قبل أن تُرفع الأعمالُ إلى الله سبحانه، فإن الله «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ».

٨ النفوس متعلقة بالجمال من كل شيء، من جمال الذات والصفات، ولا أجمل من الله تعالى، وحجابه النور فتعلق.

٩ سلِّم لله تعالى في أخباره وأحكامه، فهناك أمور قد لا نعلم سببها ولكن الله تعالى قضاها بحكمة، فقد يتساءل أحدنا: لماذا لا نرى الله في الدنيا؟، ولا يعلم أن هذا لضعفنا وعدم قدرتنا ؛ فإن الله تعالى حجابه النور، ولو كشف اللهُ ذلك الحجاب لأحرقَ جمالُ وجهه وضياؤه كلَّ شيء يراه اللهُ تعالى أو يرى اللهَ تعالى

.

قال الشاعر:

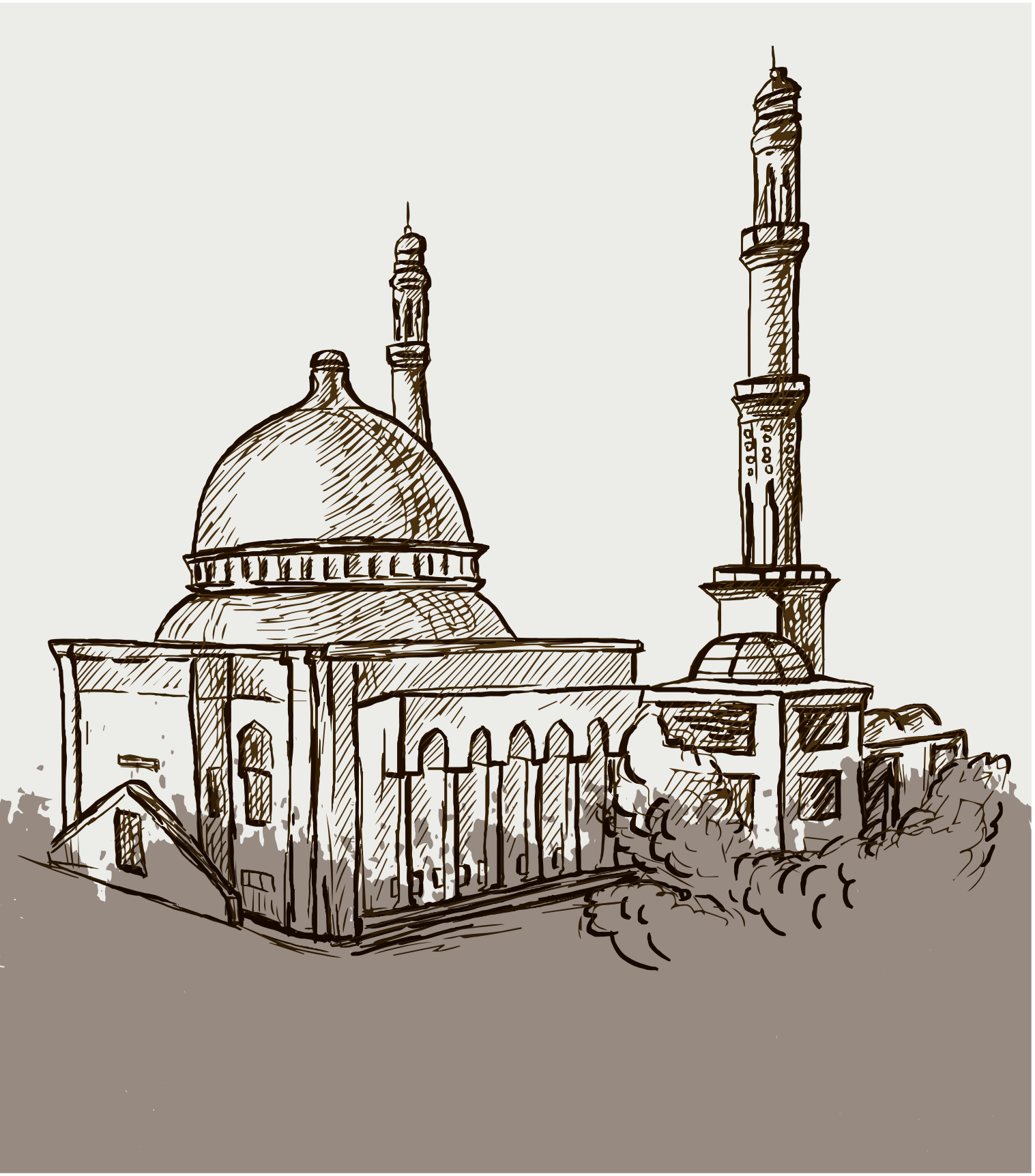
سُبْحَانَ مَن ملأَ الوجودَ أدلَّةً ... ليلُوحَ ما أخفَى بما أَبْدَاهُ

سُبحانَ مَنْ أحْيَا قلوبَ عبادِهِ ... بلوائحٍ من فَيْضِ نورِ هُداهُ

هَلْ بعدَ معرفةِ الإلَهِ زيادةٌ ... إلَّا استدامةُ ما يُديمُ رِضَاهُ

واللهِ لا آوي لغَيْرِك إنَّه ... حُرِمَ الهُدَى مَنْ لم تكنْ مأْوَاه





عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ،

٢ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ،

٣ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»(١).

(١) مسلم (٢٩٩٦).

آيات

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦- ٢٧].
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].
- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤- ١٥].
- ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الراوي

هي أمُّ المؤمنين، عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ عبدِ الله بنِ أبي قحافةَ عثمانَ بن عامرٍ القرشيةُ، التَّيميةُ، الصدِّيقة بنت الصدِّيق، الطاهرةَ المبرَّأة من السماء، تزوجها رَسُول اللهِ ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنتين، وَأَعْرَسَ بها بالمدينة بعدَ عودته من غزوة بَدْر في شَوَّال سنة ٢هـ، ولم يتزوَّج بِكرًا غيرها، وكانت أحبَّ نسائه، تُوفِّيت على الصحيح سنةَ (٧٥هـ) بالمدينة، وهي يومئذ بنتُ ستٍّ وستين سنةً (١).

خلاصة

ذكر النبيُّ ﷺ أصلَ خلقِ بعضِ الكائنات، فأخبر أنَّ الملائكة خُلقت من نور، وأن الجنَّ خُلقت من نار، وأن آدم ﷺ خُلق من التراب على نحو ما فصَّل الله في القرآن.

(١) يراجع ترجمتها في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٧/ ١٨٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٨/ ٢٣٤).

١ ذكر النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تعالى قد خلق الملائكةَ من النور.

والملائكةُ خلقٌ من خلقِ الله تعالى، لهم أجسامٌ نورانية لطيفة، قادرةٌ على التشكُّل والتمثُّل والتصوُّر بالصور الكريمة، ولهم قوًى عظيمةٌ وقدرةٌ كبيرة على التنقُّل، وهم خلقٌ كثير لا يَعلَم عددَهم إلا الله سبحانه، اختارهم لعبادته والقيام بأمره، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون[١].

٢ ثم أخبر ﷺ أن الله سبحانه **خلق الجِنَّ** -وهم خلق غيبي لا يراه الناس-، من **اللهب المختلط بسواد النار**.

٣ ثم ذكر ﷺ أن الله خلق آدمَ أبا البشر مما وصف لنا في القرآن وأخبر به ﷺ في السُّنَّة. وهذا من الاختصار والإيجاز، وقد أُوتي ﷺ جوامع الكلم، وقد جاء وصفُ خلقِ آدم في كتاب الله تعالى مرارًا، فالله تعالى خلقه من تراب؛ أضاف إليه ماءً فصار طينًا لازبًا أي يمتزج ببعضه ويلتصق، ثم تُرك حتى اسودَّ وأنتن وذلك الحمأ المسنون، ثم طُبخ في النار حتى يبس وصار كالفخار[٢].

وقد أخبر ﷺ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخذ قبضاتٍ مختلفة من تراب الأرض لخلق آدم، ولذلك اختلفت أجناس الناس وطبائعهم، فَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ»[٣]، كما أنَّ خلق الإنسان اختلف أنواعًا؛ فخلقُ آدم لا يشبه خَلْقَ حوَّاء، وخَلْقُ عيسى مخالفٌ لهما، وخَلْقُ الثلاثة غير خَلْقِ سائر البشر.



(١) ينظر: «عالم الملائكة» للأشقر مواضع متفرقة، «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٤٥٠).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٤)، «تفسير النسفي» (٣/ ٤١١).

(٣) أحمد (١٩٥٨٢) وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذيُّ (٢٩٥٥).

استنباط

١ الإيمان بالملائكة والجنِّ من الأمور الغيبية، ومقتضى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ تصديقهما فيما أخبرا به عن ذلك، وقد امتدح اللهُ تعالى المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ولا يلزم المسلم أن يستدل بعد ذلك على وجود الملائكة أو الجن بمختبرات ودراسات، فهو يصدق بإخبار الله تعالى الذي دلت أعظم الأدلة على صدقه وصدق رسوله ﷺ.

٢ هذا الحديث دليل على عظم قدرة الله تعالى، حيث خلق ثلاث مخلوقات من ثلاثة مواد مختلفة الجنس، وكل منها له صفاته الخاصة به، والتفكُّر في صُنع الله تعالى يُورث القلبَ إيمانًا وتقوى ومهابةً لله تعالى، ولذلك أَمَر سبحانه في كثيرٍ من آياته بالتفكر في خلق الله تعالى.

٣ الله تعالى أظهر تكريم الملائكة بكونه خلقهم من نور، وهو يستدعي تكريمهم، ومحبتهم، فيتجنب المسلم ما ينافي ذلك، كإبقاء الكلب والتماثيل في المنزل -لكونها تمنع الملائكة-، أو الإصرار على المعاصي وهو يعلم أن الملائكة يكتبون.

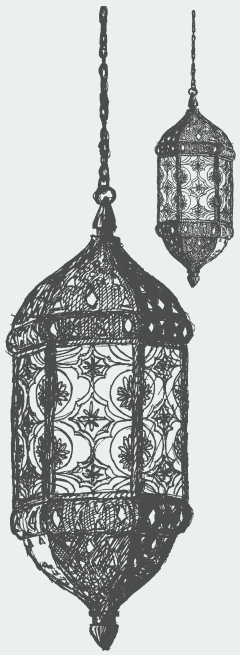
٤ ينبغي على المُعَلِّم والداعية أن يُفصِّل ما يغيب عن عِلْم الناس، ويختصر ما عَلِمُوه وشاهدوه واستفاض فيهم أمره، وإلا كان الكلام حشوًا وثرثرةً بلا فائدة.

قال الشاعر:

لله في الآفاقِ آياتٌ لعلَّ ... أَقَلَّهَا هُوَ مَا إِلَيْهِ هَدَاكَ

وَلَعَلَّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ آيَاتِهِ ... عَجَبٌ عُجَابٌ لَوْ تَرَى عَيْنَاكَ

اَلْكَوْنُ مَشْحُونٌ بِأَسْرَارٍ إِذَا ... حَاوَلْتَ تَفْسِيرًا لَهَا أَعْيَاكَ





عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ:

١ «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ،

٢ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ،

٣ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا،

٤ حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»،

٥ قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ - ٣]»،

٦ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﵂، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ.

٧ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

٨ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا:

٩ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،

آيـــات

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤].
- ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣]

الراوي

هي أُمُّ المؤمنين، عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ عبدِ الله بنِ أبي قحافةَ عثمانَ بن عامرٍ القرشيةُ، التَّيميةُ، الصدِّيقة بنت الصدِّيق، الطَّاهرة المبرَّأة من السماء، تزوَّجها النبيُّ ﷺ بعد وفاة السيدة خديجةَ ﵂، ولم يتزوَّج بكرًا غيرها، ولا أحَبَّ امرأة حُبَّها، تُوفِّيت على الصحيح سنةَ (٥٧هـ) بالمدينة، وهي يومئذ بنتُ ستٍّ وستين سنةً[1].

(١) يراجع ترجمتها في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٧/ ١٨٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٨/ ٢٣٤).



الحديث

١٠ وَتَحْمِلُ الكَلَّ،

١١ وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ،

١٢ وَتَقْرِي الضَّيْفَ،

١٣ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ،

١٤ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرءًا تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ،

١٥ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا بْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى،

١٦ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ!

١٧ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ،

١٨ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

١٩ ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ» متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٣)، ومسلم (١٦٠).

خلاصة

تخبر أم المؤمنين عائشة ﵂ عن ابتداء نزول الوحي على النبيِّ ﷺ بدءًا من الرؤى الصالحة التي تتحقَّق، ثم نزول جبريل عليه السلام عليه ﷺ في غار حراء حينما كان يتعبَّدُ لله تعالَى، ونزول الوحي عليه، وطمأنة خديجة ﵂ له، وما قاله له ورقةُ بن نوفل.

١ تُخبر عائشة ﵂ أنَّ أول ما وقع من النبوة على رسول الله ﷺ كان في صورة الرؤيا الصادقة، فكان يرى الشيء في منامه ثم يتحقق في اليقظة بتمامه، واضحًا جليًّا **كوضوح الصبح ونوره**، ولم يكن في تلك الرؤى ما في رؤى الناس وأحلامهم من أضغاث الأحلام ونحوها، بل كانت كلُّها صادقةً، كأنَّها تُمَهِّدُ لأمرٍ عظيم.

وإنما بدأ الوحيُ بتلك المُبَشِّرات -مثل: الرؤى الصالحة، وسماعه تسبيح الحصى بمكة قبل دعوته، وسلام الحجر عليه بالنبوة وغير ذلك-؛ ليتمهَّد له الأمر، فيستشعر عظيمَ ما يُرادُ به، ويستعدَّ لما ينتظره، فلا يفجَأُه المَلَك بما لا تحتمله قوى البشرية، بل يأتيه وعنده من المقدمات ما يُثَبِّتُ قلبَه[1].

٢ ثم وقع في نفسه ﷺ بعد ذلك محبة **الخُلْوَة بالنفس والانفراد بها، بعيدًا عن مخالطة الناس**، وللخلوة أحيانًا أثرٌ في استفراغ القلبِ من شواغل الدنيا، فيستقيم فكرُ الإنسان ويُهَذَّبُ خُلُقُه.

٣ فكان ﷺ يخلو في غارٍ في جبلِ حِرَاء بمكة، لياليَ كثيرة، **يتعبَّدُ** فيها لله تعالى، فيخرج إلى الجبل إذا أراد الخلوة ومعه ما يكفيه من الزاد، فإذا انتهى ما معه عاد إلى أهله فتزوَّد لمثل تلك الأيام التي مضت.

٤ وبينما رسول الله ﷺ يتعبدُ مرَّةً من المرات إذ جاءه الوحيُ صراحةً، فنزل عليه المَلَك، وهو جبريل عليه السلام أمين الوحي، فقال له: «اقرأ»، فردَّ عليه ﷺ: «ما أنا بقارئٍ»؛ أي: لا أعرف القِراءة؛ فقد كان ﷺ أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٥ فلمَّا قال له النبيُّ ﷺ ذلك أخذه **فضمَّه وعصَره** حتى أتعبه ونالته **المشقة**، ثم تركه وقال له: «اقرأ»، فردَّ عليه ﷺ بالردِّ السابق نفْسِه، فأخذه فضمَّه كذلك، ثم أرسله من جديدٍ وقال ما قال، وردَّ عليه ﷺ بما ردَّ، فأخذه الثالثة وضمَّه إليه، ثم أرسله، ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥]؛ فكان ذلك أوَّل ما نزل من القرآن.

٦ بعد ذلك رجع النبيُّ ﷺ إلى زوجه خديجة؛ خائفًا **يخفِق قلبُه وينبض بشدة** مما أصابه من الخوف، فدخل عليها يطلب منها **أن تُغَطِّيَه**؛ فإن الخائفَ يشعر ببرودة شديدة في مفاصله وأعضائه، فغَطَّته ولفَّته حتى ذهب عنه ما به من **شدة الخوف**.

٧ ثم أخبرها الخبر وقصَّ عليها ما جرى له في الغار، وقال لها: لقد خشيت على نفسي؛ أي: خاف أن ينخلع قلبه من شدة خوفه مما رأى من صورة المَلَك[2].

---

(١) انظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (١/ ٤٨٤، ٤٨٥).

٨ فقالت خديجة ﵂ مُطَمْئِنَةً له: والله لا يَسُوؤُك الله أبدًا، ولا يكون الذي أصابَكَ مكروهًا بتسليط شيطانٍ ونحوه؛ فإنَّ صنائع المعروف تقي مصارع السوء، ثم أخذت تُعدِّد مكارم أخلاقه:

٩ من صلة أرحامه، بزيارتهم والسؤال عنهم،

١٠ ومِنْ قيامِه بأمر **مَن لا يستطيع القيام بأمر نفسه**، كالضعيف واليتيم وغيرهما،

١١ ومِن إعطاء المال لمن لا يجد مالًا،

١٢ ومِن إكرام الضيف وتقديم الطعام والشراب له،

١٣ ومن إعانته الناسَ فيما ينزل عليهم من المصائب التي نزلت عليهم بحق -لا إعانة الذين مصيبتهم بسبب معاصيهم، واجترائهم على الله تعالى-.

١٤ ثم أخذته خديجةُ ﵂ إلى ابن عمِّها ورقةَ بن نوفل، وقد كان ترك عبادة الأصنام واعتنق النصرانية، وكان يعرف التوراة والإنجيل، ويُتقن الكتابةَ واللغة العبرية وهي لغة اليهود، حتى بلغ من إجادته أنه كان يكتب ما يشاء من الإنجيل باللغة العبرية، وكان ورقة قد كبرت سِنُّه جدًّا حتى كُفَّ بصره.

١٥ فلمَّا قصَّ النبيُّ ﷺ على ورقةَ ما رآه، أخبره ورقة أنَّ الذي رآه هو **صاحب السِّر** الذي أنزله الله على موسى، يريد به جبريل عليه السلام، وإنَّما سمَّاه بذلك لاختصاصه بالوحي من بين سائر الملائكة؛ فكان مقتضى كلام ورقة أنَّه ﷺ صار نبيًّا أرسله الله إلى قومه كما أرسل موسى ﷺ إلى بني إسرائيل.

١٦ ثم ذكر ورقةُ أنَّ قومه سيُكذبونه ويُحاربونه حتى يخرجوه من بلده، ويتمنى أن يكون حينئذ **شابًّا قويًّا** يستطيع أن يدافع عن النبيِّ ويجاهد معه، ويرجو أن يكون حيًّا وقتئذ.

١٧ فتعجب النبيُّ ﷺ من كلام ورقة، واستنكر أن يُخرجه قومه من مكة حين يدعوهم إلى النجاة وإلى توحيد الله تعالى، وقد عرفت قريشٌ صدقَه وأمانته قبل ذلك. فأخبره ورقة بأن ذلك شأن جميع الأنبياء وديدنهم، لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء إلا عُودي وحُورب.

١٨ ثمَّ أخبره ورقة أنَّه إن كان حيًّا حين ظهور نبوته وانتشار دينه، وربما أراد حين إخراج قومه له وتكذيبهم إياه، لينصرنَّه بكل ما أُوتي من قوة، نصرًا بيِّنًا واضحًا بالبيِّنات والحجج الواضحة على صدقه ونبوَّته.

١٩ ثم لم **تمضِ مدةٌ** حتى مات ورقة، **وتأخر نزول** الوحي مُدَّةً.

الثّبات

١ تزوج النبيُّ ﷺ عائشة وهي صغيرة، ولمَّا نزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٨- ٢٩] أمرها أن تستشيرَ أبويها فأبَتْ وقالت: «فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ»[1]، وهي وقتها في سن المراهقة، فهي قدوةٌ لنا في إيثار الله تعالى ورسوله ﷺ.

٢ تروي عائشة رضي الله عنها هذا الحديث، وفيه بيان فضائل خديجة التي قالت في حقها: «مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ»[2]، ولم تمنعها الغيرة التي فطر اللهُ النساءَ عليها من أن تُحَدِّث بهذا الحديث؛ فلا يجدر بإنسانٍ أن يكتم فضلَ امرئٍ أو يجحده حقَّه لمنافسته أو خصومته، سواءً كان في عمله أم في الحياة اليومية.

٣ دلَّ غَطُّ جبريل عليه السلام النبيَّ ﷺ، وقوله: «اقرأ» مرارًا، على استحباب تكرار الكلام حتى يُفهم عن صاحبه، والتمهيد بما يقطع السامعِ عن المُلهيات والشواغل، حتى يكون حاضر الذهن لما يسمع، وهي فائدة حسنة للدعاة والمعلمين والمربِّين؛ بتجنيب الناس ما يشغلهم عن العلم والموعظة من المؤثرات البصرية والسمعية.

٤ لمَّا رجع النبيُّ ﷺ إلى خديجة خائفًا ممَّا أصابه وقصَّ عليها الأمر: لم تجزع أو يذهب رأيها، ولم تشغله بسؤال عما جرى بل سارعت لضمّه بالثياب حتى سكن روعه، ولم تُكذِّبه ولم تتَّهم عقله، بل صدَّقته، وبشَّرته بأنَّ المتصف بمثل خصاله الحسنة لا يُخزيه الله أبدًا، وأكدت ذلك بمؤكدات (كلا، والله، أبدًا..)، وطمأنته بما فيه من صفات جميلة، ولم تكتفِ بذلك بل أخذته إلى ابن عمِّها الذي يُحسن تأويلَ ما حدث، وكانت بعدَ ذلك أول مَن آمن به. وهي رضي الله عنها مثال الزوجة الصالحة التي تعين زوجها وتخفف عنه عناءَ ما يجده من قسوة الحياة وأعبائها.



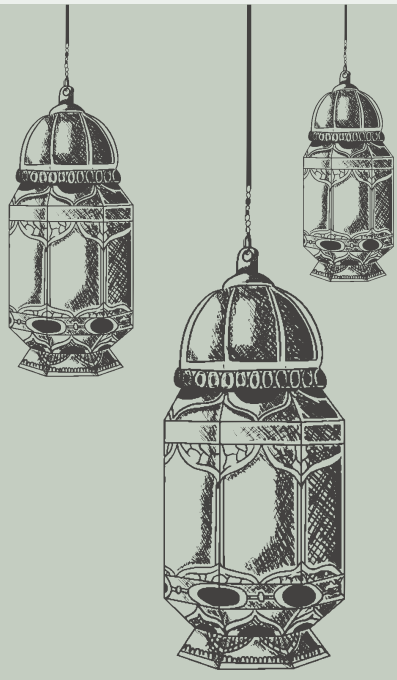
(١) البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥).

(٢) البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

٥ أدركت خديجةُ العاقلة سنة الله تعالى الكونية بأن الله يعين من يعين الناس، فلا يخزيه، فلا تستخسر جهد بدنك أو مالك أو وقتك أو فكرتك، وقدم المعروف للناس بنفس قوية منشرحة، واحتساب لله، وابذل في وقت رخائك لشدتك.

٦ استلهم تلك الصفات التي تحلى بها خير البشر، وهي ليست شيئًا يفعل مرة، بل خُلُق يكرر حتى تكون صفة لصاحبها: صلة الرحم بزيارات واتصالات وإعانةٍ وكل صلة جميلة، والشهامة بالقيام مع **مَن لا يستطيع القيام بأمر نفسه** من ضعفاء الجسد أو الخبرة، وتيسير المال أو سبيله كالعمل والوظيفة للمعدوم، ومِن إكرام الضيف المارّ به في منزل أو مكان عمل، ومن الوقوف مع كل مصاب.

٧ الأصل تجنب مدح الإنسان في وجهه، لما يخشى في ذلك من الغرور ومن تغير النية إلى الدنيا، لكن دلَّ فعلُ خديجة رضي الله عنها على أنه يجوز للإنسان أن يمدح أخاه في وجهه لمصلحة، كأن يبادر إلى تثبيته في فتنةٍ، أو تبشيره بعاقبة صبره ونحو ذلك، خاصةً إذا أَمِنَ المادحُ أن يغترَّ الممدوح بكلامه[1].



٨ في قول ورقة بن نوفل: «لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ» دليلٌ على أنَّ معاداة الناسِ للصالحين والدعاة إلى الحقِّ ليس أمرًا مُستحدَثًا، بل هذا شأن الأنبياء ومَن سار على منهجهم في الدعوة؛ فلا ينبغي لداعيةٍ أن ينصرف عن دعوته لتكالب الفاسدين عليه.

٩ كان النبيُّ ﷺ يحب الخلوة بنفسه ليتعبد لله تعالى، منقطعًا عن البشر ورغبات الدنيا وأحاديثها، والخلوة أحيانًا نافعةٌ، من غير أن يكون فيها إخلالٌ بمصالح الناس؛ كأن يترك الإنسان عملَه وقضاءَ مصالحه بدافع الخلوة كما يفعله أصحاب الديانات المنحرفة، أو أن يتعبد بخلوة ليست بعبادة.

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (٢/ ٢٠٢).



عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

١ «أنا أَوْلى الناس بعِيسى بنِ مَريمَ في الدنيا والآخرةِ،

٢ والأنبياءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أمهاتُهم شتَّى، ودِينُهم واحدٌ»،

٣ وفي رواية: «ليس بَيْني وبينَه نَبِيٌّ»[1].

(١) البخاريُّ (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

آيات

- ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].
- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].
- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: ٧٨].
- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّه أولى الناس بنبيِّ الله عيسى ﷺ، فليس بينه وبينه نبيٌّ، كما أنَّ جميع الأنبياء إخوةٌ جَمَعَهُم الدينُ الواحدُ.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

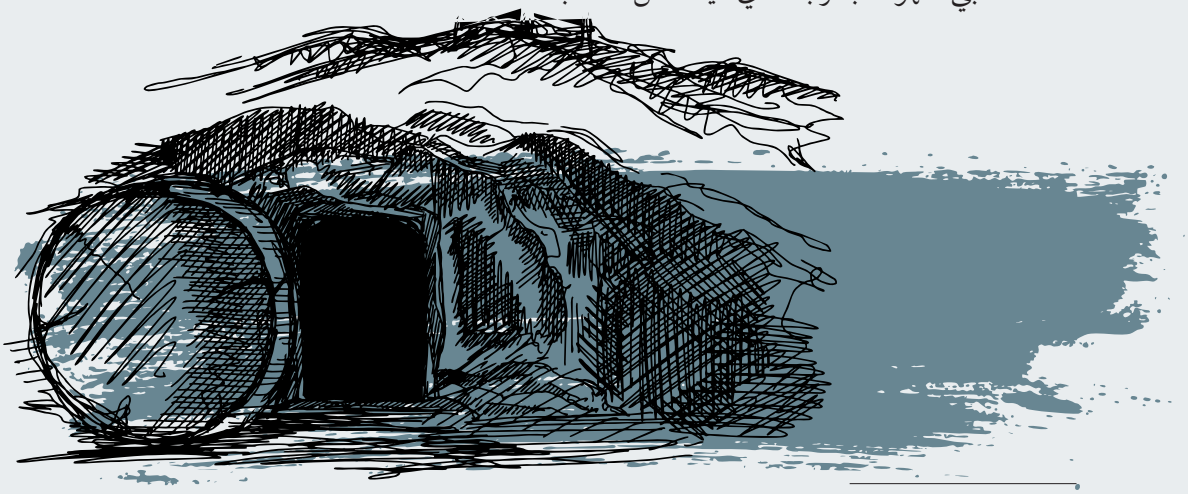
١ يذكر ﷺ أنه أقرب الناس وأحقُّهم بعيسى ابن مريم ﷺ في الدنيا والآخرة، وإنما ذكرَ ﷺ عيسى دون غيره من الأنبياء لأسبابٍ، منها: أنَّه ليس بينهما نبيٌّ؛ فقد بشَّر عيسى ﷺ بنبوة محمد ﷺ ومهَّد لرسالته، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

كما أنه ينزل في آخر الزمان متبعًا للنبي ﷺ حاكمًا بشريعته، يقاتلُ الدجالَ بجيش المسلمين [(١)].

٢ ثمَّ مثَّل النبيُّ ﷺ العلاقة بين الأنبياء بالإخوة من الضرائر الذين لهم أبٌ واحدٌ وأمهات مختلفة، فالدِّين الواحد الذي جمعهم أشبه ما يكون بالأب الواحد؛ وإن اختلفت الشرائع الفقهية التي هي كالأمهات.

وهذا الدين الذي قرَّبهم جميعًا هو الإسلام الذي هو التوحيد وطاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والأنبياء كانوا يأمرون بالإسلام وينتسبون إليه، لأن حقيقته الاستسلام لله في أخباره وأوامره، وأما فروع الأحكام فقد اختلفت فيه شرائع الأنبياء، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨][(٢)].

٣ وفي رواية لمسلم أنَّ النبيَّ ﷺ علَّل سبب أولويته بعيسى ابن مريم ﷺ دون سائر الأنبياء، وهو أنَّه ليس بينه وبينه نبيٌّ، فهو المُبَشِّر به الذي هيَّأ الناسَ لاستقباله.



(١) انظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٦/ ١٨٤)، «طرح التثريب في شرح التقريب» للعراقيِّ (٦/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥/ ١٥٩).

١ إذا أردت أن تشرح شيئًا مهمًا لأولادك أو طلابك أو للناس فاستعمل التشبيهات، كأن تستفيد من التشبيهات المشهورة، أو تبحث عن أقرب مثال لما تريد، لأنها تقرب المعنى وترسخه، كما شبَّه النبيُّ ﷺ العلاقة بين الأنبياء بالإخوة من أبٍ واحد وأمهات مختلفة.

٢ النبي ﷺ بيَّن سبب ولايته بعيسى باتحاد أصل الدين وبتواليهم في النبوة، فلا تهمل عند الحاجة -كالأمور المستغربة- أن تُبيّن سببَ أحكامك التي تلقيها على أولادك أو طلابك أو موظفيك، فهم إذا عرفوا سبب ما تأمر به أو تنهى عنه أو تخبر به، فهموا المقصد، وخف عليهم الطلب.

٣ حين تنتمي إلى تاريخ وأمة؛ فتذكر أن تاريخك ممتد إلى كافة الأنبياء، كلهم إخوة لنبيك الذي تؤمن به، وتنبعث مشاعرك بتقديرهم وحبهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فاقتدِ بهداهم، وتداول مع أهلك وصحبك سيرتهم.

٤ التوحيدُ من أولى ما يعتني بتكميله الوالدان، والداعية، والمعلّم، ومقدِّمُ المشاريع المجتمعية..، فهو الأصلُ الذي اتفقت عليه الأنبياءُ، فتعلَّم معاني الإيمان، وانتبه لتفاصيلها، وقرِّب لها الخطوات، واضرب لها الأمثلة.

٥ ما أجمل الموالاة بين الأنبياء، فهم إخوة، فكن مواليًا لمن أنت أخٌ لهم من المؤمنين، وخصوصًا أولئك الذين لك ليس بينك وبينهم بُعد، من ذوي القربى في النسب، أو العمل.

٦ من لطيف الدعوة؛ خصوصًا مع النصارى: تذكيرهم بإخوة الأنبياء، وأن أولى الناس بعيسى عليه السلام هو محمد ﷺ فكلاهما جاء بالهدايات العلمية والعملية من الله تعالى.



عن ابن عبَّاس ﷺ قال:

١ (بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لأربعين سنةً،

٢ فمكثَ بمكةَ ثلاثَ عشْرةَ سنةً يُوحَى إليه،

٣ ثم أُمِر بالهجرةِ فهاجر عشْرَ سنين،

٤ ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستينَ سنةً)[1].

(١) البخاريُّ (٣٨٥١) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٣٥١).

آيات

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]

الرّاوي

هو: أبو العبَّاس، عبدُ الله بنُ عبَّاسِ بنِ عبد المطَّلِب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، المَدَنيُّ، وُلد بشِعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاثِ سنين، وهو ﷺ حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وكان يُقال له: البَحر؛ لكثرة عِلمِه؛ فقد دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]، وهو من الصحابة المُكْثِرين من رواية الحديث، روى (١٦٩٦) حديثًا، أسلم صغيرًا، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخِرِ عُمُره، وتُوفِّيَ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)[2].

خلاصة

أخبر ابن عباس ﷺ عن بعض مراحل حياة النبي ﷺ؛ فأخبر أنه بُعث وهو ابن أربعين سنة، وهاجر من مكة إلى يثرب بعد ثلاث عشرة سنة، فأقام في المدينة عشر سنين، ثم انتقل ﷺ إلى جوار ربه جلَّ وعلا وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

الإسلام قائمٌ على شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والتعرُّف على الرسول ﷺ معينٌ على حسن الإيمان به، كيف لا وهو أكمل الناس وأكثرهم فضلًا علينا..، وفي هذا الحديث يُخبر ابنُ عبَّاس ﷺ بأهم المراحل التي مرَّ بها رسولُ الله ﷺ في حياته، فيَذكر:

١ أن رسولَ الله ﷺ نزل عليه جبريلُ عليه السلامُ بالوحي، وأمرَه بالبلاغ بعد بلوغه ﷺ سِنَّ الأربعين، أي أنه ولد في سنة ٥٣ قبل الهجرة، وكان يسمى عام الفيل، وبعث سنة ١٣ قبل الهجرة.

وقد اختار الله مكةَ لتكون مولدَ رسوله ﷺ ومكانَ نشأته، بها وُلِد ﷺ من نسَبٍ شريفٍ؛ فأبوه عبد الله بن عبد المطَّلب الهاشميُّ القرشيُّ، وأمَّه آمنةُ بنتُ عبد منافِ بنِ زُهْرةَ القرشية[١]، فكان أشرف العرب نسَبًا، قال ﷺ: «إن اللهَ اصطفى كِنانةَ من ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشًا من كِنانة، واصطفى من قُريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٢]، ومات والدُه وهو حملٌ في بطن أمِّه، فوُلِد ﷺ يتيمًا، ونشأ في كَنَف أمِّه، ثم تُوفِّيت أمُّه وهو ابنُ ستِّ سنين، فاستمر في كفالة جدِّه، ثم توفي وهو ﷺ في الثامنة من عمره، فكفَله عمُّه أبو طالب[٣].

وظلَّ ﷺ بمكة طيلةَ هذه السنوات الأربعين يربِّيه الله - عزَّ وجلَّ - ويُعِدُّه إعدادًا يَليق بمَهمَّته التي اصطفاه الله لها؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فعاش مع قومه طيِّب المعشر حَسَن الخُلق، مشاركًا لهم في كل نافع، ومبتعدًا عن كل قبيح.

وقد تزوَّج النبيُّ ﷺ من خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ ورزَقه الله منها كلَّ أبنائه وهم: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورُقَيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة -سوى إبراهيم؛ الذي جاءه في المدينة من مارية القبطية-[٤]، ثم نزل عليه جبريل عليه السلام وهو في غار حراء، وأنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فقام بأعباء النبوة.

---

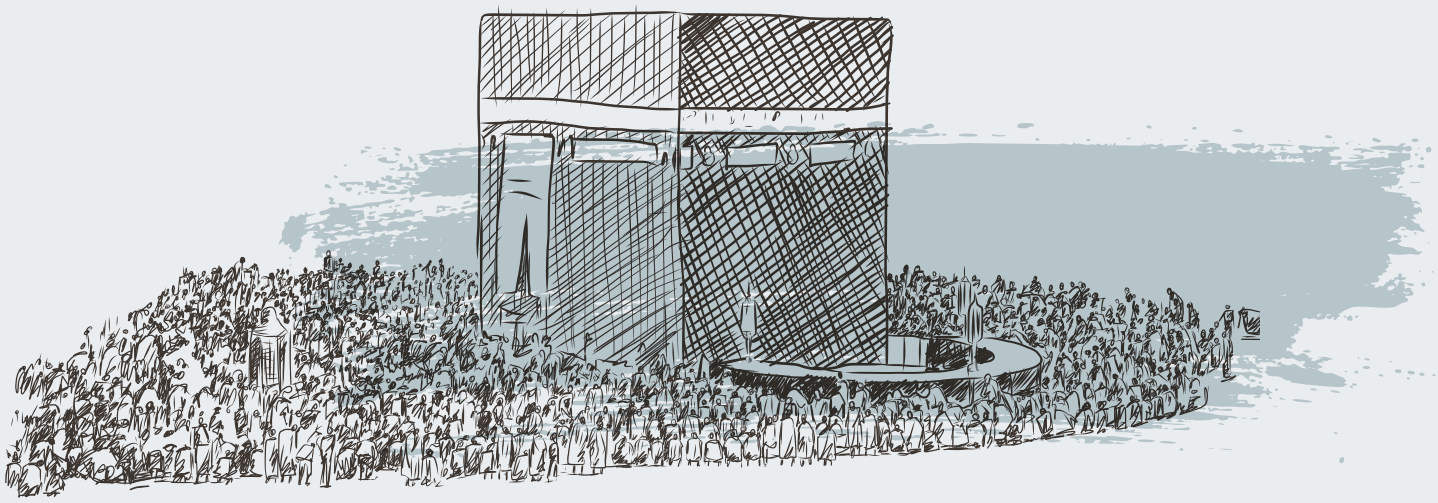
(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١١٠).

(٢) مسلمٌ (٢٢٧٦)، عن واثلة بن الأسقع ﷺ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٨: ١٧٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٧).

٢ وبعد أن نزل الوحيُ على رسول الله ﷺ **أقام** بمكة ثلاثَ عشْرةَ سنةً يُوحى إليه، ويدعو الناس بالوحي، ولاقى فيها من الإيذاء والتكذيب ما لا يتحمَّله أحدٌ، وأوذي مَن آمن معه، ولما اشتدَّ الإيذاء أمَرَهم بالهجرة إلى الحبشة في العام الخامس من البَعثة فهاجروا أكثر من مرة[١]. وظلَّ ﷺ بمكةَ يدعو، وقيَّض الله له عمَّه أبا طالب وزوجَه أمَّ المؤمنين خديجةَ يساندانه، حتى كان العام العاشر من البعثة، فماتا، وبحث عمن ينصر دينه في الطائف وفي مواسم الحجِّ وغيرها فكان يُؤذى[٢].



٣ وبعد أن أكمل ﷺ بمكة ثلاثَ عشْرةَ سنةً، اختار له المدينة دارًا لهجرته، فهاجر ﷺ إلى المدينة يُرافقه أبو بكر ﷺ، بعد أن سبقه أكثر أصحابه إلى هناك، ولحقه الباقون -ممن استطاع الهجرة- فيما بعدُ، فاستمر في المدينة يقوم بالدعوة والجهاد ومصالح الناس عشر سنين، حتى أتمَّ اللهُ النعمةَ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجًا.

٤ ثم أخبر ابنُ عباس ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ مات وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة، بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الدعوة، ثلاثة عشر منها في مكة، وعشرة في المدينة. وكانت وفاته في حجرة عائشة ﷺ، يومَ الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة على صاحبها الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث» (ص ١٩١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث» (ص ٢٠٧).

اتّبعني

١ ثق بربوبية الله تعالى ورحمته، واطلب عونه، فقد وُلد ﷺ يتيم الأب، ثم ماتت أمه وجده وهو طفل، فكفله عمه على فقره وكثرة أولاده، والعادة في مثل هذا اليتيم أن ينشأ محطمًا ناقص الرعاية، لكنَّ الله سبحانه بيده مقادير الأمور، فجعل من هذا اليتيم بعد سنين وسنين سيدًا للعالمين. فلا يقنط الإنسان من رحمة الله مهما ضاقت الظروف، وليثق أنَّ له ربًّا يدبر الأمر، يقول للشيء: كن، فيكون.

٢ ظلَّ النبيُّ ﷺ ثلاثة عشر سنة يدعو الناس في مكة، يخرج إلى الأسواق واجتماعات الناس ليدعوَهم، لا يكلُّ، ولا يمَلُّ، ولا ييأس من إيمان قومه، ولا يعبأ بتكذيبهم واتهامهم له، رفيقًا في قوله ولسانه، رحيمًا بقومه، يدعو الله لهم بالهداية، ويعين على مصالح الناس من حفظ الأمانات وغيرها، ولم يجزع لموت عمه الذي كان يحميه من أذى قومه، ولا انكسر بموت زوجه وحبيبته خديجة التي ناصرته وأيَّدته في دين الله بنفسها ومالها، أفلا يكون ﷺ أسوةً للدعاة وطلبة العلم والوُعَّاظ في سبيل الصبر على الدعوة واحتمال أذى الناس وهم لم يلاقوا بعض ما لاقى؟!



٣ لمَّا جاء أمرُ الله لنبيه ﷺ بالهجرة لم يحزن لترك الأهل والمال والدار والوطن، وإنما امتثل أمرَ الله تعالى مع مشقته على نفسه. وهذا حال المؤمن؛ يهون عليه ما يلقى لأجل مرضاة الله تعالى.

٤ في الهجرة سعة، ولا يلزم من الهجرة أن تكون من بلد إلى بلد، فقد تكون من بيئة وعمل إلى بيئة وعمل آخر أكثر رضا لله تعالى.

٥ مرَّت حياةُ رسول الله ﷺ بمراحلَ متنوِّعةٍ، وظروفٍ مختلفة، ما بين اليُسر والعُسر، والشدَّة والرخاء، والحرب والسِّلم، والسِّرِّ والجهر، والاستضعاف والتمكين، فشَمِلت الحياةَ الإنسانيةَ بكلِّ حالاتها ومراحلها، وقدَّمت في ذلك النَّمُوذجَ الكامل في التأسِّي والاقتداء، وتقبل قدر الله تعالى على كل حال.

فلا تيأس إن تأخرت النتائج المبشرة، فكم بين تكذيب أبي لهب لرسول الله ﷺ بمكة، وبين عودته فاتحًا لمكة بجموع الصحابة؟ ليست أياما ولا شهورا ولا بضع سنين، بل سنين طويلة..؛ ولربك فاصبر

٦ لا بد من الموت ولو كان لأشرف الخلق، وأكملهم قوة، وعقلًا، وحماية لصحته مما يفسدها، ودعوة لربه بالعفو والعافية، ونفعًا للناس، ﷺ، فلا ينبغي أن يغفل العاقل عن الموت، أو يتناساه من حسابه، أو يجزع لموت قريب أو حبيب، أو عالم، أو مصلح.

قال الشاعر:

وُلِـدَ الْيَتِيـمُ فَعَـزَّ وَصْفًـا فِي الْـوَرَى ... فَلْيَفْخَـرِ الْمِسْـكِينُ وَالْأَيْتَـامُ

كَالْفَجْـرِ يَخْـرُجُ مِـنْ ظَـلَامٍ دَامِـسٍ ... كَالـرُّوحِ تُحْيِـي الْمَيْـتَ وَهْـوَ رِمَـامُ

مَـا أَسْـعَدَ الدُّنْيَـا تَعَاظَـمَ فَرْحُهَـا! ... سَـيَظَلُّ يَغْشَـى وَجْهَهَـا الْإِسْـلَامُ

قال حسان بن ثابت[1]:

قَومـي الَّذيـنَ هُـمُ آوَوا نَبِيَّهُـمُ ... وَصَدَّقـوهُ وَأَهـلُ الأَرضِ كُفّـارُ

إِلّا خَصائِـصَ أَقـوامٍ هُـمُ سَـلَفًا ... لِلصالِحِـينَ مَـعَ الأَنصـارِ أَنصـارُ

مُسـتَبشِرينَ بِقَسـمِ اللهِ قَولُهُـمُ ... لَمّـا أَتاهُـم كَريـمُ الأَصـلِ مُختـارُ

أَهـلًا وَسَـهلًا فَفـي أَمـنٍ وَفي سِـعَةٍ ... نِعـمَ النَبـيُّ وَنِعـمَ القَسـمُ وَالجـارُ

فَأَنزَلـوهُ بِـدارٍ لا يَخـافُ بِهـا ... مَـن كانَ جارَهُـمُ دارًا هِـيَ الـدارُ



(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٤).



عن الْمِقدامِ بنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال:

١ «ألا هل عسى رجُلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عَنِّي وهو مُتَّكِئٌ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله، فما وجدْنا فيه حلالًا استَحْلَلناه، وما وجدْنا فيه حرامًا حرَّمناه،

٢ وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ الله ﷺ كما حرَّمَ اللهُ»[1].

٣ وفي لفظ أبي داودَ: «ألا إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه».

(١) أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذيُّ (٢٦٦٤)، واللفظ له، وابن ماجه (١٢).

آيات

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء: ٥٩].
- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].
- ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].
- ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].
- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].
- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

الراوي

هو: المقدامُ بنُ مَعْدِي كَرِبَ بنِ عمرٍو الكِنْديُّ، أبو كريمةَ، صاحبُ رسول الله ﷺ، وَفَد المقدام بن معدي كرب الكنديُّ على النبيِّ ﷺ، وأقام أربعين يومًا بالمدينة، وسكن حِمْصَ، وتوفِّي سنةَ (٨٧هـ)[1].

خلاصة

ينهى النبيُّ ﷺ أن يُنكر بعضُ النَّاس الاحتجاجَ بالسُّنَّة زاعمين أنَّ ما في القرآن كافٍ؛ فإنَّ السُّنَّةَ وحيٌ مثل القرآن.

(١) تراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٨٢)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٢٤٤)، «تاريخ الإسلام» للذهبيِّ (٢/ ١٠٠٩)

١ يُحذِّر النبيُّ ﷺ أُمَّته من أن تقول في الدين برأيها مُتَّبِعةً الهَوى، حتى يأتي الرجلُ منهم وهو جاهلٌ مُعْرِضٌ عن العلمِ وأهلِه، ترك مجالس العلم وآثر الراحة والكسل، فيقول وهو **متكئٌ على سريره أو وسادته**: علينا أن نكتفيَ بما في القرآن من الأوامر والنواهي، فالحلالُ ما أحلَّه القرآنُ، والحرامُ ما حرَّمه القرآن.

وقد تحقق ذلك فعلًا في أُمَّته ﷺ، فظهر الخوارجُ والروافضُ والقرآنيون والعلمانيون وغيرهم، الذين تعلَّقوا بظاهر القرآن، وأعرضوا عن الاحتكام إلى سُنَّةِ النبيِّ ﷺ، ورفضوا العملَ بالأحاديث الصحيحة، جهلًا واستكبارًا أعمى قلوبَهم وبصائرَهم[1].

٢ وقد أنكر النبيُّ ﷺ فعلَهم ذلك، وعلَّله بأنَّ أوامرَ النبيِّ ﷺ ونواهيه في وجوب الامتثال والطاعة كأوامرِ اللهِ سبحانه ونواهيه؛ فإنَّه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنَّ سُنَّته شرعٌ يجب اتباعُه، قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

٣ وأخبر النبي ﷺ أنَّ اللهَ سبحانه آتاه القرآنَ، وهو الكتاب المُنَزَّل عليه بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، المتعبَّدُ بتلاوته، المتحدَّى بكل سورةٍ فيه، المنقول بنصِّه تواترًا، وآتاه كذلك السُّنَّة، التي فيها تفسير القرآن وبيان أحكامه وحدوده، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فسمَّى السُّنَّةَ ذكرًا، وأخبر سبحانه أنَّه نزَّلها على نبيِّه.

وقد تميزت السُّنَّةُ أنَّها أتت بأحكامٍ زائدةٍ عمَّا في القرآن؛ كتحريم الذهب على الذكور، ومشروعية الخيار بأنواعه بين البائع والمشتري، والنهي عن الجمع بين المرأة وعمَّتها وبين المرأة وخالتها في النكاح، وتحريم لحوم الحُمُرِ الأهلية، وإباحة ميتة السمك والجراد، وغير ذلك.

وليس شيءٌ من هذا جاء به النبيُّ ﷺ من عنده، وإنما هو وحيٌ أوحاه اللهُ تعالى إلى نبيِّه ﷺ، وإن كان الفارق بين السُّنَّة والقرآن أنَّ السُّنَّةَ وحيٌ بالمعنى، يخبر النبيُّ ﷺ عن ذلك المعنى بما شاء من الألفاظ، قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

---

(١) انظر: «معالم السنن» للخطَّابيِّ (٤/ ٢٩٨)، «شرح المشكاة الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٢/ ٦٣٠).

اتّباعي

١ إياك والجهلَ والإعراضَ عن طلب العلم والاستكبار عن الجلوس بين يدي العلماء؛ فإنَّ ذلك سببُ البدع واتباعها.

٢ حذَّر النبيُّ ﷺ من الإعراض عن سُنَّته، فإياك أن تكون من هؤلاء المعرضين.

٣ في هذا الحديث توبيخ وتقريع لمن ردَّ السُّنَّة استغناءً عنها بالكتاب، فكيف بمن رجَّح الرّأيَ على الحديث، وإذا سَمِع حديثًا من الأحاديث الصحيحة قال: لا عليَّ بأن أعمل بها؛ فإنَّ لي مذهبًا أتَّبعه[1].

٤ إياك والاستهانة بما حرَّمه النبيُّ ﷺ أو أوجبه؛ فإنَّه في العقوبة وما حرَّمه اللهُ تعالى سواء، فضلًا عن عاقبة إنكار ما شرعه النبيُّ ﷺ.

٥ مَن ردَّ قولَ النبيِّ ﷺ فقد ردَّ قولَ اللهِ تعالى وترك الانقياد لأوامره ونواهيه، فإياك وذلك.

٦ السُّنَّةُ وحيٌ مثل القرآن، فما جاء منها من طريقٍ صحيحٍ وجب اتِّباعُه وتصديقه والإيمان به.

٧ كيف يجوز لمؤمنٍ أن يزعم الإيمانَ بالنبيِّ ﷺ ثم يُعرض عن اتِّباعه؟!

٨ لا يُشترط في الحديث الصحيح أن يوافق القرآن حتى يُقبل؛ فكثيرٌ من الأخبار النبوية جاء فيها زيادةٌ على ما في القرآن، فإذا جاءك حديثٌ صحيحٌ مُسندٌ إلى النبيِّ ﷺ فاعمل به.

٩ لو كان رسولُ اللهِ ﷺ لا يُطاع فيما كان زائدًا على القرآن، لم يكن لطاعته معنًى، وسَقَطت طاعته المختصَّة به، وإنّه إذا لم تَجِب طاعته إلَّا فيما وافَقَ القرآن، لا فيما زاد عليه، لم يكن له طاعة خاصَّة تختصُّ به، وقد قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠][2].

قال الشاعر:

وكُنْ لسُنَّةِ خَيْرِ الخَلْقِ مُتَبِعًا ... فإنَّها لنَجَاةِ الْعَبْدِ عُنْوَانُ

فَهُوَ الَّذِي شَمِلَتْ لِلْخَلْقِ أُنْعُمُهُ ... وَعَمَّهُمْ مِنْهُ فِي الدَّارَيْنِ إِحْسَانُ

وَمُذْ أَتَى أَبْصَرَتْ عُمْيُ الْقُلُوبِ بِهِ ... سُبْلَ الهُدَى وَوَعَتْ لِلْحَقِّ آذَانُ

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ مَا هَمَى مَطَرٌ ... فَأَيْنَعَتْ مِنْهُ أَوْرَاقٌ وَأَغْصَانُ

وَابْعَثْ إِلَيْهِ سَلَامًا زَاكِيًا عَطِرًا ... وَالْآلِ وَالصَّحْبِ لَا تُفْنِيهِ أَزْمَانُ

(١) «حاشية السنديِّ على سنن ابن ماجه» (١/ ٤).

(٢) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٢/ ٢٢٠).



عن أبي هريرة أن رَسُول اللهِ ﷺ قال:

١ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،

٢ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ

٣ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ،

٤ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ: إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»

مسلم[1].

(١) برقم: (٢٥٠).

آيات

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥ – ٨٨].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، من قبيلة دوسٍ (قبيلة من الأزد كانت تسكن مأرب ثم تفرقت)، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ سنة ٧هـ فقدم المدينة، ولازمَ النبيَّ ﷺ، وحرص على العلم وحفظ الحديث، وكان أكثر الصحابة روايةً للأحاديث. توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

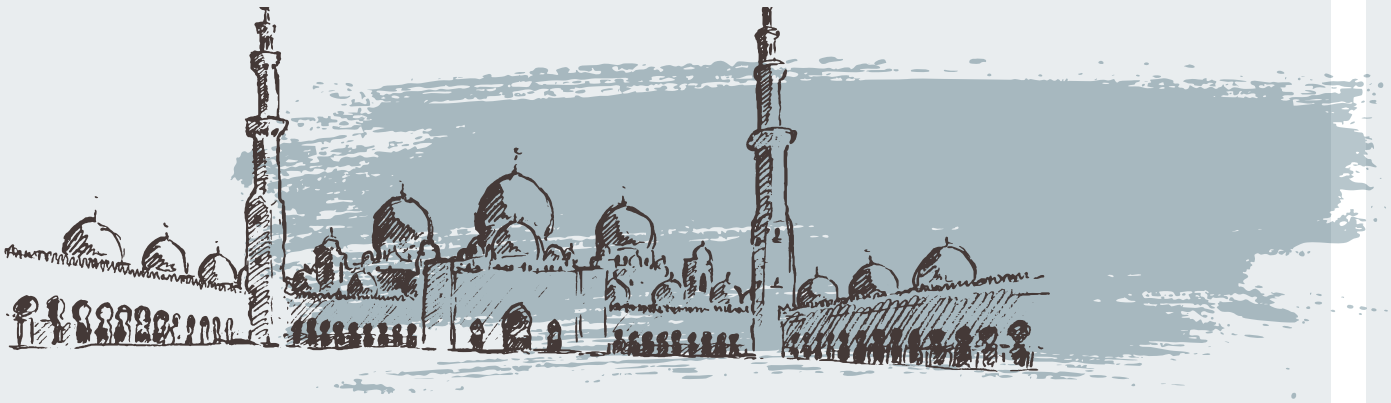
خلاصة

يُقسِم النبيُّ ﷺ أنَّه لا يُقبل من أحدٍ أدركه أو عاش بعده فسمِع به ولم يؤمن به، وأن مصيرَ كلِّ من كفر به النارُ، وإن كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يُقسم النبيُّ ﷺ على أمرٍ عظيمٍ، يريد توكيده بالحَلِف بالله. فيقول: **واللهِ الذي أمري وحياتي بيده؛ إن شاء أماتها وإن شاء أحياها**.

٢ ومضمون القسم يتحدث عن وجوب الإيمان لجميع من بلغته دعوة النبيِّ ﷺ؛ من **الأمم التي بُعث النبيُّ ﷺ إليها**، وهم الإنس والجن، من العرب والعجم، من وقته إلى يوم القيامة.



ويقصد ببلوغ الدعوة: فَهْمُ المكلّف لوجود رسولٍ يقول إنه من الله؛ يدعو إلى توحيده، وينهى عن الشرك به، ويبين ذلك، ونحوه...، وسواء اقتنع أو لم يقتنع، فيكفي في قيامِ الحجة عليه فهمُه الصحيح لوجود رسولٍ هذه صفته، وأما من لم تبلغه بصورة صحيحة لم نقل إن الحجّة قامت عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

٣ وقد ذكر النبيُّ ﷺ اليهود والنصارى لأنهم أَعْرَفُ الناسِ بالنبيِّ ﷺ؛ فقد جاءتهم البشارات بنبوته، كما أنَّ تخصيصهم بالذكر يدل على أنه لا يغني عن الإيمان برسالة النبي ﷺ شيءٌ، ولو قال إنه يتبع دينًا سماويًّا، فغيرهم من الوثنيين والملحدين أولى. وهو دليلٌ على نسخ جميع الشرائع بشرعه ﷺ[1].

٤ فكلُّ من بلغته الدعوةُ عاقلًا بالغًا ثم مات على الكُفر ولم يؤمن بالنبيِّ ﷺ ولم يتبع شرعه الذي أتى به، فهو من أصحاب النارِ، خالدًا فيها أبدًا، لا ينفعه عملٌ أو نسبٌ أو شرفٌ أو جاهٌ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(١) ينظر: «تحفة الأبرار» للبيضاوي (١/ ٤٣)، «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهري (١/ ٧٢).

التأمل

١ قطع أبو هريرة ﷺ المسافة الطويلة من بلده، ورضي بالهجرة والغربة إلى الله تعالى وإلى رسوله، مع أنه يكفيه أن يسلم في بلده، بل صارَ أكثرَ الصحابة روايةً للحديث رغم حداثة إسلامه، فلينظر كل منا إلى نفسه: ما الذي بذله في سبيل الله تعالى؟، وما مقدار حرصه على القرب من السنة التي هي إرث محمد ﷺ؟

٢ لنعظِّم أمر الإيمان، ولنسلِّمْ لرسول الله ﷺ ما قال، سواء وافق ذلك هوانا أو لا، ها هو ﷺ يقسم بالذي حياته وموته بيده، على مسألة من مسائل الإيمان.

٣ من كان له قرابة أو صلة بيهودي أو نصراني فليحسن إليه بحسنِ دعوتِه إلى الإسلام، فإن دينه لا يغني عنه شيئًا، وإن أسلم فله ولك بسببه أجران، قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ»[1].

٤ على المسلم أن يعتزَّ بدينه؛ اعتزازًا يفوق اعتزاز كلِّ صاحبِ حضارةٍ بحضارته، فكلُّ أتباع الأديان الأخرى في خسارة عظمى ما لم يتبعوا دين الإسلام الذي يبلغهم، فلله الحمد أن جعلنا مسلمين، وهدانا لما اختُلف فيه من الحقِّ بإذنه.

٥ أعظم الرحمة أن يسعى الإنسان إلى تخليص نفسِه وأهلِه والناس من العذاب المقيم، فإنَّ أحدًا لا يدخل الجنة حتى يؤمن بالنبيِّ ﷺ ورسالته ويتبعه، والدعاةُ إلى الله تعالى أرحم الناسِ بالناس؛ فهم يجاهدون بلسانهم ومالهم وعلمهم ليصرفوهم عن عذاب الله، وهي منزلة عظيمة ينبغي على كل مسلم أن يحرص عليها، وينضم لسلك الدعاة إلى الله تعالى.

قال الشاعر:

وكُـنْ لسُـنَّةِ خَـيْرِ الخَلْـقِ مُتَبِعًـا ... فإنَّهـا لنَجَـاةِ الْعَبْـدِ عُنْـوَانُ

فَهْـوَ الَّـذِي شَـمِلَتْ لِلْخَلْـقِ أَنْعُمُـهُ ... وَعَمَّهُـمْ مِنْـهُ فِي الدَّارَيْـنِ إِحْسَـانُ

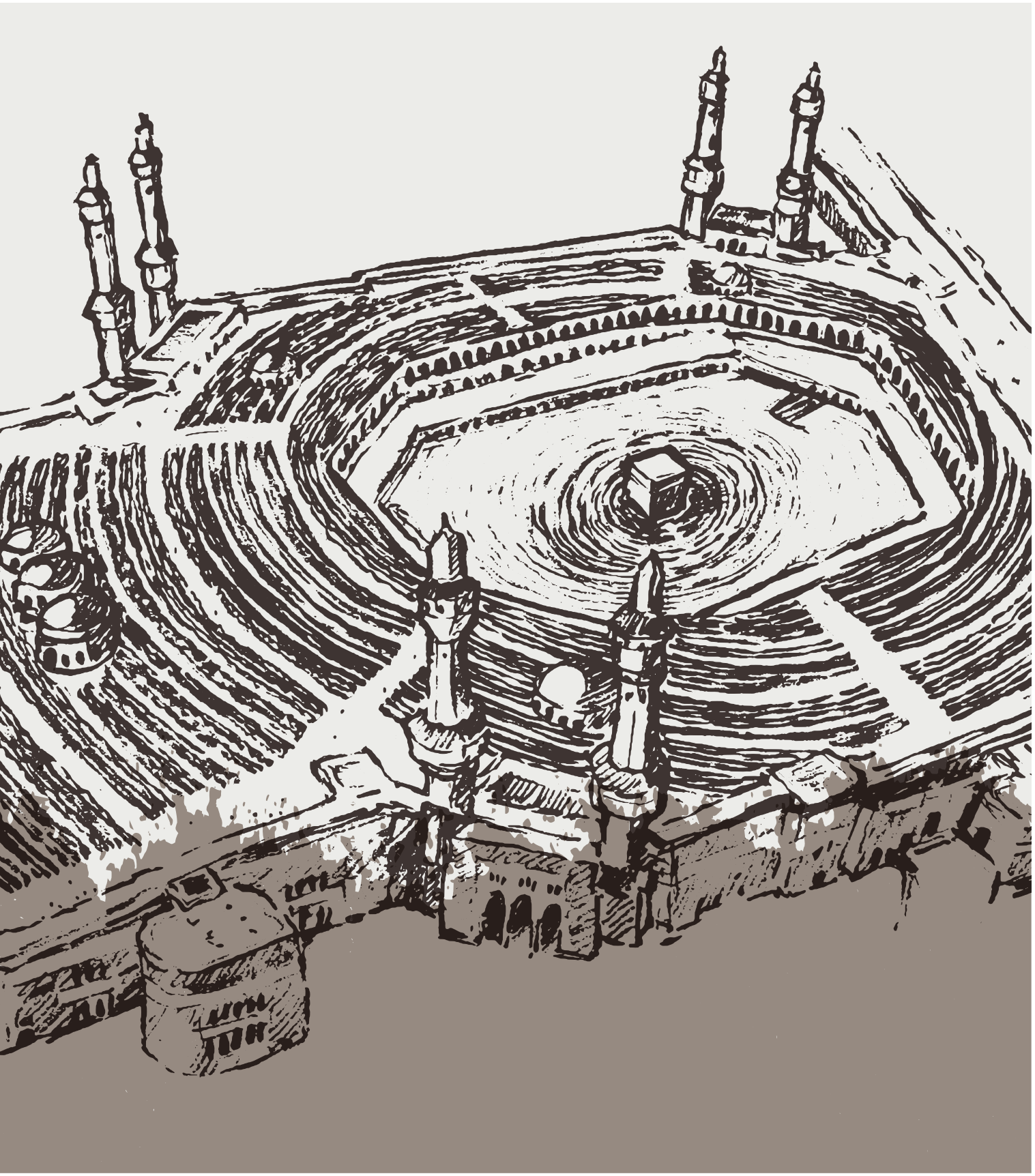
وَمُـذْ أَتَـى أَبْصَرَتْ عُمْـيُ الْقُلُوبِ بِهِ ... سُـبْلَ الهُـدَى وَوَعَتْ لِلْحَـقِّ آذَانُ

يَـا رَبِّ صَـلِّ عَلَيْـهِ مَـا هَمَـى مَطَـرٌ ... فَأَيْنَعَـتْ مِنْـهُ أَوْرَاقٌ وَأَغْصَـانُ

وَابْعَـثْ إِلَيْـهِ سَـلَامًا زَاكِيًـا عَطِـرًا ... وَالْآلِ وَالصَّحْـبِ لَا تُفْنِيـهِ أَزْمَانُ



(١) البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤)، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.



محبةُ الرَّسول ﷺ وما يتبع ذلك

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ:

١ بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنَ المَسْجِدِ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ المَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟

٢ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»،

٣ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ،

٤ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلا صَلاةٍ، وَلا صَدَقَةٍ،

٥ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،

٦ قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[1].

(١) البخاريُّ (٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩).

آيات

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].
- ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].
- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].
- ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

الراوي

هو: أبو حمزةَ، أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ، خادم رسول الله ﷺ، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله المدينة وهو ابنُ عَشْر سنين، فأتت به أمه الصالحة ليخدم الرسول ﷺ، فغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وبايَع تحتَ الشجرة،، وكان من المكثرين في الفتوى والرواية، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

سألَ أحدُ الصحابةِ النبيَّ ﷺ عن موعد الساعة، فَنَبَّهه إلى ما هو أهمُّ من علم وقتها الذي لا يعلمه إلا الله، وهو الاستعداد لها، فذكر الرجلُ أنه لم يستعدَّ بكثير عملٍ، غير أنه يحب الله ورسوله. فأخبره النبيُّ ﷺ أنَّ ذلك سببٌ لدخول الجنة وصحبته ﷺ فيها، إن كان صادقًا في محبته.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣). «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

١ يخبر أنسُ بنُ مالكٍ ﷺ أنَّه بينما كان خارجًا من المسجد مع النبيِّ ﷺ إذ قابلهم رجلٌ أمام المسجد عند **الظِّلال والسُّقُف التي تحيط بالمسجد**، فسألَ النبيَّ ﷺ عن وقت قيام الساعة.

وقيل إن هذا الرجلَ هو الأعرابيُّ الذي بال في المسجد قبل ذلك، وهو ذُو الخُوَيْصِرة اليمانيُّ[1].

٢ فصَرَفَه النبيُّ ﷺ عن سؤاله إلى سؤالٍ أهم، وهو: ماذا أعددتَ لقيام الساعة؟ وهل تأهَّبت لقدومها بالإكثار من الطاعات والعبادات؟

ومرادُ النبيِّ ﷺ تنبيهُ الرجل إلى ما هو واجبٌ عليه ومطلوبٌ منه، وهو الاستعداد للحساب والعمل لدخول الجنة، إذ ليس مطلوبًا منه معرفة وقت يوم القيامة، فضلًا عن أنَّه لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه وتعالى.

٣ فلمَّا سمع الرجلُ سؤالَ النبيِّ ﷺ **خضع وسكن**؛ احتقارًا لعمله، واعترافًا بتقصيره، واعتذارًا عن قُبح سؤاله.

(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٥٥٥).



٤ ثم ذكر أنَّه لم يستعدَّ لها بكبيرِ عمل؛ فما أكثر من النوافل والقُرب والطاعات التي تُدنيه من الجنة وتُنجيه من النار، وإنما اكتفى بالفرائض التي يجب على المسلم فِعلها.

ويمكن أن يكون قولُه ذلك تواضعًا منه وهضمًا لحقِّ نفسه، أو أنَّه رآه لا يقوم بشيءٍ كثيرٍ في نظره، أو أن يكون أراد أن كل ذلك يتأخَّر أمام قوة محبته الصادقة لله والرسول، التي لا يضاهيها عملٌ[1].

٥ إلَّا أنَّ أعظم ما رآه الرجلُ من أعماله التي تنفعه يوم القيامة: محبَّتُه لله ورسوله، وهي محبة صادقة تقتضي آثارها من الطاعة وغيرها.

٦ ولهذا أخبره النبيُّ ﷺ أنه إن كان صادقًا في محبته تلك، مُطَبِّقًا شروطها، فإنَّه مُلْحَقٌ بِمَن أحبَّ، مصاحبٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابه في الفردوس الأعلى من الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. ولهذا قال أنسٌ ﷺ «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ»[2].

(١) ينظر: «المفهم» للقرطبيِّ (٦/ ٦٤٦).

(٢) البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).



١ لم يعبأ أهلُ أنس ولا أنسٌ ﷺ أن يخدم النبيَّ ﷺ وهو حُرٌّ لا عبد، وقد كانت الخدمة حينئذ للعبيد لا لأبناء السادة، وقد أخذته أمه وذهبت به إلى النبيِّ ﷺ ليخدمه. فالمسلم قد يراعي العادات والأقاويل لكن لا تمنعه من تحصيل الخير في الدارَين.

٢ **حَرَص** أنسٌ ﷺ على ملازمة النبيِّ ﷺ وخدمته مع صغر سنِّه، وقد جاءت أحاديث أنه ربما لعب ذلك الوقت مع الغلمان[١]، فلا يلزم أن من تربية الصغير على الأمور الفاضلة أن يمنع مما يقتضيه سنه من اللعب ونحوه.

٣ سأل الرجلُ عن وقت الساعة، والنبيُّ ﷺ لم يجبه بل صرفه إلى سؤالٍ آخر تتعلق به مصلحة السائل وغيره، وهو العمل لوقت الساعة، وهذا الأسلوب يُعرف عند البلاغيين بأسلوب الحكيم، وهو أن يُجيب المسؤول بأكثرَ أو أهمَّ مما يتضمنه السؤال لحكمةٍ غابت عن السائل؛ كجواب النبيِّ ﷺ لمَن سأله عن الوضوء بماء البحر بـ«هو الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ»[٢]؛ فأفتاهم بعموم طهارة ماء البحر، ثم زادهم بأن ميتة البحر حلالٌ[٣]، فعلى الداعية والمعلم أن يكون فطنًا لحاجة الناس، حكيمًا في كلامه وإجاباته، لا ينساق لضغط أسئلتهم، بل يُحَدِّث الناس بما يفيدهم من أمر دينهم ودنياهم، دون ما يثير الفتن، أو لا فائدة في علمه.

٤ حوَّل النبي ﷺ تفكير السائل من الأسئلة التي لا تعنيه، أو لا يوصل لجوابها: (متى الساعة).. إلى الخطوة العملية: (ماذا أعددتَ لها)، ولهذا كان الإمام مالك يكره الكلام إلا فيما تحته عمل، وينقل عن العلماء من قبله أنهم كانوا كذلك[٤]، وأكثر جدلِ الناس والمشتركين في مشروع هو في خصوماتٍ لا عملَ من ورائها، فحاول أن تنتقل إلى السؤال النافع: ماذا بعدُ؟

٥ ينبغي أن يجعل المسلمُ أمام عينه «ماذا أعددتَ لها؟» منهجًا لحياته، يسارع في محاسبة نفسه كلَّ يوم، ليرى كيف يلقاه اللهُ عزَّ وجلَّ؟ أيلقاه راضيًا عنه أم ساخطًا عليه؟

٦ محبةُ الله تعالى ورسوله ﷺ ليست مجردَ أقاويل وميولٍ نفسيَّة، ولكنه شعورٌ يملأ القلبَ، فيُتبع ذلك الحرصَ على رضا المحبوب وطاعته، بحسب ما قام في القلب، حتى تؤول إلى التقديم على الأهل والمال والولد والناس أجمعين، فمن

---

(١) مسلمٌ (٢٦٠٤).

(٢) الترمذيُّ برقم (٦٩).

(٣) ينظر: «الكواكب الدراري» للكرمانيِّ (٢٢/ ٣٥).

(٤) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرِّ (٢/ ٩٥).

ادَّعى المحبة فلينظر في نفسه هل يجد دليلًا من ذلك على محبته؟ قال الحَسَنُ البصريُّ: زعم قومٌ أنهم يحبون اللهَ تعالى فابتلاهم بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١][1].

٧ مهما أخذت المعاصي من قلبك ووقتك، فإياك أن تخدشَ تعظيمَك لله تعالى ومحبته، ولرسوله ﷺ، إننا جميعًا لا نبلغ مقامَ أنبياءِ الله صلوات الله وسلامه عليهم في الجنَّة؛ لعظيم فضلهم وكبيرِ عملهم وصدق إيمانهم واتباعهم، مع ما أدركهم من البلاء. إلَّا أننا نستطيع أن نكون معهم في الآخرة بحسن محبتهم، وتوقيرهم، واتباع سُنَّتهم، وتقديم محبتهم على محبة جميع الناس. فيالها من بشرى لمن جد، ولهذا قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ مَا فَرِحُوا بِهِ»[2].

٨ حاول أن تزيد محبتك لله تعالى ولرسوله ﷺ بالبحث عن أسباب ذلك ومظاهره، ككثرة ذكر الله تعالى والصلاةِ على النبيِّ ﷺ، وتحديثِ القلب بشعور المحبة لهما، وتذكُّر نعمهما، والعزم على تقديم طاعتهما، وكلما رأيت محبًا يطلب رضا محبوبه فليكن حبَّك لله تعالى ولرسوله ﷺ أعظم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].



(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢)، وفيه ذكر الآية إلى هنا.

(٢) أحمد (١٢٠٣٢).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي،

٢ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»[1].

(١) البخاريُّ (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

آيات

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].
- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
- ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].
- ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].
- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، هذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، تولَّى إمرةَ البحرين زمان عمر رضي الله عنه، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

ينهى النبي ﷺ أُمَّتَه عن سبِّ أصحابه؛ فإنهم- لعظيم ما قدَّموه للإسلام- أعظم النَّاس أجرًا.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ ينهى النبيُّ ﷺ عن سبِّ أصحابِه الذين لَقُوه وآمنوا به وماتوا على الإسلام، فهم خيرُ النَّاس بعد الأنبياءِ صلوات الله عليهم؛ إذ هم الذين تحمَّلوا عناءَ نشر الإسلام في بقاع الأرض، ودافعوا عن النبيِّ ﷺ وواجهوا في سبيله أقوامَهم وعادوا من عاداه من الغريب والقريب، وقد اختارهم اللهُ تعالى لصحبة نبيه ﷺ كما اختاره لنبوته، قال ابن مسعود ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ»[(١)].

وقد أثنى اللهُ تعالى على صحابةِ نبيِّه في غير موضع من القرآن، وفضَّلهم على غيرهم وأخبر برضاه عنهم ومغفرته لهم. ولهذا كان سبُّهم والانتقاصُ منهم حرامًا وإثمًا عظيمًا، ودليلًا على النِّفاق والزندقة؛ إذ لا يبغض الصحابةَ إلا فاسقٌ معلوم النفاق أو كافرٌ يبطن الكفرَ ويظهر الإسلام. لذلك ذهب بعض الفقهاء إلى قتل من طعن في الصحابة[(٢)].

٢ ثم يعلل النبيُّ ﷺ نهيَه عن سبِّهم بذكر فضلهم وعظيم درجتهم، **فيقسم بالله الذي نفسُ النبيِّ ﷺ بيده إن شاء قبضها أو تركها وإن شاء ابتلاها أو عافاها**، إنَّ أجورَ أعمال الصحابة ﷺ لا يساويها شيءٌ من أعمال غيرهم؛ فلو أنفق واحدٌ من غيرهم مثل جبل أُحُدٍ ذهبًا ما كان أجرُه مثلَ أجرِ الصحابي إذا أنفق **ملء كفيه** من طعامٍ، بل ولا بلغ **نصف** ذلك وهو ملء كفٍّ واحدة.

وإنما كان ذلك لإنفاقهم مع ضيق حالهم وشدة احتياجهم، ولأنهم الرعيل الأول الذي نشر الإسلام وحمل عبءَ الدعوة على عاتقيه، وقاتلوا وقُتلوا، وعاينوا نزولَ الوحي، وصحبوا رسولَ اللهِ ﷺ في حِلِّه وترحاله. فلهذا وغيره استحقوا أعظم الجزاء. وقد أثنى اللهُ تعالى عليهم ومدحهم فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

---

(١) أحمد (٣٦٠٠).

(٢) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٦/ ٩٣).

١ إياك وسبَّ أصحاب النبيِّ ﷺ والطعن فيهم؛ فإن ذلك مخالفٌ لأمرِ اللهِ ورسوله ﷺ.

٢ كيف تسبُّ مَن أثنى اللهُ تعالى عليهم وامتدحهم واختارهم لصحبة نبيه ﷺ؟!

٣ لا ينبغي للمسلمين أن يخوضوا فيما دار بين الصحابةِ ﷺ من الفتنة؛ فقد كانوا مُتَأوِّلين لا يقصدون إلا الخير، ومُحسِنُهم ومُسِيئُهم معفوٌّ مَرْضِيٌّ عنه.

٤ ينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يُرَبِّي أهله ويعلمهم حبَّ الصحابة ﷺ وتوقيرهم.

٥ إذا كان الصحابةُ ﷺ أفضلَ النَّاس بعد الأنبياء، وهم مَن عاينوا نزول الوحي، وعرفوا حلالَه من حرامِه، فحريٌّ بنا أن نقتدي بهم ونستنَّ بسنتهم، قال عبد الله بن عُمَرَ ﷺ: «من كان مُسْتنًّا فليستنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خيرَ هذه الأمَّة، أَبَرَّها قلوبًا، وأعمقَها عِلمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، قوم اختارهم الله لصُحبة نبيِّه ﷺ، ونقل دينه، فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمَّد ﷺ كانوا على الهُدى المستقيم»[1].

٦ يجدر بكلِّ مسلمٍ أن يقرأ في سير الصحابة ﷺ، ويرى كيف كانوا وكيف كانت أخلاقُهم، ولماذا ارتفعت درجاتهم. قال بعض القوم للحسن البصريِّ رحمه الله: أَخبِرْنا صفةَ أصحاب رسول الله ﷺ، فبكى، وقال: «ظَهَرت منهم علاماتُ الخَير في السِّيما والسَّمْتِ والهُدى والصِّدق، وخشونةِ ملابسهم بالاقتصاد، ومَمشاهم بالتواضُع، ومَنطِقهم بالعمل، ومَطعَمِهم ومَشرَبِهم بالطِّيب من الرزق، وخُضوعهم بالطاعة لربِّهم تعالى، واستقادتهم للحقِّ فيما أحبُّوا وكَرِهوا، وإعطائهم الحقَّ من أنفسهم، ظَمِئت هَوَاجِرُهم، ونَحَلَت أجسامهم، واستخفُّوا بسُخْط المخلوقين في رضى الخالق، لم يفرِّطوا في غَضَب، ولم يَحِيفوا في جَور، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن، شَغَلوا الأَلْسُن بالذِّكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبَذَلوا أموالهم حين استقرَضَهم، ولم يَمنَعْهم خوفُهم من المخلوقين، حَسُنت أخلاقُهم، وهانت مُؤْنتهم، وكفاهم اليسيرُ من دنياهم إلى آخرتهم»[2].

٧ يجوز للرجل أن يقسم على أمرٍ من غير أن يطلب أحدٌ منه القَسَم؛ تأكيدًا لقوله.

٨ ليست العبرةُ بالكَمِّ وإنما العبرةُ باليقين والإيمان، ورُبَّ درهم سبق ألف درهم. فلا تغتر بكثرة إنفاق النَّاس أو يثنيك ذلك عن إنفاق ما جادت به نفسك مما اقتطعته من قوتك.

٩ قومٌ لو أنفقتَ كنوزَ الأرضِ كلِّها ما بلغتَ أجرَ أصغرِ عملٍ عملوه، فكيف لك أن تتكلم في حقِّهم أو تسيء إليهم؟!

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٠).



فَضلُ القُرونِ الأولى من السَّلف الصالح

عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي،

٢ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،

٣ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ

٤ قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِي، أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا؟ –

٥ ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ،

٦ وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ،

٧ وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يَفُونَ،

٨ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[1].

(١) البخاريُّ (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

آيات

- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].
- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
- ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

الراوي

هو: عِمرانُ بنُ حُصَيْنِ بنِ عُبَيْدٍ الخُزَاعِيُّ ﷺ، أبو نُجَيْدٍ، أسلم عامَ خَيْبر مع أبي هريرة ﷺ، وغزا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ غزواتٍ، بَعَثه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ إلى البصرة؛ ليفقِّه أهلَها، قال ابن سيرين: «لم نَرَ في البصرة أحدًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يَفضُل على عِمْرَانَ بْنِ حُصينٍ، وكان مُجَابَ الدعوة، ولم يَشهَد الفتنة»، توفِّي سنة ثلاث وخمسين من الهجرة[1].

خلاصة

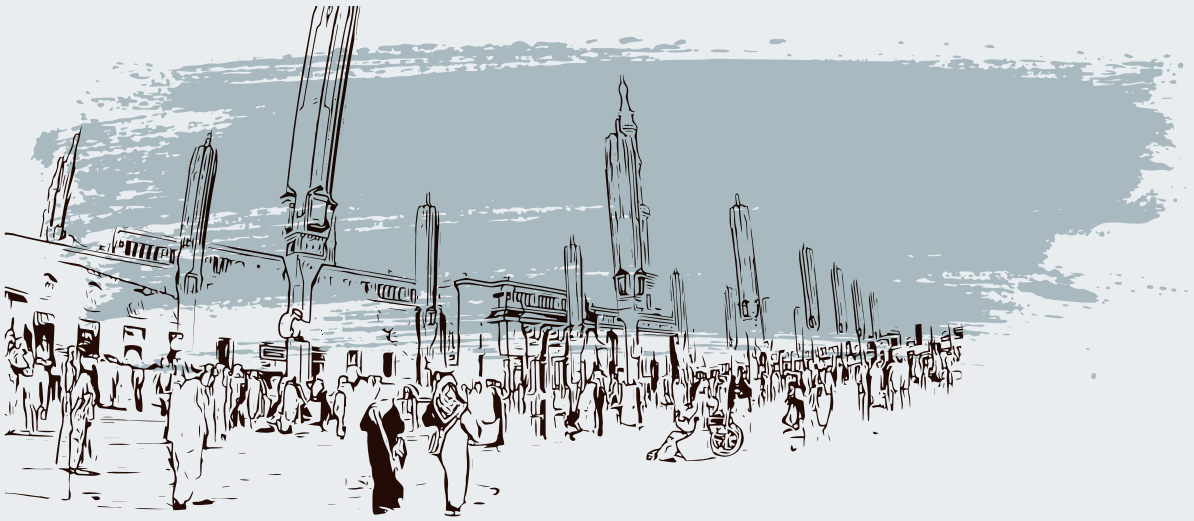
يخبر النبيُّ ﷺ أن خير النَّاسِ هم أصحابه الذين يعيشون في زمانه، ثم مَن بعدهم من التابعين وأتباعهم. ثم أخبر ﷺ عن فساد مَن بعد تلك القرون الفاضلة، فذكر أنهم يستخِفُّون بالشهادات، ويخونون الأمانات، ولا يُوفون بما يوجبون على أنفسهم، ويظهر فيهم أثرُ حبِّ الدنيا والتنعم بها.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ٢١٠٨)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٢٠٨)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٢٦٩)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٥٨٤).

١ يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ خيرَ النَّاسِ وأفضلهم **أهلُ زمانه** من المؤمنين، وهم أصحابه الذين لقوه وآمنوا به وماتوا على الإسلام، وتحملوا عبء الدعوة وحمل راية الإسلام والجهاد في سبيل اللهِ تعالى ونصرة نبيِّه ﷺ.

وقد أثنى اللهُ تعالى عليهم في كتابه في غير موضعٍ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأخبر في غيرها من الآيات أنَّه تاب عليهم ورضي عنهم. بل فسَّر ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما قولَه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] فقال: «أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم لنبيِّه»[1].

٢ ثم يأتي بعد الصحابةِ في الفضل والخيرية: مَن بعدهم من التابعين، الذين أدركوا الصحابةَ وتتلمذوا على أيديهم، ونقلوا عنهم كتابَ اللهِ تعالى وسُنَّةَ نبيه ﷺ، وبلَّغوا عنهم أقوالهم في التفسير والفقه والتوحيد.



٣ ثم أتباع التابعين الذين حملوا الرسالة وبلَّغوا العلم ودوَّنوا السُّنَّة، وأظهر اللهُ سبحانه بهم الإسلام، وانتشر الدينُ في بقاع الأرضِ كلها.

وقد أثنى اللهُ تعالى على الجميع فقال في حقِّ الصحابة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(١) «جامع البيان في تأويل القرآن» للطبريِّ (١٩/ ٤٨٢).

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨- ٩]، وقال سبحانه في التابعين وأتباعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

٤ ثم إنَّ عمران بن حصين ﷺ شكَّ هل ذكر النبيُّ ﷺ بعدهم قرنًا آخر أم اكتفى بالقرنين السابقين من التابعين وأتباعهم، وأكثر الروايات جاءت من غير الشكِّ وإقحامِ قرنٍ ثالث.

٥ ثم أخبر ﷺ بما يظهر في أمته بعد ذلك من الفساد والشَّرِّ؛ حيث يكون في أمته بعد تلك القرون قومٌ يسبقون بأداء الشهادة من غير **أن تُطلب منهم**، وليس ذلك لحرصهم على أداء الشهادات وإيفاء الحقوق، وإنما لتهاونهم بالشهادات وشهادتهم بالباطل والزور، ويشهد لهذا رواية ابن مسعود ﷺ للحديث، وفيها: «ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[(١)]، ومعنى ذلك أنهم لا يأبهون بالشهادة ولا يُبالون بأن يكونوا من أهلها أم لا. أما الذين يبادرون بالشهادة لإقامة العدل ونصرة المظلوم فهم خير الشهداء، كما قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»[(٢)].

٦ ومن صفاتهم كذلك أنهم يخونون الأمانات، فلا يأتمنهم النَّاس على دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم.

٧ ومن صفاتهم كذلك أنهم لا **يُوفون** بما أوجبوه على أنفسهم للهِ تعالى أو للنَّاس؛ فإن نذر أحدهم طاعةً للهِ تعالى أو وعد إنسانًا بشيءٍ، فإنهم يُخلفون ذلك ولا يُنَفِّذوه.

وهذه الصفات التي اتصفوا بها هي صفات المنافقين الذين أخبر النبيُّ ﷺ بسمتهم في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذَبَ، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتمنَ خانَ»[(٣)].

٨ ومن سماتهم كذلك أنهم آثروا الدُّنيا وتعلَّقوا بها، حتى ظهر ذلك على أبدانهم، فأصابتهم التُّخمة والسِّمنة التي هي دليلُ الغفلةِ والانهماك في لذَّات الدنيا. ولا يعني ذلك أن يكون كلُّ سمينٍ غافلًا أو فاسقًا، أو يكون كلُّ فاسدٍ منافقٍ سمينًا، وإنما الأمر على التغليب، والمقصود أنه كناية عن حُبِّ الدنيا والانشغال بها.

---

(١) البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) مسلم (١٧١٩).

(٣) البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩).

١ يجب على كلِّ داعيةٍ ومُرَبٍّ وولي أمرٍ أن يغرس في قلوب النَّاس حبَّ الصحابةِ رضوان الله عليهم وتوقيرهم.

٢ على المسلم أن يقرأ في سير الصحابة وأخبارهم، ويتأسى بأخلاقهم وإيمانهم، فهم كما وصفهم ابن عباس ﷺ: «قاموا بمعالم الدين، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين، حتى تهذَّبت طُرُقُه، وقَوِيت أسبابه، وظَهَرت آلاء الله، واستقرَّ دينه، ووَضَحت أعلامه، وأذلَّ الله بهم الشِّرك، وأزال رؤوسه، ومحا دعائمه، وصارت كلمةُ الله هي العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية، والأرواحِ الطاهرة العالية، فقد كانوا في الحياة لله أولياءَ، وكانوا بعد الموت أحياءً، وكانوا لعباد الله نُصَحَاءَ، رحلوا إلى الأخرى قبل أن يصلوا إليها، وخرجوا من الدنيا وهم بَعْدُ فيها»[1].

٣ إياك والانتقاص من قدر الصحابة أو سَبِّهم؛ فإنهم أصحاب النبيِّ وصفوةُ الخلقِ بعد الأنبياء.

٤ الأسلمُ لنفسك ودينك أن تُعرض عمَّا دار بينهم من الخلاف والفتنة؛ فهم مُتَأَوِّلون معذورون.

٥ علامة الإيمان حبُّ الصحابة، وآية النفاق بغضُهم. فانظر في نفسك؛ أمؤمن أم منافق؟

٦ اقرأ سير التابعين من أعلام الأمة، لتتأكد كيف صاروا خيرَ النَّاس بعد الأنبياء والصحابة.

٧ عليك أنْ تترضَّى عن أصحابِ النبيِّ ﷺ، وتترحم على التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وتسأل الله سبحانه أن يجمعك بهم مع النبيِّ ﷺ في الفردوس الأعلى.

٨ من الأمانة العلمية أن تُبين شكَّك أو خطأك في مسألةٍ ما، بدلًا من أن تكابر وتجادل، فتَضِلَّ وتُضِلَّ.

٩ الشهادة أمرٌ عظيمٌ وخطرٌ كبيرٌ، فإياك والاستهانةَ بأمرها، فإن اتضح لك أمرٌ وضوحَ الشَّمسِ وكنتَ أهلًا للشهادة فافعل، وإلا فلا.

١٠ لا يتعارض هذا الحديث مع المبادرة إلى الشهادة بما علمت يقينًا؛ فلا تنتظر دعوةَ مظلومٍ لشهادتك، بل بادِر بالشهادة، خاصةً إذا لم يقم مقامَك أحدٌ.

١١ إياك وخيانة الأمانات؛ فقد نهى اللهُ تعالى عنها فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

---

(١) «مروج الذهب» للمسعوديِّ (١/ ٣٧١).

١٢ من خيانة الأمانات: عدم إتقان العامل في عمله، والغش في الامتحانات، والغش في البيع والشراء والمعاملات، والتَّغرير بالمرضى لدفع أموالٍ باهظةٍ فيما لا يستدعي.

١٣ الوفاء بالوعد من علامات المؤمنين وأخلاقهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠]. فتحلَّ بصفات المؤمنين، وإياك وصفات المنافقين.

١٤ النَّذرُ مكروهٌ، لأنك تُلزم نفسك بشيء لا يلزمك في أصل الشرع، فتحرج نفسك وتثقلها بذلك، لكن إذا نذرتَ شيئًا لزمك الوفاءُ به، قال تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﴾ [الحج: ٢٩].

١٥ لا تتعلق بملذَّات الدنيا وشهواتها، بل خذ من الحلالِ ما يُقيم قوتَك ويُغنيك عن الحرام؛ فإن الانشغال بالدنيا مُؤْذِنٌ بالإعراضِ عن الدين.

قال الشاعر:

إنّ الذوائبَ من فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ ... قد بيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَن كانَتْ سرِيرَتُهُ ... تَقْوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شَرَعَوا

قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أوْ حاوَلُوا النَّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيَّةٌ تلكَ منهمْ غيرُ محدَثةٍ ... إنَّ الخلائِقَ، فاعلَمْ، شَرُّها البِدَعُ

لا يَرْقَعُ النّاسُ ما أوْهَتْ أكفُّهُمُ ... عندَ الدِّفاعِ، ولا يوهونَ ما رَقَعوا

إنْ كان في الناس سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ ... فكُلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

ولا يَضَنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمِ ... وَلا يُصِيبُهُمُ في مَطْمَعٍ طَبَعُ

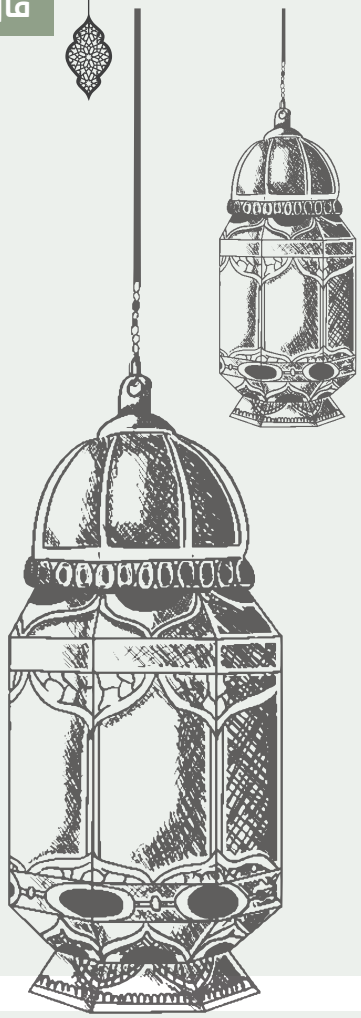
لا يَجهَلونَ، وإن حاولتَ جَهْلَهمُ ... في فضلِ أحلامهمْ عن ذاكَ مُتَّسَعُ

أعِفّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ ... لا يَطْمَعُونَ، ولا يُرْديهمُ الطَّمَعُ

كَمْ من صَدِيقٍ لهمْ نالوا كرامتَهُ ... ومِنْ عَدُوٍّ عَليهِمْ جاهِدٍ جَدَعوا

أَعطَوْا نبيَّ الهُدى والبِرِّ طاعتَهمْ ... فمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عنْهُ وَما نَزَعُوا

أكرِمْ بقومٍ رسولُ اللهِ شِيعتُهُمْ ... إذا تفرَّقَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَعُ





عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

١ «العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ،

٢ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

٣ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا،

٤ وَأَمَّا الكَافِرُ - أَوِ المُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ،

٥ فَيُقَالُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ،

٦ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»[1].

(١) البخاريُّ (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

آيات

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]

الراوي

هو: أبو حمزةَ، أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ، الإمامُ، المفتي، المقرئ، المحدِّث، راوية الإسلام، خدم النبي ﷺ عشر سنين؛ ودعا له النبي ﷺ بالبركة، فبارك الله له في ولده وفي ماله وفي عمره؛ فكان من آخر الصحابة موتًا، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وبايَع تحتَ الشجرة. تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ سؤال المَلَكين في القبر؛ فإن العبدَ يُسألُ عن نبيِّه ﷺ، فإن كان مؤمنًا رأى مقعده من الجنَّة وفُسِحَ له في قبره، وإن كان كافرًا رأى مقعده من النار، وعُذِّب في قبره حتى تقوم الساعة.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

١ يُحَدِّثُ النبيُّ ﷺ أصحابه بأمرٍ من أمور الغيب، وهو سؤال القبر ونعيمه وعذابه، فيذكر ﷺ أنَّ المَيْتَ إذا وُضع في قبره وانصرف عنه أهله تُرَدُّ إليه رُوحُه ويحيا حياة خاصة، تسمى بالحياة البرزخية حتى إنه ليسمع صوت أحذيتهم وضربها الأرض إذا انصرفوا عنه.

٢ ثم يأتيه مَلَكان، وهما مُنْكَرٌ ونكير، فيُجلسانه ثم يسألانه عن رسول الله ﷺ ما يقول فيه؟ هل آمن به وصدَّقه وعَمِل بشرعه أمْ كفر به واستهزأ بدينه؟

وقد ورد في السُّنَّة الصحيحة أنَّ العبدَ يُسألُ عن ربِّه ودينه وعن النبيِّ ﷺ[1]، فاكتفى في هذا الحديث بذكر النبيِّ ﷺ؛ فإن الإيمان بالنبي ﷺ يستلزم الإيمان بالله، واتخاذ الإسلام دينًا.

٣ فإذا كان العبدُ مؤمنًا أجاب بأنَّ محمدٌ رسولُ الله ﷺ، وأنه آمن به واتَّبع شرعه، فتُبشِّره الملائكةُ بالجنَّة، وتُريه مقعده من النار الذي أعدَّه الله له إن كان مات على الكفر، ثم تُريه مقعده في الجنة، الذي أعده الله له بعد صدق جوابه وحسن إيمانه؛ فيُسَرُّ بذلك، ويُفسح له في قبره.

٤ وإن كان الميت كافرًا أو منافقًا وسأله الملكان فإنه يقول: لا أدري، كنت أقولُ كما يقول الناس، فالكافر كان يقول بقول الكافرين: ساحرٌ وشاعرٌ وكذَّابٌ ومجنونٌ ونحو ذلك، والمنافق كان يقول بقول المؤمنين إلا أنه كان يقول بلسانه ولا يعتقد ما يقوله بقلبه ولا يؤمن به.

٥ فيجيبه المَلَكان بالدعاء عليه، فيقولان: **لا عَرَفتَ ولا اتَّبَعْتَ مَن يعرف، ولا انتفعت بالقرآن الذي قرأتَه أو سمعتَه**، وذلك أنه لم يكلف نفسه عناءَ البحث والقراءة.

٦ ثم يُضرب على رأسه بمطرقة من حديد ضربةً قويَّةً يصرخ منها صرخةً مُدَوِّيَةً، يسمعها كل الخلائق من البهائم، إلا الإنس والجن؛ رأفةً بهم؛ فإنهم لو سمعوا ذلك الصوت، لفسدت عليهم حياتهم، ففي الحديث عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»[2].

ولأنهم لو سمعوا ذلك الصوت لصار العبادُ مجبورين على الطاعة والامتناع عن المعصية، وذلك منافٍ لمقصود الابتلاء[3].

٧ وعذاب القبر وسؤال الملكين حقٌّ ثابتٌ بالقرآن والسُّنَّة[4]، فعلى المسلم أن يؤمن بذلك ولا يُكَذِّب به وإن عجز عقلُه عن إدراكه، والنجاة من القبر بشرى بالنجاة يوم القيامة، فمن نجى في هذه المرحلة كان ما بعدها يسيرًا عليه.

(١) أبو داود (٤٧٥٣)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٩٨).

(٢) مسلم (٢٨٦٧).

(٣) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للعينيِّ (٨/ ١٤٥).

(٤) قال ابن القطان في «الإقناع في مسائل الإجماع» (١/ ٥٠): «أجمع أهل الإسلام من أهل السنة على أن عذاب القبر حق، وعلى أن منكرًا ونكيرًا ملكي القبر حق، وعلى أن الناس يفتنون في قبورهم بعدما يحيون فيها».

١ تخوَّل نفسك وغيرك بالموعظة، وارجع إليها في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وقد يسَّرها الله تعلى في كتب منشورة، ومقاطع مسموعة ومنظورة، فليكن لك نصيب كل حين بتذكر الآخرة وأولها القبر، لتحمل نفسك على الاستعداد ليوم حق.

٢ إذا سمعتَ خبرًا عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ ففكر فيما يلزمك بعد ذلك، فإنه يلزم من الإيمان بعذاب القبر وسؤال المَلكين: الاستعداد لذلك اليوم، والتهيؤ للجواب، والمسارعة بالأعمال الصالحة والطاعات التي تنفع العبدَ، وتشفع له وتُثَبِّته عند السؤال.

٣ لا يجيب الإنسان في القبر إلا بما وقر في قلبه، فالمنافق كان يردد الشهادة بكون محمد رسول الله، إلا أنه لا يجيب عن السؤال في القبر، لأن قلبه كان فيه نفاق وكذب، فوثِّق إيمانك بالله تعالى، واصدق في قولك: لا لإله إلا الله، محمد رسول الله.

٤ ليس بعاقلٍ من فرَّط في جَنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، وعرَّض نفسه لعذاب القبرِ ثم الخلودِ في النارِ أبدًا، نظير الاستمتاع في الدنيا أيامًا أو سنينَ يسيرة، بل ربما لأجل ساعات ولحظات قليلة.

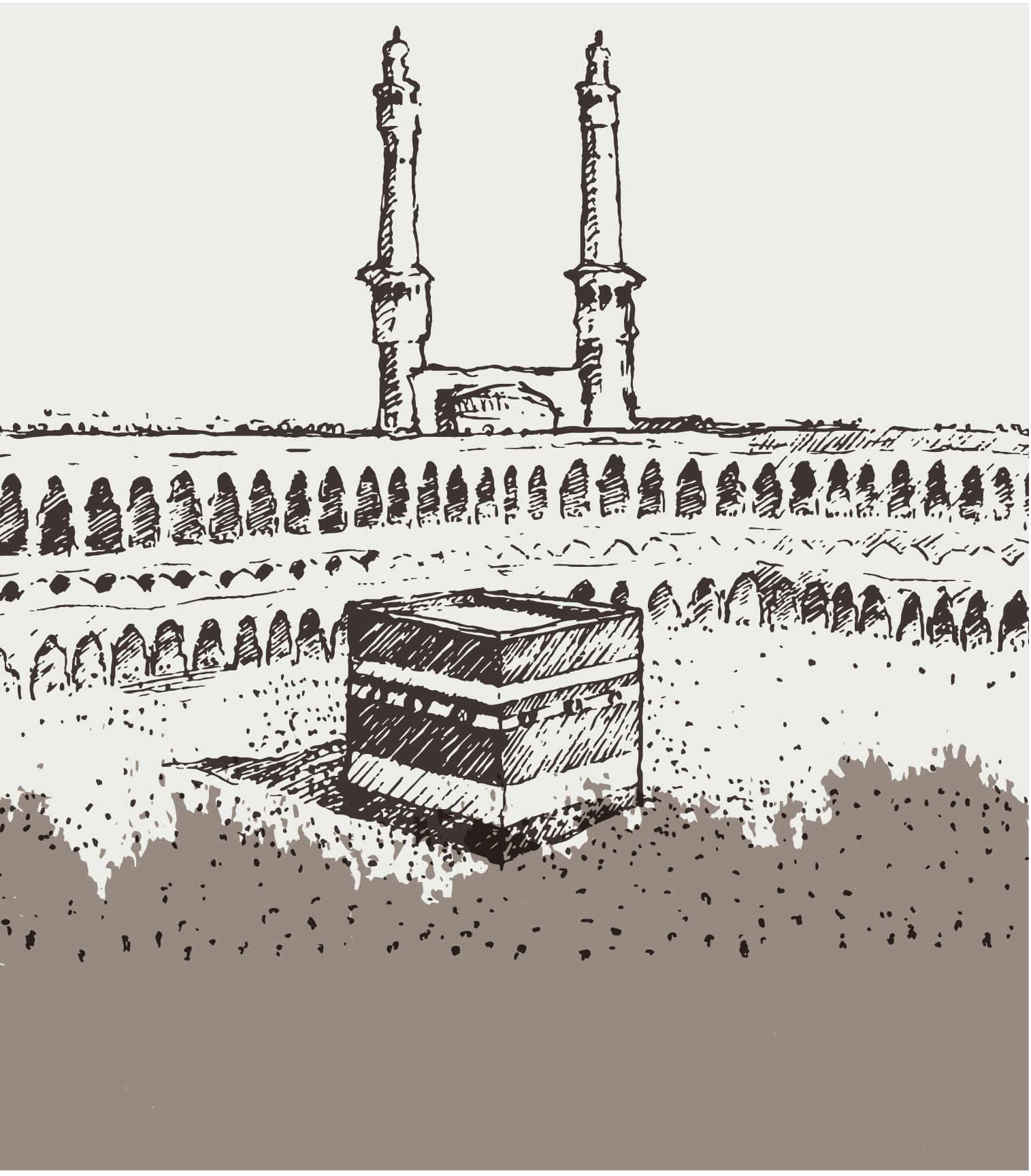
٥ المؤمن يرى في قبره مقعده من الجنة والنار، وفيه دلالة واضحة على أن الجنة والنار موجودتان الآن، فحدث نفسك: هذا هو المستقبل حقًا، فماذا أعددت له.

٦ الاستعداد لسؤال القبر والاستعاذة بالله من عذابه هو من دين المرء وعقله، فإن أمره عظيم، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله منه في كلِّ صلاة قبل السَّلام[1].

قال الشاعر:

فَيَا مَنْ هُوَ القُدُّوسُ لا رَبَّ غَيْرُهُ ... تَبَارَكْتَ أَنْتَ اللهُ لِلْخَلْقِ مَرْجِعُ
وَيَا مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى فَوْقَ خَلْقِهِ ... تَبَارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ
بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ العُلَى ... تَوَسَّلَ عَبْدٌ بَائِسٌ يَتَضَرَّعُ
أَعِنِّي عَلى المَوْتِ المُرِيْرَةِ كأْسُهُ ... إِذَا الرُّوحُ مِنْ بَيْنِ الجَوانِحِ تُنْزَعُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي في ظُلْمَةِ القَبْرِ عِنْدَمَا ... يُرَكَّمُ مَنْ فَوْقِي التُّرَابُ وَأُودَعُ
وَثَبِّتْ جَنَانِي للسُّؤَالِ وَحُجَّتِي ... إِذَا قِيلَ: مَنْ رَبٌّ؟ وَمَنْ كُنْتَ تَتْبَعُ؟

(١) البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.



من أشراطِ السَّاعةِ الصُّغرى

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

١ «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ،

٢ وَتَكْثُرَ الزَّلازِلُ،

٣ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ،

٤ وَتَظْهَرَ الفِتَنُ،

٥ وَيَكْثُرَ الهَرْجُ - وَهُوَ القَتْلُ القَتْلُ -

٦ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ»[1].

(١) البخاريُّ (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧).

آيات

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣- ٤٤].

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه على الأرجح: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وهاجر إلى المدينة، وتحمل المشاق في الطريق، وهرب غلامه، فكان يقول: (يَا لَيْلَةً مِن طُولِهَا وعَنَائِهَا... علَى أنَّهَا مِن دَارَةِ الكُفْرِ نَجَّتِ) ولازمَ النبيَّ ﷺ، وسماه النبي ﷺ بأبي هريرة لأنه رآه يحمل هُرة في كمة، وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

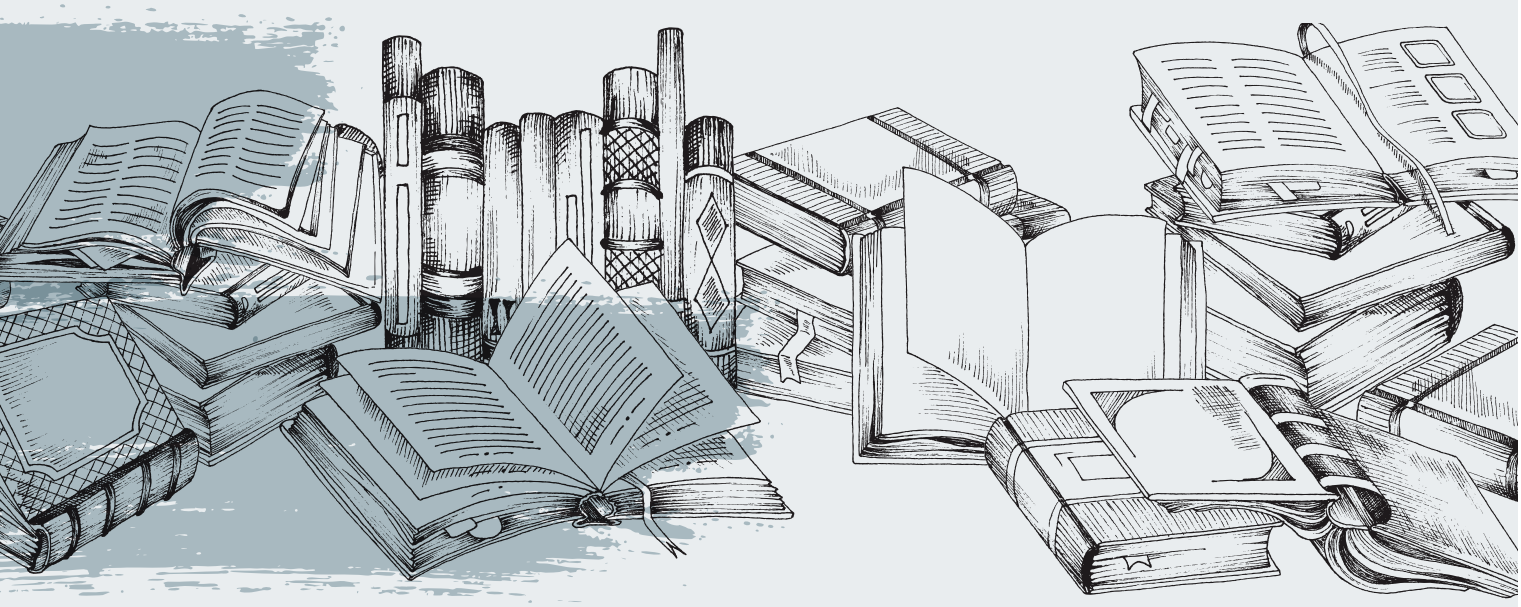
خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ عن بعض علامات الساعة الصغرى، وهي: قبض العلم، وكثرة الزلازل، وتقارب الزمان، وظهور الفتن وكثرة القتل، وفُشُوِّ المال.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يُعَدِّدُ النبيُّ ﷺ بعضًا من علامات الساعة الصغرى، فذكر منها قبضَ العلم، وهو أن يُرفع العلم ويُنزع من الأرض، وذلك بموت كثير من العلماء وعدم وجود من يرث علمهم ويخلفهم.

٢ ومن علامات الساعة أيضًا أن تكثر الزلازل وتنتشر في جميع الأرض، وهي الهزَّات الأرضية المعروفة، والتي ينتج عنها من الدمار بحسب قوة تلك الهزات وضعفها.



٣ ومن آياتها كذلك أن يتقارب الزمان، **فتقصُر الأعمار وتقلُّ مدة الأزمنة المعروفة**، فتتسارع خُطا الزمان في المسير إلى القيامة بتقدير الله تعالى الذي يعلمه، كقوله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ»(١).

٤ ومن علامات الساعة ظهور الفتن وكثرتها، لقوله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(٢).

---

(١) الترمذيُّ (٢٣٣٢).

(٢) مسلم (١١٨).



وقد أخبر ﷺ أنَّ الفتن تشتد كثيرًا قُبيل الساعة، حتى إنَّ المؤمنَ ليتمنى الموتَ من شدة البلاء في دين الله تعالى. قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ»[1].

٥ ومع كثرة الفتن تظهر علامة أخرى من علامات الساعة، وهي كثرة الهَرْج، **وهو القتل**، فيتساهله الناس أو تكثر أسبابه، وقد أخبر ﷺ بأن قتل المسلم بغير وجه حقٍّ من السَّبْعِ المُوبِقات[2]، وتوعَّد اللهُ عزوجل القاتلَ بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

٦ وآخرُ ما ذكر ﷺ من العلامات أن يكثر المال في الأرض حتى يستغني الناس أو أكثرهم، وربما لا يجد الغنيُّ مَن يقبل زكاته، قال ﷺ: «تَصَدَّقُوا، فَيُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ، فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيَهَا: لَوْ جِئْتَنَا بِهَا بِالْأَمْسِ قَبِلْتُهَا، فَأَمَّا الْآنَ، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا»[3].

---

(١) مسلم (١٥٧).

(٢) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري (١٤١١)، ومسلم (١٠١١)، عن حارثة بن وهب ﷺ.

اتّباعي

١ هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ؛ حيث أخبر بكثيرٍ من الآيات والعلامات التي تحققَّ أكثرها بالفعل، فكلما رأيت شاهدًا على ذلك في الحياة فاعتزَّ بدينك وزد إيمانِك.

٢ إخبار النبيِّ ﷺ بما سيحدث في آخر الزمان من الفتن والابتلاءات إنما هو توجيهٌ للمسلم كي يكون على علم وبصيرةٍ، ويأخذ حذرَه من تلك الفتن العارضة، فلكما سمعتَ منها فسل نفسك: ماذا عليَّ أن أعمل لأحقق مراد الله تعالى؟

٣ من علامات الساعة قبض العلم وانتشار الجهل، وتجرؤ كثيرٍ من الجهلة والعوامِّ على الفتوى والقول على الله بغير علم، فاحذر أن تشاركهم في ذلك، وتحرَّ فيمن تأخذ عنه العلم والدين، ولا تجزع من الجهال أو يجرك ذلك للطيش في مقاومتهم؛ فهو من ابتلاء الله تعالى.

٤ على المسلمين أن يجدوا ويجتهدوا في طلب العلم، ويهيئوا الأسباب لحفظه، فإن العلم لا يزال يقبض شيئًا فشيئًا، مما يعظِّم الحاجة للعلم وأهله.

٥ إذا رأيت الزلازل أو سمعت بها فليكن ذلك تذكيرًا بالآخرة.

٦ إذا كان قِصَرُ الأعمار من علامات الساعة، فينبغي على العبد أن يُسارع في التوبة والمبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل أن يَفْجَأَه داعي الموت، أو يضيقَ الزمانُ عن فرص الطاعة، وتقلَّ بركته

٧ على المسلم أن يتمسك بدينه، وأن يحذر من الانخراط في الفتن والشهوات، بل يُنكر ذلك ما استطاع، ففي الحديث: «تُعرَض الفِتَن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها، نُكِت فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكَرها، نُكِت فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تَصير على قَلْبَين؛ على أبيَضَ مثلِ الصَّفا، فلا تضُرُّه فتنةٌ ما دامت السمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُرْبَادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعرِف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكَرًا، إلا ما أُشرِبَ مِن هواه»[1].

(١) مسلم (١٤٤).

٨ كانت سُنَّةُ النبيِّ ﷺ الاستعاذةَ من الفتن، كما أمر أصحابه أن يتعوَّذوا منها جميعًا؛ فعن زيد بن ثابت ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «تعوَّذوا بالله من الفِتَن، ما ظهَر منها وما بطَن»[1].

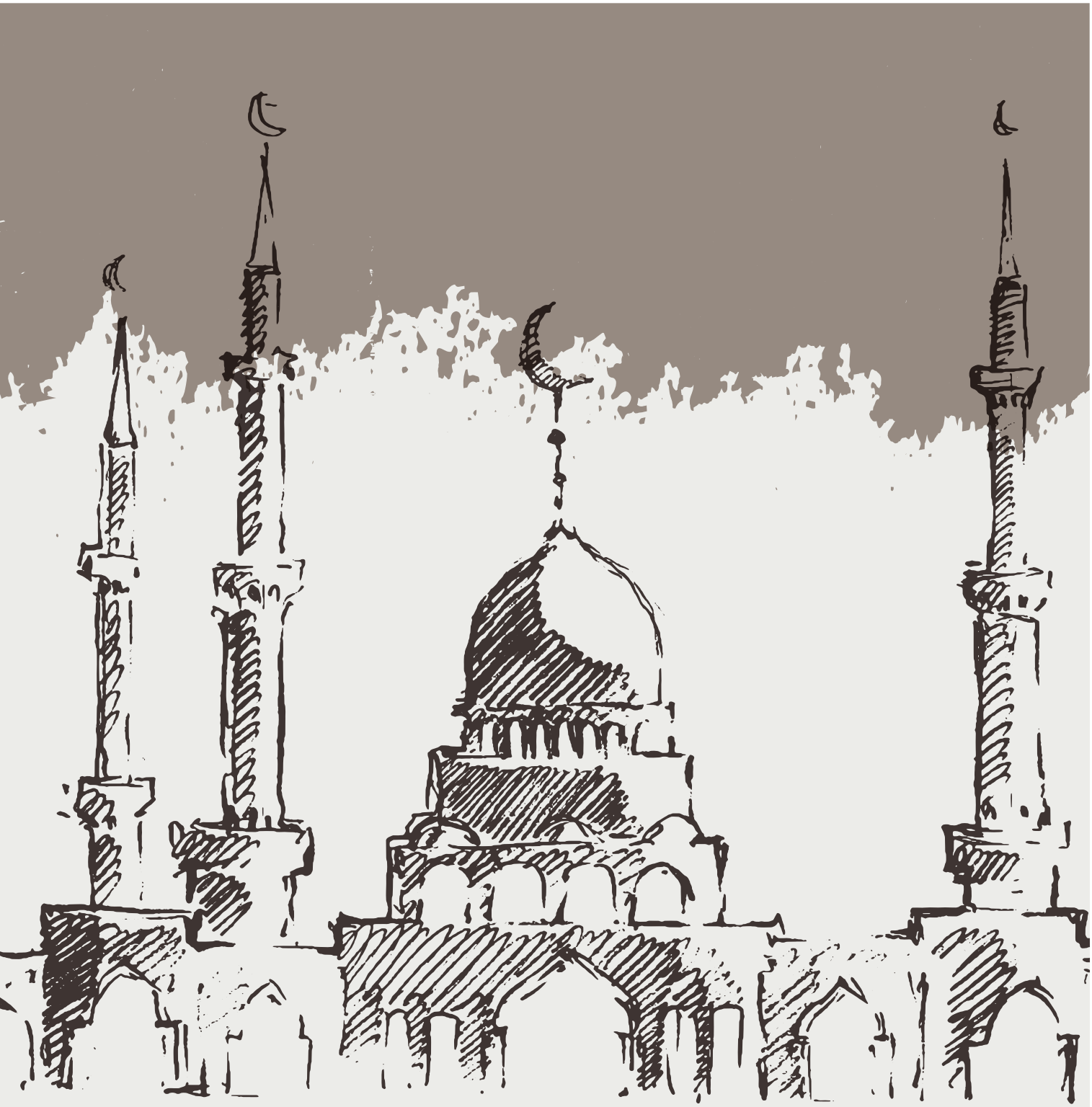
٩ من أسباب كثرة القتل: التساهل في شأنه، لضعف الدِّين، وغلبة الحميّة للنفس، أو لمن ينتسب له الإنسان من قبيلة وبلد، والتنافس المحرّم في شأن المال والنساء، والتهاون في استعمال ما يسبب الهلاك من الأسلحة، وكثرة ما يراه الصغار ومن في حكمهم للقتل في الأفلام والألعاب، ومعالجة كل ذلك واجب الجميع.

١٠ كثرة المال ورفاهية الناس بالعيش: ليس علامة على حُسنِ الزمان، فقد كان زمن النبي ﷺ خير زمان، ولم يكن الغالب عليه ذلك، فالزمان الذي يطلب: هو ما كثر فيه الصلاح.

قال الشاعر:

فـإنْ نحـنُ عِشْـنَا يجمَـعُ اللهُ بيننَـا ... وَإنْ نحـنُ مُتْنَـا، فالقِيامَـةُ تَجمَـعُ
ألَمْ تَـرَ رَيْـبَ الدّهْـرِ في كلّ سـاعةٍ ... لَـهُ عـارضٌ فيـهِ المُنيَّـةُ تَلْمَـعُ
أيَـا بَـانِيَ الدُّنْيَـا، لِغَـيْرِكَ تَبْتَنِـي ... ويَـا جامِـعَ الدُّنيَـا، لِغَـيْرِكَ تَجْمَـعُ
أَرَى المـرْءَ وثَّابًـا عَـلَى كُلِّ فُرْصَـةٍ ... وللمَـرْءِ يَوْمًـا لا مَحَالَـةَ مَـصْرَعُ
تَبَـارَكَ مَـنْ لا يمْلِـكُ المُلـكَ غَـيْرُهُ ... مَتَى تَنْقَضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيسَ يَشْبَعُ؟!

(١) مسلم (٢٨٦٧).



وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا:

٢ الدَّجَّالَ،

٣ وَالدُّخَانَ،

٤ وَدَابَّةَ الْأَرْضِ،

٥ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا،

٦ وَأَمْرَ الْعَامَّةِ،

٧ وَخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ»[1].

(١) مسلم (٢٩٤٧).

آيات

- ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].
- ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام: ١٥٨].
- ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].
- ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٢]

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ بعض علامات الساعة التي تأتي بغتة، ويأمر النبيُّ ﷺ بالمسارعة في الأعمال الصالحة قبل أن تظهر تلك العلامات.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ أمر ﷺ بأن نُسارع بالأعمال الصالحة قبل ظهور أمور ستٍّ تشغل الإنسان وتحول بينه وبين القيام بالأعمال الصالحة، وقبل ظهور الشمس من مغربها التي لا يُقبل بعدها عملٌ ولا توبة.

٢ فأَوَّلُ تلك الأشياء خروجُ الدَّجَّال؛ وهو أعظم فتنةٍ على وجه الأرض، وهو إنسانٌ فيه ضخامة، عينه ممسوحة، ومكتوبٌ على جبهته (كافر)، يخرج في آخر الزمان فيدَّعي أنه الله -تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا-، وقد أيَّده الله بخوارق العادة زيادةً في ابتلاء الناس، فيشير للسماء فتمطر، وللأرض فتنبت، وللأرض الخربة فتتبعه كنوزها، ويشقُّ الرجل نصفين ثم يقف بين شِقَّيه وينادِيه فيقوم حيًّا صحيحًا، إلى غير ذلك من أخباره المعروفة، ويظل كذلك حتى ينزل المسيح عيسى ابن مريم ﷺ فيقود جيش المسلمين ويقتله.

وبدأ بذكر الدجال حيث تنفرط بخروجه خرزات الساعة، فتأتي العلامات.

متواليةً علامةً بعد علامة حتى تقوم الساعة، قال ﷺ: «الْأَمَارَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ بِسِلْكٍ، فَإِذَا انْقَطَعَ السِّلْكُ تَبِعَ بَعْضُهُ بَعْضًا»(١).

٣ وثانيها: ظُهور الدُّخان، وهو من علامات الساعة، يَمكُث في الأرض أربعين يومًا يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمنُ فيُصيبه مثل الزكام، وأما الكافرُ والفاجر، فيَدخُل في أنوفهم، فيَثقُب مَسامِعَهم، ويُضيِّق أنفاسهم، وهو من آثار جهنَّم يوم القيامة(٢).

قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٢].

٤ وثالثها: الدابَّة التي تخرج في آخر الزمان تُكَلِّمُ الناسَّ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، ولم يفصل القرآن أو الأحاديث النبوية شكل هذه الدابة، فالله أعلم بها.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٦٣٩).

(٢) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبيِّ (١٦/ ١٣٠).

وخروج الدابَّة يكون بعد طلوع الشمس من مغربها مباشرة؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»[1].

٥ ورابعها: طلوع الشمس من مغربها -على غير عادتها في طلوعها من المشرق-؛ ففي الحديث الصحيح أنَّ الشمسَ حين تغرب تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا[2].

٦ وخامسها: القيامة، سمَّاها أَمْرَ العامَّةِ لأنها تعمُّ الناسَ جميعًا بالموت ولا تستثني أحدًا[3]، فإنَّ الإنسانَ إذا قامت القيامة تحسَّر على ما فرط وقصر؛ وحينئذ يتمنى المؤمن أن لو ازداد من الطاعة؛ ويتمنى الكافر أن يعود به الزمان فيتوب.

٧ وسادسها: ذكر المَوْت؛ وسمَّاه خُوَيْصَة أحدكم لأنه يخصُّ الإنسانَ دون غيره، بخلاف القيامة حيث سمَّاها أمرَ العامة.

وقد أمر الله تعالى عباده بالتوبة والعمل الصالح قبل الموت فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

---

(١) مسلم (٢٩٤١).

(٢) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٦٣٩).

انتباه

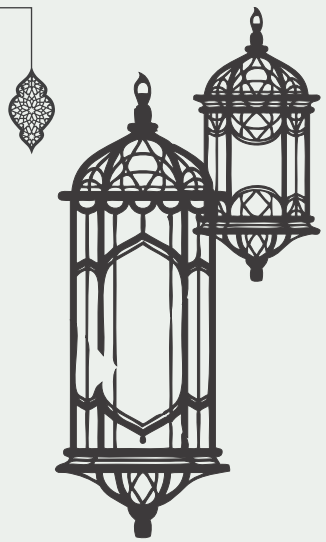
١ لنتذكر حرص نبينا ﷺ ورحمته ورأفته بأمته، حيث يدلُّهم على الأوقات التي لا ينفع بعدها إيمانٌ، ليُسارعوا في الأعمال الصالحة قبلها، فينبغي أن يكون العبدُ أكثرَ حرصًا على اتباعِ ذلك الأمر النبويِّ، والمبادرة بالأعمال الصالحة قبل ظهور تلك العلامات.

٢ تلقَّى الصحابةُ تلك الأحاديث التي فيها من الغيبيات ما قد يحار فيه العقل البشريُّ وقَبِلوها ورَوَوها، لكمال دينهم وعقلهم، لأنهم عَلِموا صدقَ الرسول، وكمالَ علمِ المرسِل، فالعاقل من بعدهم يقابلها بالتسليم، ولا يخجل من تعليمها.

٣ على المؤمن أن يُبادر بالتوبة والاستغفار والمسارعة في الصالحات قبل حلول الأجل؛ فاللهُ واسعُ المغفرة، يبسُط يده باللَّيل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويَبسُط يده بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل، ويغفرُ جميع الذُّنوب ولا يُبالي.

٤ حذَّر النبيُّ ﷺ أُمَّته مرارًا من الدجَّال، وذلك لعظم خطره وفتنته.

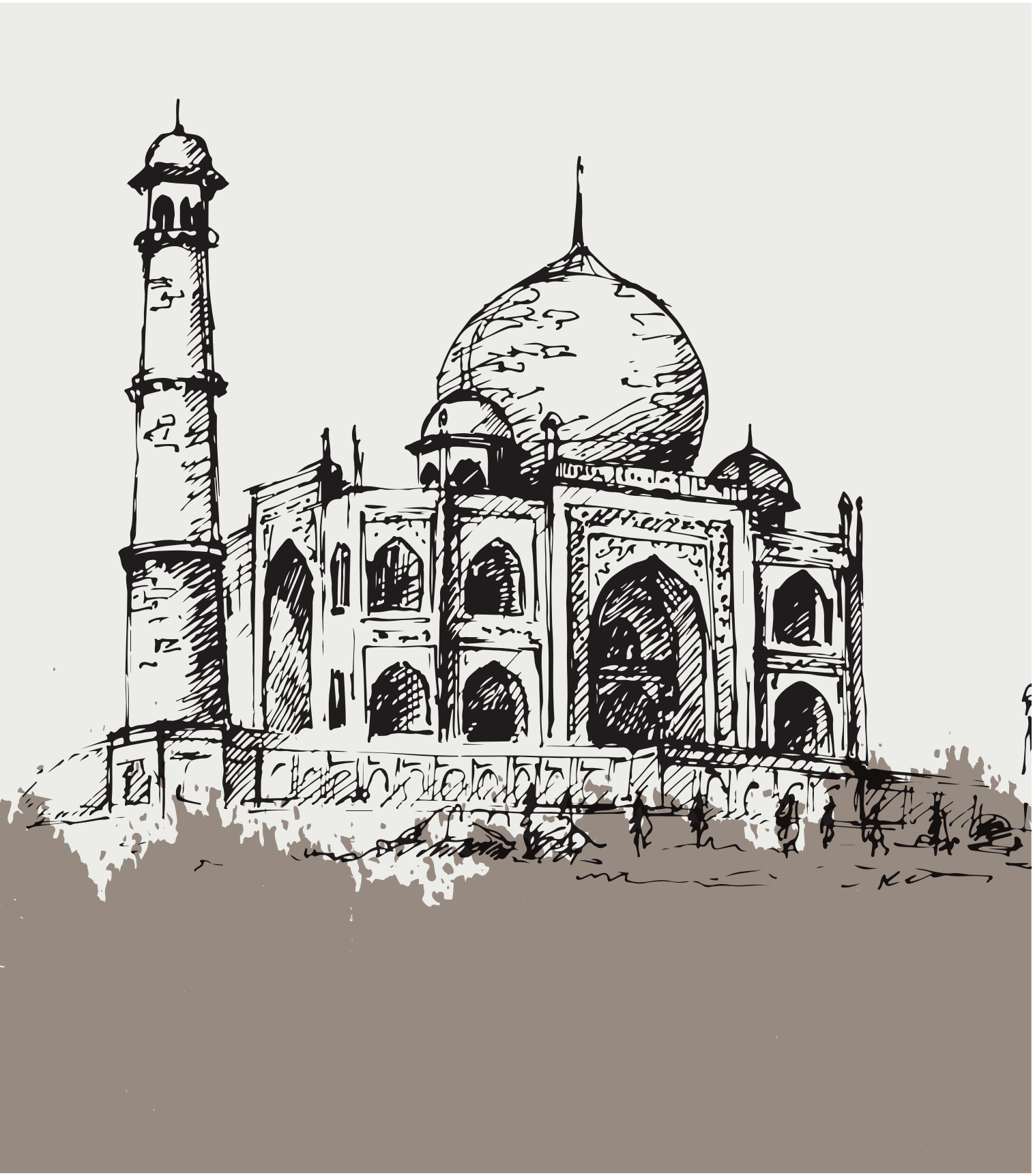
٥ الواجب على الدُّعاة والعلماء أن يهتموا بنوازل المسلمين، ويُبيِّنوا لهم الفتن الواقعة عليهم، ويذكروا لهم حكم الله في المُسْتَجَدَّات، ولا تكن خُطَبُهم وأخبارُهم وكتاباتُهم بمعزلٍ عمَّا يعيشه الناس.



قال الشاعر:

يـا نفـسُ قَـدْ أَزِفَ الرحيـلُ ... وَأَظَلَّـكِ الخَطْـبُ الجليـلُ
فتأهَّبـــي يـا نَفْـــسُ لا ... يَلْعَـبْ بِـكِ الأمـلُ الطويـلُ
فلَتَنْزِلِـــنَّ بمنـــزلٍ ... ينسـى الخليـلَ بـه الخليـلُ
ولَيَرْكَبـــنَّ عَلَيْـكِ فِيـ ... ـهِ مِـنَ الثَّـرَى حِمْـلٌ ثَقِيـلُ
قُـرِنَ الفَنَـاءُ بنـا فـما ... يبقـى العزيـزُ ولا الذليـلُ





عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

١ «مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الكَذَّابَ،

٢ أَلا إِنَّهُ أَعْوَرُ،

٣ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ،

٤ وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ «كَافِرٌ»»[1].

(١) البخاريُّ (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).

آيات

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

الراوي

هو: أبو حمزةَ، أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ، الإمامُ، المفتي، المقرئ، المحدِّث، راوية الإسلام، خادم رسول الله ﷺ، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله المدينة فأتت به أمه أم سليم وعمره عشر سنين، ليخدم النبي ﷺ، فلزمه، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وبايَع تحتَ الشجرة. تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

يُخبر النبيُّ ﷺ عن بعض صفات المسيح الدَّجَّال، أعظم فتنة على الأرض، وما من نبيٍّ إلا وأنذر قومَه فتنتَه. وهو أعورٌ، مكتوبٌ بين عينيه «كافر»، يقرؤها كلُّ مسلمٍ.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

١ اهتمَّ النبيُّ ﷺ كإخوانه من الأنبياء ببيان فتنة المسيح الدَّجَّال؛ لأنها شرُّ فتنةٍ على وجه الأرض، قال ﷺ: «مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»[١]. ولذلك لم يأتِ نبيٌّ إلا وحذَّر أُمَّته منه وبيَّن لهم فتنته.

٢ وإنَّما كان فِتْنَتُه أعظمَ فتنةٍ بسبب ما يَخلُق الله معه من الخَوارِق العظيمة التي تَبهَر العقول وتُحيِّر الألباب.

وسُمِّي بالمسيح لأنَّ إحدى عينيه ممسوحةٌ، وقيل لأنه يمسح الأرض أي يقطعها في أربعين يوما، وسُمِّي بالدَّجال لما يُظهره من أعمال الدَّجل والكذب والخداع، فيدَّعي الألوهية، ويُجري الله على يده ما يبتلي به الخلقَ[٢].

وقد أخبر ﷺ في أحاديث كثيرة عن أمْرِه ونزوله وطوافه الأرض - إلا مكة والمدينة فإنهما حرامٌ عليه -، وبيَّن أوصافه الشَّكْلِيَّة، وما يصنع المسلمُ إن لَقِيَه، إلى أن ذكر نزول عيسى ﷺ وصلاته خلف إمام المسلمين، ثم خروجه معهم للقاء الدَّجَّال وقتاله، حتى يقتله عند باب لُدٍّ في بيت المقدس، فخبر ظهور الدجال متواتر عن رسول الله ﷺ عن أكثر من أربعين صحابيًا، فهو ثابت نقلاً، ولا يوجد ما يمنعه عقلاً[٣].

٢ ثُمَّ أخبر ﷺ عن أهمِّ أوصافه الخَلْقِيَّة؛ وهو أن إحدى عينيه عوراء، والثانية جاحظة ناتئة عن وجهه، وعليها جلدة غليظة نابتة على مآقي العين، فكلُّ واحدة منهما عوراء، إحداهما بذَهابها، والأخرى بعَيبها[٤].

وقد ذكر ﷺ من صفاته في الأحاديث الأخرى أنه شديد جعودة الشعر، قصيرٌ، جسيمٌ، كأنَّ عينَه عنبةٌ طافيةٌ[٥].

٣ ثُمَّ نزَّهَ النبيُّ ﷺ ربَّنا عن تلك الصفات؛ لما كان المسيح الدجال يدعي الألوهية، فالعَوَرُ من صفات النقص التي لا تنبغي في حق الله سبحانه. وكذلك سائر صفاتِ الدَّجال؛ فإنها صفاتٌ نقص إذا وُجدت مفردةً في الآدمي عيَّره الناسُ، فكيف إذا اجتمعت؟! ولله سبحانه المَثَلُ الأعلى، وصفاته كلها حُسْنَى.

٤ ومن علامات الدَّجال كذلك أنه مكتوبٌ بين عينيه «كافرٌ»، يقرأها المسلمُ سواءً كان يعرف الكتابةَ أم أُمِّيًّا، لعموم قوله ﷺ: «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ»[٦]. فكلمة كل تدل على العموم، وهي كتابةً حقيقيَّةً، جعلها الله آيةً وعلامةً من جُملة العلامات القاطعة بكُفره وكَذِبه وإبطالِه، يُظهِرُها الله لكلِّ مسلم، ويُخفيها عمَّن أراد شَقاوتَه وفِتنتَه، ولا امتناع في ذلك»[٧].

---

(١) أحمد (١٦٣٧٣).

(٢) «فيض القدير» للمناويِّ (٣/ ١٩٤).

(٣) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٩/ ١٩٥ وما قبلها وبعدها، وبحث أحاديث الدجال للعوني.

(٤) ينظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (١/ ٥٢٢).

(٥) البخاريُّ (٣٤٤١).

(٦) مسلم (٢٩٣٣).

(٧) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٨ / ٦٠).

استبانة

١ لم يترك النبيُّ ﷺ أُمَّتَه حتى جَلَّى لها حقيقة فتنة الدجَّال، وأرشدهم إلى ما يعصمهم من فتنته. فهو ﷺ لم يترك خيرًا إلا دلَّنا عليه، ولا شرًّا إلا حذَّر منه. وذلك يستوجب كمال محبته وطاعته وموالاته وتقديم سُنَّته على قول سائر الناس.

٢ مما أخبر به ﷺ مما يعصم من فتنة المسيح الدَّجال حفظُ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ قال ﷺ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»(١)، وفي حديث النَّوَّاسِ بن سمعان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ»(٢).



٣ كان النبيُّ ﷺ حريصًا على الاستعاذة في كلِّ صلاة من فتنة الدَّجَّال؛ فعن عائشةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللهم إني أعوذُ بكَ من عذاب القبر، وأعوذُ بك مِن فِتنة المسيح الدَّجَّال، وأعوذُ بك مِن فتنة الْمَحْيا والممات، اللهم إني أعوذُ بك من المأثَم والْمَغْرَم»(٣). فإذا كان ذلك هو حال الرسول ﷺ، فينبغي علينا أن نُكثر من التعوِّذ بالله تعالى من فتنة المسيح الدجال.

٤ على المعلم والداعية أن ينتهج نهج الأنبياء وأن يحذر الناس من الفتن الظاهرة والباطنة.

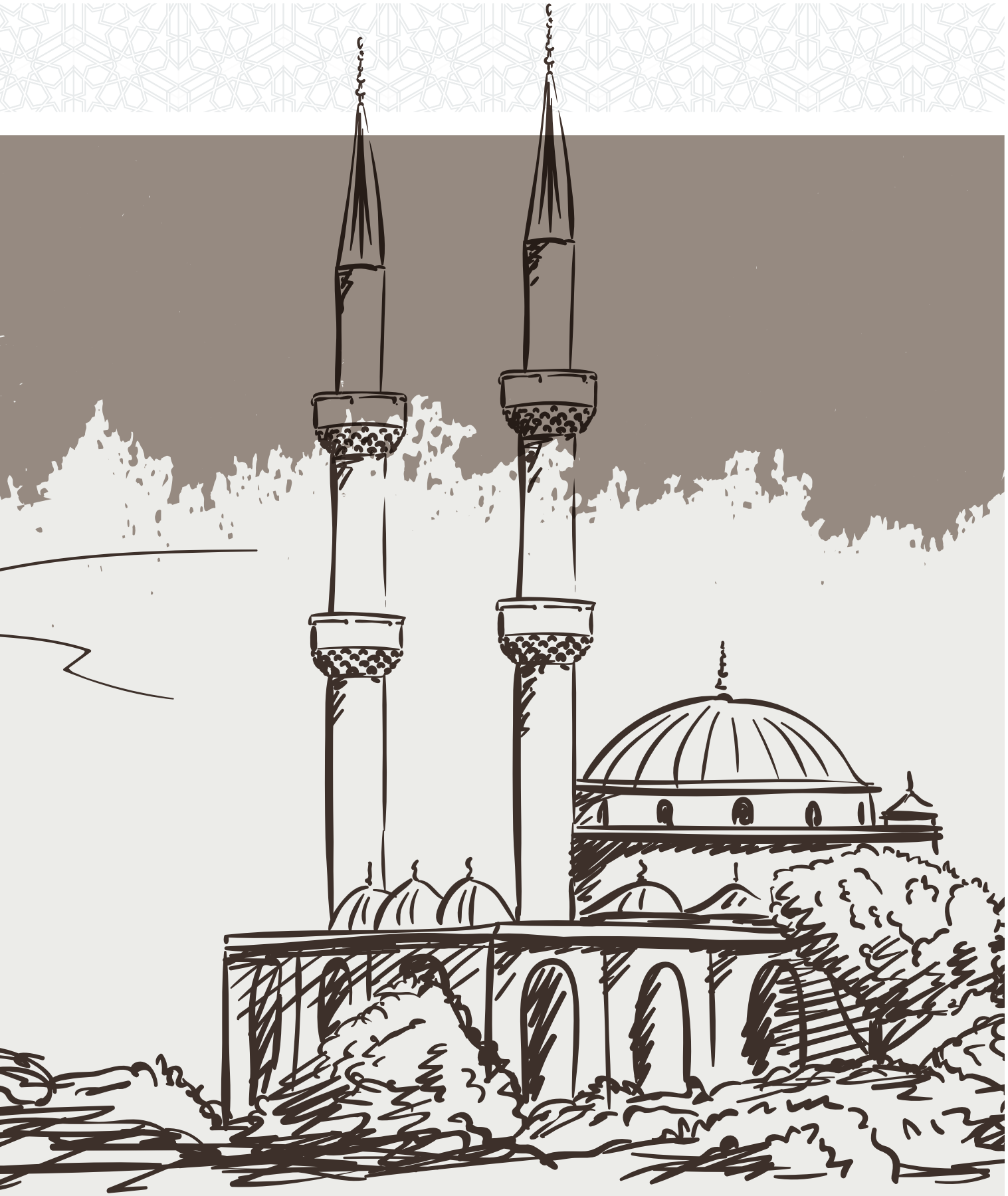
٥ بين النبي ﷺ أن الله يعصم المؤمنين من فتنة الدجال فيلهمهم قراءة كلمة (كافر) بين عينيه دون غيرهم، فأعظم ما يعصم المؤمن من الدجال هو أن يزيد إيمانه ويثبت عليه.

---

(١) مسلم (٨٠٩).

(٢) مسلم (٢٩٣٧).

(٣) البخاريُّ (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

١ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا،

٢ فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا، آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ،

٣ فَيَوْمَئِذٍ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»[1].

(١) البخاريُّ (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧).

آيـــات

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

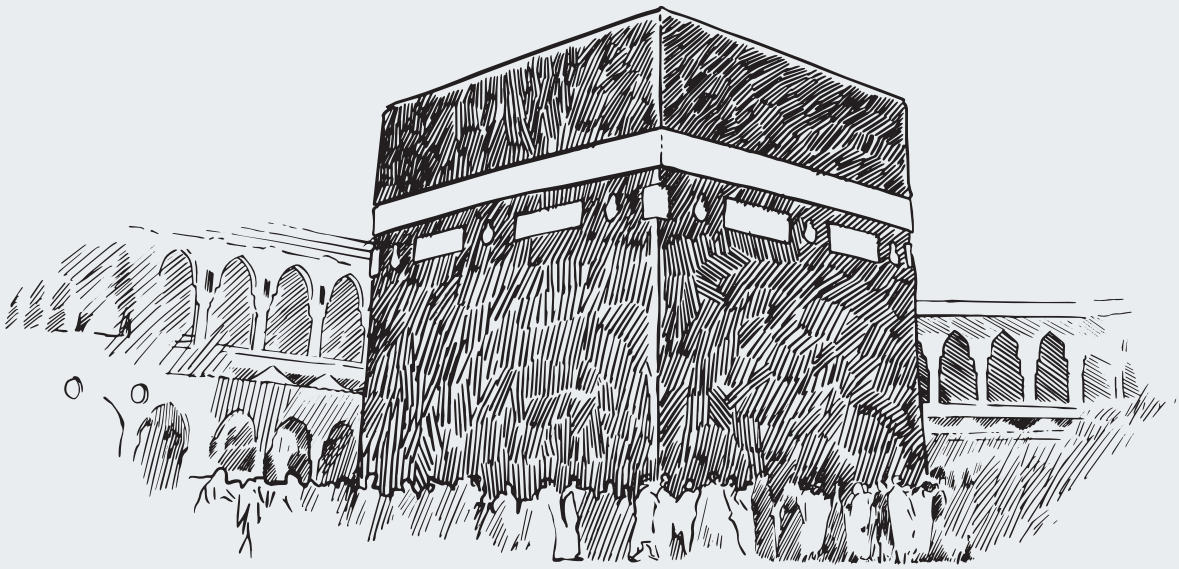
يذكر النبيُّ ﷺ أن من علامات الساعة الكبرى طلوع الشمس من مغربها، وأنها إذا ظهرت أُغلق بابُ التوبة، فلا تقبل توبة أحد بعد رؤيتها.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يخبر النبيُّ ﷺ عن آخر علامةٍ من علامات الساعة الكبرى، وهي طلوع الشمس من مغربها على غير عادتها؛ ففي الحديث الصحيح أنَّ الشمسَ حين تغرب تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا[1].

٢ فإذا طلعت الشمسُ من مغربها آمن الناسُ كلهم بالله تعالى، وهو إيمانٌ اضطراريٌّ لا اختيار فيه؛ حيث ظهر الغيبُ وأيقن الجميعُ أنَّ الساعةَ قائمةٌ، فيؤمنون طمعًا في النجاة.

٣ إلا أنَّ بابَ التوبةِ يُغلق حينئذٍ، فلا يُقبل من عاصٍ توبةٌ، ولا من كافرٍ إسلامٌ؛ فهو إيمانٌ اضطراري وقع بعد المشاهدة، فلا ثمرة منه، كإيمانِ مَن نزل به الموت، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾[النساء: ١٨]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[2]، وكإيمانِ مَن حلَّ به العذاب، قال تعالى في حقِّ فرعون: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠- ٩١].



(١) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٢) الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

التأمل

١ أخفى اللهُ عزَّ وجل موعدَ الساعة ليكون الإنسانُ مجتهدًا مستعدًّا لها طول الوقت، فتزداد طاعتُه وترتفع منزلته، كما أبهم ليلةَ القدر ليجتهد العبد في جميع العشر. فليس المطلوب من الإنسان أن يعلم متى الساعة، وإنما يستعد لها ويكثر من الأعمال الصالحة، ولهذا لمَّا سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ: متى الساعة؟ قال ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»[1].

٢ عظِّم في نفسك أمر الساعة، فإن أمرها عظيم، يتغير عندها نظام العالم، فتطلع الشمس من مغربها، فكن على ذكر ورهبة منها.

٣ على الإنسان أن يُبادر في التوبة إلى الله تعالى، قبل أن يفاجئ بالموت أو بأمر يحول بينه وبين التوبة، قَالَ بَكْرٌ الْمُزَنِيُّ -رحمه الله-: «ما من يومٍ أَخرَجه اللَّهُ إلى الدّنيا إلّا يقول: يا بْنَ آدَمَ، اغتنمني؛ لعلَّه لا يومَ لك بعدي، ولا ليلة إلّا تنادي: ابنَ آدَمَ، اغتنمني؛ لعلّه لا ليلة لك بعدي»[2].

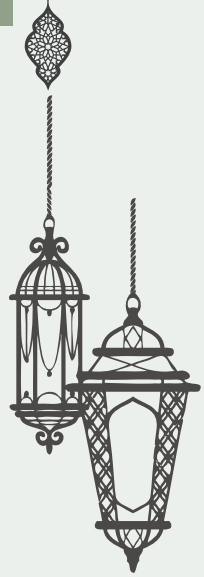
٤ البخاري رحمه الله هو أحد من روى هذا الحديث، وقد كان ممن اغتنم عمره.

قال البخاري:

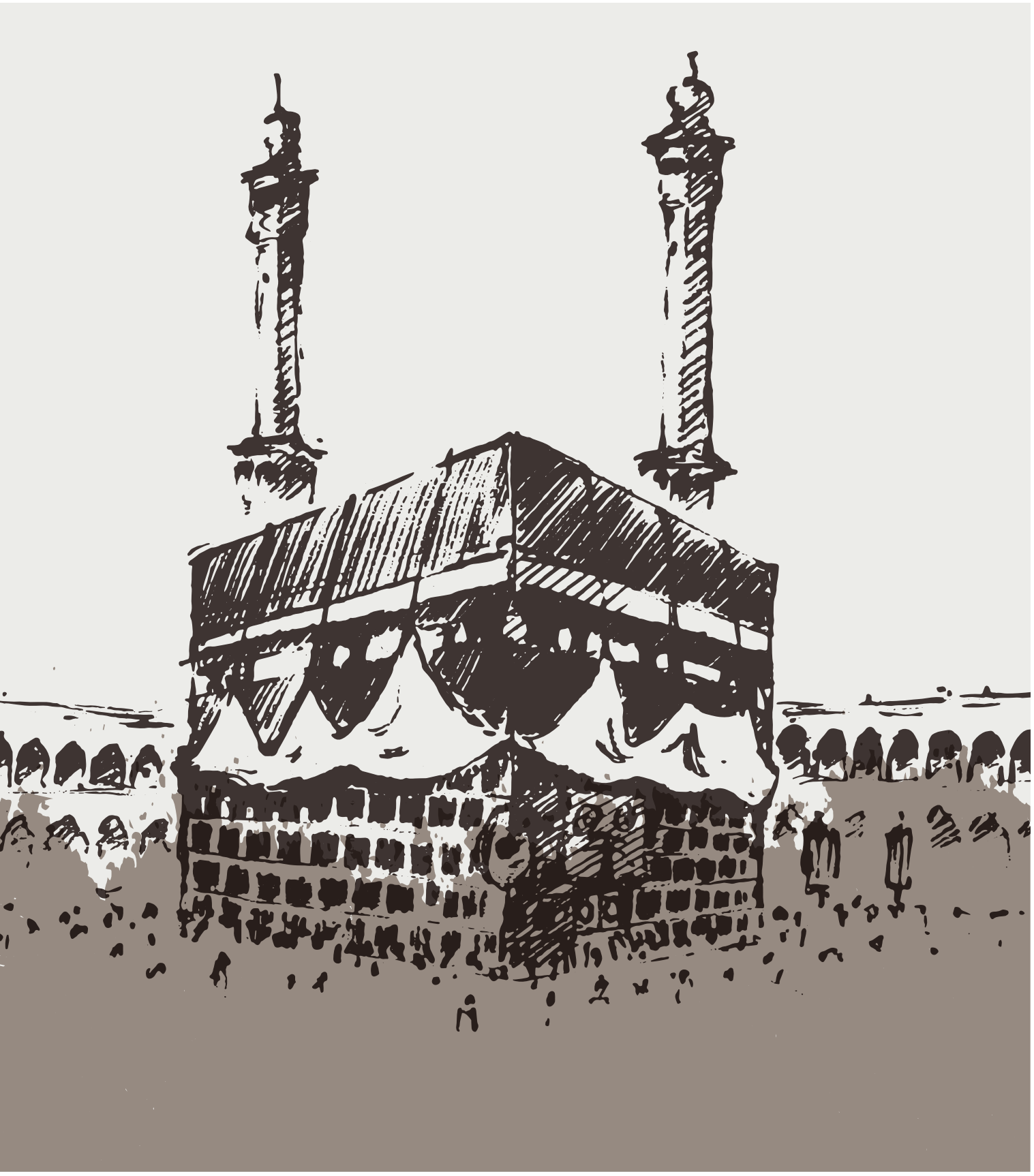
اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَةْ
كَمْ صَحِيحٍ قد مَاتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَةْ

وقال غيره:

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا المغرورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إذ كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأُذْنِيَتْ ... حَتَّى عَلَى رَأْسِ الْعِبَادِ تَسِيرُ
وَإِذِ النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَاثَرَتْ ... وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كُدُورُ
وَإِذِ الْجِبَالُ تَقَلَّعَتْ بِأُصُولِهَا ... فَرَأَيْتَهَا مِثْلَ السَّحَابِ تَسِيرُ



(١) البخاريُّ (٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٩١).



عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ،

٢ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ،

٣ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ،

٤ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[1]

(١) البخاريُّ (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

آيـــات

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٥].
- ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾[مريم: ٩٥].
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].
- ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

الرّاوي

هو: أبو طريفٍ، عَدِيُّ بنُ حاتمِ بنِ عبدِ الله بنِ سعدٍ الطائيُّ ﷺ، وأبوه حاتم المشهور بالكرم، وكان عديٌّ نصرانيًّا فقدم على النبي ﷺ ورأى صفاته، فأَسلَم سنة ٩ هـ أو ١٠ هـ، ولمَّا توفِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدِم على أبي بكر الصدِّيق ﷺ في وقت الرِّدَّة بصَدَقة قَوْمِه، وثبت على الإسلام ولم يرتَدَّ، وثَبَت قومه معه، شَهِد فتح العراق، ومات بالكوفة سنة ٧٦هـ، وهو ابن مِائة وعشرين سنةً[1].

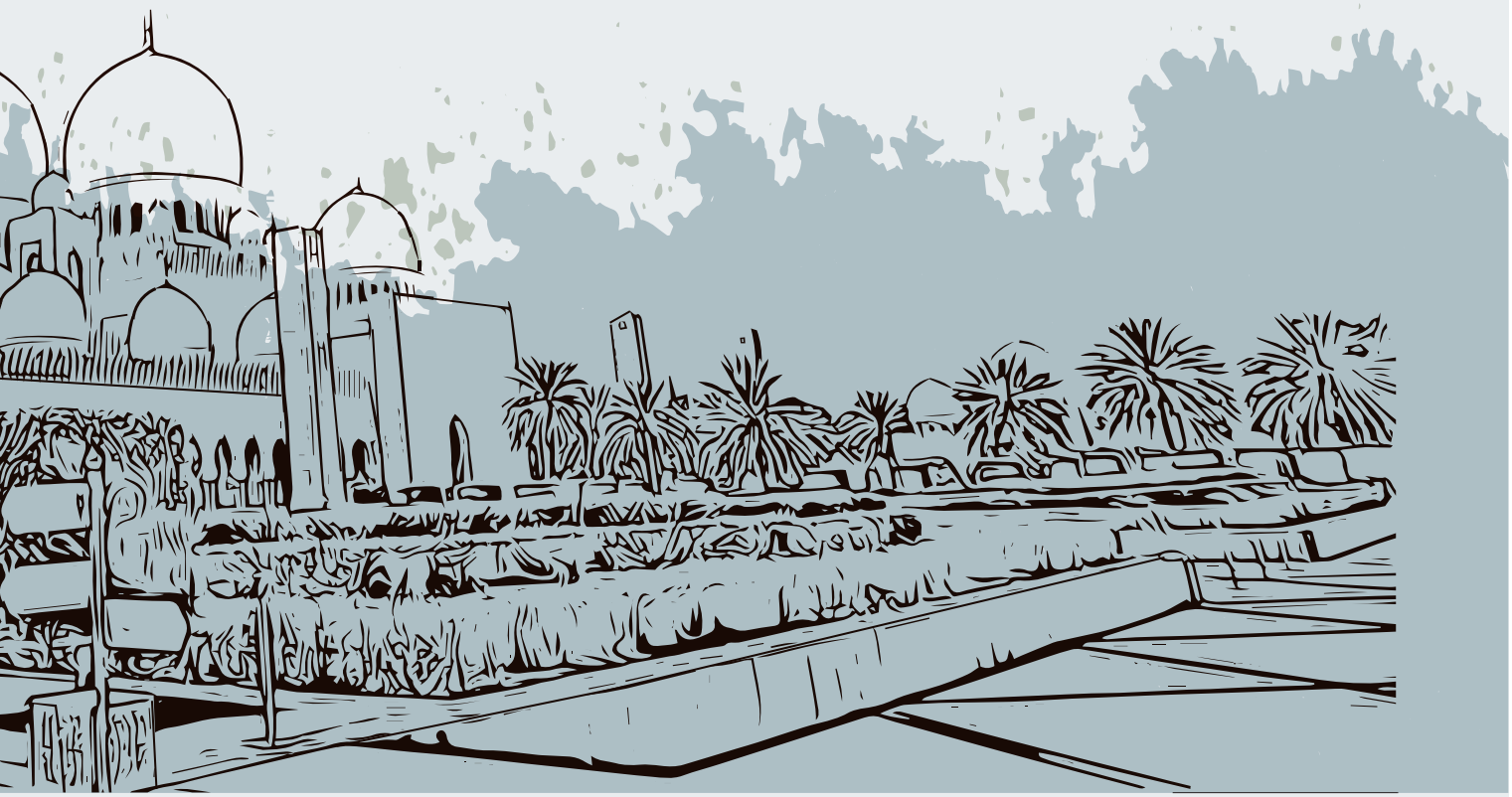
خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ أن الإنسان سيقف يوم القيامة للحساب بين يدي ربه، يُكَلِّمه ربُّه من غير مترجم أو وسيط، وحينها لا يجد الإنسانُ نافعًا له غير عملِه.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ٢١٩٠)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٠٥٧)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٤/ ٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٣٨٨).

١ يخبر النبيُّ ﷺ أنَّه ما من أحدٍ إلا وسيقف بين يدي ربه، يحاسبه على ما عمل، يُكَلِّمه من غير **وسيط أو مترجم**، بل يأتيه فردًا ليس معه من يشفع له أو يُدافع عنه، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

٢ فإذا وقف العبد بين يدي ربِّه لم يجد نصيرًا أو شفيعًا إلا عمله؛ يبحث من حوله عمَّن ينجيه من هول العذاب ومناقشة الحِساب؛ فإنَّ «مَن نُوقِش الحِسابَ هَلَك»[١]، فينظر عن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا عمله، ثم يَنظُر أمامه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. والسبب في ذلك: أن النار تكون في ممرِّه فلا يمكِنُه أن يَحِيد عنها؛ إذ لا بدَّ له من المرور على الصراط»[٢].



(١) البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر (١١/ ٤٠٤).

٣ وإذا كان هذا حالَ العبدِ يوم القيامة، فالأَوْلى به أن يَحذَر النار، ويرجو النجاةَ منها، فلا يُقْدِم إلَّا على صالح الأعمال وأفضلِها، وأن يحرص على التقرُّب إلى الله في كلِّ وقت وحين، وأن لا يستقِلَّ شيئًا من الطاعات، ومن تلك الأعمال اليسيرة التصدق بما يطيقه الإنسان، ولو كان ذلك نصفَ تمرة.

٤ وإن كنتَ لا تَملِك شيئًا تتصدقُ به، فحسبك بالكلمة الطيبة في مرضات الله، فربَّما كانت سببًا لنجاتك من النار.



التّباعي

١ تذكر أنك واقف بين يدي الله تعالى لوحدك، ليس معك أحدٌ من أهلك أو أصدقائك، ولا يصحبك نسب ولا مال ولا منصب، فتجهز لذلك المقام: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

٢ لا تحتقر شيئاً من العمل؛ سواءً كان عملًا صالحًا أو فاسدًا؛ فإنَّ أعظم الجبال تكونت من تراكم الحصى وحبَّات الرمل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦- ٧].

٣ من أعظم الأعمال التي تُبعد العبدَ عن النَّار: الصدقةُ، ولهذا أمر بها ﷺ في الحديث، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

٤ لا تؤجل أن تعطي المسكين كأس ماء، أو تسبَّح بتسبيحة، أو تقرأ ولو آية، ولا تقل: أجهز نفسي ليكون أكثر، فالآفات تعرض: جَاءَ سَائِلٌ إِلَى بَابِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَقَالَتْ لِجَارِيَتِهَا: "أَطْعِمِيهِ"، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ، فَقَالَتْ لَهَا: مَا وَجَدْتُ شَيْئًا أُطْعِمُهُ، قَالَتْ: «ارْجِعِي فَابْتَغِي لَهُ»، فَرَجَعَتْ فَوَجدتْ تَمْرَةً فَأَتَتْ بِهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «أَعْطِهِ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا مَثَاقِيلَ ذَرَّةٍ إِنْ تُقُبِّلَتْ»[(١)].

٥ ما أكثر الأعمال الصالحة التي توازي شق تمرة أو تزيد عليها، كإسعاد الوالدين والأهل بحديثٍ أو خدمة، وحملك لمتاع كبير سن أو ضعيف، وكسوتك اللباس لمسكين، ورعايتك لأرملة أو يتيم، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[(٢)].

٦ اللسانُ إما أن يُورد العبدَ إلى جنات الخلد، وإما أن يسوقه إلى نار جهنم والعياذ بالله، فمصير الإنسان مرهون بلسانه إما أن يكون سبب نجاته أو هلاكه.

٧ اجلس مع أهلك وطلابك، وتفكروا في الأعمال الصالحة التي تستطيعون عملها بلا مشقة، ليحفز بعضكم بعضًا عليها.

---

(١) البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٣١٩٠).

(٢) مسلم (٢٩٨٤).



قال الشاعر:

استثمِرِ الخَيْرَ في دُنياكَ واجتهِدِ ... ولا تُبَالِ بداعي الشرِّ والحسَدِ
واعْمَلْ ليومٍ جميعُ الناس تَرقُبُه ... فيه القضاءُ قضاءُ الواحدِ الأحدِ
أفعالُكَ اليومَ تحكي أيَّ منزلةٍ ... رَوْضُ الجنانِ أمِ النيرانُ في اللَّحَدِ



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ:

١ «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»

٢ قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ

٣ قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»(١).

(١) البخاريُّ (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

آيـــات

- ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١١-١٣].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].
- ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢- ١٣].
- ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢١- ٢٦].

الرَّاوي

هو: أبو هريرة، واسمه على الأرجح: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان حافظة الإسلام، وتفرَّغ لهذا الشأن، وكثر طلابُه، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)(١).

خـلاصة

يُخبر النبيُّ ﷺ أنَّ حرَّ نار جهنم تفوق حرَّ نار الدنيا بسبعين ضِعفًا.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

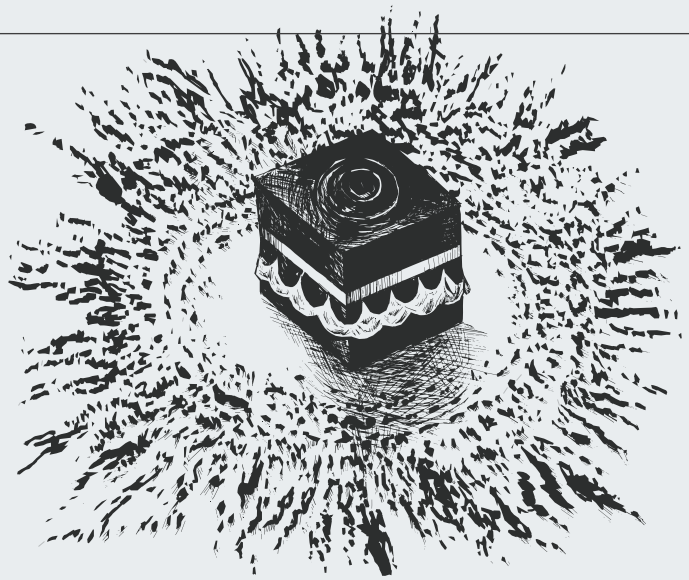
١ يعقد النبيُّ ﷺ مقارنةً بين نار الدنيا ونار الآخرة؛ فيذكر أن حرارةَ النار التي يستعملها الناس إنما هي جزءٌ، و نار الآخرة التي أعدَّها الله تعالى للكافرين والعصاة.

٢ فاستعظم الصحابةُ ذلك، وأجابوا بأنَّ نارَ الآخرة لو كانت كنار الدنيا في الإحراق والحرارة لكانت كافيةً في العذاب، وزاجرةً عن الوقوع في المعاصي وترك الأوامر؛ فإنها تلتهم الإنسان والحيوان والنبات وسائر الجمادات.

٣ فأكَّد ﷺ أنها أشدُّ من تلك النار التي أَلِفُوها وذاقوا حرارتها ٦٩ ضعفًا، زيادةً في تعذيب الكافرين والعصاة وإيلامهم.

قال الشاعر:

وَخُذْ من تُقَى الرَّحمنِ أعظمَ جُنَّةٍ ... لِيومٍ بهِ تَبْدُو عِيَانًا جَهنَّمُ
وَيُنْصَبُ ذاكَ الجَسرُ من فوقِ مَتنِهَا ... فَهَاوٍ وَمَخْدُوشٌ وَنَاجٍ مُسَلَّمُ
وَيَأتِي إِلَهُ العَالمينَ لِوَعْدِهِ ... فَيَفْصِلُ ما بَينَ العِبادِ وَيَحْكُمُ
وَيأخُذُ للمَظْلُومِ رَبُّكَ حقَّهُ ... فيا بُؤسَ عبدٍ للخلائقِ يَظْلِمُ



١ على المتكلم -من والدٍ وداعية ومعلمٍ وغيرهم- أن يحسن عرضه لما يريده من المعاني، فيستعين بالتشبيه والأرقام وغيرها مما يوصل لحسن الفهم والتصور.

٢ التذكير بالجنة والنار هي من أعظم المواعظ التي كثر ذكرها في القرآن الكريم، وما أجمل أن يكون مثل ذلك حاضرًا، في مساجدنا وبيوتنا ومجالسنا وإعلامنا.

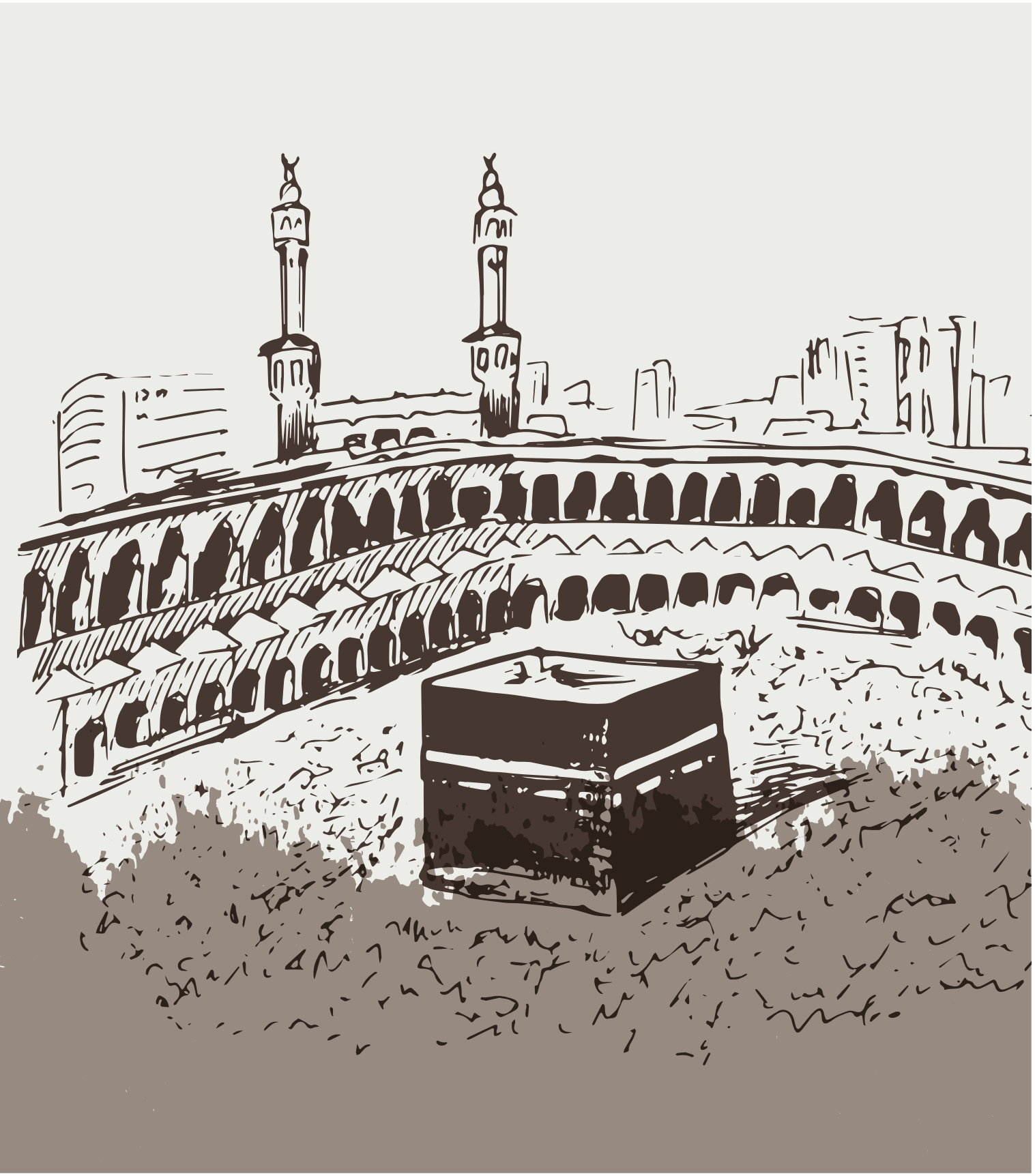
٣ التذكير بالجنة والنار هي من أعظم المواعظ التي كثر ذكرها في القرآن الكريم، وما أجمل أن يكون مثل ذلك حاضرًا، في مساجدنا وبيوتنا ومجالسنا وإعلامنا: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤ الحذر من نار الدنيا مشروعٌ، وقد أرشد النبي ﷺ إلى أسباب ذلك حتى في إطفاء سراج صغير خشية أن يحرق بيتًا، فمن العقل التحرز وسد الذرائع الموصلة إلى النار ولو كانت في أصلها مباحة، فالتحرز من نار الآخرة المضاعفة أولى.

٥ من البطولة والأعمال الصالحة إنقاذ الناس من نار الدنيا، وإطفائها، وأهلها مشكورون، والدعاة إلى الله تعالى والناصحون ينقذون من نارٍ أشد حرًا، فالشكر لهم عظيم، وتقدير جهدهم واجب

٦ كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله تعالى من حرِّ جهنَّمَ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»[1]()؛ فإذا كان النبي ﷺ يستعيذ منها وهو المعصومُ الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بنا؟! فيجدر بكلِّ مسلم ألا يَدَعَ الاستعاذة من عذاب النار.

(١) النسائيُّ (٥٥٢٠).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ:

١ «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ،

٢ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ،

فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[1].

(١) البخاريُّ (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

آيـــات

- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].
- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧-١٩].
- ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٤٩ - ٥٤].
- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [محمد: ١٥].

الرَّاوي

هو: أبو هريرة، واسمه على الأرجح: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان حافظة الإسلام، وتفرَّغ لهذا الشأن، وكثر طلابُه، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يخبر ربنا سبحانه وتعالى أنَّه أعدَّ لعباده الصالحين من ألوان النعيم ما لم يره أو يسمع به مخلوقٌ، ولا تخيَّله عقلٌ أو خَطَر على قلبٍ.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ هذا حديث نبوي يرويه النبي ﷺ عن الله تعالى من غير القرآن الكريم، ويسمى حديثًا قدسيًّا.

٢ يُخبر ربنا تبارك وتعالى أنَّه قد أعدَّ لعباده الصالحين من النعيم جزاءَ طاعتهم وعبادتهم ما لم يروه مثله، وبالكاد أن رأوا شيئاً اسمه مثل اسمه، كالأشجار، والأنهار، والقصور من الذهب والفضة، واللؤلؤ المجوّف وغيرها، فضلاً عن جمال أهلها، وغيرها من المناظر.

٣ وفيها أيضا من المسموعات الجميلة ما لم يسمعوا مثله، من أصوات الغناء وغيرها، وفيها أيضاً ما لم يسمعوا بمثله في الأخبار.

٤ ثُمَّ أكَّد سبحانه أنَّ ما أعدَّه لا يمكن لبشرٍ أن يعرفه؛ فإذا كان العبدُ لم يرَ ذلك ولا سَمِع عنه، وهما حاستا الإدراك، فإنه كذلك لا يستطيع أن يتخيَّل بعقله كُنْهَ ذلك النعيم، فمهما خَطر ببال العبد من ألوان النعيم والمتاع والزينة في الجنَّة فلن يصل إلى حقيقة ذلك النعيم الذي هيَّأه الله تعالى لعباده.

٥ وأردف ﷺ بتوكيد ذلك من كلامه تعالى المُنَزَّل، فقال: فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»؛ أي: فلا تعلمُ نفسٌ ما أعدَّه اللهُ تعالى وأخفاه لعباده المؤمنين في الجنة من أشكال النعيم والسعادة والخير الوفير الذي تسعد به الأعين وتبتهج.

وقد تواتر في القرآن ذكر الجنَّة ونعيمها، ولهذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1].

قال الشاعر:

اعْمَلْ لِدَارِ الْبَقَا رِضْوَانُ خَازِنُهَا ... الجَارُ أحمدُ والرحمنُ بانِيها
أرضٌ لَهَا ذَهَبٌ والْمِسْكُ طِينَتُها ... والزَّعْفَرَانُ حَشِيشٌ نَابِتٌ فيها
أنهارُها لَبَنٌ مَحْضٌ ومِنْ عَسَلٍ ... وَالخَمْرُ يَجْرِي رَحِيقًا في مَجاريها
مَنْ يَشْتَرِي الدَّارَ بِالْفِرْدَوْسِ يَعْمُرُهَا ... بِرَكْعَةٍ في ظَلامِ اللَّيْلِ يُخْفِيها
أَوْ سَدِّ جَوْعَةِ مِسْكِينٍ بِشَبْعَتِهِ ... فِي يَوْمِ مَسْغَبَةٍ عَمَّ الغَلا فِيها

(١) البخاري (٣٢٥٠).

١ أعظم المحبة محبةُ قومٍ صالحين، هم مع الله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهم يُعدِّون له الطاعات -وهو غنيٌّ عنها-، وهو يُعد لهم ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذن سَمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكن مع هؤلاء القوم، وكلما كسلتَ في الطريق فتذكر ذلك النُّزُل الذي أعده العظيم الكريم .

٢ قال الحسن رحمه الله : «أخفى القَوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذن سَمعت»[1] . فإذا كان الأمرُ كذلك فينبغي للمسلم أن يُعِدَّ من عمله الخَفِيِّ ما لا يطَّلع عليه إلا الَّذِي خبَّأ له ذلك الخير الجزيل .

٣ الجنة موجودة الآن، والله أعدها للصالحين من عباده، فإذا عرضت لك دنيا بلذةٍ محرمة، فقل لنفسك : الجنة قائمة، وليس إلا صبر زمن يسير يوصل إليها .

٤ كثير من الناس يحدث نفسه بلذائذ الدنيا، ويتخيلها، فيتشوق إليها . . ، من أن كل لذائذ الدنيا وما تخيله منها لا تساوى موضع شبر في الجنة، فعلى العاقل أن يكثر في نفسه من تذكر الجنة، وما أعد الله فيها ليتشوق إليها .

٥ ليكن لك ولأهلك وصحبك نصيب من تذكر الجنة وأوصافها، وتذكير الناس بها، وقد يسر الله تعالى من وسائل العلم والتواصل ما يسهل ذلك .

٦ أعظم نعيمٍ في الجنة على الإطلاق : هو رؤية الله تعالى ؛ وإن لم يروه في الدنيا، قال سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]، وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي البَدْرَ - فَقَالَ : «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[2]، وأعظمُ ما يُعَذَّبُ به الأشقياء الحرمان من رؤيته سبحانه، ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] .

(١) «تفسير الكشاف» للزمخشريِّ (٣/ ٥١٣).

(٢) البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).



الرَّحمةُ والعَدلُ في قَدَرِ اللهِ تعالى

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ،

٢ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ:

٣ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[1].

(١) البخاريُّ (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

آيات

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه على الأرجح: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان حافظة الإسلام، وتفرَّغ لهذا الشأن، وكثر طلابُه، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

خلاصة

ذكر النبيُّ ﷺ أن الله عزَّ وجل حين فرغ من الخلق كَتَب في اللوح المحفوظ عنده فوق عرشه: إن رحمتي غلبت غضبي.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ لما قدَّر الله عزَّ وجل تقديرَ خلقِ المخلوقات، أي قبل أن يخلق الله الخلق كما بينته رواية أخرى[١]: كتب في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه جميع أقدار الخلق[٢]، أو كتب في كتابٍ آخرَ عظيم عنده.

٢ وهذا الكتاب محفوظٌ وموجود عند الله تعالى فوق عرشه، وعرشُ الله خلقٌ عظيمٌ لله تعالى، فوق السموات السبع، وتحمله ملائكة عظام لله تعالى، والعرشُ يقصد به سرير المُلْك.

وذلك من أدلة علوِّه سبحانه، وأنه فوق سماواته على عرشه سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

٣ كَتَب عزَّ وجلَّ في ذلك الكتاب: «إنَّ رحمتي غلبت غضبي»، ومعنى ذلك أنَّ نصيب خلقه من الرحمة أكثر من نصيبهم من الغضب؛ فهي التي تصيبهم غالباً في مواقفهم المختلفة: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥]، ولولاها لما استحقَّ الجنَّةَ أحدٌ من الخلق: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»[٣].

ومن سبق رحمته تعالى أنه يمهل العصاة، ويلهمهم الاستغفار، حتى إذا استغفروا غفر لهم.

قال الشاعر:

إن كنتَ ترجو مِن الرحمنِ رحمتَه ... فارحمْ ضِعافَ الورَى يا صاحِ محترِمَا
واقصِدْ بذلك وجهَ الله خالقِنا ... سبحانَه مِن إلهٍ قد برى النَّسَما
واطلبْ جزا ذاك مِن مولاك رحمتَه ... فإنَّما يَرْحَمُ الرحمنُ مَن رحِما

(١) انظر رواية البخاري (٧٥٥٤): «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ».

(٢) حديث «إن أولَ ما خلَقَ اللهُ القلمُ، فقال له: اكتبْ، قال: ربِّ، وماذا أكتبُ؟ قال: اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيء حتى تقومَ الساعةُ» أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذيُّ (٣٣١٩).

(٣) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٧١).

١ اطمأنّ بالله تعالى، فكما كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فقد كتب فيها الرحمة، فلا تحزن على ما فات، ولا تجزع مما يأتي وثِقْ بالله.

٢ الكتاب -الذي فيه المقادير، وفيه بيان رحمة الله تعالى- وضع الله تعالى عنده فوق عرشه؛ تعظيمًا له، فعلى العاقل أن يقدِّر هذا الكتاب قدره، وأن يتعلق تفكيره بهذا الأمر العظيم، لا بالأفكار السفلية.

٣ رحمة الله تعالى سبقت غضبه، فهو يقبل توبة العصاة والمُسرفين على أنفسهم مهما أسرفوا، فلننظر إلى أنفسنا: ألم نمتلئ من ذنوب البصر والسمع، والكلام واليد؟، فتعالوا لنستمع لنداء الله الرحيم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٤ تقرّب إلى رحمة الله تعالى ولو بشبر؛ فقد «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ المَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ»[1].

٥ الله تعالى له كمال الملك والعلم، وله العرش والكتاب الذي فيه كلُّ شيء، ومع ذلك فله كمال الرحمة، وكثيرٌ من الناس إن حصل له سلطان بالملك أو العلم (أو نحوهما كالأبوة، أو القوة الجسدية، أو الوظيفة العالية، أو الغنى، أو غيرها..) استقوى على من دونه، وعاملهم بالعسف، فانتبه لنفسك.

٦ لا بد أن يكون من الناس إساءةٌ دالة على نقصهم، فالكمال في تدبيرهم يجمع بين الرحمة والغضب، والكمال حقًا في أن تكون الرحمة أسبق وأغلب، فعلى المسلم أن يتخلّق بمثل هذا الحديث، فتغلب رحمتُه غضبه، ولأنه ضعيفٌ فليستعن بالله تعالى أن يلهمه تلك الرحمة.

(١) البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).



عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ ﷺ قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ -وهو الصادقُ المصدوقُ-:

١ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ،

٢ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ،

٣ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ،

٤ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ،

٥ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ»[1].

(١) البخاريُّ (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

آيات

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦].
- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

الراوي

هو: أبو عبد الرحمن، عبدُ الله بنُ مسعودِ بنِ غافلِ بنِ حبيبٍ، الهذليُّ، صاحبُ رسول الله ﷺ، أَسلَمَ بمكَّةَ قديمًا، وهو أولُ من جهر بالقرآن في مكة، وهاجر الهجرتَين، وشهد بَدْرًا والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحبُ نَعْلِ رسول الله ﷺ، كان يُلبِسَه إيَّاها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه، تُوفِّيَ بالمدينة سنةَ (٣٢هـ)، أو (٣٣هـ)[1].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بعضَ مراحل نمو الجنين في بطن أمه ونفخ الروح فيه وكتابة مقاديره.

ثم يذكر ﷺ أن الأعمال بالخواتيم، فمن ختم حياته بعمل بأهل الجنة فهو من أهلها، ومن ختم حياته بعمل أهل النار فهو من أهلها.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٧٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٨٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٩٨).

يروي عبدُ اللهِ بن مسعودٍ ﷺ حديثًا بعضه من أمور الغيبِ التي لا يعلمها أحدٌ إلا الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال ابن مسعود: «وهو الصادقُ المصدوق»؛ سواءً في أمور الغيب أو الشهادة:

١ يذكر النبيُّ ﷺ أحوال الجنين ومراحل تخلُّقِهِ في بطن أمه، فيكون نطفة **مجموعة من نطفة الرجل والمرأة، ومكان تكونها**: في رَحِمِ الأُمِّ، ثم يصبح **قطعةَ دمٍ متجمدٍ** بعد ذلك وتسمى علقة، وسُمِّيت عَلَقَةً لأنها تَعْلَقُ في جدار الرحم. ثم بعد ذلك تصير مُضغة، **وهي قطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغ الفم**.

٢ وبعد أن يصبح مضغة يأمر اللهُ تعالى المَلَك المُوَكَّل بالأرحام، فيكتُبُ ما يجري عليه من القَدَر، فيكتب رزقَه وأجلَه وعملَه وشقيًّا أم سعيدًا.

وتشمل كتابة الملك أمورًا أخرى أيضاً؛ ككونه ذكرا أو أنثى[١]، وخلقه وخلائقه[٢]. وإنما ذكر ﷺ تلك الأربع لأهميتها واندراج ما سواها فيها.

وهذه الكتابةُ التي يكتبها المَلَك غير الكتابة التي كتبها اللهُ تعالى عنده في اللوح المحفوظ؛ فكتابةُ المَلَك قابلةٌ للمحو والتغيير والتبديل لأسباب قدرها الله تعالى كالدعاء والعمل الصالح، بخلاف ما أثبته الله تعالى في أمِّ الكتاب حيث لا تتبدل ولا تتغير، قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩][٣].

٣ وعندئذ ينفخ الله الرُّوحَ في الجنين فيصيرُ حيًّا بقدرته تعالى، والنَّفْخُ في الرُّوح من الأمور الغيبية التي استأثر اللهُ بعلمها وأخفاها عن خلقه، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، إلا أنَّنا نؤمن بما أخبر ﷺ عن ربِّه، ونوقن أنَّه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ويحدث ذلك عند اكتمال المضغة وتَشَكُّلِها بشكل الآدمي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ﴾ [الحج: ٥]؛ فالمُضْغَةُ المُخَلَّقَة هي تامة الخلق التي تشكَّلت على صورة خلق الإنسان، وغير المُخَلَّقة: غير تامة الخلق التي لم تصور وتكون سَّقطاً تقذفه الأرحام[٤].

(١) البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) إسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢/ ٣٤٤)، والآجريُّ في «الشريعة» (٣٦٥). وصحَّحه الهيثميُّ في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٧/ ١٩٣).

(٣) انظر: «شرح الأربعين النووية» لابن رجب (ص: ٤٥)، «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤٨٥).

(٤) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٦/ ٦٥١).

٤ ثم أرشد ﷺ إلى أنَّ الأعمال بالخواتيم، وأنَّ العبرةَ بما سبق في علم الله وكتبه على العَبْدِ من الشقاء والسعادة، فربَّما عمل الإنسانُ بعملِ أهل النَّارِ زمنًا طويلًا، حتى إذا اقترب أجلُه هيَّأ الله له التوبةَ فيتوب عليه ويختم له بعملٍ صالحٍ فيدخل الجنَّةَ؛ إذ كان اللهُ قد كتب له السعادةَ في اللوح المحفوظ عنده، وفي بطن أمه حين أرسل إليه المَلَك.

٥ وعلى العكس فقد يعمل الرجلُ بعمل أهل الجَنَّةِ زمانًا طويلًا، حتى إذا دَنا من الجنَّة بذُنُوِّه من الموت، يسبقُ عليه ما كتبه الله عليه من الشقاء، فيعمل بعمل أهل النَّارِ فيموتُ على ذلك ويكون من أهل النار.

وليس المرادُ أنَّ المؤمن قد يضلَّ بعد الهُدى بدون سبب منه، وإنما ذلك لحكمةٍ وعدل، كالرجل يعبد الله عن جهلٍ وهوى: إن أُعطي شكر وإن مُنع جحد وكفر، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. ومثل المنافق؛ لحديث: «إن الرجُلَ ليعملُ عملَ أهل الجنة - فيما يَبْدو للناس - وهو من أهل النار، وإن الرجُل ليعملُ عملَ أهل النار - فيما يَبْدو للناس - وهو من أهل الجنة»[(١)].

وهذا الخَتْمُ بالسُّوء لمَن ظاهرُ أعمالهم الصلاحُ إنما هو من النوادر التي لا تظهر كثيرًا، وحكمةُ وجودها بيانُ أنَّ الأعمالَ بالخواتيم، وأنَّ الإنسانَ لا يغترَّ بعَمَلِه. وهذا من لُطْف الله سبحانه، وسَعة رحمته؛ فإن انقلاب الناس من الشرِّ إلى الخير كثير، وأما انقلابهم من الخير إلى الشرِّ، ففي غاية الندور، وإلا لَافتتن النَّاسُ بذلك»[(٢)].

والغالبُ المُطَّرِدُ أنَّ أهلَ السعادةِ يُوفَّقون للعمل الصالح، وأهلَ الشقاء يعملون بعمل الأشقياء من المعاصي والذنوب، كما في حديث عليٍّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفْس منفوسةٍ إلا كُتِب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتِب: شقيَّةٌ أو سعيدةٌ»، فقال رجُل: يا رسول الله، أفلا نتَّكِلُ على كتابنا ونَدَع العمل؟ فمَن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما مَن كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: «أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيَسَّرون لعمل الشقاوة»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦] الآية[(٣)].

---

(١) البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد الساعديِّ رضي الله عنه.

(٢) "شرح الأربعين النووية" لابن دقيق العيد (ص: ٣٩).

(٣) البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

اتّباعي

١ قال ابن مسعود ﷺ في حقِّ النبيِّ ﷺ: «الصَّادق المصدوق»، وهذا من كمال الإيمان به وتصديقه واتباعه فيما أتى به، حتى وإن أخبر بما يخالفُ العقلَ أو ما يعجز العقل عن إثباته أو نفيه من أمور الغيب. ولهذا كان أصحابُ النبيِّ ﷺ أفضل البشر بعد الأنبياء، وهم قدوةُ المؤمنين في الإيمان بالنبيِّ ﷺ واتباع شرعه.

٢ أخبر النبيُّ ﷺ بمراحل خلق الجنين في بطن أمِّه قبل تطور الطب وظهور الأدوات والآلات المتطورة التي أثبتت صدقَ ما قاله ﷺ. وهذا أمرٌ يزيد المؤمنَ إيمانًا حين يرى تصديق العلم الطبيعي لما أخبر به القرآن والسُّنَّة وعدم التناقض بينهما.

٣ تأمل في قدرة الله تعالى، وفي تقليبه الجنين في أحوال شتى، وفي تقديره المقادير، العجيبة، ومثل ذلك يبعث التعظيم لله تعالى والتسليم له.

٤ لو تلمَّس الإنسانُ الحكمةَ من خلق الإنسان طَوْرًا بعد طور، وهو القادر سبحانه على أن يقول للشيء: كن فيكون؛ فهي تربية إيمانية على التأنِّي في الأمور، وعدم استعجال النتائج، كما أنها توضيح للارتباط الوثيق الذي جعله الله تعالى بين الأسباب والمسبِّبات، والمقدِّمات والنتائج، ومراعاة نواميس الكون في ذلك.

٥ إن أصابك شيء في عملك، أو رزقك، أو تمنيت غير ما أنت عليه؛ فلا تشتغل بمعاتبة القدر، أو التحسر واستصغار النفس، بل ارض بما كتبه الله تعالى، واعلم أنه كتبه وأنت في بطن أمك، وقبل ذلك، فما ثمَّ إلا التسليم لله تعالى، والعمل بما يرضي الله تعالى.

٦ لا ينبغي للإنسان أن يحكم لأحدٍ بجنَّةٍ أو نارٍ؛ فإنَّ ذلك لله وحده، وهو الذي كتب مصائر العباد، والشقيُّ قد يسعد، والسعيدُ قد يشقى.

٧ على الإنسان ألَّا يركن إلى عمله ويطمئن إليه ويترك الجِدَّ والاجتهاد؛ فإن الأعمال بالخواتيم. وقد كان سفيان الثوريُّ رحمه الله يَبكي ويقول: «أخاف أن أكون في أمِّ الكتاب شقيًّا»، ويقول: «أخاف أن أُسلَب الإيمانَ بعد الموت»[1].

٨ ينبغي على المسلم أن يداوم على دعاء الله أن يثبته على طاعته، وألَّا يُضِلَّه ويُزلَّ قدمه، وقد كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك»[2].

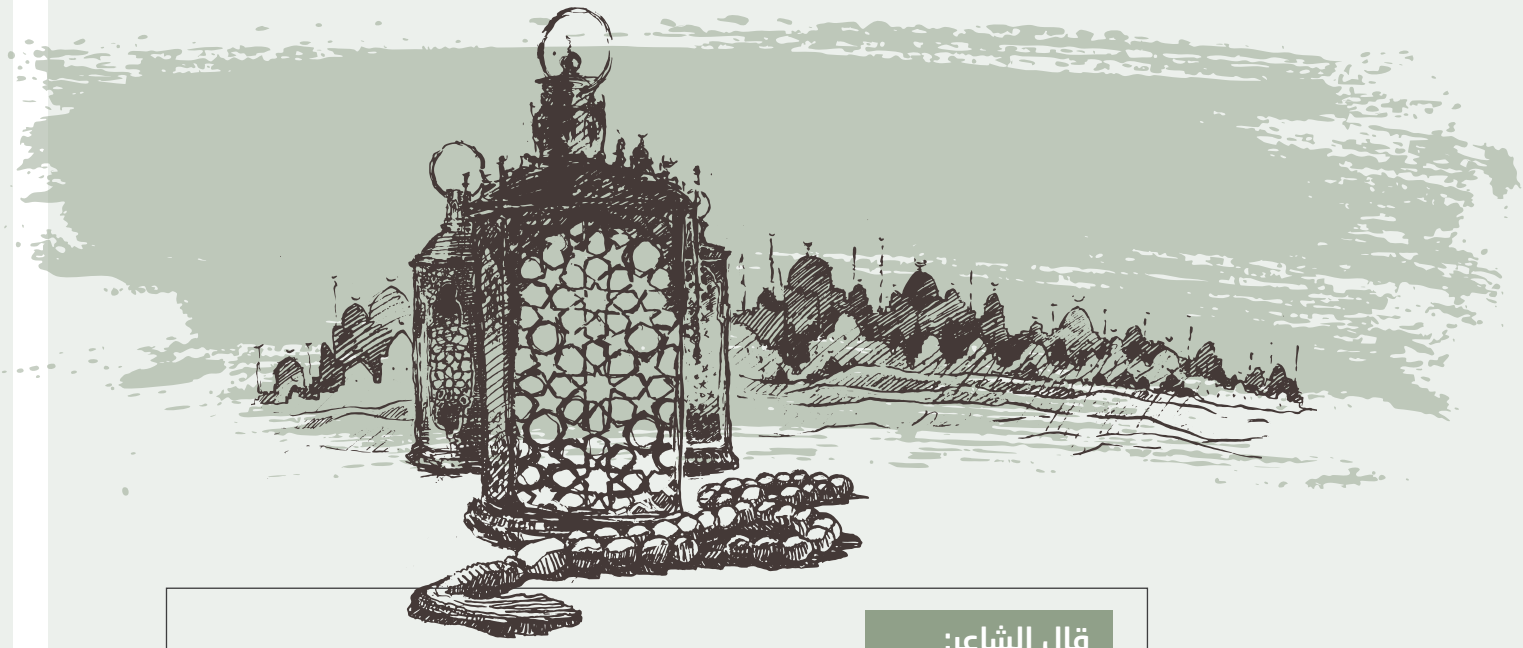
---

(١) «شرح الأربعين النووية» لابن رجب (ص: ٤٧).

(٢) الترمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجة (٣٨٣٤)، عن أنس بن مالك ﷺ وقال الترمذيُّ: حديث حسن، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذيِّ» (٢١٤٠).

٩ أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ رجلًا قال: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ»، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1].

١٠ قال عليُّ بن أبي طالبٍ ﷺ: «إياكم والاستنانَ بالرجال؛ فإن الرجُل يعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب - لعِلم الله فيه - فيعمل بعمل أهل النار، فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجُل ليعمل بعمل أهل النار، فينقلب - لعِلم الله فيه - فيعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بُدَّ فاعلين، فبالأموات لا بالأحياء»[2].

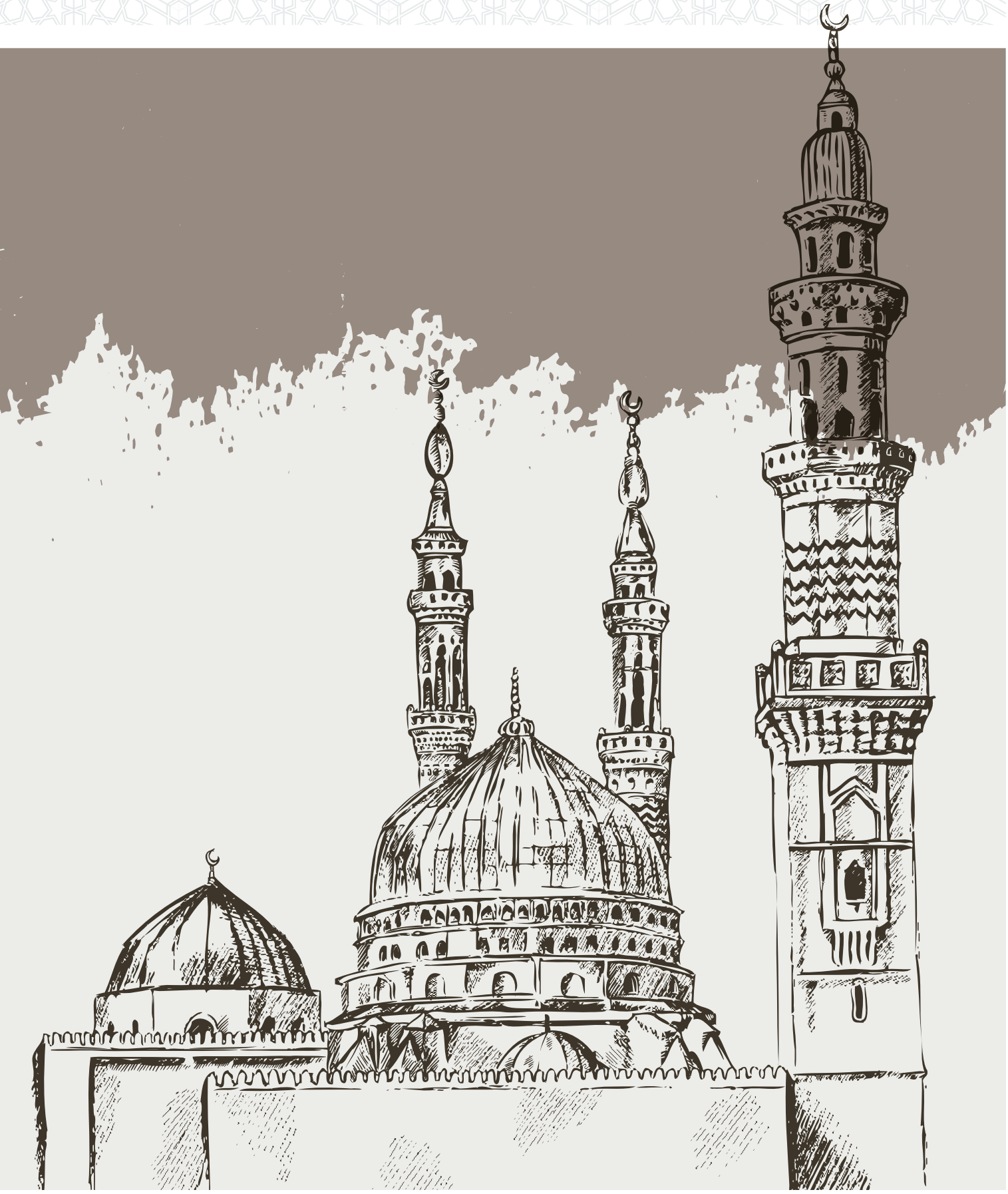


قال الشاعر:

لله في الآفاقِ آياتٌ لَعَلْ ... لَ أَقَلَّهَا هُوَ مَا إِلَيْهِ هَدَاكَ
وَلَعَلَّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ آيَاتِهِ ... عَجَبٌ عُجَابٌ لَوْ تَرَى عَيْنَاكَ
وَالْكَوْنُ مَشْحُونٌ بِأَسْرَارٍ إِذَا ... حَاوَلْتَ تَفْسِيرًا لَهَا أَعْيَاكَ
قُلْ لِلْجَنِينِ يَعِيشُ مَعْزولًا بِلا ... رَاعٍ وَمَرْعَى مَا الَّذِي يَرْعَاكَ؟

(١) مسلم (٢٦٢١)، عن جندب بن عبد الله ﷺ.

(٢) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٢/ ١٣٥).



عن ابن عبَّاسٍ ﷺ قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ يومًا، فقال:

١ «يا غلامُ، إنِّي أُعلِّمُكَ كلماتٍ،

٢ احْفَظِ اللهَ

٣ يَحْفَظْكَ،

٤ احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَكَ،

٥ إذا سألْتَ فاسأَلِ اللهَ،

٦ وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ باللهِ،

٧ واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لوِ اجتَمَعَتْ على أنْ يَنفَعوكَ بشيءٍ، لم يَنفَعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ لكَ، ولوِ اجْتَمَعوا على أنْ يَضُرُّوكَ بشيءٍ، لم يَضُرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليكَ،

٨ رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

(١) الترمذيُّ (٢٥١٦).

آيات

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].
- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].
- ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].
- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].
- ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

الراوي

هو: أبو العبَّاس، عبدُ الله بنُ عبَّاسِ بنِ عبد المطَّلِب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، وُلد بـ«شِعب بني هاشم» قبل الهجرة بثلاثِ سنين، وهو ﷺ حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]، وهو من الصحابة المُكْثِرين من رواية الحديث، أسلم صغيرًا، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخِرِ عُمُره، وتُوفِّيَ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)[2].

خلاصة

يُوصي النبيُّ ﷺ ابنَ عمِّه عبد الله بن عباس ﷺ بوصايا جامعة، في توحيد القصد والطلب، وأن لا يسألُ غير الله تعالى ولا يستعين إلا به، ويُهيِّئ قلبه أنَّ الأمور كلها بقدر الله تعالى، وأنه لن ينفعه أحدٌ أو يضره إلا بشيء قد كتبه الله تعالى.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

كان ابن عباس ﷺ خلف النبي ﷺ راكبًا على الدابة..

١ فأراد النبيُّ ﷺ أن يُعلِّم ابنَ عباسٍ ﷺ دروسًا في الإيمان وحُسن الاعتقاد في الله تعالى، فيجذب سمعَه وعقله لما فناداه بما يناسب عمره، وكان غلامًا بين الحادية عشرة والرابعة عشرة، وقال له: «إني أعلمك كلمات»، أي: فاحفظها، وافهمها، واعمل بها.

٢ وأولُّ ما علَّمه النبيُّ ﷺ هو أن يحفظ اللهَ تعالى، **وذلك بحِفظ حدوده وأوامره، فيَأتمِر بما أمره، ويَنتهي عمَّا نهاه**، قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢-٣٣].

٣ فإذا حَفِظَ الإنسانُ حدودَ ربه وامتثل أوامره: جُوزي بجنس عمله؛ فكما يحفظُ اللهَ يحفظه الله تعالى، وحفظ الله تعالى شاملٌ لحفظ البدنِ والأعضاء والحواس وراحة البال وغيرها، قال سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يقتصر الحفظُ على الإنسانِ فحسب، بل يتعداه إلى أهله؛ قال سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وأرفع درجات حفظ الله للعبد أن يحفظ دينَه، فيعصمه من خطوات الشيطان ويصرفه عن وساوسه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، ولهذا قال ابن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]: يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجرُّه إلى النار(١).

٤ ثم ذكَر ﷺ جزاءً آخر لمن يحفظ حدود الله تعالى، **وهو أنَّه يجِد الله معه في كل أحواله**؛ ينصره ويدافع عنه ويؤيده ويستجيب دعاءه ويتقبل عملَه؛ قال ﷺ: «وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُهُ، كنتُ سمْعَه الذي يسمَع به، وبصرَه الذي يُبصِر به، ويده التي يبطِشُ بها، ورِجْله التي يمشي بها، وإنْ سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذَني لأُعِيذنَّه»(٢).

٥ ثم أرشده ﷺ إلى بابٍ عظيمٍ من أبواب التوحيد وحسن الاعتقاد، وهو إفرادُ اللهِ تعالى وحده بالسؤال والطلب، فلا يدعو أحدًا غيره؛ إذ الدعاءُ عبادةٌ من العبادات لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، ولذلك قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠](٣). لأن السؤال فيه إظهار الذلِّ والحاجة من السائل، وفيه الاعترافُ بقُدرة المسؤول على

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٧٠).

(٢) البخاري (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذيُّ (٣٢٤٧)، والنسائيُّ في «السنن الكبرى» (٣٨٢٨).

جلب المنافع، ودَرْءِ الْمَضارِّ، ولا يَصلُح الذلُّ والافتقار إلا لله وحدَه؛ لأنه حقيقةُ العبادة[1].

٦ ثم أمره ﷺ بإفراد الاستعانة بالله تعالى وحده أيضاً، والاستعانة الميل إلى المساعدة والعون لحصول المقاصد، وفي الاستعانة ظهور لمعنى التوكّل القلبي، والتوحيد في الاستعانة منتزعٌ من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه لمَّا أمر اللهُ تعالى عبادَه بطاعته، أرشدهم إلى دعائه وحده، وإلى الاستعانة به في أداء الفرائض والانتهاء عن المناهي[2]، على أنَّ الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزٌ ومشروعٌ، فالإنسان يستعين بأخيه في حمل المتاع الثقيل أو قضاء حاجةٍ من الحاجات التي يقدر عليها البشر، ويستحب للمسلم أن يُعين أخاه فيما يقدر عليه، قال ﷺ: «وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ»[3]. أما الاستعانة المحرمة فهي الاستعانة فيما هو من خصائص الرب، كما يحصل من دعاء الأموات، والتوسل بالأضرحة، وطلب الشفاء والنجاح والإنجاب منهم.

٧ ثُمَّ علَّم النبيُّ ﷺ ابنَ عمِّه ﷺ حقيقةَ التسليم والرضا بقضاء الله وقدره وصدق التوكُّل عليه؛ فإنَّ الأمرَ كله لله تعالى، وكلُّ ما يحدث للعبد من السَّرَّاء والضَّرَّاء من الله تعالى، كتبه على عبدِه قبل أن يخلق السماوات والأرض، فلو اجتمع الخلقُ على منعِ ما كتبه الله تعالى ما استطاعوا، ولو اجتمعوا على أن يُصيبوا العبدَ بما لم يكتبه الله عليه من الخير أو الشرِّ ما وَصَل إليه من تدابيرهم شيءٌ. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وهذه العبارة مدار الوصيةِ كلِّها؛ فإن العبدَ إذا علم أنَّه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له، وأن اجتهاد الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غير مفيد البتَّةَ، أورثه ذلك صدق التوكُّل على الله تعالى، فلا يخاف إلا منه، ولا يسأل إلَّا الله، واقتضى التسليم له، وتقديم قولِه على قول جميع الخلق، ويستلزم ذلك حفظَ أوامره ونواهيه[4].

٨ ثم أخبر ﷺ أنَّ الأقلام التي كتبت بها أقدار الخلق قد رُفعت وتوقفت عن الكتابة، والكتب التي فيها تلك الأقدار قد استقرت بما كتب فيها، فلا تعديل في صحف الأقدار واللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، و«كتَب اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمواتِ والأرضَ بخمسين ألْفَ سنةٍ»[5].

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٨١).

(٢) انظر: «نور الاقتباس في وصيَّة النبيِّ ﷺ لابن عبَّاس» لابن رجب (ص ٩٣).

(٣) البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٨٤).

(٥) مسلم (٢٦٥٣).

١ كان النبي ﷺ يعمر وقته ووقت أصحابه بطاعة الله تعالى، حتى وقت ركوب الدابة.

٢ حرص النبي ﷺ على تعليم هذا الحديث لابن عباس رضي الله عنهما على صغر سنه، مع ما في الحديث من المعاني الكبيرة في السلوك والتوحيد والقدر وغيره، فلا ينبغي أن يهمل الصغار؛ وخاصة النجباء منهم، وليخاطب كل أحد بما يناسب لغته، وخصوصًا في تدعيم أصول الدين فيهم، فهم شباب الغد، وعماد من يقوم بمصالح الناس.

٣ بدأ النبيُّ ﷺ كلامَه بالنداء، وبالتشويق إلى كلمات، قليلة في عددها عظيمة في معناها، مما يجذِب الانتباهَ، ويَسترعي الفَهْم، ويَجلِب النَّظرَ، وهذا مما ينبغي على الناصح اتِّباعُه، أن يستهلَّ كلامَه بما يجعل المتلقِّيَ متشوِّقًا إليه.

٤ لم يطل النبي ﷺ الوصية، بل كانت كلمات، فهي أرجى أن تستوعب ويعمل بها، خصوصًا من الصغار.

٥ إذا كنت تهتم لنفسك فاحفظ الله يحفظك، قال بعض السَّلَف: «مَن اتَّقى الله، فقد حفِظ نفْسَه، ومَن ضيَّع تقواه، ضيَّع نفْسه، والله الغنيُّ عنه»[١]، حتى لو أردت أن تحفظ صحتك فاحفظ الله، وكان بَعْضُ الْعُلَمَاء قد جَاوَزَ الْمِائَةَ سَنَةً، وهو مُمَتَّعٌ بقُوَّته وعقله، فأراد يومًا أن يعبر قناةً تعترض طريقه، فَوَثَبَ يومًا وَثْبَةً شديدة، فتعجَّب تلامذته من قوته على كبر سنِّه، فقال: هذه جوارحُ حفظناها عن المعاصي في الصِّغَرِ، فحفظها اللَّهُ علينا في الْكِبَرِ[٢].

٦ روي أن امرأة خرجت في سرية للجهاد مع المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عَنزةً، وعصاها التي تنسج بها، فلمَّا رجعت فقدت عنزة وفقدت صيصية -وهي أداة كالصنارة أو عصا لها شوكة ينسجك بها الحائك-، فقالت: يا ربِّ، إنكَ قد ضمِنْتَ لِمَن خرج في سبيلكَ أن تحفَظ عليه، وإني قد فقدتُ عَنْزًا من غنمي وصِيصِيَتِي، وإني أَنْشُدُكَ عَنزي وصِيصِيَتِي، فكانت تناشد ربها تبارك وتعالى، فأصبحتْ عَنزُها ومِثلها، وصِيصِيتها ومثلها[٣].

٧ إذا أراد العبدُ أن يحفظه الله تعالى ويحفظ أهله وماله فليتقِ الله تعالى، قال ابْنُ الْمُنْكَدِرِ -رحمه الله-: «إِنَّ اللَّه ليحفظُ بِالرجل الصالح ولدَه، وولدَ ولدِه، وَالدُّوَيْرَاتِ التي حَوْلَه، فما يزالون في حفظ من اللَّه وسِتْرٍ»[٤]. وقال سعيد بن المسيِّب -رحمه الله- لابنه: «إني لأَزيد في صلاتي من أجْلك؛ رجاءَ أن أُحفَظَ فيكَ، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢][٥].

٨ صور سؤال المخلوقين المحرّمة تتجدد مع الأزمان، ومنه سؤال القوى الكونية، أو سؤال الوالدين في قبورهم ونحوها في كثير من الأفلام ورسوم الأطفال والدورات التدريبية ذات العلاقة بالكونيات، فتحرّز وانتبه إلى شرك

(١) «نور الاقتباس في وصيَّة النبيِّ لابن عبَّاس» لابن رجب (ص ٥٤).
(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٦٦).
(٣) أحمدُ في «مسنده» (٣٤/ ٢٦٠)، (٢٠٦٦٤)، وصحَّحه الهيثميُّ في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٥/ ٢٧٧).
(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٦٧).
(٥) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٦٧).

يظهر بمسميات أخرى.

٩ تجنب سؤال المخلوقين ما أمكن حتى في القليل، وعوِّد نفسك قضاء حاجتك بنفسك، فقد بايع رسول الله ﷺ قومًا على أشياء ومنها: «ولا تسألوا الناس شيئاً»، قال الراوي: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه[١]، وهذا وإن لم يكن محرمًا ولكنه «حملٌ منه على مكارم الأخلاق، والترفعُ عن تحمل منّة الخَلْق، وتعليمُ الصبر على مضض الحاجات، والاستغناءُ عن الناس، وعزَّةُ النفوس، ولمَّا أخذهم بذلك التزموه في جميع الأشياء وفي كل الأحوال، حتى فيما لا تلحق فيه منة؛ طردًا للباب، وحسمًا للذرائع»[٢].

١٠ استعن بالله تعالى على مصالحك دينك ودنياك، من قيام لصلاةٍ، ومن تحسين خلق، وفي دراسة وطلب وظيفة، فليس أقوى من الاستعانة بالله تعالى، وقد أوصاك النبي ﷺ: «احرِصْ على ما ينفعُكَ، واستعِنْ بالله ولا تَعجِزْ»[٣]، وأكثر من سؤال الله العون، فقد قال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «أوصيكَ يا معاذُ، لا تدعَنَّ في دُبر كلِّ صلاة تقول: اللهم أعنِّي على ذِكركَ وشُكركَ وحُسْن عبادتكَ»[٤].

١١ ما مقدار تعلقنا بالمخلوقين ومقدار تعلقنا بالله تعالى؟ قال وهب بن منبِّهٍ -رحمه الله- لرجُل كان يأتي الملوك: ويْحَكَ! تأتي مَن يُغلق عنك بابه، ويُظهر لك فقره، ويواري عنك غِنَاه، وتدع مَن يفتح لك بابه نصفَ الليل ونصفَ النهار، ويُظهر لك غِناه، ويقول: ادْعُني أستجبْ لك!؟[٥].

١٢ احرص على تعلم هذا الحديث والعمل بما فيه، وعلِّم معانيه لأهلك ولولدك وللناس؛ كلٌّ بما يناسب لغته وعمره واستعداده، لما يشتمل عليه من الوصايا العظيمة، حتى قال بعض العلماء: تدبَّرتُ هذا الحديث، فأدهشني وكدتُ أَطيشُ، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلَّة التفهُّم لمعناه![٦].

قال الشاعر:

لا تسألَنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجةً ... وسَلِ الذي أبوابُه لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغضَبُ إن تركْتَ سؤالَه ... وبُنَيُّ آدمَ حين يُسألُ يَغْضَبُ

(١) مسلم (١٠٤٣).
(٢) «المفهم» للقرطبي (٣/ ٨٦).
(٣) مسلم (٢٦٦٤).
(٤) أبو داود (١٥٢٢)، والنسائيُّ (١٣٠٣)، وصحَّحه النوويُّ في «خلاصة الأحكام» (١/ ٤٦٨).
(٥) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٨١).
(٦) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٦٢).



الجمعُ بينَ العَملِ والإيمانِ بالقَدَر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،

٢ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ.

٣ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ،

٤ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ،

٥ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا،

٦ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛

٧ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

(١) مسلم (٢٦٦٤).

آيات

- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].
- ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].
- ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].
- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].
- ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].
- ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه على الأرجح: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان حافظة الإسلام، وتفرَّغ لهذا الشأن، وكثر طلابُه، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

خلاصة

القوي في إيمانه وتحصيل الخير أفضل من الضعيف، فاحرص على الأمور التي تفيدك، واستعن بالله عليها ولا تكسل أو تضعف، فإن وُفِّقْتَ لخيرٍ فالحمد لله، وإلَّا فلا تقل (لو) لتمني رجوع الفائت بل قُل: «قدرُ الله وما شاء فعل».

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يخبرُ النبي ﷺ أنَّ المؤمن القويَّ أحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، والقوةُ هنا تشمل قوةَ الإيمانِ وما يتمم مقاصدها من قوة النفس وقوة البدن وقوة العلم ونحو ذلك؛ ففي اجتماعها عونٌ على أداء العبادات، والمهام المطلوبة من الإنسان في الحياة، وفي الجهاد، وفي القيام بمصالح النفس والناس، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذه القوى تحمله على الصبر على الطاعات، والبعد عن المعاصي والشهوات، وتحثُّه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتُصبِّره على أذى الناس وما ينزل به من مصائب الدنيا[١].

٢ ولا يعني تفضيل القويِّ على الضعيف أن يكون الضعيفُ لا خيرَ فيه، بل فيه خيرٌ كذلك وإن كان فاته حظٌّ كبيرٌ ومقامٌ عالٍ، وهذا يسمى «أسلوب الاحتراس».

٣ ولما بين أن المؤمن القوي خيرٌ؛ بيَّن ما ينبغي للمؤمن أن يوجه هذه القوة له، وهذا من جوامع كلمه، إذ دلَّه بكلمة عامة أن يجتهد في كلِّ ما يعود عليه بالنفع العاجل والآجل، والتركيز في التوجه له، ولا ينشغل بالمُلهيات عنه.

٤ فإذا حرص المسلم على ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فعليه أن يستعين بالله تعالى متوكلًا عليه في تحصيل ما يرجو، وألا يتكاسلَ أو يترك قواه تضعف عن بلوغ مراده، متعلِّلا بالقَدَر أو الضعف أو غيره وهو لم يحاول، فإنه حينئذ يُلامُ على تفريطه وتضييعه.

٥ فإنْ أصابَ المؤمنَ أمرٌ خلافَ ما سعى إليه، فلا يندم على سعيه وجهده، ولا يقل: «لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا» جزعًا وتحسرًا على قضاء الله، أو ظنًّا منه بأنَّ الأمور ستتغير لو غيَّر فعله، فإن الأمورَ بمقادير كتبها الله تعالى من قبل أن يخلق السماوات والأرض، وإنما على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ويُفَوِّض أمر النتائج لله تعالى وحده.

٦ وعليه أن يقول: (قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل) بتخفيف الدال[٢]، أي ليبادر إلى تسليم الأمرِ لله ويقول: هذا قَدَرُ الله تعالى، ووقع الأمر بقَدَرِ اللهِ تعالى الذي كتبه علينا، ولا يكون إلا ما يريد.

---

(١) انظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (١٦/ ٢١٥)، «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لعلي القاري (٨/ ٣٣١٨).

(٢) «دليل الفالحين» (١/ ٢٤٣)، وقيل يجوز تشديد الدال، انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لعلي القاري (٨/ ٣٣١٨).

وليس معنى هذا أن يحتجَّ بالقدر على المعصية والوقوع في الخطأ والاستمرار عليه، فيقول: عصيت بقَدَرِ الله، فقد أنكر الله تعالى على الكفار الذين احتجوا بهذه الحجة الباطلة على شركهم، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٧ وإنما نهى ﷺ عن ذلك لأنَّه يفتح باب الشيطان، فتبدأ الوساوس في إنكار القَدَر، وفي التسخُّط عليه، وفي لوم النفس المستمر، وفي ذمها بأنها لا تصلح لشيء، وفي الكآبة من الحياة، مما تضعف معه القوى، ويضيع الوقت، وتفوت المصالح الأخرى.

وليس معنى ذلك أنَّ كلمة «لو» محرمةٌ مطلقًا، بل تحرم إذا كانت على سياق التذمُّر أو اللوم ونحو ذلك، أما إن قالها الإنسان على وجه بيان الخطأ، أو بيانِ حُكمٍ شرعيٍّ أو حديثٍ عن مستقبلٍ فجائزٌ، قال لوط ﷺ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ آوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]، وقال ﷺ: «لولا أن أشقَّ على أُمَّتي لأمرتهم بالسواك»[1]، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو في الغار مع النبيِّ ﷺ: «لو أن أحدَهم نظَر تحت قدميه لأبصرَنا»[2].



(١) البخاري (٧٢٤٠).

(٢) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

١ النفس السوية تميل إلى أن تكون الأفضل في أمور الخير، وهذه المفاضلة تبعث على العمل لإدراك منزلة الأفضل، فحفِّز من عندك من أولاد أو طلاب أو عاملين على الكمالات، وساعدهم على ذلك بالتوجيه والمساندة.

٢ القوة سببٌ لتحصيل المقاصد، فاحمل نفسك على التحمل والصبر، وعلى تحصيل القوى الموصلة لمراضي الله تعالى، فالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وغير ذلك مما يفعل أو يترك كله مما يحتاج إلى أنواع من القوى البدنية والنفسية والعلمية وغيرها، فما قدرت على القوة فيها فاحمد الله تعالى، وما لم تقدر عليه ففوِّض أمرك إلى الله فيها.

٣ إذا رأيت منكسرًا لما يراه من ضعفه في العلم أو التجارة أو القوى البدنية أو غيرها، فاجبر قلبه بأنه باجتهاده على خير.

٤ جمع النبيُّ ﷺ في قوله: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله» بين أصلين هما مفهوم التوكل، وهو الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله تعالى والثقة به، موافقةً لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فالطالب يجتهد في تعلمه، وصاحب المشروع يُتقن عمله ويبذل قصارى جهده في إنجاحه، والمُعَلِّمُ ينشر علمه ويحسن إفهام طلابه، كُلُّهم مع الاستعانة بالله تعالى في قضاء حاجاتهم، ونيل التوفيق منه فيما يبتغون.

٥ العجز آفةٌ تقطع كثيرًا من الناس عن مصالحهم، فيرغبون في عمل خير ثم يكبِّرون حجمه في قلوبهم فيصيبهم الوهن دون العمل عليه، وربما يبدأون ثم تتقاعس هِمَّتُهُم عن إكمالِها فيفتُرُون عنها. فعلى الإنسان أن يجمع قُواه وينشط ولا يضعف ويتكاسل.

٦ لا يجوز للإنسان أن يتلفظ بالألفاظ التي تُسخط الله تعالى، من سبِّ القدر، أو مثل قول: لماذا أنا ولماذا فلان، أو قول (لو) على جهة الجزع، ومعارضة القدر.

٧ على الإنسان أن يحرص على ما ينفعه، في جميع أموره الدينية والدنيوية، فمع تكميله لدينه فهو لا يضيع أمر دنياه ودنيا من يعول، بل يحرص على ما ينفعه من تعلم العلوم الدنيوية، وكسب الرزق الحلال، وحفظ الصحة، ونحو ذلك.

٨ إذا أخطأت فاستغفر الله تعالى، وإذا أصبت بمصيبة فاسترجع «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وقل: «قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، ودع عنك اللوم المستمر للنفس، والتفكير المستمر بتمني خلاف المقدور، فهو يسبب السخط على القدر والضعف والاكتئاب، وما في القدر الماضي لا يمكن تغييره، فركز على المستقبل، وانظر ما الممكن فعله، واستعن بالله تعالى عليه.



قال الشاعر:

بمَنْ يستغيثُ العبدُ إلَّا بربِّهِ ومَنْ للفتى عند الشدائد والكربِ؟
ومَن مالكُ الدنيا ومالكُ أهلِها ومَنْ كاشفُ البلوى على البُعد والقُربِ؟
ومَنْ يرفع الغمَّاءَ وقتَ نزولها وهل ذاك إلَّا مِنْ فعالك يا ربي؟!



عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «لا عَدْوَى

٢ وَلا طِيَرَةَ،

٣ وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ» قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ»[١].

(١) البخاريُّ (٥٧٧٦) ومسلم (٢٢٢٤).

آيات

- ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].
- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].
- ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

الراوي

هو: أبو حمزةَ وقيل أبو ثمامة: أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ، وُلد قبل الهجرة بعشر سنين، و خدم رسول الله ﷺ أول قدومه للمدينة، ودعا له النبي ﷺ بكثرة المال والولد وطول العمر ومغفرة الذنب، فكثر مالُه وولدُه وكان آخرَ أصحابه بالبصرة موتًا، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[١].

خلاصة

يُصحح النبيُّ ﷺ اعتقاد أُمَّتِه مما لحق بها من الجاهلية، فيذكر أنَّ الأمراض لا تُعدي بطبعها، وإنما يحدث ذلك بإرادة الله تعالى، ونهى عن التشاؤم من الأزمنة والأماكن والأشخاص، واستحبَّ أن يتفاءل الإنسانُ بالكلمة الطيبة يراها أو يسمعها.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

أرسل اللهُ سبحانه نبيَّه محمدًا ﷺ لدعوة الناس إلى عبادة التوحيد، وتخليصها مما يشوبها من أدران الجاهلية واعتقاداتها. وهذا الحديث يُنَبِّه على بعضها:

١ فلا عدوى؛ أي لا تنسبوا انتقال المرض من المريض إلى الصحيح عن طريق المخالطة: للمرض نفسه. فالحديث لا ينفي العدوى، وإنما ينفى أن تكون مؤثِّرة بنفسها وطَبْعها؛ وإنما التأثير بتقدير الله عزَّ وجلَّ، بدليل أنه إن شاء انتقل الداء من المريض إلى الصحيح بالمخالطة، وإن شاء لم يقع ذلك، وبدليل أن المريض الأوَّل جاءه المرض بلا عدوى.

والمسلم مأمور بأخذ الأسباب النافعة، وترك ما قد يؤدي به إلى الضرر، ولذلك أمر ﷺ بالأخذِ بأسباب النجاة والابتعاد عن المُصابين بالأمراض المُعْدِيَة، فقال ﷺ: «فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»[١]، وقال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا» متفق عليه[٢]، وقال: «لاَ يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»[٣].

٢ **ولا طِيَرَة؛ أي لا تتشاءموا بما ترونه أو تسمعونه؛ كأن يعزم على السَّفر فيرى غرابًا أو يسمع بحادثةٍ أو بموتٍ أو نحو ذلك فيتشاءم عن سفره ذلك ولا يسافر، وربما يسافر وهو مُرتابٌ شاكٌّ.**

وإنما سُمِّيت بذلك لأنَّ أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون من الطير؛ فإذا أرادوا سفرًا أو نحوه أتوا بطيرٍ فزجروه، فإن طار يمينه تفاءلوا وسافروا، وإن طار يسارًا تشاءموا وقعدوا، وكانوا يتشاءمون من طيورٍ معينة؛ كالبومة والغراب؛ فإذا نعق الغراب فوق بيتٍ زعموا أنه نذيرُ موته فتشاءموا بذلك، ولهذا قال ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ»[٤]. والهامةُ هي ذلك الطائر الذي يتشاءمون به، وصَفَر الشهر المعروف الذي بعد شهر المحرم؛ كانوا يتشاءمون به.

---

(١) البخاري (٥٧٠٧)، عن أبي هريرة ﷺ.

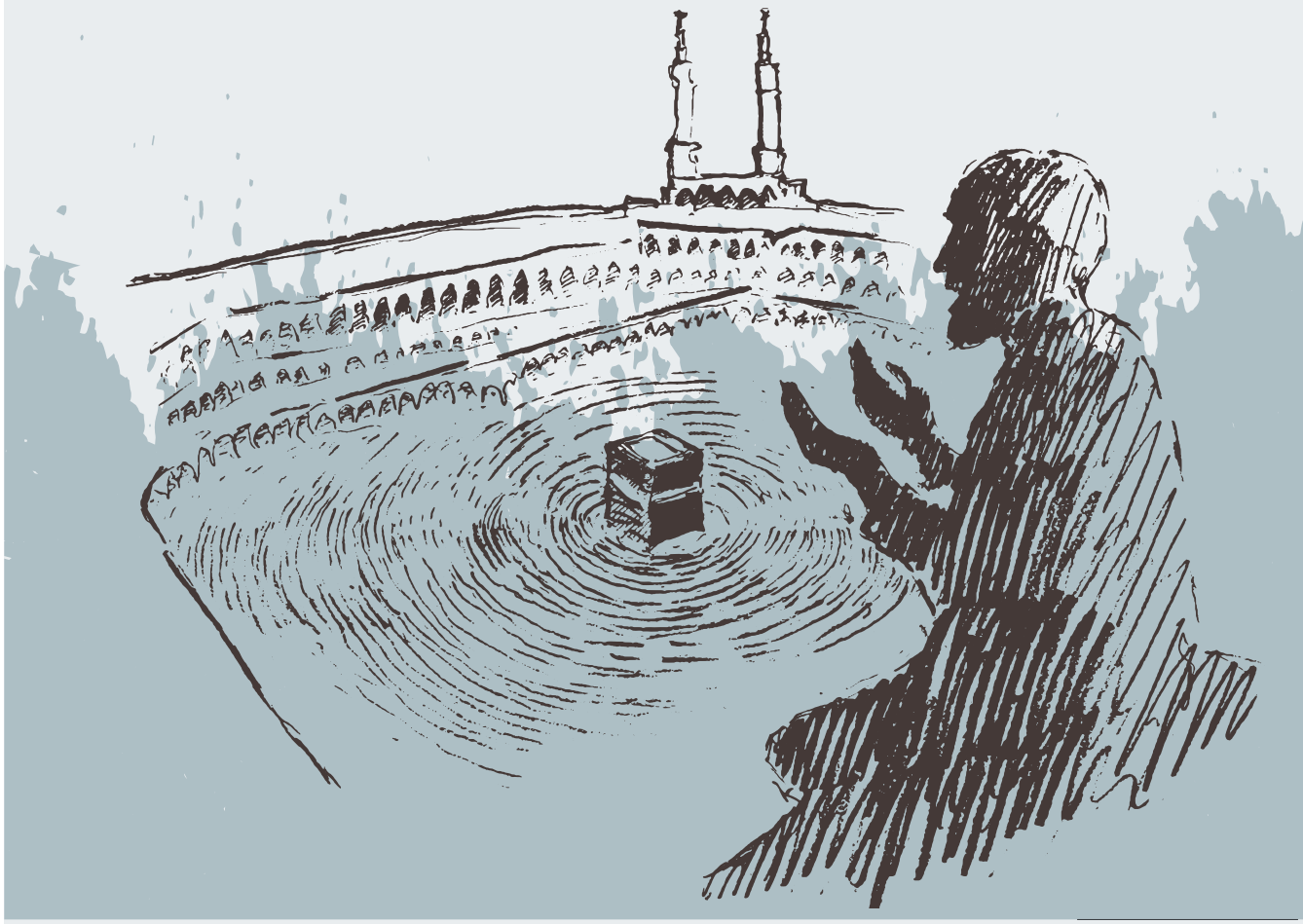
(٢) البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨)، عن أسامة بن زيد ﷺ.

(٣) مسلم (٢٢٢١)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠)، عن أبي هريرة ﷺ.

٣ ثم أخبر ﷺ أنَّه يُحبُّ الفأل الحسن، **وهو الكلمة الطيبة يسمعها الرجلُ فيُسَرُّ بها، كأن يعمل رجلٌ فيسمع شخصًا ينادي أخاه: يا مُوَفَّق**، ونحو ذلك.

فالكلمة الطيبة تَسُرُّ النَّفسَ وتُشرح الصدرَ وتبعث النشاطَ في الإنسان، ولذلك أعجبه ﷺ التفاؤل؛ إذ لا يُناقضُ التوحيد ولا يُضعف الإيمانَ في القلب، ولهذا لمَّا جاء سهيلُ بنُ عمرٍو إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية ليفاوضه في الصُّلْح، استبشر النبيُّ ﷺ وقال: «قَدْ سَهُلَ أَمْرُكُم»[1].



(١) ينظر: «إمتاع الأسماع» للمقريزي (١٢/ ١٧٥)، «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٥/ ٤٨).

١ على المسلم أن يكون قوي النفس، مقدامًا على أسباب الخير، فالأمورُ كلُّها تجري بمقادير، وليس على المرء سوى العمل والتوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب.

٢ الأخذُ بالأسبابِ التي تَقي الإنسانَ الأمراضَ مشروع، ولا يتعارض مع اليقين بالله وأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه؛ فعلى المسلم أن يؤدي ما عليه، ويعلم أن الأمرَ أولًا وآخرًا بيدِ الله تعالى وحده.

٣ حقيقة التوكُّل على الله تستلزم الرضا بما قضى والتسليم بما أمر وشرع. قال بشرٌ الحافي رحمه الله: «يقول أحدهم: توكَّلت على الله، يَكذِب على الله؛ لو توكَّل على الله، رَضِيَ بما يفعل الله»[1].

٤ متى وقع وباء عام كالطاعون فعلى المسلم أن يلتزم بالحجر، فلا يقدم على هذا البلد، ولا يخرج منه إن كان فيه، ويسلم لله تعالى، فعن عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[2].

٥ كما أمر ﷺ بالحذر من الأمراض المُعدية، فكذلك أمر بأن يقي الإنسان نفسَه من الأخلاق الفاسدة التي تُعدي مخالطيها كذلك، فنهى النبيُّ ﷺ أن يُجالسَ الرجلُ ذوي الأخلاق السيئة، وشبَّه الجليس السوء بالذي ينفخ في النَّار فقال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[3].

٦ من عادات بعض الشعوب التشاؤم ببعض الحيوانات أو الأشكال أو الأرقام أو الأحداث، وقد تنتشر في بيئات مسلمة عبر أفلام وقصص، وقد يوسوس الشيطان إن وقع الشر موافقًا لها يومًا ما، فعلى العاقل أن يحذر من تسرُّب هذه الأفكار ويحذِر منها.

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٢) البخاري (٥٧٣٤).

(٣) البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)، عن أبي موسى الأشعري ﵁.

٧ التشاؤم كما أنه مخالف لمقتضى التسليم لله تعالى والإيمان بقضائه وقدره، فهو شرٌّ يُمرض القلبَ ويصدُّ الإنسانُ عن مقصده، وإن لم يصدَّه عنه جعله مرتبكًا مضطربًا لا يطمئن باله إلى أنَّه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له، وعلاجه أن يعرض عنه، ويعظم في قلبه الثقة بالله والتسليم له، ويمضي لحاجته.

٨ قد يقع في قلب الإنسان تطير من شيء لسبب معين وبغير قصد منه، فهذا لا يلام عليه، ولكن اللوم إن رضي به وتابعه، قال ابن مسعود ﷺ: «الطِّيرةُ شركٌ، وما مِنَّا إلَّا ولكنَّ اللهَ يذهبُهُ بالتوكلِ»[1].

٩ للمسلم أن يتفاءل بما يسمعه من كلمة طيبة، كما لو قال له رجل: أبشر، أو سمع باسمٍ حسن، والتفاؤل لا يدفع القَدَرَ وإنَّما يُريحُ النَّفسَ ويطيب القلب ويبعث على النشاط، وقد كان النبي ﷺ يعجبه التفاؤل.

قال حافظ الحكمي رحمه الله:

فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرْ ... والكُلُّ في أُمِّ الكِتَابِ مُسْتَطَرْ
لا نَوْءَ لا عَدْوَى ولا طِيَرَ وَلا ... عَمَّا قَضَى اللهُ تَعَالى حِوَلا
لا غَوْلَ لا هَامَةَ لا ولاصَفَرْ ... كَمَا بِذَا أخْبَرَ سَيِّدُ الْبَشَرْ

(١) أحمد (٣٦٨٧).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ،

٢ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛

٣ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»(١).

(١) مسلم (٢٩٦٣).

آيات

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].
- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].
- ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه على الأرجح: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان حافظة الإسلام، وتفرَّغ لهذا الشأن، وكثر طلابُه، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)(١).

خلاصة

يأمرُ النبيُّ ﷺ أصحابَه أن ينظروا إلى مَن هو دونهم في النعمة وأقل منهم في أمور الدنيا، ممن هم أفقرُ وأضعفُ منهم، وألَّا ينظروا إلى مَن فضَّلهم الله عليهم في الرزق والصحة والنِّعَم؛ فإنَّ ذلك جديرٌ بأن لا يحتقروا نعمة الله عليهم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يحضُّ النبيُّ ﷺ أصحابَه وسائر أمتِه من بعده على أن ينظروا إلى من هم أقل منهم في أمور والدنيا من المال والخِلْقة ونحو ذلك، من الفقراء والمحتاجين والضعفاء والمرضى وذوي الاحتياجات ونحوهم؛ ويَرَوا كيف فضَّلهم الله تعالى على غيرهم.

٢ ونهاهم ﷺ عن النَّظَرِ إلى من هم أغنى منهم وأقوى وأصحُّ أجسادًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].



٣ وعلَّلَ ﷺ ذلك بأنَّه أجدر ألَّا يحتقروا نعمة الله التي أنعم بها عليهم؛ فالإنسانُ إذا نظر إلى من هو أدنى منه وإلى من هو أقل منه في أمور الدنيا علم أنَّ الله تعالى فضَّله على كثيرٍ من النَّاس، فقابلَ ذلك بالحمد والشكر والإحسان ومكافأة النعمة بحسن العبادة.

أمَّا إذا نظر إلى أهل النِّعم وتأمل في أحوال أهل الدنيا وما وسع الله به عليهم، أورثه ذلك مقارنةَ ما عنده بما في أيديهم، فأدَّاه ذلك إلى أن يجحد نعمةَ الله التي عنده ويحتقرها، وربَّما أفضى به ذلك إلى الحقد والحسد.

وليس معنى الحديث أن يترك العبدُ الدنيا، أو لا ينتفع بما أعطاه الله تعالى منها، وإنما المراد ألَّا تستحوذ الدنيا على قلبه بحيث لا يرضى بما آتاه الله تعالى منها.



١ قد تقع عين الإنسان أو يسمع بمن هو أفضل منه في أمر الدنيا، فعليه أن يعالج نفسه بأن ينظر إلى من هو أسفل منه؛ كما قال ﷺ: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ»[١].

٢ ينبغي على المؤمن أن يضع الآخرة أمام عينيه، ولا يتبع بصرُه نعيمَ الدنيا، ولا يكثر النظر إلى المُتْرَفين؛ فقد أعدَّ اللهُ تعالى في الجنَّة لعباده «مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[٢]، فإذا رأت عينه أو تعلَّق قلبه بشيءٍ من زينة الحياة الدنيا فلا يُتبعها نفسه، وإنما يُذَكِّرُ نفسه بنعيم الله الذي أعدَّه لعباده المتقين.

٣ غير موازين تقييمك للأشياء، وتذكر أن النعيم الحقيقي والرفعة هي في الجنة الأبدية، فهنا يتغير ما تتنافس فيه أو تغبط غيرك عليه، قال ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[٣].

٤ لَمَّا بغى قارون وتجبَّر وتكبَّر بما أعطاه الله تعالى، نظر أصحابُ النفوس الضعيفة إليه وقالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩]، فلا هم حفظوا أعينَهم ونفوسَهم عن الافتتان بما آتاه الله، ولا هم نالوا نصيبًا مما أُعطي، فكانوا كما قال الشاعر:

رأيت الذي لا كلُّه أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

٥ قال ابنُ عون رحمه الله: «جالستُ الأغنياءَ، فاحتقرتُ لباسي إلى لباسهم، ودابَّتي إلى دوابِّهم، وجالستُ الفقراء فاسترحتُ»[٤].

---

(١) البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

(٢) البخاريُّ (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦)، عن ابن مسعود ﷺ.

(٤) «طرح التثريب في شرح التقريب» للعراقيِّ (٨/ ١٤٥، ١٤٦).

٦ المؤمن إذا علم أن الله تعالى قسم الأرزاقَ بحكمته ارتاحت نفسُه، ولم تتعلق بما فضَّل الله تعالى به بعضَ الناسِ على بعض.

٧ من أعظم ما يحقق السعادة في قلب المسلم أن يستشعر نعم الله الكثيرة التي أنعم الله تعالى بها عليه، وأن يكثر من التأمل فيها والنظر في حال من هم أقل حالا منه، كما قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[1].

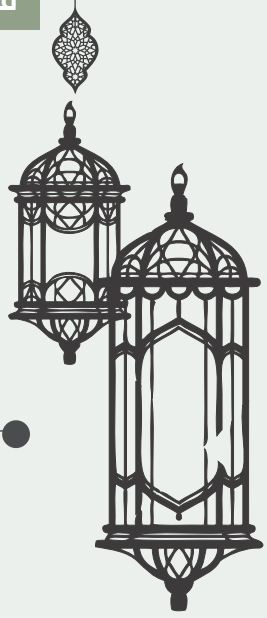
٨ الإنسانُ إذا ابتلي ببلاءٍ أو حلَّت به مصيبةٌ فنظر إلى من هم أسفل منه، هانت عليه مصيبته، ورأى أنَّ ما به من البلاء هَيِّنٌ، فيُحسن عند ذلك الصبرَ على البلاء، ويشكر اللهَ على ما وهبه من العافية.

قال الشاعر:

عَلَيْكَ بتَقْوَى الله واقْنَعْ برزقِهِ ... فخَيْرُ عبادِ الله مَن هو قانِعُ
وَلا تُلْهِكَ الدنيا وَلا تَطْمَعَنْ بها ... فقد يُهْلِكُ الْمَغْرُورَ فيها الْمَطَامِعُ

وقال غيره:

وَجَدْتُ القَنَاعَةَ ثَوْبَ الغِنَى ... صِرْتُ بأَذْيَالِهَا أَمْتَسِكْ
فَأَلْبَسَنِي جَاهُهَا حُلَّةً ... يَمُرُّ الزَّمَانُ ولم تُنْتَهَكْ
فَصِرْتُ غَنِيًّا بلا دِرْهَمٍ ... أَمُرُّ عَزِيزًا كَأَنِّي مَلِكْ



(١) الترمذي (٢٣٤٦)، عن عبيد الله بن محصن.



لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ تعالى

عن عبد الله بنِ عمرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

١ «مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ:

٢ لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ،

٣ وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ،

٤ وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ،

٥ وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ،

٦ وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»[1].

(١) البخاريُّ (٤٦٩٧).

آيات

- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].
- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].
- ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٥- ٦٦].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].
- ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].
- ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

الراوي

هو: أبو عبد الرحمن عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ بنِ نُفَيل، القُرَشيُّ، العَدَويُّ، أَسلَم وهو صغير، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ، فأَوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، روى عِلمًا كثيرًا نافعًا عن النَّبيِّ ﷺ، وعن أبيه عمر، وأبي بكر، وعثمانَ، وَعليٍّ، وبلالٍ، وَصُهيبٍ، وغيرهم ﷺ، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، تُوفِّي سنة (٧٤هـ)[1].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الله استأثر بأمورٍ لا يعلمها غيره، وهي مفاتح الغيب، وهي: ما يحدث في المستقبل، وما يكون في الأرحام من الأجِنَّة أو السَّقط ونحو ذلك، ومتى يأتي المطر، وزمان موتِ كل نفسٍ ومكانه، وموعد قيام الساعة.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

١ يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى استأثر بمعرفة أمور الغيب التي لا يعلمها إلا هو سبحانه؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال جل شأنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

وليست الأمور المذكورة في الحديث هي وحدها التي اختصَّ الله تعالى بمعرفتها، بل هي على سبيل المثال لا الحصر، أو أنها أهمُّ الأمور التي انفرد اللهُ سبحانه بعلمها، وإلا ففي أخبار السابقين من الأنبياء وأُمَمهم ما لا يعلمه إلا الله، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]، وما أخفاه الله من عوالم الجنِّ والملائكة وأخبارهم، وعجائب خلقه في السماوات والأرض، ونحو ذلك.

وأمور الغيب بالنسبة إلى إمكان علم الإنسان بها منقسمةٌ إلى قسمين:

- فمنها ما يمكن للإنسان أن يَقِف عليه ويعلمه بالوسائل والأسباب التي سخَّرها اللهُ له، كمعرفة وقت طلوع الشمس وأوقات الصلوات ومواعيد الكسوف والخسوف، ونحو ذلك مما جعَله الله على قوانين ثابتة منتظِمة.
- وقسمٌ لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو الغيب المطلَق الذي منه هذه الأشياء المذكورة في الحديث، والتي تضمنها قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقد سمَّى الله تلك الأمور مفاتحًا من باب التشبيهِ والتمثيل؛ فإنَّ الأمور المحجوبة عن الإنسان لا يُتوصَّلُ إليها إلا بالمفاتيح الموصِلة إليها، فإذا كانت المفاتيح نفسها لا يعلمها أحدٌ من البشر، فكيف بالمُغَيَّباتِ نفسها؟!

٢ **الأمر الأول**: ما يَكسِبه الإنسانُ في غَدِهِ القريبِ والبعيد، فلا يعلم الإنسانُ ما يتحصل له من الرزقِ، أو ما يجري عليه من الأقدار من خيرٍ وشرٍّ، وما يكسبه من الأعمال الصالحة والسيئة.

٣ **الأمر الثاني**: أنَّه سبحانه يَعلم ما يكون في الأرحام، فيعلم **ما ينقص من شيء متعلق بالرحم** سواء في نقص اكتمال الحمل كالسِّقْط، أو نقصِ الدم غذاءً للجنين، أو سائر النقص كنقص الرزق وغيره، ويعلم ما يزداد

من شيء متعلق بالرحم، كاكتمال نموه حتى موعد ولادته، ويشمل ما سبق جميع التفاصيل، فيعلم سبحانه ما يتعلق بالرحم من خَلْق وخُلُق، وقدرات جسمية وعقلية، وسعادة وشقاوة، ويعلم جنس الجنين ذكرًا كان أم أنثى، قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨].

ولا يُعارِضُ هذا ما قد يعلمه الأطباء وغيرهم من جنس الجنين في شهوره الأخيرة؛ فإنَّ هذا -مع أنه تسخيرٌ من الله تعالى- علمٌ ناقصٌ، لشيء محدود، لا يكون إلا بعد مرور في نتائج ظنِّيَّة يكثر فيها الخطأ، وهو علمٌ لإناثٍ محدودة، ولا يعلم ما في أرحام الطير والسباع وسائر المخلوات إلا الله سبحانه وتعالى.

٤ **الأمرُ الثالثُ**: معرفةُ وقت نزول المطر؛ فلا يعلم أحدٌ غير الله تعالى على وجه كمال العلم واليقين: متى ينزل المطرُ ولا مِقدارُه ولا أين ينزل؟

وإن كان بعض الناس يمكنه توقع شيء من ذلك -من مثل ما ترصده بعض الجهات العلمية بما سخرّه الله تعالى من أدوات-؛ فإن ذلك مُترتِّبٌ على دلالات من الرياح والغيوم والضغط الجوي، من جنس ما كان موجودًا في الأمم من قديم، وإن كان متقدمًا عليه بأدواتٍ وعلوم حديثة، وهي معرفة محدودة وظنية ويعترضها الخطأ كثيرًا.

٥ **الأمر الرابعُ**: مَعرفة وقت موت الإنسان ومكانه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤]. فلم يجعل الله للإنسان حدًّا معيَّنًا إذا وصل إليه مات، ولا جَعَل له سببًا لا يُفارِقه إلا إلى الموت؛ فالمريض يُشفى، والصَّحيح القويُّ يموت فجأةً، والشاب تَبْغَته المنايا، والشيخُ يُرَدُّ إلى أرذل العمر، ويَرِدُ الإنسانُ مواطن الهلَكة فيَغرِق في البحر أو يقع من شاهقٍ أو نحو ذلك وينجو، ويموت الآمنُ المطمئنُّ في قَعر بيته.

٦ **الأمر الخامس**: من تلك الأشياء التي أخبر بها النبيُّ ﷺ في الحديث هو معرفة وقت قيام السَّاعة؛ فإن ذلك مما اختص اللهُ تعالى به نفسه، لم يُطلِعْ عليه مَلَكًا مقرَّبًا أو نبيًّا مُرسلًا، قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وسَأَل أمينُ الوحي جبريلُ عليه السلام أمينَ أهلِ الأرض محمدًا ﷺ: متى الساعة؟ فقال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[1].

(١) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

التَّبَاعي

١ أخبر النبيُّ ﷺ عن بعض الأمور التي لا يعلمها أحدٌ ألبتة غيره سبحانه، فلا يجوز لمسلم أن يعتقد غير ذلك، أو يُصَدِّق الجهلة والكهنة المُدَّعين معرفة ذلك.

٢ إذا كان لا يعلم ما يقع في غدٍ إلا الله سبحانه وتعالى، فعليك بالعمل ولا تتقاعس وتَرْكَن إلى ما يسوقه الدَّجاجلة والكَذَبةُ، ولا تَتشاءم بسماع أو رؤية ما يحملك على ترك العمل.

٣ أخفى اللهُ تعالى عن العباد عِلمَ ما يحدث في المستقبل. فإياك أن تَتحجَّج بالقَدَر فيما فرَّطتَ فيه مما يجب عليك، أو وقعتَ فيه من المُحَرَّمات، فتكون كالكافرين حين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

٤ إذا طَمِع العبدُ في رزق الله تعالى فليلجأ إليه وحده، فهو الرزاق الوهاب.

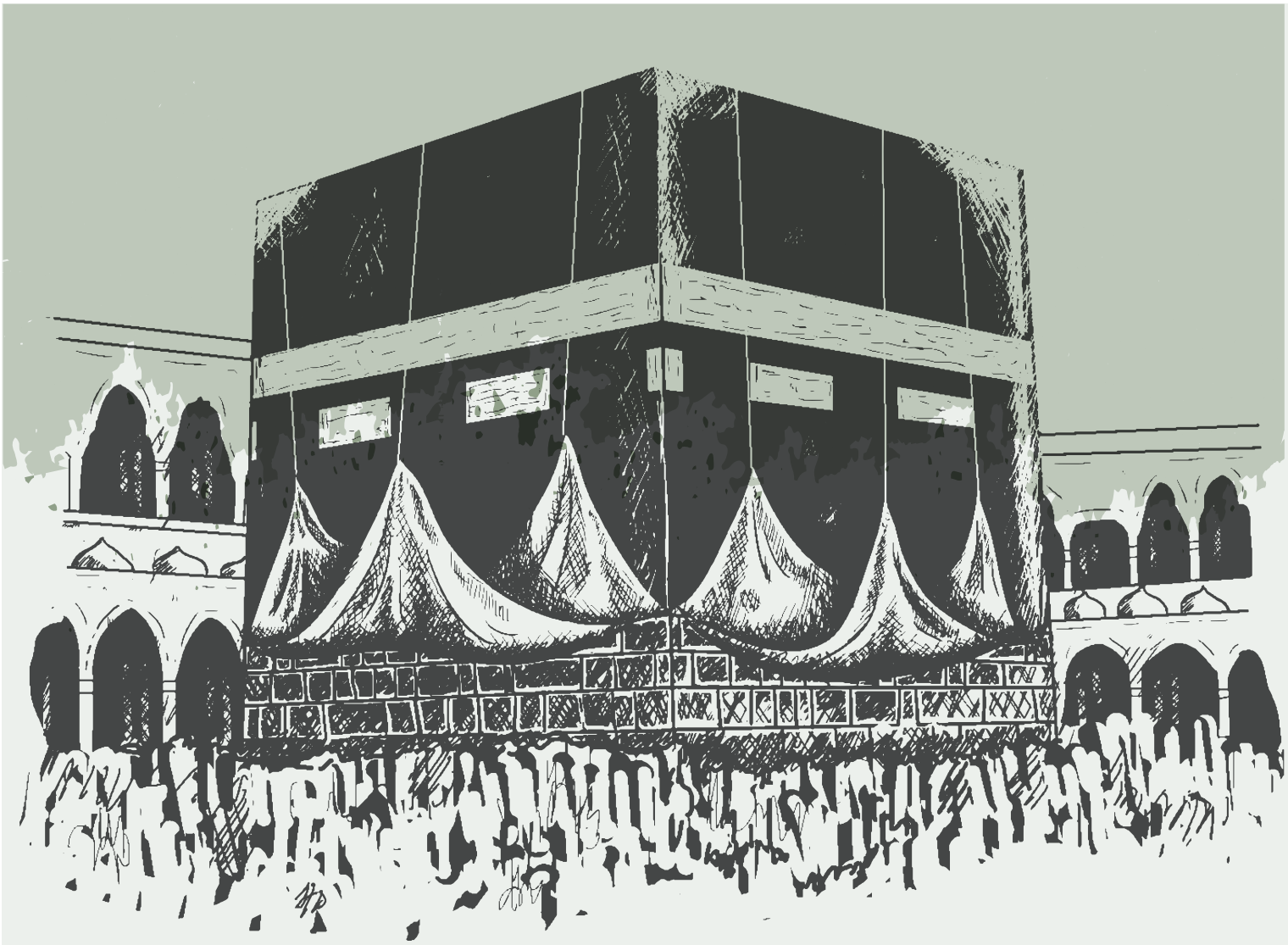
٥ ذهاب المرأة إلى الطبيبِ ليخبرها بجنس الجنين ونحو ذلك لا يضرُّ ولا يحرم؛ فإنَّ ذلك مما وهبه الله تعالى لأهل العلم وسخَّره لهم، ويقتصر علمهم على معرفة ذلك بعد اكتمال تخلُّق الجنين في بطن أمه، أما قبلها فلا يمكن معرفة ذلك يقينًا.

٦ إذا كان المطرُ وهو سبب الرزقِ لا يتحكَّم فيه ولا يعلم وقت نزوله ولا قَدْره ولا موضعه إلا الله سبحانه. فاعلم أنَّ رزقك بقدر الله وحده، فاعبده وتوكَّل إليه، واسْعَ في ابتغاء ما كتبه لك.

٧ أخفى الله عن العباد موعد موتهم ومكانه؛ فإنه لو علم إنسانٌ أنه يموت في يوم معيَّن لَفَسدت الدُّنيا ولَما عُمِرت الأرض، ولظلَّ الإنسانُ يبكي ويرقُب أجله حتى يأتيه، فأخفى ذلك ليدفعنا الأملُ إلى العمل وإعمار الأرض. وهذا من حكمته سبحانه الذي لا يفعل أمرًا إلا لحكمة، عَلِمَها مَن عَلِمَها وجَهِلَها مَن جَهِلَها.

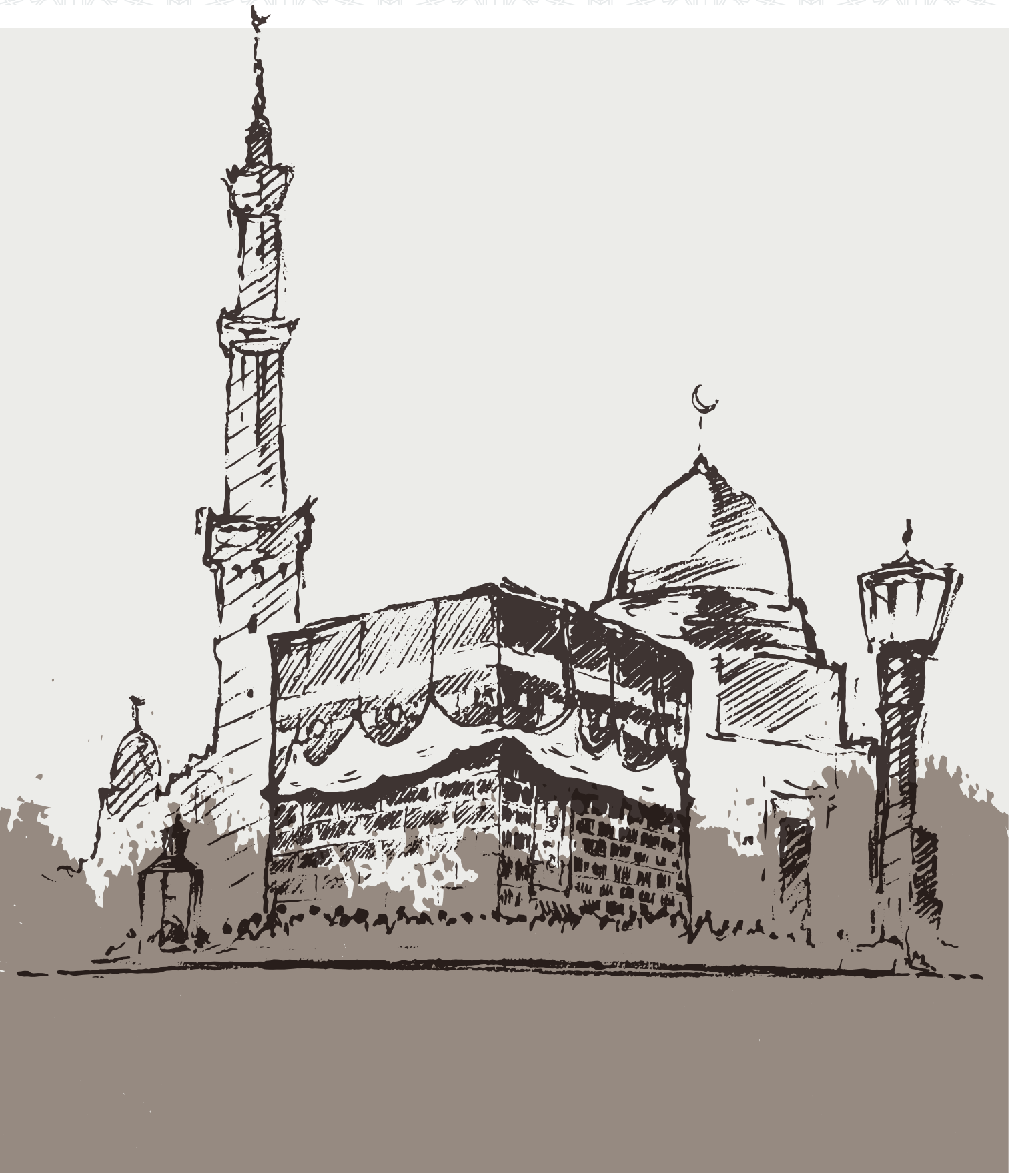
٨ أخفى الله عن عباده موعد قيام الساعة ليكونوا على ترقُّبٍ دائمٍ لها، وليستعدوا طِيلة أعمارهم بالأعمال الصالحة، ويجتهدوا ما بقوا في الحياة بالطاعات، كما أخفى عنهم ليلةَ القدر وساعة الإجابة يوم الجمعة ليحصل ذلك.

١٠ في الإيمان بهذه الغَيْبيَّات والوقوف عند ما أخبرنا به الوحيُ راحةُ النفس، وبثُّ الأمل، وزيادة التعلُّق بالله تعالى والإيمان به.



قال الشاعر:

يا مَنْ يُغيثُ الورَى مِنْ بَعْدِ ما قَنَطوا ... ارْحَمْ عِبادًا أكُفَّ الفَقْرِ قدْ بَسَطُوا
عَوَّدْتَهُم بَسْطَ أرزاقٍ بِلا سَبَبٍ ... سِوى جَمِيلِ رَجاءٍ نَحْوَهُ انبسَطوا
وعُدْتَ بالفَضْلِ في وِرْدٍ وفي صَدَرٍ ... بالجُودِ إنْ أقسَطوا والحِلمِ إنْ قَسَطُوا



تحريمُ السِّحر وادعاءِ علمِ المغيبات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»(١).

(١) أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذيُّ (١٣٥)، والنسائيُّ (٩٠١٧)، وابن ماجه (٦٣٩).

آيات

- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]
- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].
- ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٥- ٦٦].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه -على الأرجح-: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ، وحرَص على العلم وحفظ الحديث، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث، تُوفِّي بالمدينة سنة (٥٨هـ)(١).

خلاصة

أخبر النبي ﷺ أنَّ مَن ذهب إلى كاهنٍ أو دجَّالٍ ونحوهما ممن يدَّعي معرفة الغيب ونحو ذلك، فصدَّقه فيما ادَّعاه؛ فقدْ كَفر، وقد يخرجه ذلك عن الإسلام أو يقرِّبه من ذلك.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

يحذِّر النبيُّ ﷺ أُمَّتَه من اتباع الكُهَّان والدجَّالين وغيرهم من الذين يزعمون أنَّهم يعلمون الغيب، فيُخبِر أنَّ مَن أتى أحدًا من الكَهَنَةِ **الذين يتَّصِلون بالشياطين لِيَسترِقوا لهم السمع ويخبروهم بالأخبار المستقبلية وما لا يطَّلِع عليه أحدٌ من البشر**، أو من العرَّافين **الذين يستخدمون وسائل الشعوذة والنَّظر في الأبراج والمُنَجِّمين وضاربي الوَدَع** ونحوهم، وصدَّقهم بما افتروه وزعموه؛ فقد كفر بالله تعالى وبنبيِّه ﷺ.

ووجه الكفر أنه يتضمن تكذيب قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ولكن إذا صدقهم شخصٌ ظنًا أن هذا مما يمكن أن يعلمه البشر، ولم يَعرف أن هذا مما اختص الله بعلمه؛ فلا نحكم عليه بالكفر بعينه.

وقد جعل اللهُ تعالى ذلك من الابتلاء والفتنة التي تمحِّص المؤمنَ من الكافر؛ وذلك أنَّ الكاهن أو العرَّاف قد يأتي ببعض الأخبار الصادقة، فيَحسِب الجاهلُ أنه يدعي الغيبَ حقًّا، وليس كذلك؛ سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ»[1].

وقد كان الجنُّ يصعدون إلى جهة السَّماء، فيركب بعضهم بعضًا، إلى أن يَسترِقَ الأعلى منهم السمع فيُلقي الكلام إلى الذي يَليه، إلى أن يتلقَّاه من يُلقيه في أُذن الكاهن، فيَزيد فيه، فلمَّا جاء الإسلام ونزل القرآن، حُرِست السماء من الشياطين، وأُرسلت عليهم الشُّهب، فبَقِي من استراقِهم ما يَتخطَّفه الأعلى فيُلقيه إلى الأسفل قبل أن يُصيبه الشِّهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠][2].

على أنَّ الإنسانَ إذا أتى عرَّافًا أو كاهنًا للفرجة ونحوها ثم لم يُصَدِّقه فيما أخبر، فقدْ حَبِط عمله أربعين ليلة، قال ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[3].

---

(١) البخاري (٥٨٨٤).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢١٦).

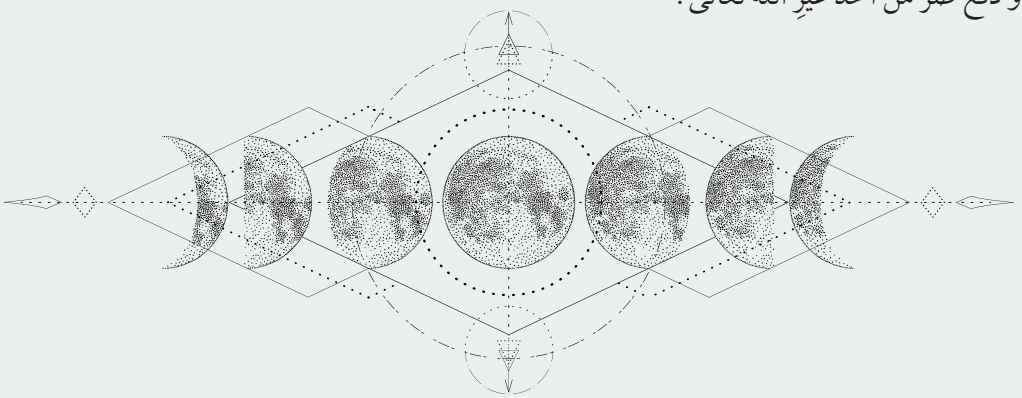
(٣) مسلم (٢٢٣٠).

١ كان الناس قديمًا يذهبون إلى الكاهن أو العَرَّاف، أما الآن مع انتشار وسائل التقنيات والتواصل الحديثة، أصبح الكاهنُ يأتيك في بيتك على هاتفك، على شكل موقعٍ تدخله، أو خبرٍ تقرؤه، أو على صورةِ الأبراج وحظوظها، إلى غير ذلك من صور الكهانة والدجل الكثيرة، فاحذر من إتيانهم بأي طريقة.

٢ يدخل في الكهانة والعرافة أن يأتي الرجلُ إلى مَن يزعم أنه راقٍ فيطلب منه شيئًا من ثيابه أو يسأله عن اسمه واسم أمه، ويكتب له رموزًا أو يصنع له حجابًا أو نحو ذلك، فهؤلاء من الكَهَنَة والدجَّالين فينبغي الحذر منهم.

٣ الناس قسمان: أتباع الكهنة، وأتباع رُسل الله، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء؛ بل يَبعُد عن رسول الله ﷺ بقدر قُرْبِه من الكاهن، ويُكذِّب الرسول بقدر تصديقه للكاهن[1].

٤ أصل العقيدة أن ترتبط بالله تعالى وحده، وأن تَرُدَّ إليه أمرك كلَّه، وألَّا يتعلَّق قلبُك بأحد غيرِ الله، وألَّا ترجوَ جلب نفعٍ أو دَفْعَ ضُرٍّ من أحد غيرِ الله تعالى.

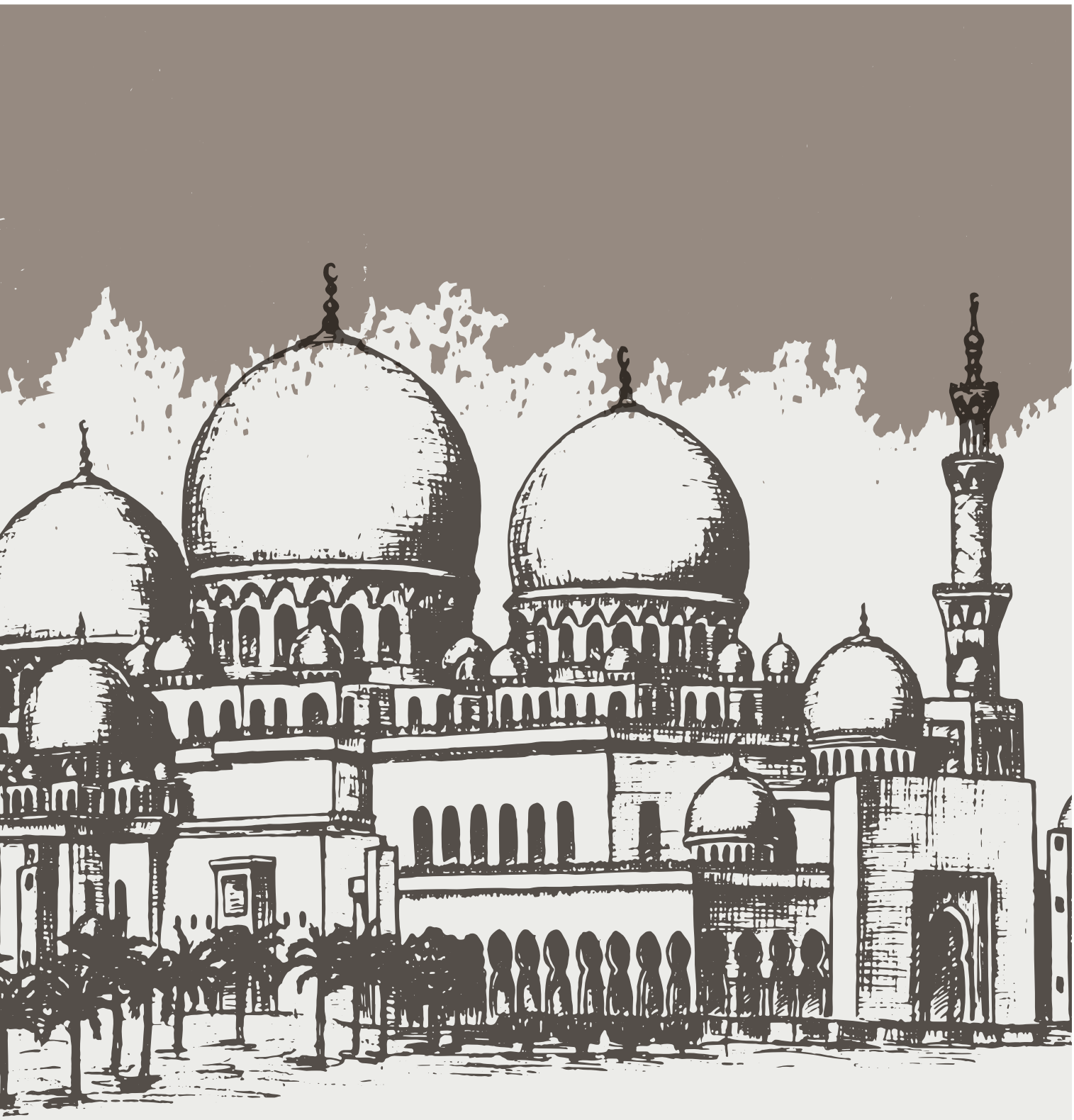


٥ إياك وإتيانَ الكُهَّان والمنجِّمين والعرَّافين، وتصديقَهم؛ ففي ذلك خسران الدين، والخروج من ملَّة الإسلام، والعياذ بالله.

٦ دلَّ الحديثُ على أنَّ تصديقَ الكُهَّان كفرٌ، وإتيانهم مع عدم تصديقهم من الكبائر. فلا يجوز للإنسان أن يأتيهم أو يدخل مواقعهم هزلًا ولا جادًّا.

٧ ارضَ بما قسمه الله لك، واعلم أن الغيب ما حُجب عنك إلا لراحتك أنت، فلا تَهتِك سِتْرَ الغيب بما يَزيدك رَهَقًا وتَعبًا.

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم (١/ ٢٥٣).



عنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ؛

٢ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ». وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ[1].

(١) مسلم (٤٧٧٩).

آيات

- ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].
- في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه -على الأرجح-: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ، وحرَص على العلم وحفظ الحديث، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث، تُوفِّي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

خلاصة

العبرةُ ليست بحُسْنِ المناظرِ والأجسامِ، وإنما بما وَقَر في القلب من الإيمانِ أو الكفرِ.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يَذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الله لا يُحاسِب العبدَ على صورته ومظهره وبُنيان جسده؛ فلا فرق بين الأبيض والأسود، ولا بين الغني والفقير، ولا بين القوي والضعيف، فقد يكون العبدُ حَسَنَ الوجه، معتدِل الجسم، قويَّ الحُجَّة، حُلْو المنطق، غير أنَّه لا يُقام له عند الله وزنٌ، كما أخبر سبحانه عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

٢ العبرةُ عند الله بالقلوب؛ فهي مُستودَع التقوى والإيمان، والتفاضلُ الحقيقيُّ بين الناسِ إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: «أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ؛ إِلَّا بِالتَّقْوَى»(١).

فربما كان العبدُ دَميمًا قبيحَ المنظر إلَّا أنَّ له منزلةً عظيمةً عند الله، قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(٢)،

٣ على أنَّ بعض الناس يحتجُّ بهذا الحديث مُبطِلًا الأعمال والفرائض، فيَزعم أنَّ القلب إنِ اطمأنَّ بالإيمان أغنى عن العمل. وهذا زعمٌ باطلٌ؛ فإنَّ العملَ من الإيمان، ولا يصح الإيمان لأحدٍ إلا بالعمل.



(١) أحمد (٢٣٤٨٩).

(٢) مسلم (٢٦٢٢).



اتّباعي

١ دلَّ الحديثُ على أنَّه ليست العبرة بالمناظر والصُّور، فلا يسارع العبدُ إلى الحكم على أحدٍ لمجرَّد ظاهره؛ فإنَّ المظاهرَ خدَّاعة.

٢ أفاد الحديث أنَّ على الإنسان ألَّا يَهتم بالمظهر والصورة بما يهمل به قلبه، بل يهتم بجسده ومظهره باعتدال، ويُوجِّه أكثر اهتمامه إلى ما عليه المُعَوَّل في الميزان، وهو صلاح القلب واستقامته.

٣ وجَّه النبيُّ ﷺ إلى ضرورة تزكية القلب وتطهيره مما ينتابه من الأدران والشُّبهات ومداخل الشِّرْك وحُبِّ الدنيا؛ فإنَّه محل نظر الله تعالى.

٤ يجب على المسلم أن يُحَسِّن نيته؛ فعليها مَدار الجزاء والثواب والعقاب، وعليه أن يصبر في تصحيحها ويتحمَّل معاناة ذلك، فالأمر صعبٌ، وقد كان السَّلَفُ يتعلَّمون النيَّة للعمل كما تتعلَّمون العمل[1].

٥ الاهتمام بتصحيح القلب وتسديده أَولى ما اعتمد عليه السالِكون إلى الله، والنَّظَر في أمراضه وعلاجها أهمُّ ما تنسَّك به الناسِكون؛ فإن القلب لهذه الأعضاء كالْمَلِك المتصرِّف في الجنود، الذي تَصدُر كلُّها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلُّها تحت عبوديَّته وقهرِه، وتكتسب منه الاستقامةَ والزَّيغ، وتَتبَعه فيما يريد، فهو مَلِكُها، وهي المنفِّذة لما يَأمُرها به[2].

٦ النيَّة هي التي يستحق بها العبدُ الثوابَ أو العقابَ؛ فربما يعمل الإنسان عملًا صالحًا غير أنَّه نوى به غيرَ الله، فيعاقب على ذلك ولا يُثاب، وربما نوى الرجلُ عملًا صالحًا ثم لم يستطع عملَه، فيؤجر عليه لمجرد النِّيَّة. فعلى المرء أن يجدد النيات الصالحة، وأن يسعى في تصحيح نياته.

٧ على الدُّعاة والمُرَبِّين أن يوجّهوا أنظار النَّاس واهتماماتهم إلى الاهتمام بالقلب وعلاج آفاته وأمراضه.

٨ يجبُ على المسلم أن يعمل بالميزان الذي يرضاه الله تعالى، وهو التفضيل بناءً على الدِّين والاعتقاد والتقوى، لا المظهر واعتدال القوام وحُسن الحديث والثَّراء والوجاهة الاجتماعية ونحوها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزاليِّ (٤/ ٣٦٤).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم (١/ ٥).

٩ معيار الدين والتقوى هو الأهم لدى المسلم؛ فينبغي أن يراعيه الرجلُ إذا كان يبحث عن زوجة، وتراعيه المرأة التي يتقدَّم لها رجل للزواج بها، وكذلك من كان يريد عاملًا أو شريكًا أو ساكنًا يستأجر بيتَه أو نحو ذلك، فعليه أن يختار التَّقِيَّ الدَّيِّنَ.

١٠ القلب يَمرَض كما يمرض البَدَن، وشفاؤه في التوبة، ويصدأ كما تصدأ الْمِرآة، وجِلاؤه بالذِّكر، ويَعرى كما يَعرى الجسم، وزينتُه التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامُه وشرابه المعرفةُ والمحبَّة، والتوكُّل، والإنابة[١].

١١ في إشارة النبيِّ ﷺ إلى صدره الشريف استخدامٌ للغة الجسد، وهذا من الأمور التي تؤثِّر في المستمِع، وترسِّخ لديه المعلومة، فيُستحسَن استخدام لغة الجسد في التعليم والإرشاد والدعوة.

١٢ كان جُلَيْبِيبٌ رضي الله عنه أحدَ أصحاب النبيِّ ﷺ، وكان دَمِيم المنظر قصيرًا، عرض النبيُّ ﷺ عليه الزواج فقال: إذن تَجِدني كاسدًا يا رسولَ الله، فقال ﷺ: «ولكنك عند الله لستَ بكاسدٍ»، فأرسله إلى أحد بيوت الأنصار يخطب ابنتهم، فتعجب الرجلُ وامرأتُه، إلا أنَّ ابنته بادرت إلى الموافقة تلبيةً لأمر الله تعالى، ثم إنَّ جُلَيبيبًا خرج مُلَبِّيًا داعي الجهاد، فافتقده النبيُّ ﷺ بعد انتهاء الغزوة، فوجده شهيدًا وحوله سبعة من المشركين قد قتلهم ثم قُتل، فقال ﷺ: «هذا مني وأنا منه». وكانت امرأتُه بسبب ما أصابت منه من أغنى النساء[٢].

قال الشاعر:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتَزْدَرِيهِ ... وفِي أثْوابِهِ أسَدٌ هَصُورُ
ويُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فتبتَلِيهِ ... فيُخلِفُ ظنَّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
فمَا عِظَمُ الرِّجالِ لهم بزَيْنٍ ... ولكنْ زَيْنُهم كَرَمٌ وخِيرُ



(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٩٨).

(٢) انظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢٧٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٢/ ٢٢٢).



عبادةُ اللهِ في الحبِّ والكُرهِ والولاءِ والبراءِ

عَن أَنَسٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال:

١ «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ:

٢ أَنْ يكونَ اللهُ ورَسُولُه أحَبَّ إلَيهِ ممَّا سِواهُما،

٣ وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلا للهِ،

٤ وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[1].

(١) البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

آيات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٦ - ١٠٩]

الراوي

هو: أبو حمزةَ، أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ، الإمامُ، المفتي، المقرئ، المحدِّث، راوية الإسلام، خادم رسول الله ﷺ وقرابتِه من النساء، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله المدينة وهو ابنُ عَشْرٍ، ومات وهو ابنُ عشرين، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وبايَع تحتَ الشجرة. تُوفي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

أخبر النبيُّ ﷺ عن ثلاث صفاتٍ إذا وجدها الإنسان في نفسه فقد تذوق حلاوة الإيمان وهي: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من كل شيء، وأن يُحِبُّ في الله لا من أجل منصب أو مصلحةٍ، وأن يكون أبغض شيءٍ له الرجوع للكفر، فكما يكره الدخولَ في النارِ يكره الكفر وما يوصِل إليه.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

هذا الحديث من أصول الإسلام، ومن جوامع أخباره ﷺ:

١ فأخبر أن الإنسان إذا تحقَّقت فيه ثلاثُ صفاتٍ وجد **حلاوةَ الإيمان، أي طعمًا تشعر به نفسُه كما تشعر بحلاوةِ الطعام**. وهذا كقوله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[(١)]، وهي مثل ما يجدُه المؤمنُ مِن انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالى وعبادته، ومعرفة رسوله ﷺ واتباعه[(٢)]، ومن استلذاذِ الطاعات، وتحمُّل المشاقِّ في رِضا الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ، وإيثارُ ذلك على عرَضِ الدنيا[(٣)].

و«الإيمان هو غذاء القلوب وقُوَّتها، كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقُوتها، وكما أن الجسد لا يجد حلاوةَ الطعام والشراب إلا عند صحَّته، فإذا سَقِم لم يجِدْ حلاوة ما ينفعه من ذلك؛ بل قد يستحلي ما يضرُّه، وما ليس فيه حلاوةٌ؛ لغلَبةِ السقم عليه، فكذلك القلبُ إنما لا يجدُ حلاوةَ الإيمان من أسقامه وآفاته، فإذا سَلِم من مرض الأهواء الْمُضِلَّة والشهوات المحرَّمة، وجَد حلاوةَ الإيمان حينئذٍ، ومتى مرِض وسَقِم لم يجِدْ حلاوةَ الإيمان؛ بل يستحلي ما فيه هلاكُه من الأهواء والمعاصي؛ لأنه لو كمَل إيمانُه لوَجَد حلاوةَ الإيمان، فاستغنى بها عن استحلاء المعاصي»[(٣)].

٢ وأول هذه الخصال هي: «أنْ يَكونَ اللهُ ورَسُولُه أحَبَّ إلَيهِ ممَّا سِواهُما»، والمرادُ بحُبِّ الله ورسوله ﷺ: شعورٌ يعرفه الإنسان في قلبه، ويورثه كثرةَ ذكرِ محبوبه، والشوق له، وفعل ما يحبه، وتجنب ما يكرهه، ولا تزال تزيد المحبة حتى يقدمه على كل حبٍّ سواه، بل يقتضي إيثارَ ما يريده محبوبه، وإن كان على خلافِ هوى النفْس.

وهذه المحبة يجب أن تكون مُقَدَّمةً في قلب كل مسلم على كل محبوب، وإلا تعرَّض العبدُ لغضب الله تعالى وعقوبته: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(٤)].

---

(١) مسلم (٣٤)، عن العباس بن عبد المطلب ﷺ.

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس القرطبيِّ (١/ ٢١٠).

(٣) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنَّووي (٢/ ١٣).

(٤) البخاريُّ (١٥)، ومسلم (٤٤)، عن أنس بن مالك ﷺ.

٣ وأما الخَصلةُ الثانيةُ: أن يكون اللهُ تعالى حاكمًا عليه في حبه، فيحب المرء لا لشيءٍ إلا لأن الله تعالى يحبه أو أمر بحبه، وفي الحديث: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ»[١]، ولا يزال تسليمه لله تعالى حتى يكون الحاكم عليه في كل حب، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وفي الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»[٢].

٤ وأما الخَصلة الثالثة فهي كراهية **الدخول في** الكُفر والمعاصي -سواء كان واقعًا فيهما سابقا أو لا-، فإن من آمنَ حقًا، وتعلَّق بحبِّ الله ورسوله ﷺ؛ كان تركه لنعيم الإيمان بالله جحيمًا يكرهه؛ كما يكره أن يلقى في النار[٣].

والقَدْر الواجب من كراهة الذنوب أن ينفِّر نفسه منها، ويتباعد عنها، ويعزم على ألَّا يقع فيها؛ لعلمه بسخط الله لها، فأما مَيْل الطبع إلى شيء من الذنوب دون استجلاب لمحبتها أو فعلها فلا يؤاخَذ به؛ وقد مدَح الله مَن نهى النفْس عن الهوى، فدلَّ أن الهوى قد يميل إلى ما هو ممنوع منه، لكن المؤمن ينهى نفسه عن ذلك[٤].

وهذا الحديث أصلٌ في محبة الله، فالعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل، «وهذه المحبة لله عز وجل حقٌّ؛ كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث: أن الله سبحانه محبوبٌ لذاته محبة حقيقية؛ بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكذلك هو سبحانه يحبُّ عباده المؤمنين محبة حقيقية، وكل ما يحبونه سواه فإنما يحبونه لأجله»[٦].

---

(١) أحمد رقم (١٨٥٢٤) عن البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أبوداود رقم (٤٦٨١)، عن أبي أمامة الباهلي.

(٣) «شرح رياض الصالحين» لابن عُثيمين (٣/ ٢٦٠).

(٤) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن رجب الحنبلي (١/ ٥٨).

(٥) «فتح الباري لابن رجب» (١/ ٥٠- ٥١).

(٦) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٦٦).

التّباعي

١ ذهبت أمُّ سُلَيم بابنها أنس بن مالك إلى النبي ﷺ ليكون خادمًا له، وهو دليلٌ على عظيم محبتها لرسول الله ﷺ، إذ ولدها قُرَّة عينها، وهو حُرٌّ لا عبد، ولم يخدمه لأجل مال، فماذا قدمنا لدين رسول الله ﷺ وأحاديثه وسنته؟

٢ استعمل النبيُّ ﷺ في حديثه أساليب التشويق والإغراء وجذب الانتباه، فابتدأ الحديث بحصر الخصال في عددٍ معين، ليبقى المستمع منتبهًا لها حتى يحصيها، كما أتى بلفظ «حلاوة» ليحرص الإنسان على تحقيق الخصال لينال تلك اللذة. فعلى الدعاة والخطباء والوُعَّاظ أن يحرصوا على اتباع الأساليب الدعوية المُشَوِّقة.

٣ كلما رأيت نفسك مقصرًا في العمل، فعمِّق في قلبك محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟». قَالَ: لا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ [1].

٤ كلما سمعت فعلَ محبٍّ مع محبوبه، فليكن منك أعظم من ذلك مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، وهي درجات فمنها محبةٌ تحمل على أداء الفرائض واجتناب النواهي، ومنها محبةٌ تَحمِل على أداء المندوبات، وتجنُّب الوقوع في الشبهات.

٥ لنتعلّم ونعلِّم من حولنا كيف ننمي في قلبنا حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ، فمن طرق تحصيل محبة الله تعالى: معرفةُ أسمائِه وصفاتِه وكمال أفعاله سبحانه، وتأمل جميل صنعه، وتذكير النفس عظيم نعمه، وعظيم رحمته، مع عظيم الذنوب، ومثلُه يُقال في محبة رسول الله ﷺ، بمعرفته ﷺ، والوقوف على جميل خصاله، وعظيم جهاده ﷺ، وكونه سببًا في هدايتنا لطريق الله عزَّ وجلَّ، وغير ذلك.

وقد يسأل المؤمن نفسه: كيف أعلم أن محبة الله ورسوله أحب إليّ مما سواهما؟، فلينظر إذا تعارض هواه مع ما يحبه الله؟، كمن تعرض له وظيفة مرموقة في بنك ربوي، فيتركها لله تعالى.

٦ الإنسان يستطيع أن يؤثِّر في نفسه لتحبَّ شيئًا أو تكرهه، فتفقَّد نفسك وجاهدها حتى تقدم حبَّ رسول الله ﷺ على كلِّ شيء، فقد أخذ النبيُّ ﷺ بيد عمرَ بن الخطاب ﷺ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ

(١) البخاريُّ (٣٦٨٨)، و مسلم (٢٦٣٩).

شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[1].

٧ إذا أحببت مسلمًا فليظهر آثار ذلك بحسب ما تيسر لكل أحد، كالمجالسة والتزاور والبذل، فإن «رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ -طريقه- مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا -تطلبها-؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[2].

٨ متى أحببتَ صاحبًا في الله فحافظ على أن تكون خالصةً لله تعالى، لأن من أحبَّ امرأً لغرض انقطعت محبته بانقطاعه أو اليأس منه[3]، وكمال الحب في الله: ألاَّ يَزيدَ بالبِرِّ ولا يَنقُصَ بالجفاء[4].

٩ عوِّد نفسَك استبشاع المعاصي، وكراهتها لكراهة ما تؤول إليه، واحذر أن تستحليَها في نفسك، أو تتخيلها بصور جميلة، فإن الخواطرَ مفتاح الإرادة، والإرادة مفتاح العمل.

قال الشاعر:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ ... هَذا مُحَالٌ في القِياسِ بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقًا لَأَطَعتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ
في كُلِّ يَومٍ يَبتَديكَ بِنِعمَةٍ ... مِنهُ وَأَنتَ لِشُكرِ ذاكَ مُضِيعُ

قال أبو قيس الأنصاري رضي الله عنه يذكر قدوم النبي ﷺ إليهم في المدينة[5]:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجّةً ... يُذَكّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيبًا مُوَاتِيَا
فَلَمّا أَتَانَا وَاسْتَقَرّتْ بِهِ النّوَى ... وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيْبَةَ رَاضِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حِلّ مَالِنَا ... وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتّآسِيَا
نُعَادِي الّذِي عَادَى مِنْ النّاسِ كُلّهِمْ ... جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا

(١) البخاريُّ (٦٦٣٢).
(٢) مسلمٌ (٢٥٦٧).
(٣) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس القرطبي (١/ ٢١٤).
(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجرٍ العسْقلاني (١/ ٦٢).
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥١٢).



عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال:

١ «لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكم شِبرًا بشِبرٍ، وذراعًا بذراعٍ،

٢ حتى لو سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلكْتموه»،

٣ قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن؟!»[1].

(١) البخاريُّ (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

آيات

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

الراوي

هو: أبو سعيدٍ، سعدُ بنُ مالكِ بنِ سِنَانٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ المُدنيُّ، شَهِدَ مع النبي ﷺ غزوة الخَنْدق وما بعدها من الغزوات، فغزا مع رسول الله ﷺ اثنتَي عشرةَ غزوةً، وشهِد بيعةَ الرضوان، وكان من الحُفاظ المكثرين الرواية عن النبي ﷺ، وكان من العلماء الفضلاء العقلاء، وأفتى مدَّةً، ومات سنة ٧٤هـ[1].

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ أنَّ أُمَّته ستُقَلِّدُ الأمم السابقة من اليهود والنصارى في الابتداع في الدين وارتكاب المعاصي تقليدًا تامًّا وموافقةً عمياء.

(١) انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (١/ ٣٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٨٥)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣، ٤)، «الطبقات الكبير» للزهريِّ (٥/ ٣٥٠).

١ أخبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ أُمَّته ستَتَّبع **طريق الأمم السابقة وطريقتها** في الابتداع في الدين وارتكاب المعاصي اتباعًا تامًّا وتقليدًا أعمى، وقد حصل ذلك بعده ﷺ، فمال كثير من الناس إلى الحِيَل، وإلى أكْل الربا، والتشبُّه بهم في ملابسهم وشعارهم، وإقامة الحدود على الضعفاء دون الأغنياء، وغير ذلك، ومال بعضهم إلى عبادة الصالحين من دون الله تعالى[١].

٢ وشبه اتباعهم بقوله: «شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراع» وهو تشبيهٌ يُقَوِّي المعنى؛ حيث إنَّ من أمته ﷺ من يُقلِّد الكفارَ في كل شيءٍ، وقد قال ﷺ: «ليأتينَّ على أُمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النَّعل بالنعل، حتى إن كان منهم مَن أَتَى أُمَّه علانيةً، لكان في أُمتي مَن يصنع ذلك»[٢]، والمراد من ذلك بيان شِدَّة موافقتهم في المعاصي والمخالَفات[٣]، وإخبارُ النبيِّ ﷺ بذلك ليس إقرارًا منه، بل إنَّه ﷺ حذَّر من اتباعهم وأمر في أحاديث كثيرة بمخالفتهم[٤].



(١) انظر: «فيض القدير» للمناوي (٥/ ٢٦١)، «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٦/ ٣٤٠).

(٢) الترمذيُّ (٢٦٤١).

(٣) انظر: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» لبدر الدين العينيِّ (١٦/ ٤٣)، «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للقسطلانيِّ (٥/ ٤٢١).

(٤) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٣/ ٤٩٤)، وكتاب السنن والآثار في النهي عن التشبه بالكفار، لسهيل حسن عبدالغفار.

٣ ثُمَّ شبَّه النبيُّ ﷺ ذلك التقليد والاتباع بالأمم السابقة بأنه لوْ دخَل أحدُهم جُحْر الضَّبِّ - **وهو حيوانٌ معروفٌ يُشبه الوَرَل**[١] - لاتَّبعه كثيرٌ من المسلمين. وإنَّما اختار جُحرَ الضَّبِّ لضِيقِه وخُبثِ رائحته، يريد أنَّهم لو دخلوا مكانًا ضيِّقًا مؤذيًا خبيث الرائحة لاتَّبعتُموه، وذلك حاصلٌ في اتباعهم في المعاصي والخبائث والفواحش التي يأنفُ منها الطَّبْعُ السَّليم[٢].

٤ فتَساءل الصحابةُ: أتقصدُ اليهودَ والنصارى يا رسولَ الله؟ وهو استفهامٌ يفيد التعجُّب والاستنكار؛ استَعظَم الصحابةُ أن يُقلِّدَ بعضُ هذه الأُمَّة اليهودَ والنصارى على ما هم عليه من الضَّلال، وبعدما مَنَّ اللهُ علينا بالهدى والتوحيد. فأجاب ﷺ بالإثبات؛ إذ لو لم يكُونوا اليهودَ والنصارى فمَن غيرهم.

وهذا الإخبارُ منه ﷺ عامٌّ مخصوصٌ؛ فإنه ليس كلُّ المسلمين يتَّبِعون مَن كان قبلَهم، ففيهم المتمسِّكون، والعلماءُ، وأهل الدِّين والتقوى؛ وإنما المراد: يكون فيكم اتِّباع لِمَن كان قبلَكم[٣].



(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميريِّ (٢/ ١٠٧).

(٢) انظر: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» لبدر الدين العينيِّ (١٦/ ٤٤)، «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للقسطلاني (٥/ ٤٢٢).

(٣) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٤٦٤).

اتّباعي

١ خاطب النبيُّ ﷺ أصحابه فقال: «لتتبعنّ سنن من قبلكم» مع أن الصحابة كانوا أبعد الناس عن اتباع من قبلهم من يهود ونصارى، وظهر ذلك أكثر فيمن بعدهم شيئًا فشيئًا، ولكنه دليل على وحدة الأمة، وأنه يطلب منها التعاون على إصابة الحق.

٢ استخدم النبيُّ ﷺ التشبيهات والصور البيانية التي تُقرِّب المعاني وتؤكِّدها بألطف أسلوب. فينبغي على الدُّعاة والعلماء استعمال تلك الصُّور البديعة التي تأسر العقول وتخطف القلوب.

٣ تَرَفَّع النبيُّ ﷺ عن ذكر أسماء الكفار والفُسَّاق، واكتفى بالإشارة إليهم بقوله: «مَن كان قبلكم»، فيُستحَب عدم ذكر أسمائهم إلا لحاجةٍ؛ كأن يُذكَر من قصصهم وأخبارهم ما يتَّعظ به السامع.

٤ على الإنسانِ أن يَحذَر مِن اتباع غير المسلمين فيما اختُصُّوا به من شؤون حياتهم من مأكل ومَلْبَس ونحو ذلك، فضلًا عن العبادات والطقوس والعادات الدينية، بل يخالفهم ما استطاع.

٥ اطمئن بمثل هذا الحديث فإنه يقوِّي قلب المؤمن، لما فيه من من دلائل نبوته ﷺ؛ فقد وقع ذلك بين المسلمين باتِّباع الكافرين في أمور دينهم ودُنياهم. وهذا مما يزيدنا إيمانًا باللهِ جل وعلا وبرسوله ﷺ.

٦ لقد حذَّر النبيُّ ﷺ من اتِّباع سَنَن من قبلنا، وفي التحذير من التقليد واتباع السَّنن تكثيرٌ للطائفة الظاهرة المنصورة، وتثبيتٌ لها، وتقويةٌ لإيمانها؛ ففي أيِّ الطائفتين تريد أن تكون؟!

٧ في الحديث إشارةٌ إلى بلاء التقليد، وسوء مغبَّته، وكم جرَّ التقليد على المسلمين من بلاءات ووَيْلات وَنَكَبات، وضياع هُوِيَّة الأجيال، وذَوَبانهم في هُوِيَّات الضلال والانحلال!

٨ دلَّ تشبيه الاتِّباع بدخول جُحر الضبِّ أنَّ مِن أفعالهم ما تُنكره الفِطرة ويأباه العقلُ، ومع ذلك يُقلِّدهم أُناس من المسلمين. فالحمدُ لله على نعمة العقل والإيمان.

٩ دلَّ الكتاب والسُّنَّة على أنه لا يزال في هذه الأمة طائفة متمسِّكة بالحقِّ إلى قيام الساعة[١]، وأنَّ الله لا يزال يَغرِس في هذا الدين غَرْسًا يستعملهم فيه بطاعته[٢]، وأنهم لا يجتمعون على ضَلالة[٣]، فينبغي للمسلم أن يحرص أن يكون منهم.

١٠ استنكر الصحابةُ رضوان الله عليهم من تقليد اليهود والنصارى واتِّباعهم، وقد اتضح الدليلُ على ضلالِهم وغيِّهم. فلا شكَّ أنَّ المُقَلِّدَ لهم أجهلُ منهم وأضل؛ لأنه اتبع أهل الضلال والغواية، بعدما تبين له الحقُّ والهداية.



قال الشاعر:

وَمَـنْ يَبْتَـغِ الْإِسْـلَامَ دِينًـا يَكُـنْ لَـهُ نَصِيـبٌ مِـنَ الدَّارَيْـنِ يَبْقَـى وَلَا يَفْنَـى
وَمَـنْ يَبْتَـغِ الأَهـواءَ فاعجـبْ لحالِـه فَقَـدْ خَسِرَتْ يُمْنَـاهُ إِنْ طَفَّـفَ الْوَزْنَـا
لَنَـا سُـنَّةٌ نُحْيِـي ذُرَاهَـا وَنَتَّقِـي حِمَاهَـا ونـدري أنَّ في ظِلِّهـا الحُسـنى

(١) مسلم (٤٩٨٨): عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

(٢) روى أحمد (١٧٧٨٧)، والبخاريُّ في «التاريخ الكبير» (٩/ ٦١)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٧٦٩٢): عن أبي عِنَبَةَ الخَوْلانِّي قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(٣) روى أحمد في «المسند» (٢٧٢٢٤)، والترمذيُّ (٢١٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ دون «ومن شذ»: عن ابن عمرَ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي - أو قال: أمة محمد ﷺ - على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار».



٤١

تجنُّب الرِّدةِ من الكفرِ والشركِ الأكبر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

١ «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،

٢ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا،

٣ يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1].

(١) مسلم (١١٨).

آيات

- ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].
- ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبرَ ٥٧، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

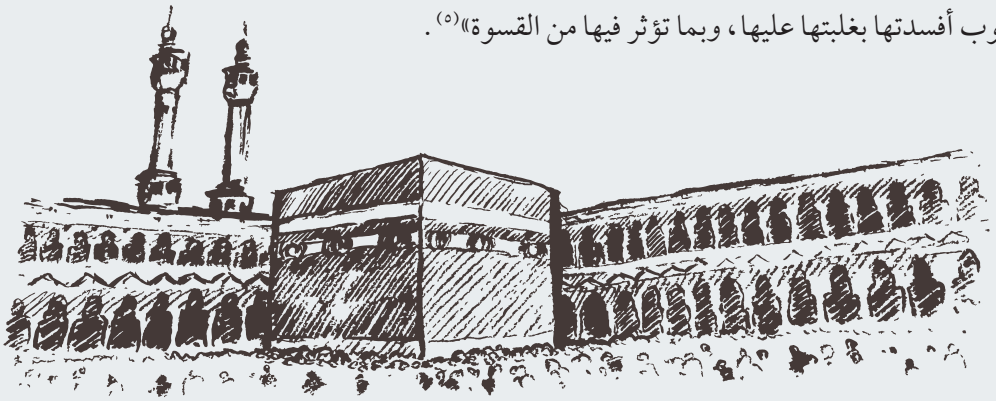
يوجّه النبيُّ ﷺ أُمَّته إلى المسارعة في عمل الخيرات قبل انتشار الفتن التي تضل الإنسان وتضعف إيمانه، فيبيت بين ليلةٍ وضحاها كافرًا، وقد كان الإيمانُ ساكنًا قلبَه.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيّ (٤/ ٢٦٧).

١ يوجه رسول الله ﷺ المؤمنين إلى المبادرة إلى **المسارعة** في أداء الطاعات والأعمال الصالحة قبل أن تأتي فتن شديدةٌ، كأنها أجزاءُ الليلِ المظلم شديدِ السواد، ليس فيه نورُ قمر ونحوه، لا يُرى فيها حقٌّ من باطلٍ، قال ﷺ: «وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ»(١).

وإنَّمَا حثَّ النبيُّ ﷺ على المبادرة بالأعمال قبل وقوع الفتن وفُشُوِّها لأن العبادةَ في زمن الفتن تكون شاقة على النفس، لانشغال الناس بالفتن التي تثبط عن العمل، ولهذا قال ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»(٢)، وقال ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»(٣).

٢ ثم أخبر النبي ﷺ أنَّ تلك الفِتَن شديدة الفتك بالمرء؛ حيث تدركُ المسلمَ فتصدَّه عن دينه سريعًا، فكأنما فتنته في عشيَّةٍ وضحاها؛ " لأن القلوب كثيرة التقلب من ربقة الحق، شديدة التطلع إلى منافذ الضلال، فإذا قُذف في روعها شيءٌ من المُضَلِّلَات وجد عندها داءً قاتلًا وشرًّا مستعدًّا»(٤)، «ولأن المحن والشدائد إذا توالت على القلوب أفسدتها بغلبتها عليها، وبما تؤثر فيها من القسوة»(٥).



٣ وفي مثل تلك الحال قد يبيع الإنسانُ دينَه نظيرَ ثَمَنٍ حقيرٍ من أثمان الدنيا، سواءً كان مالًا أم منصبًا أم غير ذلك من متاع الدنيا الزائل.

---

(١) مسلم (١٨٤٤)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٢) مسلم (٢٩٤٨)، عن معقل بن يسار ﷺ.

(٣) الترمذي (٢٢٦٠)، عن أنس ﷺ.

(٤) «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٨/ ١٦٣).

(٥) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (١/ ٣٢٦).

التّباعي

١ سارع إلى العمل الصالح من عبادة وتعلم وتعليم وزواج وصلة رحم وغيرها، ولا تطل الأمل بتأجيله إلى غد وبعد غد، أو إذا كبرت، أو إذا حصّلت كذا وكذا، فقد تنزل الفتن التي تَصُدُّ الإنسانَ عن دينه وعبادته، فسارع قبل هجومِ الموانع.

٢ كثيرًا ما يمتنع الإنسان عن العمل طلبًا للكمال الموهوم، ومن ثم لا يقدم فيها شيئًا حقيقيًا، كمن يؤخر نشر كتاب حتى يكمل، أو يؤخر هديته لزوجه حتى تكون على أكمل صورة، أو يؤخر قراءة القرآن والتسبيح حتى يكون في أحسن حال، ولا يزال يؤخر حتى تداهمه الأشغال، أو يضعف نشاطه، أو غير ذلك، ولو قدم ما تيسر له لتجمع له من الخير شيء كثير.

٣ المبادرة مهارة، يكتسبها الإنسان بكثرة المبادرات نفسها، فتجدها شاقة عليه أول الأمر، ولا يحسنها، ثم مع الوقت تسهل عليه ويحسن تقديمها بما تيسر، فعوَّد نفسك على المبادرة بالعمل الصالح وعدم التردد: عن كلمة طيبة، أو صدقة يسيرة، أو نفع عارض غير مخطط له لقريبٍ أو بعيد.

٤ تَعَرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشدة؛ فإذا بادرت بالأعمال الصالحة في فراغك وصحتك ورشدك، عصمك الله تعالى من الفتن والابتلاءات.

٥ على المسلم أن يكثر من سؤال الله أن يُثَبِّته على دينه وألَّا يُعَرِّضَ قلبَه للفتن، وقد كان النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ من قول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[1].

٦ الإنسان في غَمرة الفتنة قد لا يدرك أنه يبيع دينه بعَرَض من الدنيا، فربما تساهل في معاملة مالية أو رضي بأن يزاد في ماله وهو لا يستحقه، وربما اغتاب آخرين أو سكت عن غيبتهم ليرضي رئيسه، فراقب نفسك وحاسبها، ولا تغمِض عينيك عن ما يضرَّ دينك.

قال الشاعر:

فَبادِرْ إِذَا ما دَامَ في العُمْرِ فُسْحَةٌ ... وَعَدْلُكَ مقْبُولٌ وصَرفُكَ قَيِّمُ
وَجُدَّ وَسَارِعْ واغْتَنِمْ زَمَنَ الصِّبَا ... ففي زَمَنِ الإمْكَانِ تَسْعَى وَتَغْنَمُ
وَسِرْ مُسْرِعًا فالموتُ خَلْفَكَ مُسْرِعًا ... وَهَيْهَاتَ مَا مِنْهُ مَفَرٌّ وَمَهْزَمُ

(١) أحمد (١٢١٠٧)، والترمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤).



عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «إِنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأَصْغَرُ»، قالوا: وما الشِّركُ الأَصْغَرُ يا رسولَ اللهِ؟

٢ قال: «الرِّياءُ؛

٣ يقولُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - لهم يومَ القِيامةِ إذا جُزِيَ الناسُ بأعمالِهم: اذْهَبوا إلى الذين كنتُم تُراؤون في الدُّنيا، فانظُروا هل تَجِدون عِندَهُم جزاءً؟!»[1].

(١) أحمدُ في «مسنده» (٢٣٦٣٠)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٦٤١٢).

آيات

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: ١٣].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].
- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].
- ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].
- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].
- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

الراوي

هو: أَبُو نُعَيْم، محمودُ بنُ لَبِيدِ بنِ عُقبةَ، الأَنْصَارِيُّ، الأَوْسِيُّ، الأَشْهَلِيُّ، المَدَنِيُّ، وُلِدَ بِالمَدِيْنَةِ فِي حَيَاةِ النبيِّ ﷺ، ولم يسمع منه كثيرًا لصغر سنه، فكان يروي عن: عُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَرَافِعِ بنِ خَدِيجٍ، وفي أبيه نزلت آية الرُّخصة فيمَن لا يستطيع الصَّوم. تُوفِّي بالمدينة سنةَ (٧٩هـ)[1].

خلاصة

يُحَذِّرُ النبيُّ ﷺ من الرِّيَاء وعدم الإخلاص لله تعالى، فيذكر أنَّ عاقبة الرياء أنَّ الله لا يتقبل من العبدِ العملَ ولا يجازيه عليه يوم القيامة لأنَّه أشرك فيه معه.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٥/ ٢٥٢٤)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ١٣٧٨)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٣٤١)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤٦٩).

١ بيَّن النبيُّ ﷺ وحذَّر من أمرٍ خطيرٍ يُحبط العمل، وسمَّاه النبيُّ ﷺ شركًا أصغر تفرقةً بينه وبين الشرك الأكبر المُخرِج من المِلَّة.

٢ فسألوه: عن الشرك الأصغر؟ لأن الشرك معلوم، وهو اتخاذ شريك مع الله تعالى فيما لا يجوز إلا لله تعالى، ولكن التفريق بين أكبر وأصغر يحتاج إلى تعريف أو مثال يتبين به الأمر.

٣ فأخبرهم ﷺ بمثال منه يشرحه، ومن أنَّ أخوف ما يخافه عليهم هو الرِّيَاء، **وهو أن يُظهر الإنسانُ العبادةَ ليعلمَ بها الناسُ فيحمدوه عليها ويُثنوا عليه خيرًا**.

وهذا مثال للشرك الأصغر، ومن أمثلة الشرك الأصغر أيضًا: الحلف بغير الله، وقول الرجل: ما شاء اللهُ وفلانٌ، والتشاؤم، والرُّقى المكروهة، ونحو ذلك مما لا يخالف أصلَ التوحيد مخالفةً تامَّة، ولكنه نوع من الشرك[١].

على أن هذه الأمور قد تجرِّه إلى الشرك الأكبر؛ فإن الإنسان إذا حلَف بغير الله معتقدًا تعظيمَه، وكذلك لو صدَّق الكُهَّان في زعمهم أنهم يعلمون الغيب، والرياء كذلك إنْ كان في كلِّ أعماله، أو كان في أصل الاعتقاد، وكذلك إن ظنَّ أن التمائم والرُّقى هي التي تمنع الضرَّ، وتكشف المرض، فهذا كُلُّه من الشرك الأكبر[٢].

٤ ثم ذكر ﷺ أنَّ الله تعالى يعاقبهم إذا كان يوم القيامة، وإذا جازى جميعَ الخلقِ، وهم انتظروا أن جزاء أعمالهم التي ظاهرها أنها عبادة، ولكنهم نوورا به غير الله.

٥ يقول لهم الله: اذهبوا إلى الذين كُنتم تعملون الطاعات أمامهم ليروكم ويسمعوا بكم، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً لفعلكم؟ وهذا على سبيل الاستهزاء والاستخفاف بهم، فالله يُحبط عملهم ويُبطله، قال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عَمِل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشِرْكَه»[٣].

وغاية ما يحصّله المرائي ثناءٌ قليل ثم يعقبه الخزي، قال ﷺ: «مَن سَمَّع سَمَّع اللهُ به، ومَن رَاءَى رَاءَى اللهُ

---

(١) انظر: «التوحيد» لابن رجب (ص: ٢٣)، «شرح كشف الشبهات ويليه شرح الأصول الستة» لابن عثيمين (ص: ١١٥).

(٢) انظر: «فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام» لابن عثيمين (٦/ ٣٥٧).

(٣) مسلم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة ﷺ.

به»[1]، أي: مَن أراد بعمله الناسَ، أسمعه اللهُ الناسَ، وأراهم عمله وكان ذلك حظَّه منه العاجل، وربما فضحه الله وأسمع فيه السوء وأرى الناس فيه ما يكره[2]. وأخبر ﷺ أنَّ أوَّلَ مَن تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة: مُنفقٌ وقارئٌ ومجاهد، وأنَّهم إنما فعلوا ما فعلوا مراءاةً وتشهيرًا، فلهذا حبط عملهم ولم يلقَ جزاءً[3].



(١) مسلم (٢٩٨٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ١١٦)، وقارن: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٤٥).

(٣) مسلم (١٩٠٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١ اقتد بهدي نبيك ﷺ في تعليم الناس، فقد استخدم النبيُّ ﷺ أسلوب التخويف وإظهار النصح في استهلال كلامه، وذلك بقوله: «أخوف ما أخاف عليكم»، وهذا الأسلوب يُثير انتباه السامع ويجذب عقله وسَمعَه. وجديرٌ بالناصح أن يتبع تلك الوسائل التشويقية التي تبعث على الانتباه.

٢ الشرك الخَفِيُّ قد يفسد القلب وصاحبه لا يشعر لأنه غفل عنه، فقد يدخل الإنسان في الصلاة أو الذكر أو قراءة القرآن أو يريد الصدقة ونحو ذلك، فيرى أُناسًا فيرغب أن يروا عبادته ويسمعوا صوته، فإن جاهد نفسه وطرد عن قلبه ذلك ما استطاع لم يؤثر في عمله، أما إن استمرَّ فيها وتحوَّلت نيته من الإخلاص إلى الرياء أبطل ذلك العملَ، فراقب نفسك، وعوِّدها الإخلاص لتعتاد.

٣ كان طلحةُ بن مُصرِّف -رحمه الله- قارئَ الكوفة، فلما رأى كثرة الناس عليه، خاف من الرياء، فمشى إلى الأعمش وقرأ عليه، فمال الناس إلى الأعمش وتركوا طلحةَ[1]، ولعل قصده أن يريهم فضله ولئلا يقتصروا عليه فيغترّ، ولأن قصده نفع الناس حيث كان.

٤ قد يجهر العبدُ بالطاعات ليس من باب الرياء، وإنما يُحِبُّ أن يُظهر شعائر الله أو يُحيي سُنَّةً ماتت بين الناس أو يفعل ذلك ليقتدي به الناس ويتأثروا به. هذا كله ليس من الرِّيَاء، الرِّيَاءُ أن يكون هَمُّ الإنسانِ في عبادته أن يراه النَّاس وينظروا إخلاصَه وخشوعَه وعبادَته فيرضى بذلك غرورُه.

٥ مما يدفع به الرياء تذكر مقام الله تعالى، وصدق التوكل عليه، والتعوذ من الرياء، وكان النبيُّ ﷺ يُحَذِّر أصحابَه منه، ويأمرهم أن يتعوَّذوا بالله منه. فعن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ قال: خطَبَنا رسول الله ﷺ ذاتَ يومٍ فقال: «أيُّها الناس، اتَّقوا هذا الشِّرك؛ فإنَّه أخفى من دَبيب النَّمل»، فقال له مَن شاء الله أنْ يقول: وكيف نتَّقِيه وهو أخفَى مِن دَبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من أنْ نُشرِك بك شيئًا نَعلَمُه، ونستَغفِرك لما لا نعلمه»[2].

٦ ليس من الرياء أن يتشجع الإنسان بحضرة الصالحين أو يستحيي، فيترك بعض المعاصي، أو يتقوى على بعض الطاعات من غير أن ينوي فيها مدحهم، وتلك من فوائد صحبة الصالحين.

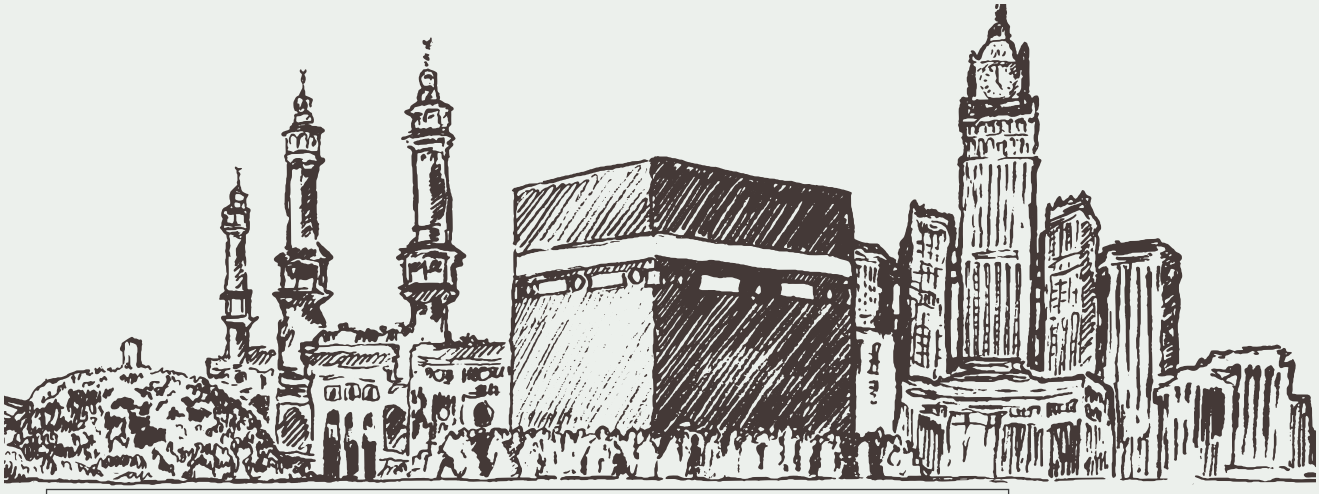
---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص: ٢٩٢).

(٢) أحمد (١٩١٠٩).

٧ قد يفعل العبدُ طاعةً من الطاعات مخلصًا فيها لله تعالى، ثم يراه الناسُ ويمدحونه ويثنون عليه خيرًا، فيفرح بذلك. وهذا لا يقدح في عمله ولا يكون من الرِّياء طالما أنَّه أخلص العملَ لله تعالى، فعن أبي ذر ﷺ قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[1].

٨ لو أبصر المرائي حاله، لرأى أن عامة ما يرائيهم لا يقدِّرون ما يعمل، أو ينسونه بعد أن يعمل، أو ربما انتبهوا لمراءاته فنقص من قدره حيث أراد الزيادة، أو عاقبه الله تعالى بفضائح أخرى، فأفضل النجاة أن يقصد الله تعالى.



قال الشاعر:

لَقَدْ خَسِرَ السَّاعِي إِلَى غَيْرِ رَبِّهِ ... نِفَاقًا وهَلْ بَعْدَ الرِيَاءِ نِفَاقُ؟!
سَتَلْقَى الَّذِي قَدَّمْتَهُ وَذَخَرْتَهُ ... وِفَاقًا ألا إنَّ الجَزَاءَ وِفَاقُ

وقال غيره:

أيا نفسُ لا تَنْسَيْ عَنِ اللهِ فَضْلَهُ ... فَتَأْبِيدُهُ مُلْكِي، وَخِذْلانُهُ هُلكي
وَلَيسَ دَبيبُ الذَّرِّ فوْقَ الصَّفاة في الظْـ ... ـظَلامِ بأخفى من رياءٍ ولا شركِ

(١) مسلم (٢٦٤٢).



عن عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ، قال:

١ «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:

٢ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ،

٣ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،

٤ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،

٥ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[1].

(١) البخاريُّ (٣٤)، ومسلم (٥٨).

آيات

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].
- ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

الراوي

هو: أبو محمَّدٍ، وقيل: أبو عبد الرحمن، عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ العاصِ بنِ وائلٍ القرشيُّ، السهميُّ، كان يَكتُب في الجاهلية، ويُحسن السريانية، وأسلَم قبلَ أبيه، وَكَانَ فاضلاً حافظاً عالماً، يصوم النهار، ويقوم الليل، واستأذن النبي ﷺ في أن يكتب عنه الحديث فأذن له، فكان من المكثرين في رواية الحديث عن النبي ﷺ، تُوفِّي سنةَ (٦٥هـ)[1].

خلاصة

يُعَدِّدُ النبيُّ ﷺ أربع خصال من خصال المنافقين التي لا يجوز لمسلمٍ أن يتصف بها، فمن اتصف بها جميعًا كان منافقًا تمامًا، ومن كانت فيه واحدةٌ منها كانت فيه صفةٌ من صفات النفاق، وهي: الخيانة والكذب والغدر والفجور في الخصومة.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٧٢٠)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٥٦)، و«أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٤٥).

النفاقُ من أخطر الأمراض التي تُصيب الأفرادَ والجماعاتِ، ومن ثمَّ حذَّر منه الإسلامُ أشدَّ تحذير، وبيَّن صفاتِ المنافقين كي يَحذَرَهم المؤمنُ، ويحافظ على نفْسه من أن يتلبَّس بشيء من أخلاقهم.

١ وهناك ذكر النبيُّ ﷺ لأصحابه **أربع صفات** التي لا ينبغي أن تكون في مسلمٍ، بل هي من صفات المنافقين، فإذا اجتمعن في رجلٍ فهو مكتملُ النفاق.

والنِّفاقُ: إظهارُ الإنسانِ خلافَ ما يبطن، وهو قسمان: نفاقٌ اعتقاديٌّ، بأن يظهر الإسلامَ ويضمر الكفر، وهو مُخرجٌ من الإسلام، وهؤلاء قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، والقسمُ الآخَر: نفاق عمليٌّ، كالكذب وإخلاف الوعد المذكور في هذا الحديث، فهذا لا يخرج من الإسلام، لكن فيه صفة من صفات النفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين، ومتوعد بالعذاب(١).

٢ وقد لا تجتمع تلك الصفات الأربع في إنسان، ولكن فيه صفة منها، ففيه قدر من النفاق بقدر ما فيه من تلك الصفات.

٣ الصفة الأولى: أنَّه يخون الأمانات، والخيانة: التصرُّفُ في الأمانة بغير وجه شرعيٍّ؛ كبَيعها، أو جَحدها، أو انتقاصها، أو التهاون في حفظها. والأمانة تشمل كلَّ ما اؤتُمِن عليه الإنسان من مال، أو عِرض، أو حقٍّ؛ وقد تعم الشرائعَ التي جعلها اللهُ أماناتٍ عندنا نعمل بها ونُعلِّمها للناس؛ ولذلك سمَّى اللهُ تعالى مخالفةَ كتابه وسُنَّة رسوله خيانةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧](٢).

٤ الصفة الثانية: الكَذِب، وقد أمر اللهُ تعالى بالصِّدْق وأرشد إليه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. وحذَّر ﷺ من عاقبة الكذب فقال: «وإن الكذبَ يَهدي إلى الفجور، وإن الفجورَ يَهدي إلى النار، وإن الرجُلَ لَيكذبُ حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا»(٣)، ورأى النبيُّ ﷺ في نومه رجلاً يُشَقُّ شِدقه –

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (٢/ ٤٧).

(٢) «الأدب النبويُّ» لمحمد عبد العزيز الخولي (ص: ١٨).

(٣) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود ﷺ.

جانب فَمِهِ - إلى قَفاه، ومِنخَراه إلى قَفاه، وعيناه إلى قفاه، فسأل عنه فقيل: الرجلُ يكذب الكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق[1].

٥ الصفة الثالثة: الغدر بالعهود، فإذا وضع عهدًا وعقدًا مع غيره خدعه بمخالفته. وقد حرَّم اللهُ تعالى الغدرَ ونهى عنه في غير موضعٍ في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

٦ الصفة الرابعة: أن يميل الإنسانُ في خصومته عن الحقِّ، ويحتال في ردِّه، ويحاول أن يأخذَ ما ليس له، خاصَّةً إذا كان له قدرةٌ على البيان والمحاجة.

وقد أمر الله تعالى عباده بالعدل في كل الأمور، ونهاهم أن تحملهم العداوة والخصومة على ظلم الطرف الآخر، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وأخبر ﷺ عن عاقبة من أخذ حقَّ غيره بالباطل فقال: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[2].

وهذه الأربع تجمع أصول النفاق، وهناك صفات قد تندرج فيها كإخلاف الوعد[3]. فعلامات النفاق وصفاته كثيرة، يجمع أصلها تلك الصفات، فعلى المسلم أن يحرص على ألَّا يعلَق به من تلك الصفات شيءٌ.

---

(١) البخاري (٦٠٩٦)، عن سمرة بن جندب ﷺ.

(٢) البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣)، عن أم سلمة ﷺ.

(٣) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

١ من حُسنِ تَعلِيمِ النبيِّ ﷺ لأصحابه تقريبُ المرادِ باستخدام شَتَّى الوسائلِ التَّعليميَّة؛ ومن ذلك استخدامُ العددِ، فإذا سمع المسلمُ أنَّ الصفات التي ستُذكر أربعًا كان متشوقًا لسماعها وحفظها. فينبغي على العلماء والدعاة استخدام مثل تلك الأساليب في الحديث مع النَّاس وتعليمهم.

٢ النفاق شر الصفات، وكل جزء منه فهو شر، والعاقل الصادق يحترز منها، ولا يبرئ نفسه، قال ابن أبي مليكة -أحد التابعين-: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[1].

٣ لتكن صاحب مسؤولية، منتبهًا لما يوكل إليك من الأمانات، سواء من والديك، أو رؤساء العمل، أو من الأصدقاء، فإن احتجت أن تكتبها حتى لا تنساها أو تضيع فاكتبها، وكان بعض الصالحين يقيّد كل أمانة لديه، حتى ولو كان قلمًا، أو مبلغًا زهيدًا لطفل.

٤ أداء الأمانة من صفات الكرام، وكان المشركون في مكَّة قبل الإسلام يُلَقِّبون النبيَّ ﷺ بالأمين، لأنها تحتاج لصبر، ودقة، وحرص، فكن كذلك.

٥ عوِّد نفسك على الصدق، ولو في صغير الأمور، فالصدق عادة، ولا تبرر لنفسك الكذب بأنه مزاح، أو مؤانسة، أو مصلحة، والأمر لا يتطلب ذلك، ولا يزال الرجل يكذب حتى ينطبع على الكذب، فلا يتحرز منه، وحتى يعرف به، وتذكر أن الكذب شر المساوئ، وقد أراد أبو سفيان ﷺ أن يكذب في حديثه مع هرقل عن النبيِّ ﷺ إلَّا أنَّه أبى ذلك، وقد كان حينئذٍ كافرًا.

٦ أمر ﷺ بالوفاء بالعهود حتى مع المشركين أثناء حربهم؛ فقد أقبل حذيفةُ بن اليمان وأبوه على النبيِّ ﷺ أثناء غزوة بدرٍ، فذكرا أن المشركين أخذوهما وقالوا: تريدان محمدًا لتقاتلا معه، فقالا: لا، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا عليهما المواثيق والعهود أن يقصدا المدينة ولا يقاتلا مع النبيِّ ﷺ، فقال لهما النبيُّ ﷺ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ»[2]، فلم يأمرهما بالقتال معه على عدو كافر، وفاء بالعهد.

---

(١) البخاري معلقًا، كتاب الإيمان، باب: خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٢) مسلم (١٧٨٧).

٧ على الغادر ألا يفرح بانتصارٍ أو مكسب موهوم يناله بغدره، فعاقبته فضيحة كبرى، قال ﷺ: «لكلِّ غادر لواءٌ يُنصَب بغَدْرته يوم القيامة»[١]، فالخائنُ وإن عرف كَيفَ يرتِّب ويدبِّر أمورَه بحيث لا يُفتَضَحُ أمامَ نفر قليل من الناس، فأين يذهب يوم القيامة في لواء منصوب على غدرته أمام الخلق أجمعين؟!

٨ لا تؤول لنفسك تضييع الأمانة، أو الكذب، أو الغدر، أو الفجور في الخصومة؛ لأن غيرك فعل ذلك، حتى ولو فعلته لمن فعل ذلك بك، فالمسلم يأتمر بأمر الله لا بهواه، قال ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[٢].



قال الشاعر:

واتْـرُكْ خَلائِـقَ قَـوْمٍ لا خَـلاقَ لَهُـمْ ... واعْمَدْ لأَخْلاقِ أهلِ الفَضْلِ والأَدَبِ
وإنْ دُعِيـتَ لغـدرٍ أو أُمِـرْتَ بـه ... فاهـرُبْ بنفسِـكَ عنـه آبِـدَ الهَـرَبِ

وقال غيره:

والصِّـدقُ يألَفُـهُ الكريـمُ المرتجـى ... والكِـذْبُ يألَفُـهُ الـدَّنِيءُ الأَخْيَـبُ
وَدَعِ الكَذُوبَ فلا يكُنْ لـك صاحبًا ... إِنَّ الكـذوبَ لَبِئْـسَ خِـلًّا يُصْحَـبُ

(١) البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥).
(٢) أبوداود (٣٥٣٤).



عن عائشةَ ﵂ قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«مَن أحدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس فيه، فهو رَدٌّ»[1].

(١) البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

آيات

- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].
- ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].
- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

الراوي

هي أمُّ المؤمنين، عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ عبدِ الله بنِ أبي قحافةَ عثمانَ بنِ عامرٍ القرشيةُ، التَّميميةُ، الصدِّيقة بنت الصدِّيق، حبيبةُ رَسولِ الله ﷺ، الطاهرة المطهَّرة، المبرَّأة من السماء، أَفقهُ نساء الأمَّة على الإطلاق، وُلِدت في الإسلام، ولم يَتزوَّج النبي ﷺ بِكرًا غيرها، ولا أحبَّ امرأة حُبَّها، وليس في أمَّة محمد ﷺ بل ولا في النساء مطلَقًا امرأةٌ أعلم منها، تُوفِّيت عَلَى الصحيح سَنَة (٥٧هـ) بالمدينة وهي يومئذ بنت ستٍّ وستين سنة[1].

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ أنَّ الاتباعَ شرطٌ في قبول العبادة، فمَن ابتدع أمرًا في دين الله تعالى فهو مردودٌ على صاحبه، ولا أجرَ له، بل هو آثِمٌ مُبتدِعٌ.

(١) يراجع ترجمتها في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٧/ ١٨٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٨/ ٢٣٤).

هذا الحديث من أهمِّ أحاديث الشرع التي ينبني عليها كثيرٌ من الأحكام والقواعد الكُلِّية، ولذلك قال الإمام أحمد -رحمه الله-: «إنّ أصول الإسلام ثلاثة أحاديثَ: حديث: «الأعمال بالنِّيَّات»، وحديث: «مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو ردٌّ»، وحديث: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ»[1].

وفي هذا الحديث يَذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الاتباع شرطٌ في قبول الأعمال؛ فمن **ابتدع شيئًا وأتى بأمرٍ حادثٍ** لا أصل له في دين اللهِ تعالى وسنَّةِ رسولِ الله ﷺ؛ فهو **مردودٌ على صاحبه ولا أجْرَ له ولا ثواب**، بل هو مَوْزورٌ لمخالفةِ هَدْيِ النبيِّ ﷺ.

والابتداعُ: الإتيانُ بأمرٍ مُحْدَثٍ بغير دليلٍ شرعيٍّ، سواءً كان ذلك في الاعتقاد - كنفي القَدَرِ واعتقاد النفع في الأموات - أو في العَمل وهو التعبُّد بما لم يتعبَّد به ﷺ، كالاحتفال بالمولد وابتداع الأذكار والأوراد التي لا أصل لها في الكتاب والسُّنَّة، وتخصيص بعض الليالي بالأعمال؛ كقيام ليلة النصف من شعبان، ونحو ذلك من الأمور التي سببُها الجهلُ بالشرعِ واتباعُ الهوى وتقليدُ غير المسلمين وتقديمُ العقلِ على الشرع.

وقد حذَّر اللهُ تعالى من اتباع الهوى والابتداع في الدين؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٧]؛ قال قتادة رحمه الله: «الذين تفرقوا واختلفوا: أهلُ البدع»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تبيَضُّ وجوهُ أهلِ السُّنَّة، وتَسْوَدُّ وجوهُ أهل البدعة»[2].

وعاب على المشركين تحليلهم وتحريمهم بغير أمرٍ منه فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وكان رسول الله ﷺ يقول في مقدِّمات خُطَبه: «وخيرُ الهدي هديُ محمدٍ، وشرُّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ»[3]، وأوصى أصحابَه فقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[4].

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٧١، ٧٢).

(٢) الاعتصام (١/ ٧٥).

(٣) مسلم (٨٦٧).

(٤) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).

وإنَّما حذَّر النبيُّ ﷺ من الابتداع في الدِّين لأنَّ هلاك الأُمَمِ السابقة كان بسببه؛ فاليهود والنصارى بدَّلوا الشرع وزعموا أنَّ عُزَيرًا والمسيحَ أبناءُ الله، وقالوا: نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه، وحَرَّفوا التوراةَ والإنجيل وأهملوا الحدودَ، وتحايَلوا على الشرع بعقولهم.

وهذا الحديثُ يَرُدُّ على مَن زعم أنَّ بعض البدعِ حَسنةٌ؛ فإنَّه ﷺ قضى بأنَّ كلَّ عملٍ مُحْدَثٍ مردودٌ، وهذا يشملُ جميع البدع والأفعال المستحدَثة. وأما قول عمر ﷺ: «نِعمَ البدعةُ هذه» حين جمع النَّاسِ في قيامِ رمضان خلف إمامٍ واحدٍ، وهو أُبَيُّ بنُ كعبٍ ﷺ[1]؛ فإنَّما أراد أنَّها بِدعةٌ بالمعنى اللُّغوي، وهو كلُّ أمرٍ مُحْدَثٍ، سواءً كان له أصلٌ في الدِّين أم لا؛ إذ فعلُه ﷺ ليس من البِدع؛ فقدْ صلَّى النبيُّ ﷺ بالنَّاس أيامًا، ثم ترك ذلك خشيةَ أن تُفرَض على المسلمين، فلمَّا مات النبيُّ ﷺ وانقطع الوحي ذهب ما كان يخشاه ﷺ، وكان فعلُ عمرَ ﷺ اتباعًا لسُنَّتِه ﷺ[2].

وتخصيصُ النبيِّ ﷺ الإحداثَ بقوله: «في أمرِنا هذا» يريدُ به الدِّينَ، يدلُّ على أنَّ الابتكار والابتداع في أمور الدُّنيا ليس مذمومًا ولا مَنهيًّا عنه؛ فاختراعُ الآلاتِ وتطويرها عمَّا كانت عليه أمرٌ محمودٌ يُسَهِّلُ على النَّاس قضاءَ مصالحهم.



(١) البخاريُّ (٢٠١٠).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ١٢٨).

١ هذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أنّ حديث: «الأعمال بالنّيّات» ميزان للأعمال في باطنها، فكما أنّ كلَّ عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردود على عامله، وكلُّ من أحدث في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدّين في شيء[١]. فعلى المسلم أن يُحَكِّم هذين الحديثين في كلِّ أفعاله؛ ينظر في ظاهرها هل يوافق الشَّرعَ؟ وفي باطنها: هل أراد بذلك وجهَ الله أم لا؟

٢ في الحديث إشارةٌ إلى أنَّ أعمال العاملين كلِّهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكامُ الشّريعة حاكمةً عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشّرع موافقًا لها، فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك، فهو مردود[٢].

٣ على المسلم ألَّا يقيس الشَّرع بعقله، ولا يُحِلُّ حرامًا أو يُحَرِّمُ حلالًا وُفق هواه؛ فالشرعُ كتابُ اللهِ تعالى وسُنَّةُ النبيِّ ﷺ.

٤ إحياءُ السُّنَّة طاعةٌ عظيمةٌ يَستحقُّ بها المسلمُ أن يُضاف في حسناته أجرُ جميع من اقتدى به في الطَّاعة، كما أنَّ الابتداعَ في الدِّين ودعوةَ النَّاس إلى البِدَع كبيرةٌ عظيمةٌ ووِزْرٌ مُضاعَفٌ يَحمِل صاحبُه جميع أوزارِ من اتَّبعه فيه؛ فعَنْ أبِي هُريرةَ ﷺ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إلى هُدًى، كان لهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أجورِ مَنْ تَبِعهُ، لا يَنقُصُ ذلك مِنْ أُجُورِهم شيئًا، ومَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ، كان عليه مِنَ الإثمِ مثلُ آثامِ مَنْ تَبِعهُ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ آثامِهم شَيئًا»[٣].

٥ قال الفُضيل -رحمه الله-: في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، أحسنُ العملِ أَخْلَصُه وأَصوَبه. وقال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صَوَابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل، حتَّى يكون خالصًا وصوابًا. قال: والخالِص إذا كان لله عزَّ وجلَّ، والصَّواب إذا كان على السُّنَّة[٤].

٦ ليْس في الدِّين مسألةٌ إلا ولها أصلٌ في الكتاب والسُّنَّة تُقاسُ عليه ويُستنبط حكمُها منه، فيجب سؤالُ أهل العلم

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٧٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٧٧).

(٣) مسلم (٢٦٧٤).

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٧١، ٧٢).

دون الابتداع في الدِّين، قال عبدُ اللّه بنُ مسعود ﷺ: «اتَّبِعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كُفِيتُم؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»[1].

٧ كان السَّلَفُ أحرصَ النَّاس على اتباع سُنَّة النبيِّ ﷺ وأصحابِه؛ قال إبراهيم النَّخَعيُّ -رحمه الله-: «لو بلغني عنهم - يعني الصّحابة - أنّهم لم يُجاوِزوا بالوضوء ظُفْرًا ما جاوزتُه به، وكفى على قومٍ وزرًا أن تُخالِف أعمالهم أعمال أصحاب نبيِّهم ﷺ»[2].

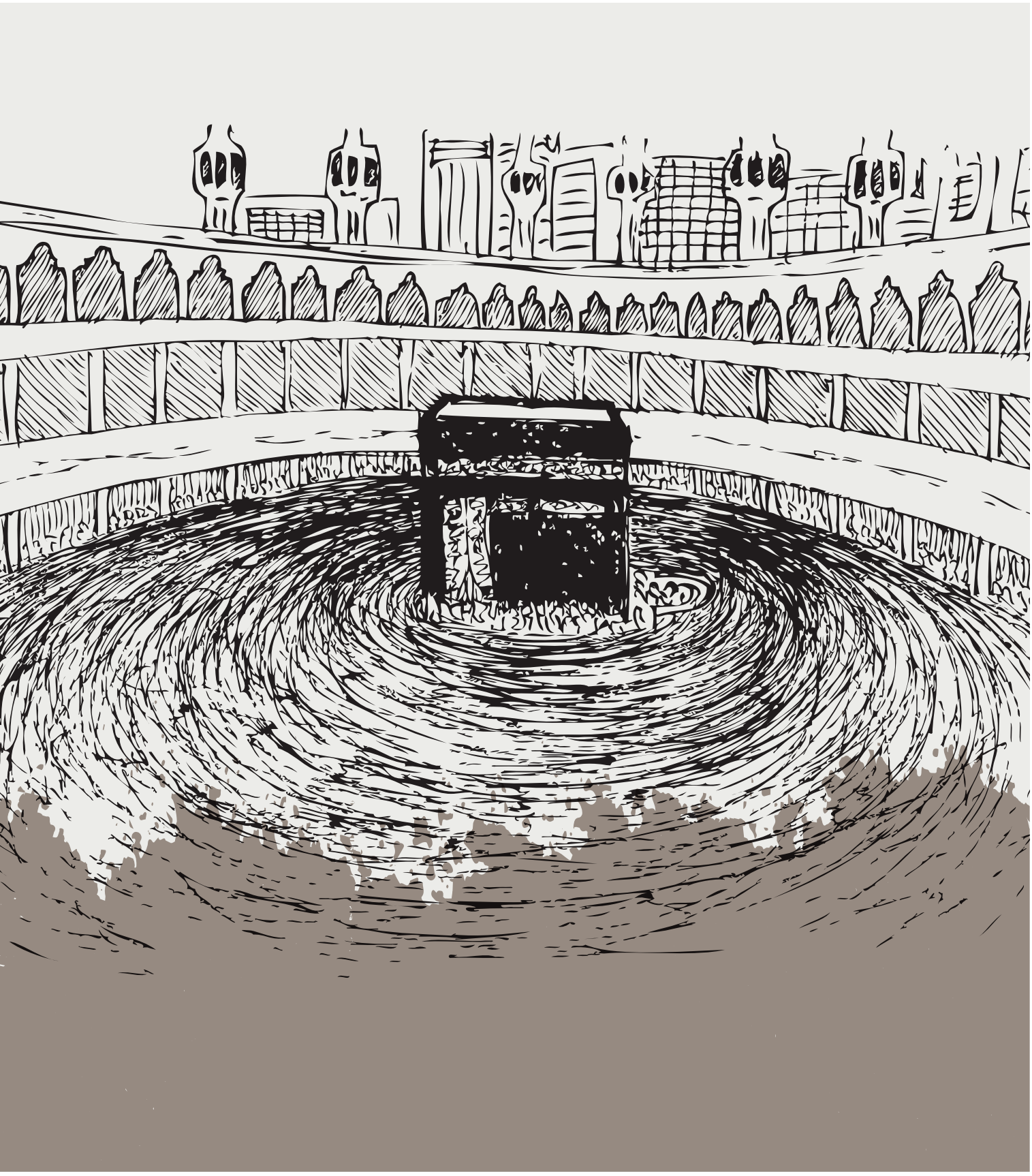
٨ قال عمرُ بنُ عبد العزيز -رحمه الله-: «قِفْ حيث وقف القوم، وقُل كما قالوا، واسكت كما سَكتوا؛ فإنّهم عن عِلْم وَقَفوا، وببصر ناقدٍ كفُّوا، وهُم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى»[3].

٩ لا سبيل للنجاة من الفتن إلا بالتمسُّك بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ؛ فكتابُ الله مَن اعتصَم به كفاه وهداه ووقاه، وسُنَّةُ نبيِّه ﷺ نورٌ على الطريق يومَ تعصِفُ ظلماتُ الفِتَن بالأمَّة. وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «وسترَوْنَ من بعدي اختلافًا شديدًا، فعليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذ، وإيَّاكم والأمورَ المُحدَثاتِ؛ فإن كلَّ بِدعة ضلالة»[4].

قال الشاعر:

تَحْيَا الخلائِقُ وَالْغَوِيُّ يَشُدُّها ... نحوَ الضَّلالِ لَحَمْأَةٍ وفَسَادِ
يَسْعى بهم أهلُ الدَّهَاءِ بمَكْرِهم ... ليُجَنِّبوهم منهجَ الإرشاد
لا يَفتُرون عن الوسائل للهوى ... مهما رَأَوْا مِن شِدَّةٍ وعِنادِ
حَمَلوا النُّفُوسَ على الغَوايَة والأذى ... وتَعَمَّقُوا في الزَّيْغِ والإفساد

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٤/ ١١٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ،

٢ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ،

٣ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا،

٤ وَأَبْشِرُوا،

٥ وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»[1].

(١) البخاري (٣٩).

آيات

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

يخبِر النبيُّ ﷺ أنَّ دين الإسلام سَهل المأخذ، نظرًا لسهولة أحكامه ويُسر تكاليفه، وأن من شادَّ الدين وتعمَّق وتنطَّع فيه فإن الدين يغلبه فيعجز وينقطع، فليَحرِص المسلمُ على السَّداد والمقاربة. وبشَّرنا على ذلك بالثواب الجزيل.

ثم أخبر عن أفضل أوقات الطاعات والعبادات، وهي أول النهار وآخره وآخر الليل.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يَذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الدينَ الإسلاميَّ الحنيفَ يمتاز بسهولة أحكامه ويُسر تكاليفه، فلا تخرج عن الطاقة البشرية، ولا تَحوي التكاليف الشاقَّة التي كانت في الشرائع السابقة؛ فقد كان الرجل من بني إسرائيلَ إذا أَذنَب ذنبًا، لا تُقبَل توبتُه إلا بقتله، وإذا أصابتْ ثوبَه النجاسةُ، لا يَطهُر إلا بقطع ما أصابته النجاسة، ولهذا قال سبحانه في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن يُسر دين الإسلام أيضًا أنَّه جعل التكاليف مشروطةً بالاستطاعة، قال ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[(١)]؛ فالزكاةُ لا تجب على الفقير المحتاج، بل على الغنيِّ الذي يمتلك النِّصابَ المعروف، والحجُّ لا يجب إلا بشرط الاستطاعة في المال والصِّحَّةِ والطريق، وكذلك الصلاة؛ حيث يُصَلِّي العاجزُ عن القيامِ قاعدًا أو مضطجعًا أو كيْفما شاء، ويُفطِر المسافرُ والمريضُ مرضًا يُرجى بُرْؤه ثم يقضي ما أفطره، والمريضُ الذي لا يمكنه الصومُ بحالٍ يُفطِر ويُطعِم عن كل يومٍ مسكينًا، وهكذا في كل التكاليف الشرعية.

ومِن يُسرِ الإسلامِ أنَّه وضع الرُّخَصَ لأصحاب الأعذار، كتشريع صلاةِ الخوف لمن هم في حالة القتال، وقصرِ الصلاةِ والجمع بين الصلاتين للمسافر، والمسحِ على الخُفِّ للمقيم يومًا وليلةً وللمسافر ثلاثةَ أيام بلياليها، ونحو ذلك[(٤)].

٢ ولن **يتشدَّدَ أحدٌ في أحكام الدين ويَدَعَ الرِّفقَ فيه فيَتعنَّت ويُلزِم نفسه فوقَ ما يستطيع**؛ إلا عجَز وانقطع، فمهْما تمالَك نفسه وساعدته قُوَّته في الصَّبر على ما ألْزَم به نفسه إلا أنه سيَمَلُّ ويعود إلى اليُسر مُرهَقًا، فخيرُ الهَدي هديُ النبيِّ ﷺ، ولذلك لمَّا قال عبدُ الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «لَأقومنَّ الليلَ وأصومَنَّ النهارَ ما عِشت» بلغ ذلك النبيَّ ﷺ فنهاه عنه وأمره أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وأن يقوم وينام، فأبى عبد الله ﷺ اعتمادًا على قوته وأنه يطيق أكثر من ذلك، فقال ﷺ: «صُم يومًا وأفطر يومَين»، فقال: إني أطيق أكثر من ذلك، فقال ﷺ: «صُم يومًا وأفطِر يومًا». يقول عبد الله بن عمرو ﷺ بعدما كَبِر وعجز عن المحافظة على صومه ﷺ: «لَأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الْأَيَّامَ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي»[(٢)]، لأنه كره أن يغيِّر شيئًا فارق عليه النبي ﷺ.

٣ ولهذا لا بد من السِّداد في العمل، **وهو التوسُّطُ بين الإفراط والتفريط**، والمقاربةُ في الأعمال، **وهي أننا إنْ لم نَستطِعِ الأخذَ بالأكمل فعلينا أن نسعى إلى أخذ الأقرب**[(٣)].

---

(١) مسلم (١٣٣٧).

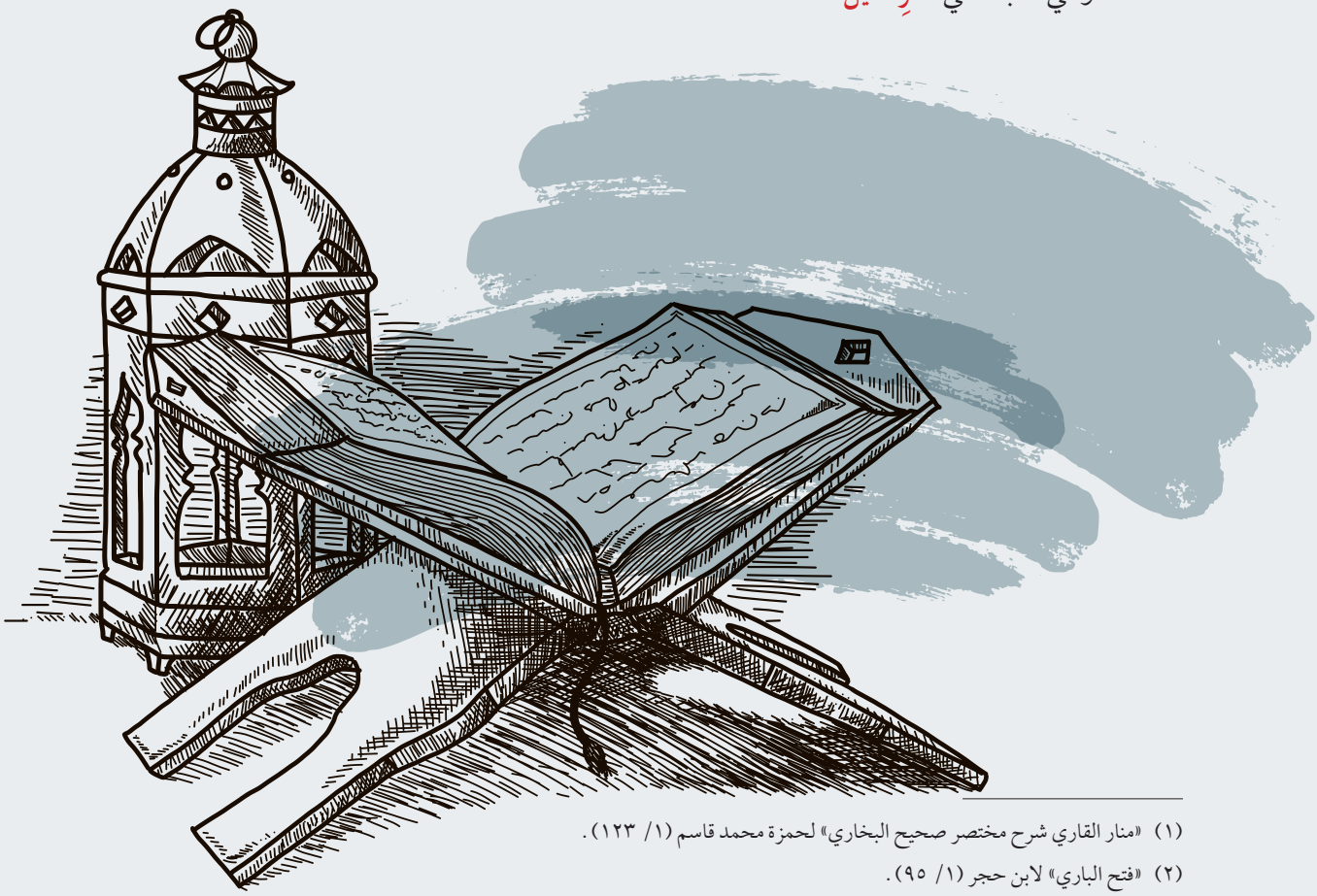
(٢) البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٩٥).

وهذا أمر من النبيِّ ﷺ بالاقتصاد والتوسُّط في العبادة دون إفراط ولا تفريط، فإذا لم يستطعِ الإنسانُ الإتيان بالأفضل من النوافل والطاعات، فلْيَأتِ بما يُقارِب الأفضل؛ لأن ما لا يُدرَكُ كلُّه لا يُترَك جُلُّه[1].

٤ ثم ساق النبيُّ ﷺ البُشرى تطييبًا لأُمَّته؛ فإنَّهم وإنْ قصَّروا في الأعمال وعجَزوا عن الإتيان بالعبادة على الوجه الأمثل، إلَّا أنَّ اللهَ سبحانه أعدَّ لهم الجزاءَ العظيم، دون أن يَنقص من أُجورهم شيءٌ.

٥ ولمَّا عَلم النبيُّ ﷺ أنَّ النَّاس لا يَقدرون على المداومة على العبادة أبدًا، أرشدهم إلى اغتنام أوقات نَشاطهم في عبادة الله والحرص على طاعاته، و**هي أوَّل النَّهار، وآخره**، كما حثَّهم على العبادة في أحبِّ الأوقات وأفضلها، وهي العبادة في **آخرِ الليل**[2].



(١) «منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري» لحمزة محمد قاسم (١/ ١٢٣).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٩٥).

(٣) «منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري» لحمزة محمد قاسم (١/ ١٢١، ١٢٢).

التّنبيه

١ استخدم النبيُّ ﷺ حرف «إنَّ» الناسخة، لإفادة التوكيد والمصداقية على كلامه. وهذا من أساليب البلاغيين والخطباء التي ينبغي على الدُّعاة استعمالها.

٢ إذا تفكَّر الإنسانُ في التكاليف الشرعية ورأى ما فيها من سهولة ويُسر، وما فيها من الرُّخص والتسهيل للمرضى والعاجزين؛ عَرَف مدى رحمة الله ولُطفه بعباده، فازداد حبًّا له وحِرصًا على مرضاته بأداء الطاعات.

٣ أفاد الحديثُ أنَّ ترك الرُّخَص في موضع الضرورة تنطُّعٌ وخسرانٌ، فمتى احتاج العبدُ إلى رُخْصَةٍ من الرُّخَص، فالحزمُ والسُّنَّةُ أن يأخذ بالرُّخصة ولا يُشدِّد على نفسه، فمتى صَعُب على مسافرٍ الصومُ فليُفطِر، ومتى أتعبَ المريضَ القيامُ للصلاة جلَس، وإن أحوج الفقرُ والجوعُ العبدَ إلى أكلِ الميتةِ ونحوها أحْيا نفسه بذلك ولا يُلقي بيده إلى التهلكة[١].

٤ لا يجوز للإنسان أن يتشدد في دين الله ويُوجب على نفسه ما لم يفرضه الله عليه، فالتشدد في الطاعات تنطعٌ.

٥ ليس معنى الحديث أنَّ المجتهد في الطاعات مسيءٌ، وإنما الإساءة في تكليف النفس ما لا تطيق.

٦ التمسُّك بسُنَّةِ النبيِّ ﷺ خيرٌ من الزيادة عليها، فالصومُ والفطرُ والقيامُ والنومُ خيرٌ من صيام الدهر وقيامه، ولهذا قال ﷺ للنفر الذين تقالُّوا عبادة النبيِّ ﷺ وأرادوا الزيادةَ عليها: «أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٢].

٧ في الحديث دليلٌ على أنّ المشروع هو الاقتصاد في الطّاعات؛ لأنّ إتعاب النّفس فيها والتّشديد عليها يُفضي إلى ترك الجميع، والدِّينُ يُسر، ولن يشادَّ الدّين أحد إلّا غلبه، والشّريعة المطهَّرة مبنيَّة على التّيسير وعدم التّنفير[٣].

٨ الأَولى للعامل أن لا يُجهِد نفسه بحيث يَعجِز وينقطِع عن الطاعة؛ بل يعمل بتلطُّف حتى يدوم عمله ولا ينقطع، وفي الحديث: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»[٤].

---

(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٩٤، ٩٥).

(٢) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، عن أنسٍ ﷺ.

(٣) «نيل الأوطار» للشوكانيِّ (٦/ ١٢٣).

(٤) البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٣)، عن أم المؤمنين عائشة ﷺ.

٩ المطلوب من العبد أن يبذل جهده في طاعة اللهِ تعالى والحرص على نَيل الكَمال ما استطاع، فيُجاهِد في تحقيق الخشوع الكامل في الصلاة، وفي إتقان العمل تمامًا، وفي فَهم دروسه ومذاكرتها كُلِّها، وفي الابتعاد عن جميع المعاصي وإتيان جميع المأمورات. فإن أدرك بعدَ مجاهدة نفسه جُلَّ ذلك فهو مشكورٌ مأجورٌ.

١٠ السُّنَّةُ وسطٌ بين نقيضين؛ الإفراط والتفريط. فلا يُفْرِط الإنسانُ ويُشدِّد على نفسه في العبادات، ولا يُفَرِّط ويتساهل في ترك المأمورات وإتيان المنهيَّات.

١١ من السُّنَّة أن يُبشِّر الداعيةُ والفقيهُ العبدَ بفضل الله تعالى وثوابه على طاعته، وألَّا يُقنِّطه من رحمة الله.

١٢ على الإنسان أن يختار أوقاتَ نشاطه في عبادة الله وطاعته، فإذا أحسَّ من نفسه الكسلَ أو الفتور يَرقُد ويرتاح، ثم يستأنفُ حين ينشط ويقوى. وذلك في العبادات والطاعات وأعمال الدنيا وطلب العلم وغير ذلك.

١٣ توزيع الأعمال على مدار اليوم بحيث يكون له قسطٌ من الطاعة كل حينٍ خيرٌ من جمع الطاعات لساعةٍ واحدة تُرهق النفسَ والجسدَ.

١٤ من رحمة الله تعالى بنا أنَّه لم يَفرِض علينا قيام الليل، ولا حثَّنا إلى قيامِ جميعه، بل قال ﷺ في الحديث: «وشَيءٍ من الدُّلجة» تخفيفًا وتيسيرًا لمشقَّةِ عمل الليل، وإلا لقال: «والدُّلجة»[١].

١٥ عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ حَتَّى كَثُرُوا، فَأَقْبَلَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»[٢].

١٦ دخل النبيُّ ﷺ فإذا حبلٌ ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبلٌ لزينب فإذا فَتَرَتْ تعلقت، فقال النبيُّ ﷺ: «لَا، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أحدُكم نشاطَه، فإذا فَتَرَ فلْيَقْعُدْ»[٣].

---

(١) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقِّن (٣/ ٨٧).

(٢) البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢).

(٣) البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤)، عن أنسٍ رضي الله عنه.



عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ قَالَ:

١ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرُ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ،

٢ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ».

٣ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ».

٤ قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ».

٥ قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلا أَنْقُصُ.

٦ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ». وفي رِوايةٍ: «دَخَلَ الجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ»[1].

(١) البخاريُّ (٤٦)، ومسلم (١١).

آيات

- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].
- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].
- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨- ٧٩].
- ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

الراوي

هو: أبو محمَّدٍ، طلحةُ بنُ عُبَيدِ الله بنِ عثمانَ القرشيُّ التَّيميُّ، المدنيُّ، أحدُ العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأحدُ الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصدِّيق ﷺ، وأحد الستَّة أصحاب الشورى الذين توفِّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، قُتِل يومَ الجَمَل سنةَ (٣٦هـ)[1].

خلاصة

سأل أعرابيٌّ النبيَّ ﷺ عن الإسلام، فأخبره عن أركانه المعروفة، فمن أدَّاها كما ينبغي من غير زيادة أو نقصان أفلح ودخل الجنة.

(١) تُراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٢١٤)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ١٠٠)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٢/ ٧٦٤).

١ دخل أحدُ الأعراب من هَضْبة نجْدٍ – **وهي هَضْبة تمتد من الحجاز شرقًا إلى اليمامة غربًا**[١] – على النبيِّ ﷺ وهو جالسٌ مع أصحابه، وكان ذلك الأعرابي **مُتفرِّقَ الشَّعْرِ**، غيرَ مُبالٍ بمظهره، **ينادي من بعيد ويتكلَّم بصوت عالٍ، فيَتردد صوتُه ولا يُفهَم ما يقول**، فلما اقترب من المجلس فَهِموا كلامه، وإذا هو يَسأل عن شرائع الإسلام[٢].

٢ فأخبره النبيُّ ﷺ بفَرِيضة الصلاة، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتينِ، وذكر ﷺ أنَّ عليه في اليوم والليلة خمسَ صلوات، وهي الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء. فسأله الأعرابيُّ: هل يجِب عليَّ شيءٌ غيرها إذا أدَّيتُ تلك الصلوات وأتيتُ بكامل أركانها وواجباتها وهيئاتها؟ فأجاب النبيُّ ﷺ أنه لا يَجِب عليه غير تلك الصلوات، إلا أن يتطوع.

والتَّطَوُّعُ: **أن يتقرَّب العبد إلى الله تعالى بما لم يَفرضه عليه من العبادات؛ رَغْبَةً في عُلُوِّ الدرجات يَوْمَ القيامة**، وهي أعمالٌ مندوبٌ إليها، يُثَابُ فاعلها، ولا يُعاقَب تَارِكُها[٣].

٣ ثم ذكَر ﷺ الصيام، وهو الركن الرابع من أركان الإسلام، وهو الإمساكُ عن الطعام والشراب وسائر المفطِّرات من طُلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ناويًا محتسِبًا[٤]، فأخبره ﷺ أنَّ عليه صيام شهر رمضان، فسَأل الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ: هل يجب عليَّ صيامُ غير هذا الشهر؟ فأجابه ﷺ كذلك أنَّه لا يجِب صيامُ غير رمضان إلا أن يتطوَّع من نفسه بصيام غيره من الأيام المستحَب صيامها.

٤ ثم بيَّن له النبيُّ ﷺ الزكاة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الشهادتينِ والصلاة، فأخبره بوجوبها، وذكَر له أحكامها.

والزكاةُ: التعبُّدُ لله تعالى بإخراج جزءٍ واجبٍ شرعًا في مالٍ مُعيَّن لطائفةٍ أو جهةٍ مخصوصة»[٣]، وإنما سُمِّيت زكاةً لأنها تُزَكِّي النَّفْسَ وتُطَهِّرُهَا من الآثام؛ قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) انظر: "أطلس الحديث النبوي" شوقي أبو خليل (ص: ٣٦٥)، وتضم الآن الرياض والقصيم والأفلاج من مناطق السعودية.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٠٦).

(٣) انظر: «مغني المحتاج» للخطيب الشربينيِّ (٢/ ١٨٢).

(٤) انظر: «الشرح الممتع على زاد المستقنع» ابن عثيمين (٣/ ٥).



فسأل الرجلُ النبيَّ ﷺ: هل يجِب عليَّ في مالي غير تلك الزكاة المفروضة؟ فقال النبيُّ ﷺ: لا، إلا أن تتطوَّع فتَتصدَّق بمالك في وجوه البرِّ.

٥ فانصرف الرَّجلُ وهو يقول: «والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقُصُ منه» أي: يأتي بها على خير ما يَنبغي من غير زيادةٍ أو نقصان، كما تقول لمن كلَّفك بعمل: لا أزيد عليه ولا أنقُص.

وليس مرادُ الرجل أنَّه يَقتصر على تلك الأوامر دون غيرها مما لم يذكره النبيُّ ﷺ كغضِّ البصر وحِفظ الفَرْج وأداء الأمانة وصِدق الحديث ونحوها؛ فإنَّ ذلك مُنكَرٌ لا يجوز له قوله، ولا يُقِرُّه النبيُّ ﷺ على مثله، بل إنَّه سأل النبيَّ ﷺ عن الأعمال والفرائِض التي تُدخِله الجَنَّة، ولهذا لم يُخبِره ﷺ عن اجتناب المناهي ونحوها.

كما أنَّ مَن كان في المحافظة على ما أُمِر به بهذه المنزلة، فإنه متى وَرَد عليه أمرٌ لله تعالى أو لرسوله، فإنه يُبادِر إليه، ولا يتوقَّف عنه، فَرضًا كان أو سُنَّةً[1].

٦ فأخبر ﷺ أنَّ الرَّجل إنْ أوفى بذلك وصدَق، فقد أفلح وفاز وأصاب كلَّ خير.

وإنما لم يَذكر النبيُّ ﷺ الشهادتينِ؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّه يعلمها، أو لأنَّه جاء يسأله عن شرائع الإسلام العَملية، كما أنَّه ﷺ لم يُخبِره بالحَجِّ لأنَّه لم يكن فُرض بعدُ، أو ربما لم يكن واجبًا عليه، أو كان قد ذكَره ﷺ واختصره الراوي[2].

---

(١) «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (١/ ١٠٤- ١٠٥).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٠٧).

(٣) «الشرح الممتع على زاد المستقنع» لابن عثيمين (٦/ ١٣).

ما يُستفاد

١ تحمَّل النبيُّ ﷺ فظاظةَ الأعرابيِّ ورفعَ صوته عليه، وفي ذلك بيانٌ للداعية والمُعَلِّم والمُرَبِّي أنَّه ينبغي عليه أن يكون صَبورًا محتملًا مشاقَّ الدعوة؛ فقد يتعرض للمخالفة والأذى؛ فينبغي عليه الصبر والتحمل والاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

٢ على الدَّاعيةِ ووَليِّ الأمرِ والفقيه والمُرَبِّي أن يراعي الفوارق العقلية بين النَّاس، فلا يجعل معاملة جميع النَّاس واحدةً؛ فالنبيُّ ﷺ لم يَعِب على الرجل الأعرابيِّ رفعَ صوته ولا آخَذه بذلك.

٣ حَرَص الرجلُ على سؤال النبيِّ ﷺ على ما ينفعه دون حياءٍ منه، فكلَّما أمره بأمرٍ قال: «هل عليَّ غيرها؟»؛ فينبغي أن يحرص الإنسانُ على طلب العلم، وألا يمنعه الحياءُ أو الكِبرُ عن السؤال.

٤ في الحديثِ إشارةٌ إلى أن الفرائضَ وحدها إذا الْتَزمها صاحِبُها على الوجه الذي يَرضاه الخالقُ سبحانه، فهو من الناجين يومَ القيامة وإن تَرَكَ غيرها من النوافل؛ فإنَّ الله سبحانه بَيَّن أنه ما تَقَرَّب إليه العبدُ بشيءٍ أحبَّ إليه مما افترضه عليه، على أن ترك النوافل يفوت عليه الكثيرَ من الخَيرِ؛ فالعبدُ إذا كان مفلحًا ناجيًا بأداء الفرائض فحسبُ؛ فلا شكَّ أن أداءَه للنَّوافل تأكيدٌ للفلاح ورفعٌ للدرجات، وإعلاءٌ للمنزلة.

٥ نوافل الصلاة كثيرة، وأهمُّها وأرفعُها مقامًا السنن المؤكَّدات التي تكون مع الصلوات، وهي ركعتان قبل الفجر، وأربعٌ قبل الظهر، وركعتان بعده، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء؛ قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»[١]، ومنها صلاة الضحى، وقيام الليل، والوتر، وغير ذلك من النوافل التي قال تعالى فيها في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[٢].

٦ التطوع بالصِّيام من أفضل التطوع، وقد أعدَّ اللهُ تعالى له الجزاءَ العظيم؛ فصيام يوم عَرَفة يكفِّر سنةً ماضيةً وسَنةً مستقبَلةً[٣]، وصيام عاشوراء يُكفِّر سنةً ماضيةً[٤]، ومن أَتْبع رمضان بستٍّ من شوال كان كصيام الدَّهر كله[٥].

٧ ذكر النبيُّ ﷺ الزكاةَ لأنَّها دليلٌ على إيمان العبد؛ فإنه لا يؤدِّي زكاةَ ماله طيِّبةً بها نفسُه إلَّا مؤمنٌ، وسببُ هذا أنَّ

---

(١) مسلم (٧٢٨).

(٢) البخاري (٦٥٠٢).

(٣) مسلم (١١٦٢).

(٤) مسلم (١١٦٢).

(٥) مسلم (١١٦٤).

المال تحبُّه النُّفوس وتَبخَل به، فإذا سَمَحت بإخراجه لله عزَّ وجلَّ دلَّ ذلك على صحَّة إيمانها بالله تعالى ووَعْده ووعيده؛ فعلى العبد أن يختبر إيمانَه ببذل الزكاة والصدقات وتمرينها على ذلك؛ فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى.

٨ قال الأعرابيُّ: «واللهِ لا أزيدُ على هذا ولا أنقص منه»، وهذا حينما عَلم أنَّ أداء الفرائض كافٍ في دخول الجنَّة؛ فلا بد أن يكون الإنسانُ حازمًا نشيطًا في كلِّ خيرٍ يعمله ويرجو ثوابه، ولا يَتقاعس أو تضعف هِمَّتُه بعد البدء فيه، سواءً في ذلك أعمال الآخرة والدنيا؛ فلا يَكسل طالبُ العلم عن مذاكرة دروسه، ولا يَفتُر الجنديُّ عن حراسة ثَغْره، ولا تغيبُ يدُ الإتقان عن العامل والصانع حتى ينتهي من عمله.

٩ تعقيب النبيِّ ﷺ على كلام الرجل دليلٌ على أنَّ ذلك ليس قاصرًا عليه، بل هو عامٌّ في حقِّ كل مسلم؛ فمن أدَّى الفرائض حقَّ الأداء، وانتهى عن النواهي والمحارم، كفاه ذلك في النجاة من النَّار ودخول الجَنَّة، إلَّا أنَّ للجنة درجاتٍ ومنازلَ، أعلاها وأفضلها أن يكون العبدُ في زُمرة الأنبياء والمرسلين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، ولا ريبَ أنَّ تلك المنزلة لا يُكتفى فيها بمجرد الفرائض، فكلُّ امرئٍ وعملُه! وكلُّ إنسانٍ وما تَطمَح إليه نفسُه من المنازل في الآخرة!

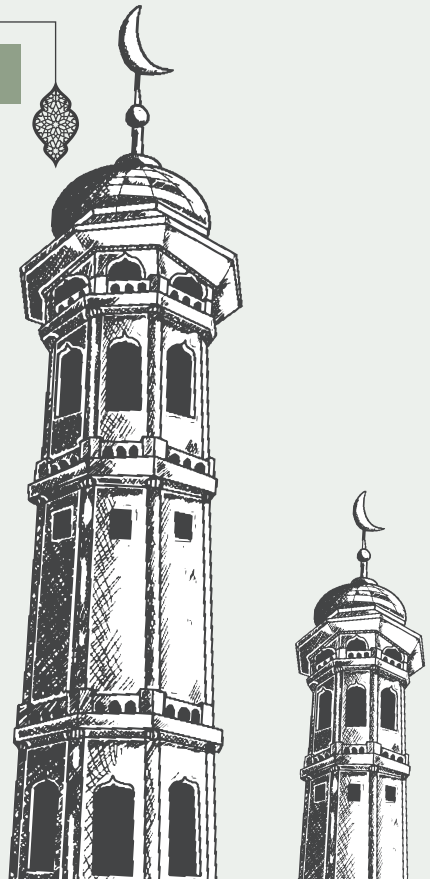
١٠ في الحديث مراعاةُ النَّبيِّ ﷺ لحال المدعوِّ والسائل؛ حيث لم يخبره بأكثر من الفرائض والأركان التي لا يستقيم إسلامُ أحدٍ بدونها. فعلى الداعية والعالم والفقيه أن يكون فَطِنًا يحسِن إجابةَ السائل ودعوةَ المدعوِّ بما يليق مع حاله.

قال الشاعر:

ارْتِفَـاعُ الأَذَان فَـوْقَ الْمَـآذِنْ ... فِي انْبِـلَاجِ الصَّبَـاحِ وَاللَّيْـلُ سَـاكِنْ
دَعْـوَةٌ تَحْمِـلُ الْحَيَـاةَ إِلَى الْكَـوْ ... نِ وَسُـكَّانِهِ قُـرًى وَمَدَائِـنْ
وَنِـدَاءٌ مِـنَ السَّـمَاءِ إِلَى الأَرْ ... ضِ إِلَى ظَاهِـرٍ عَلَيْهَـا وَبَاطِـنْ
وَلِقَـاءٌ بَـيْنَ الْمَلَائِـكِ وَالإِيـ ... ـمَانِ وَالْمُؤْمِنِـينَ مِـنْ غَـيْرِ آذِنْ
وَانْطِـلَاقٌ إِلَى الْفَـلَاحِ إِلَى الْخَيْـ ... ـرِ إِلَى الْحَـقِّ وَالْهُـدَى وَالْمَحَاسِـنْ

وقال غيره:

يـا مَـنْ تَصَـدَّقَ مـالُ اللهِ تَبْذلُـهُ ... في أوجُـهِ الخـيرِ مـا لِلـمالِ نُقصـانُ
كَـمْ ضاعَـفَ اللهُ مـالًا جـادَ صاحِبُـهُ ... إنَّ السَّـخاءَ بِحُكْـمِ اللهِ رضـوانُ
الشُّـحُّ يُـفْضي لِسُـقْمٍ لا دَواءَ لَـهُ ... مـالُ البَخيـلِ غَـدا إرْثًـا لِمَـنْ عانـوا
إنَّ التَّصَـدُّقَ إسـعادٌ لِمَـنْ حُرِمـوا ... أهـلُ السَّـخاءِ إذا مـا احْتَجْتَهُـمْ بانـوا





عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ:

٢ قَصُّ الشَّارِبِ،

٣ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ،

٤ وَالسِّوَاكُ،

٥ وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ،

٦ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ،

٧ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ،

٨ وَنَتْفُ الْإِبِطِ،

٩ وَحَلْقُ الْعَانَةِ،

١٠ وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ».

١١ قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ[1].

(١) مسلم (٢٦١).

آيات

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].
- ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

الراوي

هي أمُّ المؤمنين، عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ عبدِ الله بنِ أبي قحافةَ عثمانَ بن عامرٍ القرشيةُ، التَّميميةُ، المكية، الصدِّيقة بنت الصدِّيق، حبيبةُ رسول الله ﷺ، الطاهرة المطهَّرة، المبرَّأة من السماء، أَفْقَهُ نساء الأمَّة على الإطلاق، أمُّها: أمُّ رومان بنت عامر، وُلِدت في الإسلام، وتزوَّجها النبيُّ ﷺ بعد وفاة السيدة خديجةَ رضي الله عنها، ولم يتزوَّج بكرًا غيرها، ولا أحبَّ امرأة حُبَّها، وليس في أمَّة محمد ﷺ؛ بل ولا في النساء مطلَقًا امرأةٌ أعلم منها، تُوفِّيت عَلَى الصحيح سَنَة (٥٧هـ) بالمدينة، وهي يومئذ بنت ستٍّ وستين سنةً[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ عن بعض سُنَنِ الفطرة التي فطَر اللهُ سبحانَه النَّاسَ عليها؛ ليكونوا في أجمل صورةٍ وأكمل خِلقة، فذكر في الحديث عشر خِصال، وهي: قَص الشَّارب، وإطلاق اللحية، واستعمال السِّواك ونحوه في تنظيف الأسنان، واستنشاق الماء في الأنف ونَثْره، وقصِّ الأظافر، وغسل مَفاصِل الأصابع، ونَتْف شعر الإبط، وحَلْق شعر العانة، والاستنجاء، والمضمضة.

(١) يراجع ترجمتها في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٧/ ١٨٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٨/ ٢٣٤).

١ اهتمَّ الإسلامُ بجميع شؤون الإنسان الظاهرة والباطنة؛ ولذلك حرَص على حُسن مظهر المسلم، وفي هذا الحديث يخبر النبيُّ ﷺ عن بعض خصالِ الفطرة، **وهي خصال السُّنَّة التي فَطَرَ الله عليها العباد وشَرَعها لهم، وبها يَحصُل جمال الهيئة وكمال الخِلقة التي خُلق الإنسان عليها، وتَشهد بحُسنها العقولُ السليمة**. وإلَّا فبعض الفِطَر قد تُنكَّس وتَنحرف عن أصلها، كما قال ﷺ: «كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرة، فأبَواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانِه»[١].

على أنَّ خصال الفطرة ليست مُنحصِرةً في تلك العَشْر التي أخبر بها ﷺ في هذا الحديث، بل ورد غيرها في أحاديث أخرى، فليس المراد هنا الحصر.

٢ فأوَّل تلك السُّنَن: قصُّ الشَّارب، وهو الشعر النابت فوق الشَّفة العليا. وإنما أُمِر بقصِّه لأنَّ في بقائه حصولَ الأذى بما يخرج من الأنف، ومباشَرة الماء عند الشرب، وربما يحمل في داخله ميكروبات مُضِرَّة[٢].

وقصُّ الشَّاربِ سُنَّةٌ، والمختار في قصِّه: أن يجتهد في تقصيره حتى تبدو الشَّفَة.

٣ وثانيها: ترك اللحية بحيث تكون وافرة ولا يحلقها، و اللحية ما نبت من الشَّعر على ذَقَن الرَّجُل وخَدَّيه، والمقصود من إعفائها.

وقد جاءت الأحاديث في توفيرها بألفاظ: «أَعْفُوا، وأَوْفوا، وأَرْخوا، وأَرْجوا، ووفِّروا»، فحصل من مجموع تلك الروايات تحريم حلق اللحية، والأمر بترك اللحية حتى يكون لها وفرة، وأما الأخذ منها بما لا يخل بالوفرة فمحل اجتهاد فقهي.

٤ وثالثها: استعمال السِّواك، وهو عُودٌ يؤخَذ من شجر الأراك يُستخدَم في تنظيف وتطييب الأسنان والفم، ويُزِيل عنهما الروائح الكريهة.

واستعمال السِّواك مشروعٌ مستحبٌّ في كلِّ الأوقات، يتأكَّد استحبابُه عند الصلاة والانتباه من النوم، وعند تغيُّر رائحة الفم وظُهور صُفْرة الأسنان؛ قال ﷺ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[٣].

٥ ورابعها: استنشاق الماء، وهو أن يُدخِل الإنسانُ الماءَ في أنفه ثم يَنثُره؛ ليخرج ما فيه من أذًى ووسَخٍ.

---

(١) البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٥/ ٢٣٠).

(٣) رواه النسائي (٥)، والبخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤).

٦ وخامسُ تلك الخصال: قصُّ الأظافر، وهو أن يقُصَّ الإنسان ما طال من أظافره؛ لئلا تجتمع فيها الأوساخ والميكروبات المُضِرَّة.

٧ وسادسُها: غسلُ **عُقَدِ الأصابعِ ومفاصِلِها كُلِّها**؛ فإنَّها مظنَّة اجتماع الطين والنجاسات والجراثيم، ويلحق بذلك: ما يجتمع من الوسَخ في معاطف البدن، فينظِّفه ويزيله.

٨ وسابعها: إزالةُ الشعر النَّابت تحت الإبْط؛ لأنه في مكان يجتمع فيه العَرَق والأوساخ، وتتغيَّر معه الرائحة.

وتتأدَّى السُّنَّةُ بإزالة ذلك الشَّعر بأي وسيلة كانت، سواءً كان بالحلْق أو بالنتف؛ لأنَّ الغرضَ إزالة ذلك الشعر، وقد حصل، وإن كان النَّتْفُ أحرى وأحسن لِمَن قَوِي عليه[١].

٩ وثامن خصال الفطرة: حَلْقُ الشعر الخشِن الذي يَنبُت حول القُبُل عند الرجل والمرأة، وإنباتُ ذلك الشَّعْرِ علامةٌ على البلوغ. وتُسَمَّى تلك الإزالة استحدادًا؛ لأنَّه يُستعمَل الحديدة -وهي المُوسَى- في حلقه.

١٠ وتاسع تلك الصفات: انتقاص الماء، وهو **استعمالُ الماءِ في الاستنجاء بعد قضاء الحاجة**[٢].

١١ ونَسِي أحد رواة الحديث الصفة العاشرة، ورجَّح أن تكون المضمضة، وهي أن يُدير الإنسانُ الماءَ في فمِه ثم يمُجَّه.

وقيل: بل العاشرةُ: الخِتان؛ بدليل حديث أبي هُرَيرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «الفِطْرَةُ خَمْسٌ -أو خَمْسٌ مِنَ الفِطْرَةِ-: الخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»[٣]، والختان للرجال واجبٌ ما لم يضر؛ وهو أن تُقطع الجلدة التي تُغَطِّي الحشفة حتى تنكشف جميعُها؛ فإن تلك الجلدة يَحتقِن بها البول وتكون سببًا في النَّجاسة، وأما النساء فليس عليهن ختان[٤].

والأصلُ في قصِّ الشَّارب والأظافر ونتف الإبط وحلق العانة أنْ يُتدارك ذلك كلَّما طال، وإلَّا فلا ينبغي أن يُترك ذلك حتى تنقضي أربعين يومًا؛ قال أنس بن مالك ﷺ: «وُقِّتَ لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الْإِبِطِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ؛ أَنْ لَا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[٥].

---

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (٣/ ١٤٩).

(٢) «شرح النوويِّ على مسلم» (٣/ ١٥٠).

(٣) البخاريُّ (٥٨٨٩)، ومسلم (٢٥٧).

(٤) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٥/ ٢٢٩).

(٥) مسلم (٢٥٨).

١ اهتمَّ الإسلام بطهارة الإنسان ظاهرًا وباطنًا، وحرَص على أن يكون الإنسان على خير مَظهَرٍ، فأخبر سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وجعل «الطُّهور شَطْر الإيمان»[١]. فعلى المسلم أن يَحرِص على نظافة جسده وحُسن مَظهَره، كما يحرِص على نقاء عقيدته وطهارة قلبه.

٢ اشترط اللهُ تعالى لوقوف عبده بين يديه أن يكون على طهارةٍ كاملةٍ، نظيف الثياب والبدن، مُستعدًّا للوقوف بين يديه بصلاح الباطن بالتوبة والظاهر بالطهارة وأخذ الزينة، ولهذا يقول المتوضِّئ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ».

٣ يُستحَب للإنسانِ أن يتبع سُنَّةَ النبيِّ ﷺ ويقصِّر شاربه، ويُستحَبُّ أن يبدأ بالشِّقِّ الأيمن تيامُنًا.

٤ لا يجوز للإنسانِ أن يقصَّ لحيته أو يحلقها، وإنما يجوز له تهذيبُ ما شذَّ منها، من باب التجمُّل.

٥ يُكرَه للإنسان بعض خصالٍ ذكرها العلماء في اللحية، منها صبغها بالسَّواد لغير الجهاد، وصبغها بالصُّفرة للظهور بمظهر الزُّهاد، وتبييضها لإيهام الشيخوخة والحكمة والعلم، وحلقُها ونتفُها، ونتفُ الشَّيب، وتسريحها وتصفيفها لاستمالة النساء، وتركُها شعثةً مُلَبَّدةً إظهارًا للزُّهد وعدم المبالاة بنفسه[٢].

٦ يُستحَب للإنسان أن يستعمل السِّواك في تطهير فمه وتطييبه وإزالة الرائحة الكريهة عنه. ويجزئ كذلك استخدام الفرشاة والمعجون ونحو ذلك مما يفي بالغرض.

٧ يُستحَب استعمال السِّواك قبل كلِّ صلاةٍ امتثالًا لقوله ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي -أَوْ عَلَى النَّاسِ- لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ»[٣].

٨ لا يُكره استعمال السِّواك في أيِّ وقتٍ من الأوقات، بل يُستحَب استعمالُه للصائم كذلك؛ فعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنَّه قال: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ ما لا أُحصي يتسَوَّكُ وَهوَ صائمٌ»[٤].

٩ الاستنشاق من الأفعال المُطَهِّرة للأنف، ولهذا أَمَر النبيُّ ﷺ المتوضئَ فقال: «وبالِغْ في الاستنشاقِ إلَّا أنْ تكونَ صائمًا»[٥].

---

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) «شرح النوويِّ على مسلم» (٣/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٤) الترمذيُّ (٧٢٥)، وقال حديث حسن، والبخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤).

(٥) أبو داود (١٤٢)، والترمذي (٧٨٨)، والنسائي (١١٤)، وابن ماجه (٤٤٨).

١٠ ليَحرِصِ المسلم على تقليم أظافره وقصِّها، كما ينبغي أن يتعاهَد ما تحتها من الطين والوسَخ فيقوم بتنظيفه.

١١ يدخل في غسل البراجِم كلُّ ما يمكن أن يجتمع به الوَسَخُ مثل معاطف الأُذُن، وتحت ترهُّلات الجلد، وبين أصابع القدمَين، وكل موضع يمكن أن يجتمع العَرَقُ والتُّراب ونحوهما فيه[١].

١٢ يُستحب أن يتعاهد الإنسانُ حلق عانته وغسل منابت الشعر وتطهير ما بين فخذيه ووصول الماء إلى كل بقعة من جلد الإنسان؛ حيث تكثر في تلك المنطقة الأمراض والالتهابات.

١٣ استعمال الماء في تطهير المحل بعد قضاء الحاجة أفضل غالبًا من استعمال الأشياء الجامدة كورق الحمام، لأنه بالماء تزول النجاسة تمامًا ويطهر أثرها وتنتفي عن المحل رائحته الكريهة.

ومما يلحق بذلك: رشُّ الإنسانِ الماءَ على ذَكَرِه أو ثيابه بعد الوضوء؛ لينفي عن نفسه الوسواس الذي يُوهِمه بأنَّ قطرات البول قد أتت على ثيابه[٢].

١٤ على المسلم ألَّا يَصُدَّه الغرورُ وعزَّةُ النَّفسِ عن قبول الحقِّ أو القولِ به؛ فراوي الحديث حين شكَّ أنَّه نَسِي شيئًا من الخصال صرَّحَ بذلك؛ فالتصريح بالخطأ والنسيان والجهل أفضل من الافتراء على اللهِ سبحانه وعلى رسوله ﷺ.

١٥ المضمضة من سُنن الفطرة التي ينبغي للمسلم أن يحرِص عليها ويواظِب على فعلها؛ لينَال رضا الله تعالى وأجر اتباع رسوله ﷺ، ولتَتِم له الطهارة الكاملة.

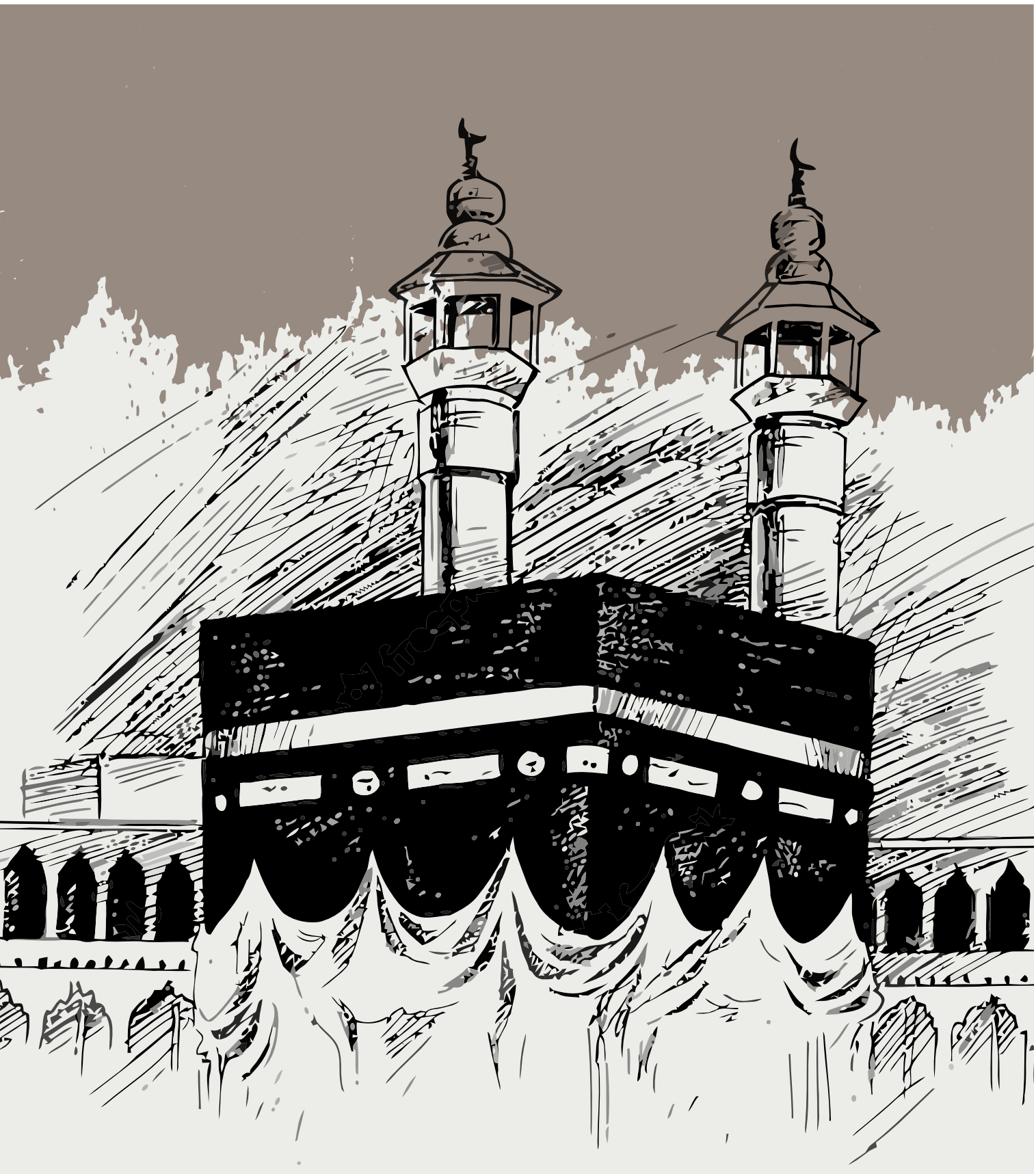
١٦ الأفضل في الختان أن يُبادَر إلى ذلك بحسب الاستطاعة، فالختان في الصغر أفضل؛ حيث إنَّ نمو اللحم فيه أسرع، كما أنَّ الطفل لا يصيبه الألم النفسي الذي يصيب الكبار.

قال الشاعر:

وَوُلِـدْتَ مَفْطُـورًا بِفِطْرَتِـكَ التِـي ... لَيْسَـتْ سِـوَى التَّصْدِيـقِ والإِيـمَانِ
وَبُلِيـتَ بالتَّكْلِيـفَ أَنْـتَ مُخَـيَّرٌ ... وَأَمَامَـكَ النَّجْـدَانِ مُفْتَتَحَـانِ
فَعَمِلْـتَ مَـا تَهْـوَى وَأَنْـتَ مُرَاقَـبٌ ... مَـا كُنْـتَ مَحْجُوبًـا عَـنِ الدَّيَّـانِ

(١) انظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (٣/ ١٥٠).

(٢) انظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (٣/ ١٥٠).



عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال:

١ سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَرْكَبُ البَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا القَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنَ الْبَحْرِ؟

٢ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ،

٣ الحِلُّ مَيْتَتُهُ»[1].

(١) أبو داود (٨٣)، والنسائيُّ (٥٩)، والترمذيُّ (٦٩)، وابن ماجه (٣٨٦).

آيات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: ٩٦].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث، «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرينِ، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

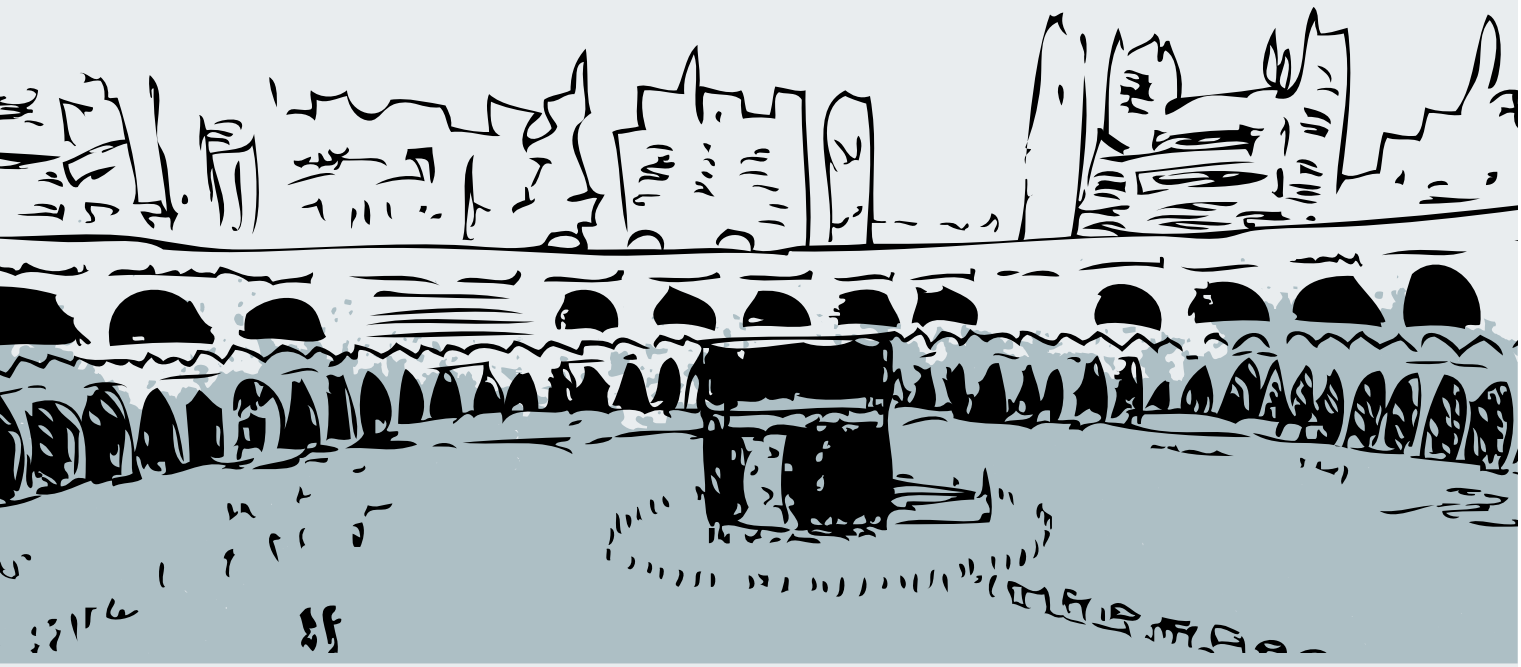
سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن الوضوء بماء البحر، فأفتاه بأنَّه طهورٌ، وأنَّ مَيْتته حلالٌ تُؤكَل.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ سأل رجلٌ من الصَّحابة رضوان الله عليهم النبيَّ ﷺ عن الوضوء بماء البحر؛ فإنهم يسافرون عبْر البحر ويحملون معهم القليلَ من الماء، فإن توضَّؤوا منه عَطِشوا، فهل يجوز لهم - والحالة هذه - أن يتوضَّؤوا من ماء البحر؟

٢ فأجابه ﷺ بأنَّ ماء البحر **طاهرٌ في نفسه مطهِّرٌ لغيره**، وإن اختلف لونُه وطعمُه عن الماء العذب.

٣ وزاده ﷺ ببيان أنَّ ما **مات من الحيوانات التي تعيش في البحر فهو حلالٌ يجوز أكلُه**، مُستثنًى من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وقد قال ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ»(١).



(١) ابن ماجه (٣٣١٤).

١ كان سؤال الصحابيِّ ﷺ واضحًا، شرح فيه موقفه كاملًا؛ لأنه قد تختلف الفتوى باختلاف الحال والمقام، ولذلك يجب على السائل أن يوضِّح المسألة للمفتي تمامًا، وعلى المفتي ألَّا يجيبه حتى يفهم المسألة كاملةً بتفاصيلها.

٢ حرَص الصحابيُّ على أمر دينه، فرغم أنَّه مسافرٌ يمكنه الجمع بين الصلوات أو تأخير الصلاة لآخر وقتها حتى ينزل إن كان سفرُه قصيرًا، إلا أنَّه اهتمَّ بمثل هذه المسألة، مراعيًا أداء الصلاةِ في وقتها. فينبغي ألَّا نَنشغِل بأمور الدنيا عن عبادة الله تعالى.

٣ أجاب النبيُّ ﷺ بقوله: «هو الطهور ماؤه»، ولم يُجِب بـ«نعم» مثلًا؛ لئلا يُفهَم أنَّه يجوز للمرء أن يتوضأ من ماء البحر في حال الضرورة فقط عندما يركب البحر ومعه ماءٌ قليل، ولا يجوز غسل النجاسات منه، بل قال: «هو الطهور ماؤه» ليفيد حكمًا عامًّا أنَّ ماء البحر طاهرٌ مطهِّرٌ، سواءً وُجد غيره من الماء العذب أم لم يُوجَد، وسواءً كان الإنسان في سفر أم إقامة[1]. وهذا من حِكمة الفقيه؛ إذ ينبغي أن تكون إجابته واضحةً لا احتمالَ فيها.

٤ قوله ﷺ: «الطَّهُورُ ماؤه» بتعريف اللفظين توكيدٌ للحكم؛ فقد كان يمكن أن يقول: ماء البحر طهور، لكنَّه أكَّد ذلك بتعريف المبتدأ والخبر. فعلى العالم والفقيه أن تكون إجاباته مؤكَّدة لا مجال للشك فيها، وإلا كان السائلُ في حَيرةٍ من العمل بالفتوى.

٥ في الحديث جواز الزيادة على جواب السائل بما لم يسأله إذا رأى المسؤولُ حاجةَ السائل إلى ما غاب عنه السؤال عليه؛ فلمَّا كان السائل يداوم السفر عبر البحر، اقتضى ذلك أن يُصادف سمكًا طافيًا على الماء ميتًا، فأفاده ﷺ أنَّه حلالٌ يجوز له أكلُه؛ فيحسُن بالداعية والمُعلِّم والفقيه ألَّا يقتصر على جواب السائل بما يتضمنه سؤاله، إن رأى شيئًا آخر متعلقًا به غفل السائل عن السؤال عنه[2].

(١) «نيل الأوطار» للشوكانيّ (١/ ٢٩، ٣٠).

(٢) «نيل الأوطار» للشوكانيّ (١/ ٣٠، ٣١).



عن حُمْرَانَ، مَوْلَى عُثْمَانَ،

١ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ دَعَا بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ،

٢ ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا،

٣ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»،

٤ وزاد مسلم في رواية: «وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً»[1].

(١) البخاريُّ (١٦٤)، ومسلم واللفظ له (٢٢٦)، والرواية (٢٢٩).

آيات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

الراوي

هو: أبو عمرو، وأبو عبد الله، عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ذو النُّورين، وصاحب الهجرتين، أحد السَّابقين الأولين، تزوج ابنتي رسول الله ﷺ، رُقية ثم أم كلثوم، كانت تستحي منه الملائكة، وأنفق ماله في سبيل الله، تولَّى الخلافة بعد استشهاد عمر ﷺ، وفتحت في عهده أرمينية وخراسان وإفريقية وغيرها، وأتمَّ جمع القرآن وجعله على مصحف واحد لا تختلف عليه الأمصار. استشهد رحمه الله سنة (٣٥هـ)[1].

خلاصة

توضَّأ عثمان ﷺ وضوءَ النبيِّ ﷺ للصلاة، ثم أخبرهم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: من توضَّأ هكذا وصلَّى ركعتين مخلصًا خاشعًا فيهما غُفر ذنبه واحتُسبت صلاتُه ومشيُه إلى المسجد نافلةً من النوافل.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٩٥٢)، «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٢٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ١٠٢).

١ قام عثمان بن عفان ﷺ أمام النَّاس يُعلِّمهم صفة الوضوء، فدعا **بماءٍ يتوضَّأ به**، فبدأ بكفَّيه فغسلهما ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم أخذ ماءً في كفِّه فتمضمض وأدخل الماء في أنفه ثم **طرده** لِيُنَظِّف ما بداخله، يفعل ذلك ثلاثًا، ثُمَّ غسل وجهه ثلاثًا، وحدُّ الوجه من منابت الشعر إلى أسفل الذقن طولًا، وبين شحمتي الأذنين عرضًا، ثم غسل يديه إلى المرفقين - **وهما المفصلان بين الذراع والعضد** - يبدأ بيده اليمنى فيغسلها ثلاثًا ثم يغسل اليسرى ثلاثًا كذلك، ثم مسح رأسه بيده المبلولة مرَّةً واحدةً، والفرضُ في الرَّأسِ المسحُ لا الغسل؛ تخفيفًا ورأفةً، ثم يغسل رِجْليه مع الكعبين - والكعبُ: **العظم البارز في أسفل السَّاق**- ثلاثًا، يبدأ باليمنى ثم اليُسْرى.

ولم يذكر الراوي أنَّه غسل أذنيه لأنَّها تُغسل - ظاهرًا وباطنًا - مع مسح الرأس، كما ثبت عنه ﷺ[1].

وقد روى عثمان ﷺ في هذا الحديث أنَّ وضوءَ النَّبي ﷺ كان ثلاثًا ثلاثًا، وقد ورد في أحاديث أخرى أنه توضأ مرةً مرةً، ومرتين مرتين، فدلَّ مجموع ذلك أنَّ الفرضَ يحصلُ بمرةٍ واحدة مُطَهِّرة، وأن ما زاد عليها فهو سُنَّة، غير أنَّه ﷺ لم يزد على ثلاثِ غسلاتٍ لكلِّ عضوٍ، وقال: «فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»[2]. فالواحدة مُجزِئة والثانية سُنَّة والثالثةُ أعلى الكمال، وما زاد على ذلك ظلمٌ.

٢ ثم أخبر عثمان ﷺ أنَّه رأى النبيَّ ﷺ يتوضَّأ هكذا، وأنه أراد أن يُعَلِّم النَّاس صفةَ وضوءِ النبيِّ ﷺ كما رآها.

٣ ثم ذكر عثمان ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ أخبرهم أن مَن توضأ مثل هذا الوضوء ثم صلَّى ركعتين بخشوعٍ وإخلاصٍ لا يُحدِّث فيهما نفسَه بأحاديث الدُّنيا، بل إذا شغله شيءٌ مما يعرض للمسلم في صلاته طَرَده عنه ولم يسترسل فيه، كان جزاؤه أن يُغفر له جميع ذنوبه الماضية.

وظاهر الحديث يفيد أنَّ ذلك يشمل جميع الذُّنوب: الصغائر والكبائر، إلا أنَّ أشباهه من الأحاديث خصَّصت ذلك بالصغائر لا الكبائر، كقوله ﷺ: «الصلَواتُ الخَمسُ، وَالجُمُعَة إِلى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَينَهُنَّ مَا اجتَنَبَ الكَبَائِرَ»[3] فجعلوا هذا القيد في هذه الأمور مقيِّدًا للمطلق في غيرها».

٤ ولمَّا كانت مغفرةُ الذنوب حاصلةً بالوضوء، كانت الصلاةُ والمشيُ إلى المسجد زائدةً في الأجر على التكفير؛ فيحصل له بالوضوء والصلاة تكفير الذنوب، وله كذلك أجرُ الصَّلاةِ والمشي إلى المسجد، لا ينقص من أجرهما شيءٌ، ولا يكتفي الربُّ سبحانه أنْ غفر له ذنوبَه، بل يجازيه كذلك على الصلاة والمشي.

---

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) أبو داود (١٣٥)، والنسائي (١٤٠)، وابن ماجه (٤٢٢).

(٣) مسلم (٢٣٣).

(٤) «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد (١/ ٨٧).



١ لم يمنع الحياءُ عثمانَ ﷺ مع ما عُرف من شدة حيائه من أن يتوضَّأ أمام النَّاس ليعلمهم صفة الوضوء. فلا يمنعك الحياءُ من طلب العلم أو نشره أو تصحيح خطأٍ أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر.

٢ تعلَّم من هذا الحديث صفةَ الوضوءِ المسنون، واحرص على اتِّباعه.

٣ خيرُ الوضوءِ ما كان ثلاثًا ثلاثًا، فاتَّبعه ولا تزِد على ذلك.

٤ غسل الكفين من سُنن الوضوء التي حرص عليها النبيُّ ﷺ وإن لم تُذكر في القرآن. فاحرص على جمع سنن الوضوء ومستحباته واتباعها.

٥ المضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين واجبة في الغسل والوضوء، لأن الأنف والفم من الوجه وغسل الوجه واجب، والأذنان من الرأس فيجب مسحهما.

٦ الترتيبُ بين الفروض والسنن فرضٌ يجب مراعاته.

٧ احرص على الموالاة في الوضوء، فلا تقطع وضوءك لشيءٍ ثم تستكمل، فإذا قطعت وضوءك قطعًا غير يسير حتى نشفت الأعضاء، فاستأنف من جديد.

٨ المرافق والكعبين يدخلان في الوضوء، فاحرص على استيعابهما بالغسل.

٩ الكعب هو العظمان البارزان في أسفل الساق، وليس ما اصطلح بعض النَّاس عليه من تسمية آخر باطن القدم كعبًا، فذلك يُسمى العَقِب لا الكعب.

١٠ لم يتلفظ عثمان ﷺ بالنِّية لأنَّ محلها القلب، والنطق بها بِدعةٌ.

١٠ يُستفاد من فعل عثمان ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يقول شيئًا على وضوئه من الأوراد التي يقولها النَّاس، «ولم يُحفظ عنه أنه كان يقول على وضوئه شيئًا غير التسمية، وكلُّ حديث في أذكار الوضوء الذي يُقال عليه، فكذِبٌ مختلَقٌ لم يقل رسول الله ﷺ شيئًا منه، ولا علَّمه لأمَّته، ولا ثَبَت عنه، غير التسمية في أوَّله، وقوله: «أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوَّابين، واجعلني من المتطهِّرين» في آخره»[1].

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ١٨٧، ١٨٨).

١١ ينبغي للمعلم والمُرَبِّي والداعية أن يلجأ إلى التعليم العملي الذي يرسخ في الأذهان وتصل إليه الأفهام، كما فعل عثمان ﷺ.

١٢ ينبغي للداخل للعبادة دفع الخواطر المتعلِّقة بأشغال الدنيا، وجهاد النفس في ذلك، فإن الإنسان يحضُره في حال صلاته ما هو مشغوف به.

١٣ المقصود من أحاديث النَّفس ما كان منها متعلقًا بأمور الدنيا، أما التفكُّر في الآخرة وعذابها ونعيمها والحساب والصراط ونحو ذلك، فليس مما يُنهى عنه[١].

١٤ إذا تعلَّق فكرُك بشيءٍ من أمور الدنيا وأنت في الصلاة فاقطعه عنك، وركِّز في صلاتك وتدبُّر معاني الآيات التي تقرأها أو تسمعها من الإمام، فإذا فعلتَ ذلك لم يضرَّك ولم يؤثر على صلاتك.

١٥ فرصةٌ عظيمة لمغفرة الذنوب، بوضوءٍ وركعتين خفيفتين! فهل من مُشَمِّر؟

١٦ بادر إلى إسباغ الوضوء؛ فقد قال ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى المسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[٢].

١٧ إن الإسلام دين الطهارة والنظافة والجمال، حتى إنه جعل الطهارةَ من أَجَلِّ العبادات، وأعظمِ القُرُبات التي يَتقرَّب بها العبدُ إلى خالقه سبحانه، وعليها تتوقَّف صحَّةُ كثيرٍ من العبادات.

١٨ الجنة لا يَدخُلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخُبث؛ فمن تطهَّر في الدنيا، ولَقِي الله طاهرًا من نجاساته، دَخَلها بغير معوِّق، ومن لم يتطهَّر في الدنيا، فإن كانت نجاسته عينيةً كالكافر، لم يَدخُلها بحال، وإن كانت نجاستُه كَسْبيةً عارضةً، دَخَلها بعدما يتطهَّر في النار من تلك النجاسة، ثم يَخرُج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط، حُبِسوا على قنطرة بين الجنَّة والنار، فيُهَذَّبون ويُنَقَّوْنَ من بقايا بَقِيت عليهم، قَصُرت بهم عن الجنَّة، ولم توجب لهم دخولَ النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنة[٣].

١٩ يتفضل الله سبحانه على عباده بأن يغفر لهم الذنوب ويكافئهم على صلاتهم ومشيهم إليها، فكيف يردُّ ذلك الفضلَ عاقلٌ؟!

---

(١) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» لبدر الدين العيني (٣/ ٧).

(٢) مسلم (٢٥١).

(٣) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم (١/ ٥٦).



عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ ﷺ قال:

١ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ، فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ،

٢ فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا»، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالَ عَلَى الْيَمِينِ، وَظَاهِرَ كَفَّيْهِ، وَوَجْهَهُ[1].

(١) البخاريُّ (٣٤٧) ومسلم (٣٦٨)، واللفظ لمسلم.

آيـــات

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

الرَّاوي

هو: أبو اليَقْظانِ عمَّارُ بنُ ياسرِ بنِ عامرٍ العَنْسيُّ المكِّيُّ البَدْريُّ، مَولَى بَني مخزومٍ، كان هو وأبوه وأمُّه ممَّن عذَّبهم كفار قريش بسببِ إسلامهم، فكان يمرُّ عليهم النبيُّ ﷺ فيقول: «صَبْرًا آلَ ياسرٍ؛ فإنَّ مَوْعدَكم الجنَّةُ». وأمُّه سُميَّةُ طعنها أبو جهل بِحَرْبتِه في قُبُلها، فكانت أوَّلَ شهيدة في الإسلام.

فيه أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

اختُلِف في هجرته إلى الحبشة، وهاجَر إلى المدينة، وشَهِد المشاهدَ كلَّها، ثم شَهِد اليمامةَ فقُطِعت أُذُنه بها، ثم استَعمله عمرُ رضي الله عنه على الكوفة، وكتب إليهم: إنه من النُّجباء من أصحاب محمَّد ﷺ، قُتل عمَّارٌ وهو مع جيش عليِّ بن أَبي طالب بصفِّينَ سنة سبعٍ وثلاثين، ودُفِن هناك. وكان النَّبيُّ قد قال له: «تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ»[1].

خلاصة

أصابت عمار بن ياسر ﷺ جَنابةٌ في بعض أسفاره ولم يجِد ماءً، فتَمرَّغ في التراب حتى يصلي، فلمَّا عاد إلى النبيِّ ﷺ بيَّن له صفة التيمُّم، وأنها ضربةٌ يمسح بها كفَّيه ووجهه.

(١) تراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٨٦)، «تهذيب الكمال» للمزِّيِّ (٢١/ ٢١٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ٢٤٥)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ٢٩١).

التَّيَمُّم رُخصةٌ شرَعها اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده عند فَقدِهم الماءَ أو عجْزِهم عن استعمالِه تيسيرًا عليهم، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»[1]. وقد عرَّفه العلماءُ بأنَّه: القَصْدُ إلى الصَّعيد - التُّراب - لمسح الوجهِ واليدَيْنِ بنيَّة استباحةِ الصَّلاة ونحوِها[2]. وهو مشروعٌ ثابتٌ بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، وهو خَصِيصةٌ خصَّ الله تعالى بها هذه الأمَّة»[3]. وفي هذا الحديث بيانُ صفتِه.

١ يذكر عمَّارٌ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ أرسله لبعض حاجاته، ثم إنَّه احتلَم وأصابته الجنابةُ، **فتقلَّب بجميع بدنه في التُّراب الطاهر الذي له غُبار يَلصَق باليد والبدن** حتى أصاب الترابُ جميع بدنه؛ ليَستبيحَ بذلك الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، ثمَّ لَما عاد إلى النبيِّ ﷺ أخبره بذلك؛ ليَرى أكان فعلُه ذلك صوابًا أم خطأً.

وإنَّما فعل عمَّارٌ ذلك لأنَّه رأى أنَّ التُّراب بديلٌ للماء؛ فكما ينبغي أن يَعُمَّ الماءُ جميع الجسد في الغُسل، فكذا التيمُّم في ظَنِّه واجتهاده.

٢ فأخبره النبيُّ ﷺ أنَّه كان يكفيه أن يَضرب بيديه على الأرض ضربةً واحدةً ثم يمسح بها على كَفَّيه ووجهه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦].

ومعنى قوله ﷺ: «تقول بيَدَيك» أي: **تفعل بيَدَيك**.



(١) أحمد (٥٨٦٦).

(٢) «نيل الأوطار» للشوكانيِّ (١/ ٣١٩).

(٣) «نيل الأوطار» للشوكانيِّ (١/ ٣١٩).

استنباط

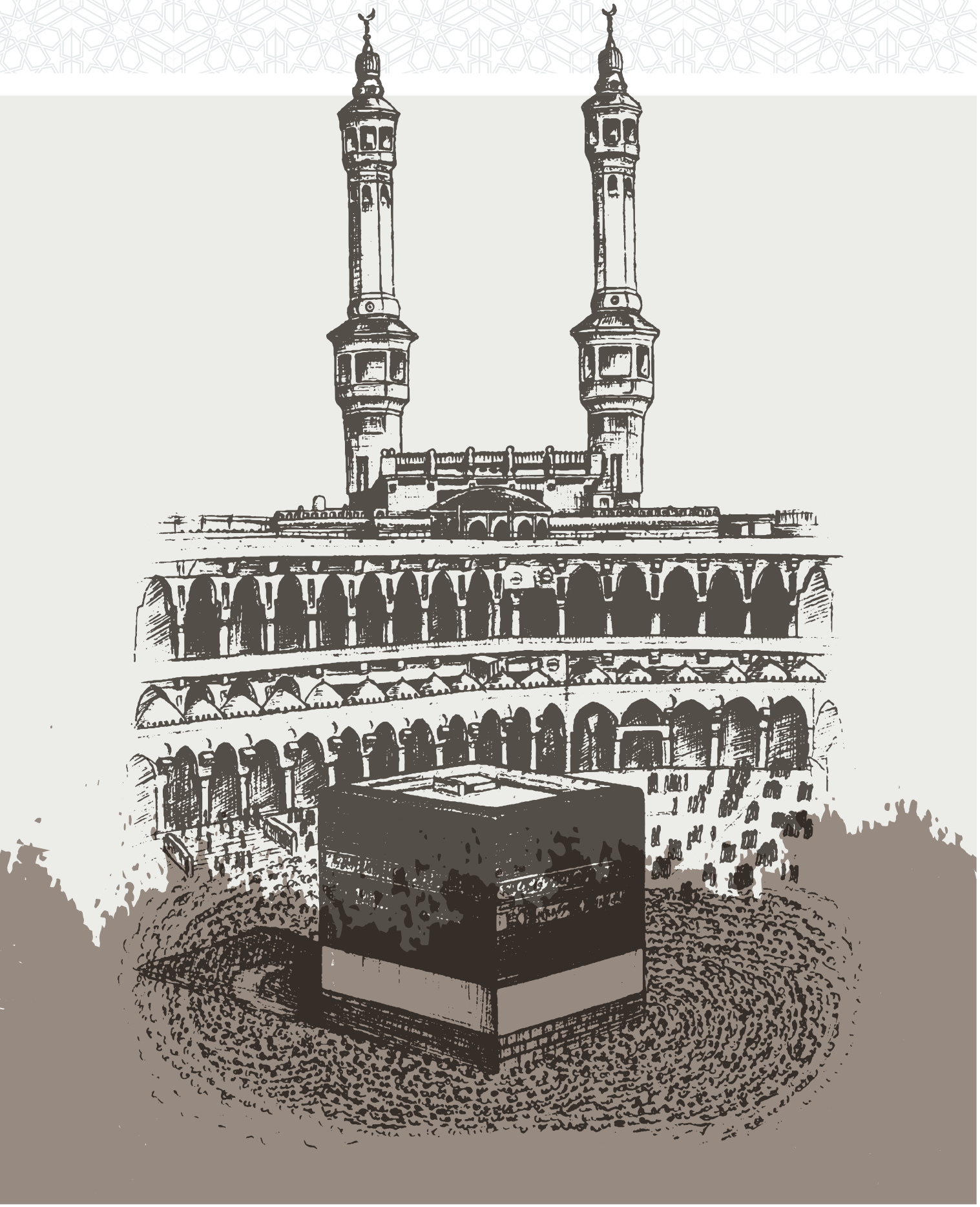
١ دلَّ فِعلُ عمَّار ﷺ أنَّ الواجبَ على المسلم إذا غاب عنه حُكمُ مسألةٍ من المسائل، لا يعرِف حكمَها وقولَ أهل العلم فيها، ولا يتَّسِع الوقت لسؤال غيره أو كان في سفرٍ بحيث لا يَقدر على الفُتيا؛ أن يجتهد ما استطاع، ثمَّ إذا تمكَّن من السؤال سأل ليتعرَّف على الحكم الشرعي الصحيح في تلك المسألة.

٢ في الحديث أنَّ المجتهدَ المتأوِّلَ إذا كان من أهل الاجتهاد وتأوَّل في مسألةٍ؛ أنَّه لا إعادة عليه إذا أصاب الحقَّ من وجهٍ؛ فالنبيُّ ﷺ لم يأمر عمَّارًا ﷺ بالإعادة؛ لأنه أخطأ المشروع في صفة الطَّهارة، ولكنَّه أتى بالطهارة على غير الصورة المعتبَرة[1].

٣ دلَّ الحديثُ على أنَّ شرع الإسلام فيه الخير واليُسر، حيث لم يُكلِّف الإنسان ما لا يَقدِر عليه، فرخَّص له التَّيمم، وتساهل فيه حيث اكتفى فيه بمسح الكفِّين والوجه.



(١) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٢/ ٢٢٣).



عن جَابِر بن عبد الله ﷺ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[1].

(١) مسلم (٨٢).

آيات

- ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].
- ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٣].

الراوي

هو: أبو عبد الله جابرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، شَهِد بيعَة العقبة الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، وكان والده من النُّقباء البدريِّين، وكان آخِرَ مَن مات ممن شَهِد ليلة العقبة الثانية، ولم يشهد بدرًا وأحدًا استجابة لأمر أبيه، وشهد صِفِّين مع عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، وهو مُفتي المدينة في زمانه، تُوفِّي سنةَ (٧٨هـ) وقد جاوز التسعين[1].

خلاصة

يخبِر النبي ﷺ أنَّ الصلاة هي الفَيصل بين الإسلام والكفر، فمَن ترك الصلاة فقد كفَر.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

الصلاة هي الرُّكن الثاني من أركان الإسلام بعد الشَّهادتينِ، وهي عمودُ الإسلام الذي يُبنى عليها؛ قال ﷺ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»[1]، وهي أحبُّ الأعمالِ إلى الله تعالى؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلاةُ عَلى وقْتِهَا»[2].

ولهذا كانت الصلاةُ علامةً تميِّز المسلمين؛ فالمنافق يتثاقل عنها، ولا يؤدِّيها إلا كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

والكافرُ يجحَدُ وجوبَها ويتركها بالكُلِّيَّة، ولهذا توعَّد الله عزَّ وجلَّ تاركها بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٣]، وقد قال سبحانه عن سَقَر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

وفي هذا الحديث يخبِر النبيُّ ﷺ عن حُكم تارك الصلاة، فيذكر أنَّها الفاصلة بين المسلم والكافر؛ فبيْن الرجلِ وبين الشِّرْك أو الكفر تركُ الصلاة، وهي كقوله ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[3]، وقال عمر ﷺ: «لَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ»[4]، وكان عبد الله بن شَقيقٍ رحمه الله يقول: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»[5].

---

(١) الترمذيُّ (٢٦١٦)، والنسائيُّ (١١٣٣٠).

(٢) البخاريُّ (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٣) الترمذيُّ (٢٦٢١)، والنسائيُّ (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩).

(٤) رواه مالك في الموطأ (١/ ٣٩)، والدارقطني (١٧٥٠).

(٥) الترمذيُّ (٢٦٢٢).



١ أجمع الفقهاءُ على أنَّ تارك الصلاةِ جحودًا كافرٌ مرتدٌّ عن الدين، واختلفوا في تاركها تكاسلًا وتهاونًا؛ فقيل: كافرٌ، وقيل: فاسقٌ يُستتاب وإلا قُتل، وقيل: فاسقٌ ولا يُقتل. والمسلمُ الحقُّ الذي عرَف ربَّه تعالى وآمن بنبيِّه ﷺ لا يَنزِل تلك المنزلة التي اختلف فيها الفقهاء بين التكفير والتفسيق، وإنما يسارِع إلى مرضات الله تعالى ويتقربُ إليه بالنوافل بعد أداء الفرائض.

٢ لمَّا طُعن عمر بن الخطاب ﷺ وأدخلوه بيته، حاولوا أن يوقِظوه من إغمائه، فقالوا: لن يوقِظَه إلا الصَّلاة، فنادوا: الصلاةَ يا أمير المؤمنين! فقال: «نعم، ولا حظَّ في الإسلام لمن ترَك الصلاة»، وصلَّى ودَمُه يسيل من جُرحه. فإلى أيِّ مدى كان اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بالصلاة؟![1]

٣ عن عبد الله بن عمرِو بنِ العاص ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: أنه ذَكَرَ الصَّلاةَ يَوْمًا فَقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»[2].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وإنما خصَّ هؤلاء الأربعة بالذِّكر؛ لأنهم من رؤوس الكَفَرة. وفيه نُكتةٌ بديعة؛ وهو أن تارك المحافظة على الصلاة، إمَّا أن يَشغَله مالُه أو مُلكُه أو رياسته أو تجارته، فمَن شَغَله عنها مالُه فهو مع قارون، ومن شَغَله عنها ملكه فهو مع فِرعونَ، ومن شَغله عنها رياسةٌ ووزارة فهو مع هامانَ، ومَن شَغَله عنها تجارته فهو مع أبيِّ بنِ خَلَفٍ»[3].

٤ كيف يتخلَّف أحدٌ عن الصلاة وهي التي جعلها اللهُ سبحانه مكفِّرةً لسيئات العبد وخطاياه؟! قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»[4].

٥ قال ابن مسعود ﷺ في شأن صلاة الجماعة: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[5]. فكيف يَترُكُ الصلاةَ مسلمٌ بإرادته واختياره؟!

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٣٩)، والدارقطني (١٧٥٠).

(٢) أحمد (٦٥٧٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) «الصلاة وأحكام تاركها» لابن القيم (ص: ٥١).

(٤) البخاريُّ (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٥) مسلم (٦٥٤).



قال الشاعر:

ارْتِفَاعُ الأَذَان فَــوْقَ الْمَآذِنْ ... فِي انْبِلَاجِ الصَّبَاحِ وَاللَّيْلُ سَاكِنْ

دَعْوَةٌ تَحْمِلُ الْحَيَاةَ إِلَى الْكَوْ ... نِ وَســكَّانِهِ قُـرَى وَمــدَائِنْ

وَنِدَاءٌ مِنَ السّـمَاءِ إِلَى الأَرْ ... ضِ إِلَى ظَــاهِرٍ عَلَيْهَا وَبَاطِـنْ

وَلِقَاءٌ بَيْنَ الْمَـلائِكِ وَالإِيـ ... ـمَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِـنْ غَيْــرِ آذِنْ

وَانْطِلاقٌ إِلَى الْفَلاحِ إِلَى الْخَيْـ ... ـرِ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالْمَحَاسِنْ

قال غيره:

يَنْســـَى بِهَا دُنْيَـاهُ وَهْـــوَ مُكَبِّرٌ ... وَيَرَى حَقِيقـــَةَ نَفْسِهِ مُتَجَرِّدَا

جَافَتْ جُنُوبُ الصَّالِحِينَ مَضَاجِعًا ... وَقَضَوْا لَيَالِيَهُمْ قِيَامًا سُـــجَّدَا

وَسَـــعَوْا إِلَيْهَا فِي الظَّلامِ يَحُثُّهُمْ ... شَـــوْقٌ يَهُزُّ قَوِيَّهُمْ وَالْمُقْعَـدَا

يَتْلُـــونَ آيَ اللهِ في مِحْـــرَابِهَا ... وَالْفَجْرُ يُوشِكُ نُـــورُهُ أَنْ يُولَدَا

حَتَّى إِذَا ارْتَفَـــعَ النِّـــدَاءُ وَكَبَّرُوا ... وَتَـوَجَّهُـــوا للهِ رَبّـــًا مُفْـرَدَا

أَبْصَـــرْتَ أَرْوَعَ مَا يُرَى فِي لحظةٍ ... وَوَقَفْتَ إجلالاً تُحَيِّي الْمَشْـهَدَا

وَرَأَيْتَهُمْ صَـفًّا وَقَلْبًا واحـــدًا ... وَلِسَانُ حُبٍّ للسّـــلَامِ مُرَدِّدَا



عن أبي سُليمانَ مالكِ بنِ الحُوَيْرِثِ ﷺ، قال:

١ أَتَينا النبيَّ ﷺ ونحن شَبَبَةٌ مُتقارِبون، فأقمْنا عنده عِشرين ليلةً، فظنَّ أنَّا اشتَقْنا أهْلَنا، وسألَنا عمَّن ترَكْنا في أهلنا، فأخبرناه،

٢ وكان رفيقًا رحيمًا، فقال: «ارْجِعوا إلى أهلِيكم،

٣ فعلِّموهم ومُروهم،

٤ وصلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي،

٥ وإذا حضَرتِ الصلاةُ، فلْيُؤذِّنْ لكم أحدُكم، ثم لِيَؤُمَّكم أكبرُكم»[1].

(١) البخاريُّ (٦٠٠٨)، ومسلم (٦٧٤).

آيات

- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

الراوي

هو: مالكُ بنُ الحُوَيْرِثِ بنِ حشيشٍ الليثيُّ، أبو سليمانَ، وثَمَّةَ خلافٌ في اسمه، سكن البصرة، وقَدِم على النبيِّ ﷺ، فأقام عنده في مجموعةٍ من الشباب من قومه، فعلَّمهم الصلاة، وأمرهم بتعليمهم القومَ إذا رجعوا إليهم، وله عدَّة أحاديث في الصلاة، تُوفِّي سنةَ (٩٤هـ)[1].

خلاصة

وفَد بعض الشباب على النبيِّ ﷺ فأقاموا عنده عِشرين ليلةً يتعلمون الدين، فلمَّا أحسَّ ﷺ أنهم اشتاقوا إلى أهلهم أشفَق عليهم، وأمرهم بالرجوع إلى أهلهم وتعليمهم ما عَلِموا منه ﷺ وأن يُصلُّوا كما رأَوه ﷺ يصلي، وأن يؤمَّهم أكبرهم سنًّا في الصلاة.

(١) تُراجع ترجمته في: «معجم الصحابة» لابن قانع (٣/ ٤٥)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٤٦٠)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٣٤٩).

١ وَفَد مالك بن الحُوَيرث ﷺ مع جماعة من أصحابه من بَني اللَّيث على النبيِّ ﷺ، وكانوا جميعًا شبابًا متقارِبين في السِّن، فأقاموا عنده عشرين ليلةً يتعلَّمون ويتفقَّهون في دين الله تعالى، فلمَّا أحسَّ منهم ﷺ أنَّهم قد اشتاقوا إلى أهلهم، سألهم إن كانوا تركوا أحدًا من أهليهم، فأخبروه بمن خلَفَهم من الأهل.

٢ فلمَّا أخبروه أمرهم بالرجوع إليهم، وذلك من رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين، وقد قال سبحانه وتعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وإنما أمرهم النبيُّ ﷺ بالرجوع إلى أهلهم؛ لأن ذلك كان بعد فتح مكَّةَ؛ إذ انقطعت الهجرة بفتح مكَّةَ؛ لقوله ﷺ: «لا هِجرةَ بعد الفتحِ»[(١)]، فصار المُقام بالمدينة اختياريًّا، فمَن شاء أقام، ومَن شاء عاد إلى قومه بعد أن يتعلَّم ما يحتاج إليه من العلم والدين، ويعلِّمه قومه[(٢)].

وأجاز لهم الرجوع وأمرهم به؛ لأنه عَلم أنهم قد تعلَّموا ما يَكفيهم من أمور دينهم من الفقه والتوحيد، وإلَّا فما كان ﷺ لِيَتركهم يرجعون إلى أهليهم فضلًا عن أن يأمرهم بتعليمهم.

٣ ولذلك أمرهم ﷺ بتعليم قومهم ما عَلِموه في دين الله تعالى، بل أخبرهم ﷺ أن التعليم وحده ليس كافيًا، فعلى كلِّ واحدٍ أن يأمر أهله ويراقبهم، فهو مسؤولٌ محاسبٌ عنهم، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال ﷺ: «كُلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته»[(٣)]، فكما أنَّ التعليم واجبٌ، فكذلك الأمرُ والمتابعةُ[(٤)].

٤ ثُمَّ وضَع ﷺ القاعدة العريضة في الدِّين وأحكامه، وهي متابعة النبي ﷺ والاتباع له، في الصلاةِ وهيئاتها وأحكامها، وما يُقال فيها وما يُبطلها، وما يوجب سجودَ السهوِ بها؛ فإنَّ أفعالَ النبيِّ ﷺ بيانٌ لِما أجمل اللهُ تعالى ذكرَه في القرآنِ الكريم؛ فلم تأتِ آياتُ القرآنِ مُفَصِّلَةً أحكام الصلاة وعدد ركعاتها ومواقيتها وأركانها وسُننها وهيئاتها، بل أتت تأمر بالحفاظ على الصلاة في أوقاتها، تاركةً بيانَ ذلك لسُنَّتِه ﷺ القولية والفعلية، ولهذا قال ﷺ: «وصلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي».

---

(١) البخاريُّ (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٢٣٦).

(٣) البخاريُّ (٢٤٠٩)، ومسلم (١٨٢٩).

(٤) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٤/ ١٤٨).

وهكذا في سائر التشريعات والأحكام؛ ففي الحجِّ يقول ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»[1]، وقد اتفق العلماءُ على أنَّ أفعال النبيِّ ﷺ إذا كانت بيانًا لمجملٍ كالصلاة والصيام والحجِّ، فإنها تُحمَل على الوجوب، إلا أن يدلَّ دليلٌ خاصٌّ على أنَّها ليست للوجوب[2].

وهذا الوجوب على جميع الأمَّة بشرط أن يَثبُت عنه ﷺ استمراره على الفعل المعيَّن، فيكون واجبًا على أُمته، أما ما لم يثبُت استمراره عليه فليس بواجب[3].



٥ ثم أرشدهم ﷺ إلى أنَّه إذا حضر وقت الصلاة أن يؤذِّنَ أحدُهم، ويُصَلِّي بهم أكبرهم سِنًّا.

والأصلُ في الإمامة أن يُقدَّم الأقرأُ للقرآن، كما في حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يؤمُّ القومَ أقرؤُهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً، فأعلمُهم بالسُّنَّة، فإن كانوا في السُّنَّة سواءً، فأقدمُهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواءً، فأقدمُهم سِلْمًا»[4]، وصلَّى عمرو بن سَلِمة رحمه الله بقومه زمان النبيِّ ﷺ وهو ابن سِتِّ سنين؛ لأنَّه كان أقرأَهم[5]. وإنَّما أمرهم النبيُّ ﷺ أن يُقدِّموا أكبرَهم سِنًّا لَما عَلِم من حالهم أنَّ قراءتهم مُتقاربة؛ بدليل قوله في رواية مسلم: «كانا مُتقارِبَين في القراءة»[6]، وقد دخلوا الإسلام في وقت واحد؛ فالغالب أن تكون قراءتهم ومعرفتهم بالسُّنَّة متساويةٌ، فلهذا اختار الأكبر سِنًّا.

---

(١) مسلم (١٢٩٧).

(٢) انظر: «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطّال (١٠/ ٣٤٥)، «رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام» للفاكهانيّ (٢/ ١٦٧).

(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٢٣٧).

(٤) مسلم (٦٧٣).

(٥) البخاريُّ (٤٣٠٢).

(٦) مسلم (٦٧٤).

١ (١) في الحديث بيانُ اهتمام الصحابة ﷺ بطلب العلم ومعرفة الأحكام الشرعية، وأنهم تركوا في ذلك الأهلَ والوطنَ. وهذا لِما استقرَّ في نفوسهم من فضيلته وعظيم قدره، فلا ينبغي أن يُفَوِّت الإنسانُ على نفسِه ذلك الثواب، خاصةً وأن طلب العلم وتحصيله أصبح يأتيه من غير كَدٍّ أو مشقةِ سفر.

٢ (١) اهتمَّ النبيُّ ﷺ بالشباب وحرَص على تعليمهم ثم إرسالهم سُفراء ودعاةً إلى أقوامهم؛ فالشباب عمادُ الأمة وحملة نهضتها، فيجب توجيه اهتماماتهم إلى العمل والدعوة والإصلاح.

٣ (١) فَهِم النبيُّ ﷺ خصائص الشباب النفسية وأدرك احتياجاتهم العاطفية، ولهذا سمح لهم بالعودة إلى أهلهم، فينبغي مراعاة متطلباتهم وظروفهم والعناية بهم عناية خاصَّة.

٤ (٢) يجب على الداعية والمُعَلِّم والمُرَبِّي أن يكون رفيقًا رحيمًا، لا تتعارض دعوتُه مع حاجات النَّاس الضرورية، بل يرفق بهم ما استطاع، ويحرص على الانتفاع بأوقات نشاطهم ويقظتهم، ويمنحهم الراحةَ والفسحةَ التي تلائم أجسادهم وأرواحهم.

٥ (٢) من فقه الداعية والمُرَبِّي ألَّا يكلف أحدًا بما لا يطيق، بل يراعي قوَّته وقدرته على تنفيذ ما أُمر به شيئًا فشيئًا.

٦ (٢) ينبغي للإنسان أن يُقيم في أهله ما أمكنه، ولا ينبغي أن يغترب عنهم، ولا أن يبتعد عنهم، حتى إن الرسول ﷺ أمر المسافر إذا قضى حاجته أن يرجِع إلى أهله[1].

٧ (٣) أوصى النبيُّ ﷺ في هذا الحديث وفي غيره من الأحاديث بتبليغ الدِّين ونشر الدعوة، ومنه قوله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[2]؛ فالداعيةُ مُبَلِّغٌ عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، قائمٌ في النَّاسِ مقامَ النبيِّ ﷺ من دعوة النَّاسِ إلى الخير ونهيهم عن الشر، وبيان شرائع الدين وفقه أحكامه. فمَن لا يريد أن ينزل تلك المنزلة؟!

٨ (٣) بيَّن النبيُّ ﷺ أن الدعوة تحتاج إلى أمرٍ ومصابرةٍ على التنفيذ، وليست مجرد بيان الأوامر والنواهي، وكم تحمَّل النبيُّ ﷺ في سبيل تبليغ شريعة الله تعالى. فعلى الدُّعاة والعلماء أن يتحلَّوا بالصَّبر والمصابرة في سبيل تطبيق شرع الله تعالى.

---

(١) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٤/ ١٤٧).

(٢) البخاريُّ (٣٤٦١).

٩ (٤) بيانُ أحكامِ الشرع مَوكولٌ إلى النبيِّ ﷺ وحدَه، لا إلى أقوال الرجال، ولا إلى العقول المجردة، ولا إلى الأهواء؛ فالتعبُّدُ لا بدَّ أن يكون موقوفًا على فعلِ النبيِّ ﷺ وقوله، لا نزيدُ ولا نَنقُص عمَّا شرعه.

١٠ (٤) اتباعُ النبيِّ ﷺ في سُنَنِه سبيلُ الحياة والهداية؛ فبِها عرَف المسلمُ كيفية الصلاة ومواقيتها وأحكامها وأركانها وهيئاتها، وضبط أحكام سائر العبادات مِن زكاة وصيام وزكاةٍ وحجٍّ وغيرها، ولو امتنع مسلمٌ عن اتباع سُنَّته ﷺ لظلَّ حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلًا.



١١ (٤) يدخل في اتباعه ﷺ في الصلاة: اتباعُه في الأخذ بالرُّخَص؛ فمن حُسن الاقتداء به أن يُصَلِّي المريضُ جالسًا أو متكئًا حسبما يليق بحاله، وأن يفطر المسافرُ والمريضُ إذا تضرر بصيامه، وأن يصلي المسافرُ جمعًا وقصرًا، وغير ذلك من الرُّخص التي أخذ بها ﷺ في حياته، وقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»[1].

١٢ (٥) يرشِد الحديث إلى توقير الكبير وإنزالِه منزلةً تليق به من الأمور المعتبرة شرعًا، وذلك إذا لم يترتب على ذلك مخالفةٌ شرعيةٌ؛ فالنبيُّ ﷺ جعل السِنَّ مُرَجِّحًا للإمامة إذا تساوى النَّاس في مُقَوِّمات الإمامة من القراءة والفقه والقِدم في الإسلام.

(١) أحمد (٥٨٦٦).



عن أبي هُريرة ﷺ:

١ أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخَل رجلٌ، فصلَّى، فسلَّم على النبيِّ ﷺ، فرَدَّ وقال: «ارجِعْ فصَلِّ؛ فإنَّكَ لم تُصَلِّ»،

٢ فرجَعَ يُصَلِّي كما صَلَّى، ثم جاء، فسلَّمَ على النبيِّ ﷺ، فقال: «ارجِعْ فصَلِّ؛ فإنَّكَ لم تُصَلِّ» ثلاثًا، فقال: والذي بعَثَكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَه، فعَلِّمْني،

٣ فقال: «إذا قُمْتَ إلى الصلاةِ فكَبِّرْ،

٤ ثم اقرَأْ ما تَيسَّرَ معَكَ منَ القرآنِ،

٥ ثم اركَعْ حتى تَطمئِنَّ راكعًا، ثم ارفَعْ حتى تَعدِل قائمًا، ثم اسجُدْ حتى تَطمئِنَّ ساجِدًا، ثم ارفَعْ حتى تَطمئِنَّ جالسًا، وافعَلْ ذلك في صلاتِكَ كلِّها»[1].

(١) البخاريُّ (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).

آيات

- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].
- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

الراوي

عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهَرُ ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ "يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرينِ، ثم بعد ذلك عاد وسكُن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

دخل رجلٌ المسجدَ فصَلَّى، ثم أتى النبيَّ ﷺ فسلَّم عليه، فردَّ النبيُّ ﷺ السلامَ عليه، ثم أمره بإعادة الصلاة، فيفعل الرجلُ ثم يرجع، فيأمره النبيُّ ﷺ بالإعادة، فَعل ذلك ثلاثًا، فأخبره الرجلُ أنَّه لا يُحسِن غيرها، فعلَّمه النبيُّ ﷺ كيفية الصلاة.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

هذا الحديث من أهمِّ أحاديث فِقه الصلاة؛ حيث اشتمل على أهمِّ أركان الصلاة وواجباتها، وقد اهتمَّ الفقهاءُ به جدًّا واستدلُّوا به في كثيرٍ من مسائل الفقه، وهو مشهور بين العلماء بـ: «حديث المُسيء صلاته».

١ دخل رجلٌ المسجدَ فصلَّى، والنبيُّ ﷺ يراقب صلاته، فلما انتهى الرجلُ من صلاته جاء إلى النبيِّ ﷺ مُسَلِّمًا، فردَّ ﷺ السلامَ عليه، ثم أمره بالإعادة وأنَّ صلاته غيرُ مقبولة ولا مجزئةٍ عنه.

ولولا أنَّها غيرُ مجزئةٍ لَمَا أمره ﷺ بالإعادة، ولَنبَّهَه على ما وقع فيه من الأخطاء ليَتفاداها بعد ذلك.

٢ فرجَع الرَّجُل وصلَّى كما صلَّى في المرة الأولى، ولهذا لمَّا رجع إلى النبيِّ ﷺ أمره بالإعادة مجدَّدًا، فذهب الرجل وصلَّى كصلاتِه الأولى، ويأمره النبيُّ ﷺ بالإعادة، فيخبره الرجلُ أنَّه لا يُحسِن غير تلك الصلاة، ويطلب من النبيِّ ﷺ أن يُعلِّمه كيف يصلي، وما الذي وقع فيه من الأخطاء فأفسَد عليه صلاته.

وإنَّما لم يُبيِّن له النبيُّ ﷺ ما أخطأ فيه من البداية ربَّما لأنه ﷺ ظنَّ أنَّ الرجل يعلم أحكام الصلاة وواجباتها وأركانها، لكنَّه خالَف عِلْمَه، فلذلك أمره بالإعادة، فلمَّا أخبر الرجلُ أنَّه لا يُحسِن الصلاةَ بيَّن له أحكامها، أو لأنَّه ﷺ إذا أمَر الرجلَ بالإعادة مرارًا ثم بيَّن له سبب الإعادة، كان ذلك أجمعَ لفَهمِه وحفظه، فلا يخطِئ بعد ذلك أبدًا[1].

٣ فأخبَره النبيُّ ﷺ أنَّه إذا أراد الصلاة فلْيَبدأ بتكبيرة الإحرام. ومعنى ذلك أنَّها ركنٌ لا تَصِح الصلاةُ بدونها؛ فالنبيُّ ﷺ يُعلِّم الرجلَ ما تصحُّ به صلاته، والمقامُ مقامُ تعليمٍ لا يُحسِن فيه أن يَزيد مع الأركان بيانَ السُّنَنِ ونحوها[2].

ولم يَذكر النبيُّ ﷺ النِّيَّةَ لأنَّ الرجلَ قد عَلمها؛ إذ من أصول الدِّين التي لا يجهلها أحدٌ أن الأعمال بالنِّيات؛ في الصلاة والزكاة وجميع العبادات.

٤ ثُمَّ أمره أن يَقرأ ما تيسَّر له من القرآن، وليس معنى ذلك أنَّه يجوزُ له أن يقرأ بما شاء، بل جاء تفصيلُ ذلك في الأحاديث الأخرى بوجوب قِراءة فاتحة الكتاب وأنه: «لا صلاةَ لِمَنْ لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[3]، فيكون المرادُ أنَّ

---

(١) انظر: «شرح المشكاة الكاشف عن حقائق السنن» للطيبي (٣/ ٩٧٧)، «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (٣٠/ ٣١٣)، «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٢٨١).

(٢) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٢/ ٢٨٢).

(٣) البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

ما تيسَّر من القرآن هي الفاتحة؛ لأنَّ اللهَ سبحانه يسَّر حِفظها للرجال والنساء والأطفال، أو المرادُ ما بعد الفاتحة من القراءة حيث علم الرَّجلُ أنَّ قراءة الفاتحةِ ركنٌ في الصلاة، فأرشده إلى ما بعدها إن تيسَّر له ذلك[1].

٥ ثُمَّ أمره ﷺ بالركوع والطُّمأنينة فيه، والاعتدال واستواء الظَّهر عند الرفع منه، والطُّمأنينة في السُّجود. والمُراد من هذا بيانُ أنَّ الطُّمأنينة في الصلاة وعدم العجلة فيها ركنٌ من أركان الصلاة لا تَصِحُّ الصلاةُ بدونها، ولهذا أمره ﷺ بالإعادة، وقد ذمَّ ﷺ الصلاةَ التي ليس فيها طُمأنينة، فقال: «تلك صلاةُ المنافق؛ يجلس يَرقُب الشمس، حتى إذا كانت بين قَرْنَيِ الشيطان، قام فنَقَرها أربعًا، لا يَذكُر الله فيها إلا قليلًا»[2]. ومعنى النَّقر: سرعةُ أداء الحركات وعدم الطُّمأنينة فيها كنَقْر الدِّيَكة.

وقد ذكَر النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بعض أركان الصلاة التي لا تصحُّ إلا بها، وترك غيرها من الأركان، مثل: النيَّة، والجلوس للتشهد الأخير، والتسليم؛ لأنَّ الرجل قد عَلِم تلك الأمور، ورآه النبيُّ ﷺ وهو يؤديها، وإنما غابت عنه أشياء أخرى، فدلَّه النبي ﷺ على فِعلها[3].



(١) انظر: «معالم السنن» للخطَّابيِّ (١/ ٢١٠)، «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٢/ ٢٨٢)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٢/ ٢٩).

(٢) مسلم (٦٢٢).

(٣) انظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (٤/ ١٠٧).

التَّنبيه

١ (١) أفاد الحديثُ أنَّ المسلم إذا دخل المسجدَ وفيه قومٌ جلوسٌ، فإنه يُستحبُّ له أن يصلي تحيَّة المسجد أولًا ثم يُسَلِّم على الجالسين.

٢ (١) يجب على المسلم تعلُّم العلم الشرعيِّ الذي به تصحُّ عباداته؛ حتى لا تبطل عباداته.

٣ (١) يُستحَب للعالِم والفقيه والداعية أن يجلس في المسجد ويَلْتف النَّاسُ حولَه، يَعِظهم ويحثُّهم على الخير، ويَصِف لهم صلاةَ النبيِّ ﷺ كما هي.

٤ (١) يُشترَط في قَبول العمل الإخلاص وموافقة السُّنَّة، فكما أنَّ فقْدَ شرط الإخلاص يُحبِط العمل، فكذا العمل المخالف للسُّنة لا تصلِحه النية الصالحة.

٥ (١) يجوز للداعية والفقيه أن يؤخِّر البيانَ في المجلس لحاجة؛ كأن يجعل السامع متلهِّفًا لسماع الحكم الشرعي، أو أن يحرِص على اجتماع الناس ليَسمعوا منه، ونحو ذلك.

٦ (٢) دلَّ الحديثُ على استحباب إفشاء السلام ووجوب ردِّه، وأنه يُستحَبُّ تَكراره إذا تكرَّر اللقاء وإن قرُب العهد، وأنه يجِب ردُّه في كلِّ مرة.

٧ (٢) في الحديث الرِّفقُ بالمتعلِّم والجاهل، ومُلاطفتُه، وإيضاح المسألة، وتلخيص المقاصد، والاقتصار في حقِّه على المهمِّ دون المكمِّلات التي لا يَحتمِل حاله حِفْظَها والقيامَ بها[1].

٨ (٣) مفتاح الصلاةِ التَّكبير، وهي تشير إلى أنَّك إذا دخلت في الصلاة وقلت: «اللهُ أكبر» فحقُّها أن تجعلَه أكبر من الدنيا وما فيها، فلا يَشغَلك عن الخشوع والطُّمأنينة شاغلٌ من صَوارِف الحياة الدنيا.

٩ (٤) دلَّ الحديثُ على التيسير على المسلمين وعدم تكليفهم بما يشُقُّ عليهم، فأمْرُ النبيِّ ﷺ الرجلَ بالقراءة بما تيسَّر يخالِفُ مداومة بعضِ الأئمة بقِراءة السور الطِّوال في الصلاة والتشديد على النَّاس، وقد قال ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ»[2].

---

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (٤/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧)، عن أبي هريرة ﷺ.

١٠ (٥) الطُّمأنينة ركنٌ في الصلاةِ لا تصحُّ الصلاةُ بدونه، والغرضُ منها تَعَقُّل معاني الصلاةِ وما يقوله المسلمُ فيها من الأذكار والأدعية، وليست مجرد حركات يؤديها المسلم فيَرفع ويَخفِض.

١١ من التواصي بالحقِّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تَنبيهُ الجاهلين وتعليمهم؛ فعن زيد بن وهب رحمه الله قال: رَأَى حُذَيْفَةُ ﷺ رجُلًا لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، قَالَ: (مَا صَلَّيْتَ، وَلَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَيْهَا)، وهذا من الزَّجرِ الشديدِ[1].

قال الشاعر:

تُصَلِّي بـلا قَلْبٍ صَـــلاةً بِمِثْلِهَا ... يَكُونُ الفَتَى مُســـتَوْجِبًا لِلْعُقُوْبَةِ

فوَيْلَكَ تَدْرِي مَن تُناجِيهِ مُعْرِضًا ... وبَيْنَ يَدَيْ مَنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتِ

تُخَـــاطِبُهُ إِيَّـــاكَ نَعْبُدُ مُقْبِـــلًا ... عَلَى غَيْرِهِ فيهَـــا لِغَيْرِ ضَـــرُورَةِ

ولو رَدَّ مَن نَاجَـاكَ لِلغَيْرِ طَرْفَهُ ... تَمَيَّزْتَ مِـن غيـــظٍ علـيهِ وَغَيْرَةِ



(١) البخاريُّ (٧٩١).



عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال:

١ «مَن صلَّى صلاةً لم يَقرَأْ فيها بأُمِّ القُرآنِ فهي خِدَاجٌ - ثلاثًا - غيرُ تَمامٍ»،

٢ فقيلَ لأبي هُرَيْرَةَ: إنَّا نكونُ وراءَ الإمامِ؟ فقال: اقرَأْ بها في نَفْسِكَ؛

٣ فإنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «قال اللهُ تعالى: قَسَمْتُ الصلاةَ بَيْني وبينَ عَبْدي نِصفَيْنِ، ولعَبْدي ما سأَلَ،

٤ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله تعالى: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال: مجَّدني عبدي،

٥ فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعَبْدي ما سَأَلَ،

٦ فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال: هذا لِعَبْدي، ولِعَبْدي ما سَأَلَ»[1].

(١) مسلم (٣٩٥).

آيات

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٧].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهرُ ما قِيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم روايةً للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يروي أبو هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر أنَّ من صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بالفاتحة فهي ناقصةٌ نقصًا يؤثر في صحتها، فسُئل أبو هريرة ﷺ عن قراءتها خلف الإمام في الجماعة، فأمر بقراءتها لفضل حديثٍ رواه النبيُّ ﷺ عن ربِّه أنَّه قَسم قراءة الفاتحة بينه وبين عبده.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يَذكر النبيُّ ﷺ أنَّ مَن صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها الفاتحة فهي ناقصةٌ غيرُ تامَّة.

وهذا النُّقصانُ من نُقصان الصِّحة الذي يؤثر على قَبول العمل؛ لقوله ﷺ: «لا صلاةَ لِمَنْ لم يَقرأْ بفاتحة الكتاب»(١).

وسُمِّيت الفاتحة بأمِّ القرآن لأنَّها أصلُه، ومعاني سُوَر القرآن جميعًا -من الثناء على الله والتعبُّد له والترغيب والترهيب وقصص السابقين- راجعةٌ إليها، كما أنَّ مَكَّةَ أمُّ القرى لأنَّها أصلُها(٢).

٢ فسُئل أبو هريرة ﷺ راوي الحديث عن قِراءتها للمأموم في جماعةٍ، فأخبره أنَّ عليه أن يَقرأها في سِرِّه. وهذا القولُ وإن كان موقوفًا على أبي هريرة ﷺ إلا أنَّه في حُكم المرفوع؛ فعن عُبادةَ بنِ الصامت ﷺ، قال: كنا خلْفَ رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، فقرأ رسول الله ﷺ، فثَقُلَت عليه القراءة، فلما فرَغ قال: «لعلكم تَقْرؤون خلْفَ إمامكم؟» قلنا: نعمْ، هَذًّا يا رسول الله، قال: «لا تَفعلوا إلا بفاتحة الكتاب؛ فإنه لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بها»(٣).

٣ ثُمَّ علَّل أبو هريرة ﷺ سببَ قوله ذاك؛ وهو أنَّ الله تعالى أخبر في الحديث القدسي أنَّه قَسَم القراءة بينه وبين عبدِه نِصفَين.

والمراد من القِسمةِ قِسمةُ المعاني، وهو أنَّ اللهَ سبحانه يُقابِل اللفظ بما يساويه؛ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله تعالى: حَمِدني عبدي.

وقد يكون المرادُ من التَّنصيفِ أنَّ السورة نِصفها تعبُّدٌ وثناءٌ وتمجيدٌ لله تعالى، ونِصفُها الآخرُ طلبٌ ودعاءٌ، وقد وعَد اللهُ سبحانه باستجابته، وموضع التنصيفِ قولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فالجملةُ الأولى مع ما قبلها ثناءٌ ومدحٌ وتمجيدٌ وتعبُّدٌ لله تعالى، والجملةُ الأخرى وما بعدها استعانةٌ بالله وطلبُ الهدايةِ منه(٤).

والتعبير بالصلاة عن قِراءة الفاتحةِ من تَسمية الشيء بأهمِّ أجزائه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فالمعنى: «ولا تَجهَرْ بقراءتك»(٥).

(١) البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٢) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٢/ ٢٧٢)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٢/ ٢٥)، «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنَّة» للبيضاويِّ (١/ ٢٨٦).

(٣) أبو داود (٨٢٣)، والترمذيُّ (٣١١).

(٤) انظر: «معالم السنن» للخطَّابيِّ (١/ ٢٠٤)، «المسالك في شرح موطَّأ مالك» لابن العربيِّ (٢/ ٣٧٥).

(٥) انظر: «معالم السنن» للخطَّابيِّ (١/ ٢٠٣)، «الميسر في شرح مصابيح السنة» للتوربشتي (١/ ٢٣٩).

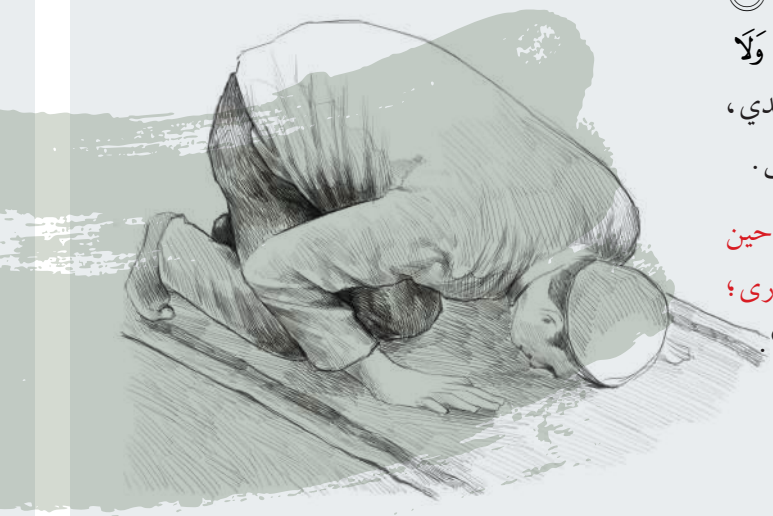
٤ ثم أخبَر ﷺ أنَّ العبد إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] يقولُ الله تبارك وتعالى: «حَمِدني عبدي»، وإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال سبحانه: «أثْنى عليَّ عبدي»، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال سبحانه: مجَّدني عبدي».

والحمد والثَّناءُ والتمجيدُ ألفاظٌ متقارِبة، تتَّفِق جميعها في أنَّها للمدح وذِكر المحاسن؛ إلَّا أنَّ الحمد لا يختصُّ بفعلٍ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ فنَحمَده لأنه الله رب العالمين، أمَّا الثناء فهو ذِكر صفات الممدوح التي تَستحقُّ الثَّناء، ولهذا ذكرها اللهُ تعالى عند قول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ حيث إنَّه لمَّا ذكَر صفة الرحمة قابَلها بالثَّناء، ولمَّا تحدَّث عن اليوم الآخر وأنَّه سبحانه مالِكُه والمتصرِّف فيه، ناسَب ذلك الإخبارُ بالتمجيدِ الذي فيه بيانُ العُلُوِّ والعظَمة[1].

٥ فإذا قال العبدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال سبحانه: «هذه بيني وبين عبدي، ولِعَبْدي ما سأل»؛ حيث تضمَّنت الآية التَّذَلُّلَ لله تعالى والافتقارَ إليه، وإخلاصَ العبادة له وحده، وطلبَ الاستعانة به، والعبادةُ اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحبُّه الله ويَرْضاه من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة، وذلك يَتضمَّن تعظيم الله عزَّ وجلَّ وبيان قُدرته على تحقيق سُؤْلِه[2].

٦ وإذا قال العبدُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال الله تعالى: «هذا لِعَبْدي، ولِعَبْدي ما سَأَل» أي: يَستجيب دُعاءه ويعطيه ما يتمنَّى.

والمغضوب عليهم: اليهود؛ غَضِب اللهُ تعالى عليهم حين علِموا الحقَّ وخالفوه وحادُوا عنه، والضالُّون: النصارى؛ حيث تخبَّطوا عن جهالةٍ وابتداعٍ في الدِّين بغير علم[3].



(١) انظر: «المسالك في شرح موطأ مالك» لابن العربي (٢/ ٣٧٦)، «شرح النوويِّ على مسلم» (٤/ ١٠٤).

(٢) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٢/ ٢٧)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٤٠).

١ (١) الفاتحةُ أمُّ القرآن، وهي أصلُه، وجميع معاني السُّور راجعةٌ إليه. فالكَيِّسُ مَن عرَف معانيها، واستنبَط أحكامَها، وتبيَّن أسرارَ تفضيلها واختصاصها.

٢ (١) يمكن أن نَستخرجَ من هذه السورة علومَ الدُّنيا والآخرة كلها؛ وذلك أنه يُقال: في هذه السورة عِلم الحمد، وعِلم الألوهية، وعِلم الربوبية، وعِلم العالمين، وعِلم الرحمة، وعِلم المُلك، وعِلم الدِّين، وعِلم العبادة، وعِلم الاستعانة، وعِلم الهداية، وعِلم الصراط، وعِلم الاستقامة، وعِلم النعمة، وعِلم ما يُجتَنَب من الغضب، وعِلم ما يُجتَنب من الضلالة[1].

٣ (١) دلَّ الحديث على وُجوب قراءة الفاتحة في كلِّ ركعةٍ في الصلاة؛ فلا يجوز لمسلمٍ أن يُصَلِّي بغيرها.

٤ (١) كرَّر النبيُّ ﷺ قوله: «فهي خِدَاجٌ» ثلاثًا ليُفهَم عنه ويُحفظ، وليؤكِّد على السَّامع حُكم ذلك. والتَّكرار أسلوبٌ نبويٌّ أكثر النبيُّ ﷺ من استخدامه، وحَرِيٌّ بالداعية والمعلم والمُرَبِّي أن يَلتفِت إليه ويُكثِر استخدامه.

٥ (٢) سأل الناسُ أبا هُرَيرة ﷺ عن حُكم قراءة الفاتحة للمأموم؛ إذ يُمكِن أن يكون لها حكمها المنفصِل، ولهذا لم يُنكِر عليهم أبو هُرَيرة ﷺ سؤالهم؛ فلا يَسْتحي مسلمٌ أن يسأل عمَّا لا يَعلمه، وعلى الفقيه والداعية ألَّا يَضِيق ذَرعًا بأسئلة السائل وإنْ كانت مُكرَّرَةً أو مُتَضَمَّنَةً في كلامه.

٦ (٣) سمَّى اللهُ سبحانَه الفاتحةَ صلاةً لأنها أهمُّ أجزائها؛ فلا يَنبغي لمسلمٍ أن يَغفُل عن ذلك الجزء الأهمِّ بحيث يَقرؤه على عَجَلٍ دون تأمُّلٍ وتدبُّر.

٧ (٣) أثناء قِراءة سورة الفاتحة في الصلاة تأمَّل المحاوَرة والمناجاة بين الإنسان وبين ربِّه عز وجل؛ فالواجب علينا أن تكون قلوبنا حاضرةً في حال الصلاة؛ حتى تبرأ ذِمَّتنا، وحتى ننتفِع بها؛ لأن الفوائد المترتِّبة علي الصلاة إنما تكون علي الصلاة الخاشعة الكاملة[2].

٨ (٤) يباهي اللهُ سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين ويَفرُح بهم؛ فإذا قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول سبحانه: حَمِدني عبدي، مُباهيًا فرحًا، فأيُّ عملٍ أعظم وأرجى نفعًا وثوابًا مِن عملٍ يَفرَحُ به اللهَ تعالى.

---

(١) «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٨/ ١٥٧).

(٢) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (١/ ٣٥٥).

١٠ (٥) يَجدُر بالمسلم أن يتأمَّل قوله جلَّ جلالُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فقد قيل: إنها تَجمع سرَّ الكتب المنزَّلة من السماء كلِّها؛ لأن الخلق إنما خُلقوا ليَعبُدوا الله تعالى؛ كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة حقُّ الله على عباده، ولا قُدرةَ للعِباد عليها بدون إعانة الله لهم؛ فلذلك كانت هذه الكلمة بين الله وبين عَبْده؛ لأن العبادة حقُّ الله على عبده، والإعانة من الله فضلٌ من الله على عبده[١].

١١ (٦) أمر اللهُ سبحانه عبادَه أن يطلبوا منه أن يَهديهم الصِّراط المستقيم الذي عليه الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء، فمَن استقام على هذا الصراط، حصل له سعادة الدنيا والآخرة، واستقام سَيره على الصراط يوم القيامة، ومَن خرج عنه فهو إما مغضوب عليه، وهو مَن يعرِف طريق الهدى ولا يتَّبِعه كاليهود، أو ضالٌّ عن طريق الهدى؛ كالنصارى ونحوِهم من المشركين[٢].

١٢ (٦) أرشد الله تعالى عبادَه أن يطلبوا منه الهداية إلى الصراط المستقيم، وأن يُجَنِّبَهم طريق اليهود والنصارى، وذلك يقتضي أن نصرِف أنفسَنَا عن اتباعهم وتقليدهم، بل نخالفُهم ما استطعنا سبيلًا.

١٣ (٦) إذا ختَم القارئ في الصلاة قراءةَ الفاتحة، أجاب اللهُ تعالى دعاءه فقال: «هذا لِعَبْدي ولِعَبْدي ما سأل»، وحينئذٍ تؤمِّن الملائكة على دعاء المصلِّي، فيُشرَع للمصلِّين موافقتهم في التأمين معهم؛ فالتأمينُ مما يُستجابُ به الدعاء[٣].



قال الشاعر:

تُصَلِّي بلا قَلْبٍ صَلاةً بِمِثْلِهَا ... يَكُونُ الفَتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقُوْبَةِ

فوَيْلَكَ تَدْرِي مَن تُناجِيهِ مُعْرِضًا ... وبَيْنَ يَدَيْ مَنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتِ

تُخَاطِبُهُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ مُقْبِلًا ... عَلَى غَيْرِهِ فيهَا لِغَيْرِ ضَرُورَةِ

ولو رَدَّ مَن نَاجَاكَ لِلغَيْرِ طَرْفَهُ ... تَمَيَّزْتَ مِن غيظٍ عليهِ وَغَيْرَةِ

(١) «فتح الباري» لابن رجب (٧/ ١٠٢، ١٠٣).

(٢) «فتح الباري» لابن رجب (٧/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) «فتح الباري» لابن رجب (٧/ ١٠٢، ١٠٣).



عن ابن عمرَ وأبي هُريرةَ رضي الله عنهم،

أنهما سَمعا رسولَ الله ﷺ يقولُ على أعوادِ مِنْبَرِه: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقْوامٌ عن وَدْعِهِمُ الجُمُعاتِ، أو لَيَخْتِمَنَّ اللهُ على قُلوبِهم، ثم لَيَكونُنَّ منَ الغافِلينَ»[1].

(١) مسلم (٨٦٥).

آيات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩ - ١١].

الراوي

ابن عمر: هو عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ، أبو عبد الرحمن القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ، أَسلَم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وما زال صغيرًا لم يحتلِم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ فردَّه النبي ﷺ ولم يشارك في الغزوة، وأَوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وأمُّه وأُمُّ أُمِّ المؤمنين حفصةَ: هي زَينبُ بنتُ مَظْعونٍ، أختُ عثمانَ بنِ مَظْعونٍ الجُمَحيِّ، روى عِلمًا كثيرًا نافعًا عن النَّبيِّ ﷺ وعن أبيه، وأبي بكر، وعثمانَ، وَعليٍّ، وبلالٍ، وَصُهيبٍ، وغيرِهم رضي الله عنهم، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث. توفي سنة (٧٤هـ)[1].

وأبو هريرة: هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مَشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قِيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[2].

خلاصة

خطَب النبيُّ ﷺ على المنبر محذِّرًا من ترك صلاة الجمعة، فمَن تركها ختَم اللهُ على قلبه وأضلَّه وصار من الغافلين.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

في هذا الحديث بيانُ وجوب صلاة الجمعة على جميع المسلمين، والتحذير من تَركِها، وبيان العقوبة الشديدةِ التي يستحقُّها العبدُ في الدُّنيا بتَركِه صلاةَ الجُمعة.

ومعنى الحديث أنَّ أحد الأمرينِ كائنٌ لا مَحالة، فإما أن ينتهي النَّاس عن تَركِ أداءِ صلاة الجمعة، وإلَّا طَبَعَ الله على قلوبهم وغطَّاها فلا تهتدي للحقِّ ولا تَعرِف معروفًا ولا تُنكِر منكَرًا، حتى تصير مع الغافلين، ومنه قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

ويؤكِّد معنى الحديث قوله ﷺ: «مَن ترَك ثَلاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بها، طَبَع اللهُ على قلبه»[1].

وصلاة الجمعة فرضُ عين على كلِّ ذَكرٍ حُرٍّ مسلم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، وقال ﷺ: «على كل مُحتلِمٍ رَوَاحٌ إلى الجُمُعة، وعلى كل مَن رَاحَ إلى الجُمُعة الغُسل»[2].



(١) أبو داود (١٠٥٢)، والترمذيُّ (٥٠٠)، والنسائيُّ في السنن الكبرى (١٦٦٨)، وابن ماجه (١١٢٥).

(٢) أبو داود (٣٤٢)، والنسائيُّ (١٣٧١).

١ المسلمُ الذي يَدعو اللهَ سبحانه وتعالى بالهداية والسداد لا يُعرِّض نفسَه لسخط الله وعقابه، ويجعلها أهلًا للطَّبع على القلب والغفلة عن طاعة الله.

٢ الأمور العِظام تقتضي أمرًا ونهيًا عامًّا على الملأ؛ ولهذا ناسب النهي عن ترك الجماعة والجُمُعة بأن يكون على المنبر مع اجتماع الناس. فيَنبغي للداعية والمُعلِّم والفقيه والمُرَبِّي أن يُنزِل كلَّ أمرٍ منزله، فما يَصلح لدروس الوعظ يخالِف ما يَستحِقُّ أن يكون في خُطبة جمعة، وهكذا.

٣ تختلف حِدَّةُ أسلوب الداعية والمعلم والمُرَبِّي بحسب الموقف؛ فبعضها يَستحِق التعريض بلُطفٍ، وبعضها يَستحقُّ النُّصح، وبعضها يستحقُّ اللَّوم والعتاب الرَّقيق، وأخرى تقتضي الغضب والشِّدة.

٤ لا يجوز في النصيحة ذِكرُ أسماءِ النَّاس المُنذَرين على الملأ، فيَفتضِحوا بذلك، وينتج عن النهي عن المنكَر منكَرٌ أعظم منه، فإن النبيَّ ﷺ قال: «لَيَنْتهينَّ أقوامٌ» ولم يذكر واحدًا بعينه.

٥ صلاةُ الجمعة واجبةٌ بالإجماع، توعَّد اللهُ تعالى على تاركها بألوان النَّكال والعقوبة. فالحذرَ الحذرَ من استحقاقِ غضبِ اللهِ تعالى وعقابه!

٦ يوم الجمعة خيرُ يوم طلَعت عليه الشمس؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»[1]. فإياكَ أن يكون ذلك اليومُ شهيدًا عليك لا لك.

٧ على المسلم الحرصُ على التبكير إلى صلاة الجمعة، والاغتسال ولُبْس أحسن الثياب؛ فإنَّ الجزاءَ على ذلك عظيمٌ، قال ﷺ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ» متفق عليه[2].

قال الشاعر:

يَا لَيْوْمٍ حُسْنُهُ مَـا أَبْدَعَهْ ... وَلأنوارِ الهُدَى مـَا أَجْمَعَهْ

هُوَ يـَوْمٌ رَسـَمَ اللهُ لـه ... خُطَّـــةً مُحـْكَمَـةً مُتَّبعـَـةْ

حَقَّقَ اللهُ بـه وَحْـدتَنا ... في اجْتِمَاعٍ شامِلٍ مَا أَرْوَعَهْ

كُلُّ أُسْـبُوعٍ بِـهِ مَوْعِظَةٌ ... لإمـــامٍ كَـمْ هَدَى مَنْ سَمِعَهْ

إِنَّ يَوْمًـا هُـوَ خَيْرٌ كُـلُّهُ ... هُوَ يَـوْمُ الأُمَّةِ الْمُجْتَمِعَـةْ

لَيْسَ في الأيَّامِ مَا يَفْضُلُهُ ... أَفْضـَلُ الأيـَّامِ يَوْمُ الجُمُعَةْ

وَحْدَةُ الأمَّةِ عُنْوانٌ عَلَى ... أنهـا فـي القِمَّةِ الْمُرْتَفِعـَةْ

(١) مسلم (٨٥٤).

(٢) البخاريُّ (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠).



عن أنس ﷺ قال:

قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ولهم يومانِ يَلعبون فيهما، فقال: «ما هذانِ اليومانِ؟!» قالوا: كنا نلعَب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلَكم بهما خيرًا منهما؛ يومَ الأضحى، ويومَ الفِطر»[1].

(١) أبو داود (١١٣٤)، والنسائيُّ (١٥٥٦).

آيات

- ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].
- ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢].
- ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الراوي

هو: أبو حمزة أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ بنِ ضَمْضَمٍ الأنصاريُّ، الإمامُ، المفتي، المقرئ، المحدِّث، راوية الإسلام، خادمُ رسولِ الله ﷺ، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة وأنسٌ ابنُ عَشْرٍ، ومات وهو ابنُ عِشرين، وكان يَخدُم النبيَّ ﷺ، فصَحِبَه أتمَّ الصُّحبةِ، ولازَمه أكملَ الملازمة منذ هاجَر، وإلى أن مات، وغزا معه غيْرَ مرةٍ، وبايَع تحت الشجرة. دعا له رسول الله ﷺ بكثرة المال والولد، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

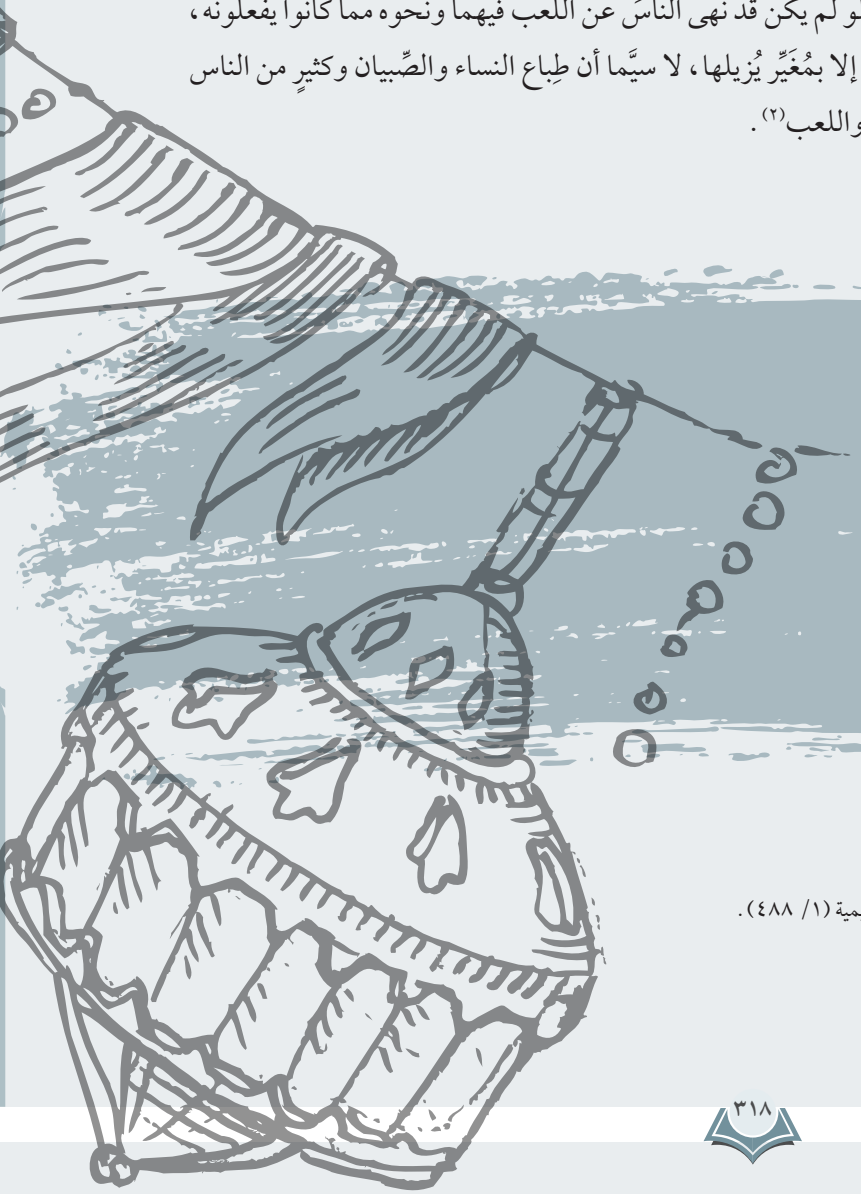
كان أهلُ المدينة يحتفلون قديمًا بيومينِ من أيام الجاهلية، فلما هاجَر النبيُّ ﷺ إليهم ورأى احتفالهم به سَألهم عن ذلك، فأخبروه، فنهاهم عن الاحتفال، وأخبرهم أنَّ الله قد عوَّضهم عن اليومين بخيرٍ منهما؛ عِيدَا الفطر والأضحى.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

لمَّا هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة، وجَد الأنصار يحتفلون ويلعبون في يومينِ معيَّنينِ من أيام السَّنة، وهما: يوم النَّيروز ويوم المهرَجان[1]، فاستنكَر النبيُّ ﷺ احتفالهم في هذينِ اليومينِ، فأخبروه أنَّ هذينِ اليومينِ من أعياد الجاهلية التي اعتادوا الاحتفال واللَّعِب فيها، فنهاهم النبيُّ ﷺ عن ذلك وأخبرهم أنَّ الله قد أبْدَلهم بهذينِ اليومينِ خيرًا منهما؛ عِيدَي الفطر والأضحى.

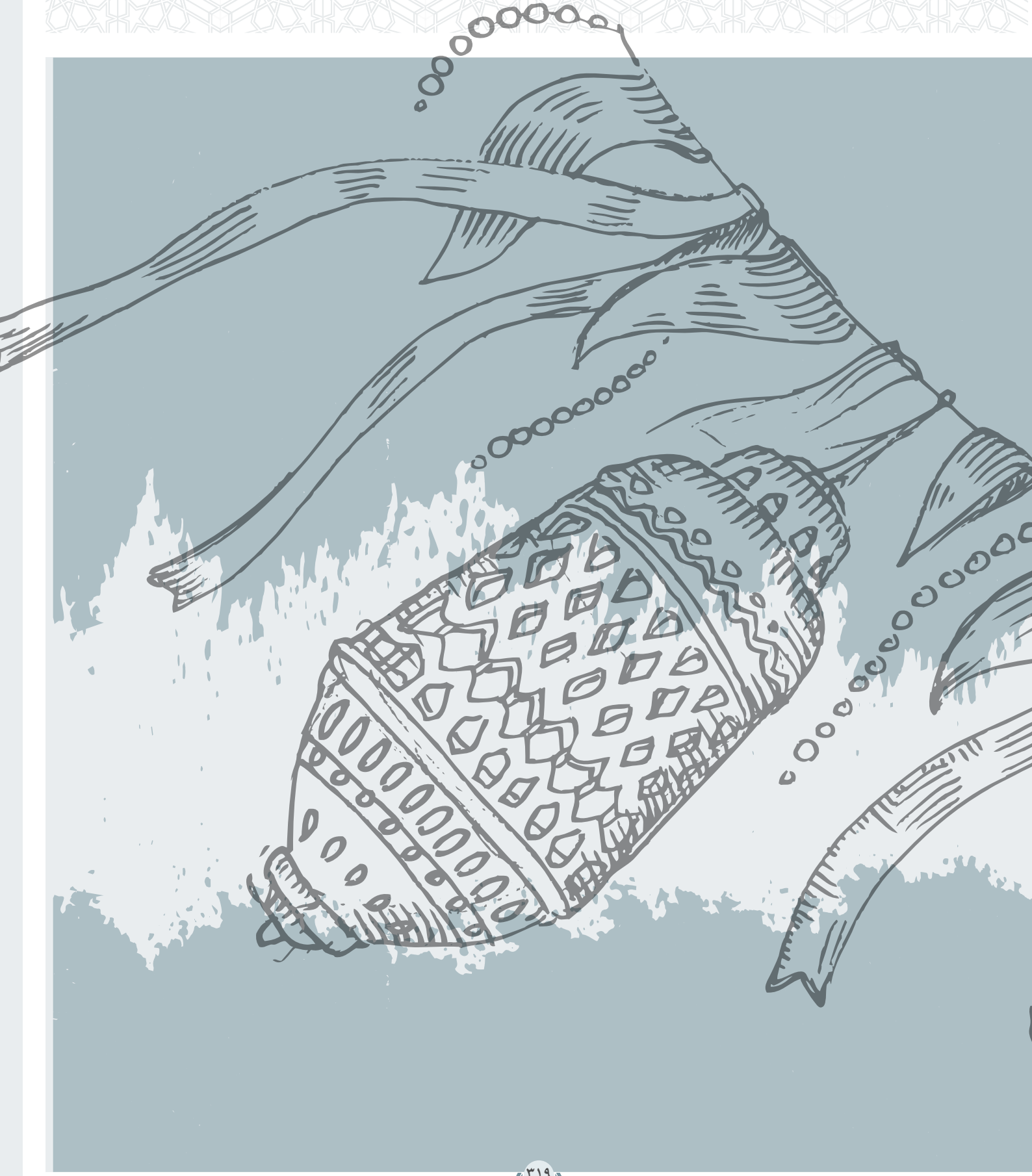
والحديث يدلُّ على حُرمة الاحتفال بأعياد الكُفَّار والمشركين من أهل الكتاب وغيرهم، وذلك من قواعدِ الولاء والبَراء، حيث ذكَر ﷺ أنَّ الله قد أبدلهم بهما خيرًا منهما، والإبدال لا يكون إلا مع ترك المُبْدَل منه.

ويشهَد لهذا التحريم أن هذَين العيدَين قد انْمَحى أثرُهما في الإسلام، فلم يَبْقَ لهما ذِكْر في عهد النبيِّ ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ولو لم يكُن قد نهى الناسَ عن اللعب فيهما ونحوه مما كانوا يفعلونه، لَكانوا قد بَقُوا على العادة؛ إذ العاداتُ لا تُغَيَّر إلا بمُغَيِّر يُزيلها، لا سيَّما أن طِباع النساء والصِّبيان وكثيرٍ من الناس مُتشوِّفةٌ إلى اليوم الذي يتَّخِذونه عيدًا للبطالة واللعب[2].



(١) انظر: «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهريِّ (٢/ ٣٤٢).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية (١/ ٤٨٨).



ما يُستفاد

١ أفاد الحديثُ أنَّ الاحتفال بأعياد الكفار وأيامهم لا يجوز شرعًا، فلا يجوز للمسلم أن يحتفل بتلك الأعياد، ولا أن يتشبَّه بالكُفَّار في طعامهم وشرابهم ذلك اليوم.

٢ إذا كان النهيُ عن الاحتفال بأعياد الكفار التي قد انطَمَست شَعائرهم ولن تعود إلا في آخِرَ الدهر، فالاحتفالُ بأعياد اليهود والنصارى أشدُّ تحريمًا؛ لِما أخبر ﷺ من حدوث التشبُّه بهم، ونهى عن ذلك وحذَّر.

٣ دلَّ الحديث على مشروعية اللَّهو واللَّعبِ في أيام العيد؛ حيث جعلها النبيُّ ﷺ بدَلًا عن أيام الجاهلية التي كانوا يألَفون اللعب فيها، وقد ترَك النبيُّ ﷺ الحبشةَ يلعبون في المسجد بالحِرابِ يومَ العيد، وجعل أمَّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها تشاهدهم حتى اكتَفَت[1].

٤ يجوز للمسلم أن يَفرح ويلعب في أيام العيد، بشرط ألَّا يكون في لَهْوه شيءٌ من الحُرمة؛ كلَعِب المَيْسِر والألعاب التي فيها النَّرد، أو الاختلاط بين الرجال والنساء، وألَّا يَشغَله ذلك عن ذِكر الله تعالى.

٥ إظهار السرور والفرح في الأعياد من شعائر الإسلام، فتُشرَع الألعاب واللهو والتزاوُر وصِلة الأرحام والتوسعة على الأهل في النفقات، بما يحصل معه انبساط النَّفْس وراحة البدن.

٦ يجب أن يَستحضر المسلم في العيد نِية إحياء شَعيرة الفرح في العيد، فيُؤجَر على لَعِبه ولَهْوه وطعامه وشرابه.

٧ على الإمام والداعية تفقُّدُ أحوال الناس وعاداتهم، ومعاملاتهم، وبيان الحلال والحرام منها؛ فربَّما أَلِف الناسُ عادةً من العادات، كان لها أصلٌ يُحرِّمها أو يجعلها مَكروهة، دون أن يعلَم الناسُ ذلك، فإذا استبان الأمرُ للإمام والداعية والعالِم أخبَر الناسَ بحُكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ، فانصاع الناسُ لأمره.

٨ إيجادُ البديل خيرُ وسيلةٍ لتَرْك المنهيِّ عنه، فإذا أراد المُرَبِّي أن يَنزِع عن أبنائه وتلامذته بعضَ العادات أو الأفعال السيِّئة، فعليه أن يَجِد لهم البديل الصالح الذي يَرتاحون إليه، كما فعَل سبحانه حين عوَّض المسلمين عن أعيادهم بعيدَي الفطر والأضحى.

---

(١) البخاريُّ (٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم (٨٢٩).

٩ سدُّ الذرائع أصلٌ من أصول الشرع ؛ ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عن اللَّعِب في أعياد المشركين ؛ خوفًا من أن تَتدرَّج إلى درجة المشاركة في الطقوس والعبادات . ولهذا يَحسُن بالفقيه والعالِم مراعاةُ هذا الأصل في أحكامه وفَتاواه ؛ فربَّما يرى المصلحة في تحريم شيءٍ لا يتعلَّق التحريمُ به في نفسه ، وإنما لِما يؤدِّي إليه من المعاصي أو الكفر .

قال الشاعر:

هَذَا هُوَ الْعِيدُ فَلْتَصْفُ النُّفُوسُ بِهِ ... وَبَذْلُكَ الْخَيْرَ فِيهِ خَيْرُ مَا صُنِعَا

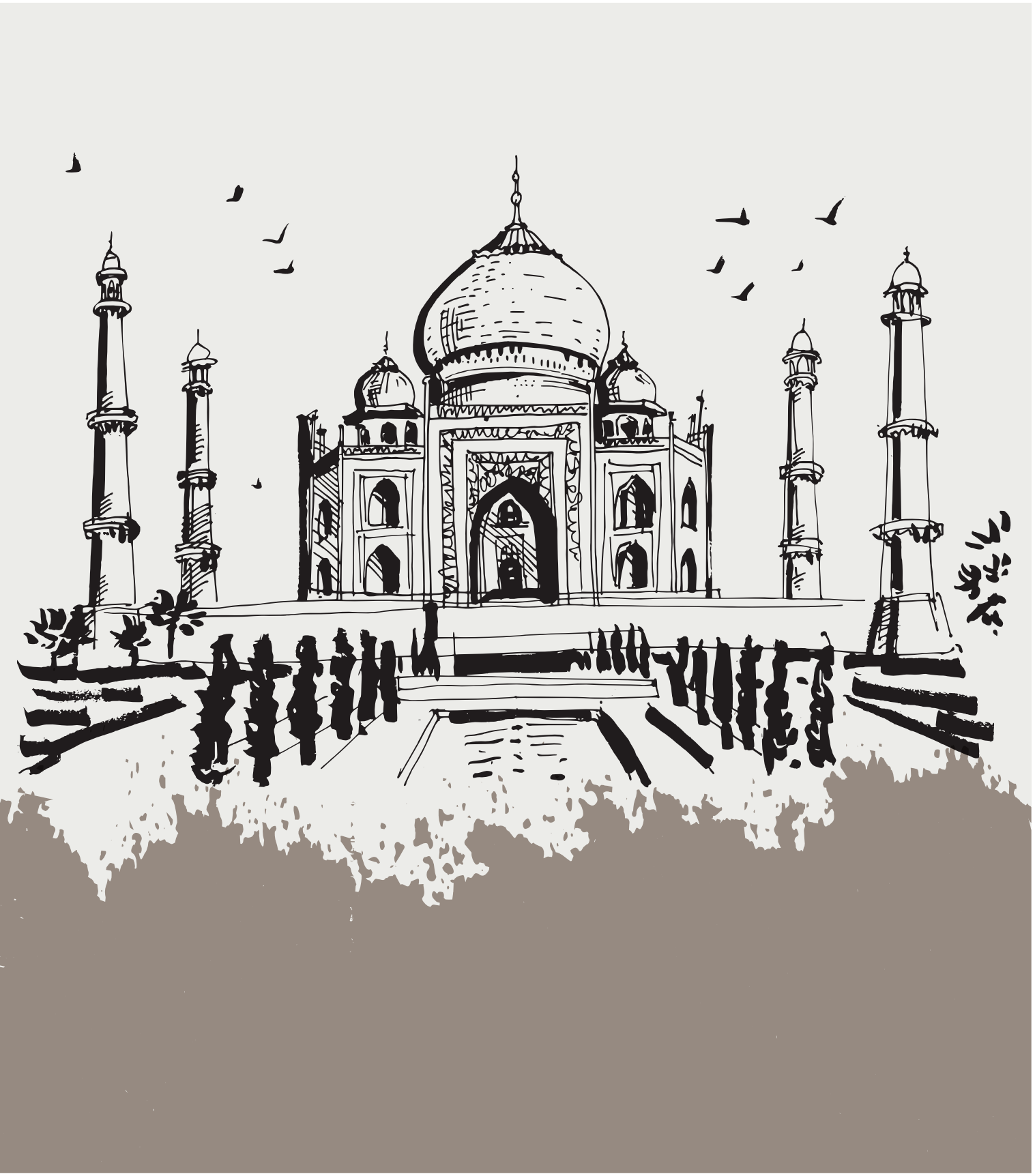
أَيَّامُهُ مَوْسِمٌ لِلْبِرِّ تَزْرَعُهُ ... وَعِنْدَ رَبِّي يُخَبِّي الْمَرْءُ مَا زَرَعَا

فَتَعَهَّدُوا النَّاسَ فِيه، مَنْ أَضَرَّ بِهِ ... رَيْبُ الزَّمَانِ وَمَنْ كَانُوا لَكُمْ تَبَعَا

وَبَدِّدُوا عَنْ ذَوِي الْقُرْبَى شُجُونَهُمُ ... دَعَا الإِلَهُ لِهَذَا وَالرَّسُولُ مَعَا

وَاسُوا الْبَرَايَا وَكُونُوا فِي دَيَاجِرِهِمْ ... بَدْرًا رَآهُ ظَلامُ اللَّيْلِ فَانْقَشَعَا





عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما،

أن رسول الله ﷺ قال: «صلاةُ الجماعةِ أفضَلُ من صلاةِ الفَذِّ بسَبعٍ وعشرينَ دَرجةً»(١).

(١) البخاريُّ (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠).

آيـــات

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

الرّاوي

هو: عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ بنِ نُفَيلٍ، أبو عبد الرحمن القُرَشيُّ، العَدَويُّ، أسلَمَ وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وما زال صغيرًا لم يحتلِم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ فردَّه النبي ﷺ ولم يشارك في الغزوة، وأوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايَع تحت الشجرة، وأمُّه وأمُّ أُمِّ المؤمنين حفصةَ: هي زَينبُ بنتُ مَظْعونٍ، أختُ عثمانَ بنِ مظعونٍ الجُمَحيِّ، روى عِلمًا كثيرًا نافعًا عن النَّبِيِّ ﷺ وعن أبيه، وأبي بكر، وعثمانَ، وَعليٍّ، وبلالٍ، وَصُهيبٍ، وغيرهم رضي الله عنهم، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، تُوفِّي سنة (٧٤هـ)(١).

خلاصة

يخبِر النبي ﷺ أن صلاة الجماعة خيرٌ من صلاة المنفرِد بسَبعٍ وعشرين درجةً.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

١ في الحديث بيانُ فضلِ صلاة الجماعة وعظيمِ ثَوابها؛ حيث كانت أفضلَ من صلاة المنفرِد بسبعٍ وعشرين مَنزِلةً.

٢ وقد وردت أحاديث أخرى تخالِف هذا العدد، كقوله ﷺ: «صلاة الرجُل في الجماعة تَضعُف على صلاته في بيته، وفي سُوقه، خَمْسًا وعشرين ضِعفًا؛ وذلك أنه إذا توضَّأ فأحسَنَ الوضوء، ثم خرَج إلى المسجد، لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خُطوةً، إلا رُفِعَت له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلَّى، لم تَزَل الملائكة تُصلِّي عليه ما دام في مُصلَّاه: اللهمَّ صلِّ عليه، اللهم ارْحَمه، ولا يَزال أحدُكم في صلاة ما انتظر الصلاةَ» متفق عليه[1].

٣ وليس بين العددينِ تناقُضٌ؛ فإن الصَّغير لا ينافي الكبير، ويُحمَل الصَّغير على أنَّه كان أوَّل الأمر، ثم تفضَّل اللهُ بالزيادة من خمسٍ وعشرين إلى سبعٍ وعشرين، أو أنَّ فارق الدرجتينِ يَختلف بحسب كَمال الصلاة، ومحافظة هيئتها، وخُشوعها، وكثرة جماعتها، وشرف البُقعة، ونحو ذلك[2].



٢ وقد نظَر العلماءُ في أسباب تفاضل صلاة الجماعة، فكان منها ما ذُكر في الحديث السَّابق، ومنها: إجابةُ المؤذِّن بنيَّة الصّلاة في الجماعة، والتَّبكيرُ إليها في أوَّل الوقت، والمشيُ إلى المسجد بالسَّكينة، ودخولُ المسجد داعيًا، وصلاةُ التَّحيَّة عند دخوله، وانتظارُ الجماعة، وصلاة الملائكة عليه واستغفارهم له، وشهادتهم له، وإجابة الإقامة، والسَّلامةُ من الشَّيطان حين يَفِرُّ عند الإقامة، والوقوف منتظرًا إحرام الإمام أو الدُّخول معه في أيِّ هيئة وَجَده عليها، وإدراك تكبيرة الإحرام، وتسوية الصُّفوف وسدُّ فُرَجِها[3].

---

(١) البخاريُّ (٦٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» لابن علان الصديقيِّ (٦/ ٥٤٨).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ١٣٣، ١٣٤).



١ ينبغي للمسلم الحرصُ على صلاة الجماعة؛ فإنَّها خيرٌ من صلاة الإنسان وحده، وفيها من الثَّواب والفضيلة ما لا يجوز تركُه.

٢ على المسلمِ أن يحرِص على أداء الصلاة في جماعة؛ ليُدرِك ما جعله اللهُ سبحانه لأهل الجماعات؛ فقد أعدَّ الله تعالى منزلًا في الجنة لمن غدا إلى المسجد أو راح؛ فعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاح»[١].

٣ مَن أراد تكفير السيئات ومحو الخطايا ورفع الدرجات في الجَنَّة، فلْيَحرِص على الجماعات؛ قال ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى المسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[٢].

٤ السَّعيدُ مَن اغتنم أجرَ إدراك الجماعة في المسجد، فممَّا أعدَّه اللهُ سبحانه أنَّ صلاة الجماعة تُعطيك أجر حجَّة؛ قال ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ المحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ المعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّين»[٣].

٥ صلاة الجماعة تشهدها الملائكة، أفلا تريد أن تكون ممن تُثني عليهم الملائكةُ وتشهد لهم بالصلاة عند رب العالمين؟! قال ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[٤].

٦ قَالَ ابن مسعود ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ

(١) البخاريُّ (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩).

(٢) مسلم (٢٥١).

(٣) أحمد (٢٢٣٠٤)، وأبو داود (٥٥٨).

(٤) البخاريُّ (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[1].

٧ قال عبد الله بن عُمرَ القواريريُّ رحمه الله: لم تكُنْ تَفوتني صلاة العَتَمة في جماعة، فنزل بي ضَيفٌ فشُغلت به، فخرجتُ أطلبُ الصلاةَ في قبائل البصرة، فإذا الناس قد صلَّوْا وخَلَت القبائل، فقلتُ في نفْسي: رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صلاة الجماعة تَفضُل على صلاة الفذِّ خمسًا وعشرين درجة»، ورُوي: «سبعًا وعشرين». فانقلبتُ إلى منزلي، فصلَّيتُ العَتَمةَ سبعًا وعشرين مرةً، ثم رقَدتُ فرأيتُني مع قوم راكبي أفراسٍ، وأنا راكبٌ فرسًا كأفراسِهم ونحن نتجارى، فالْتَفتُّ إلى أحدهم فقال: لا تُجهِدْ فرسَكَ؛ فلستَ بلاحِقِنا! فقلتُ: فلِمَ ذاك؟ قال: إنَّا صلَّيْنا العَتَمةَ في جماعة[2].

٨ دلَّ الحديثُ أنَّ تأخير الصلاة رجاءَ انتظار الجماعة خيرٌ من أدائها في أول الوقت منفردًا، إلا أنْ يخاف المسلمُ خروجَ الوقتِ فلْيُصلِّ منفردًا.

قال الشاعر:

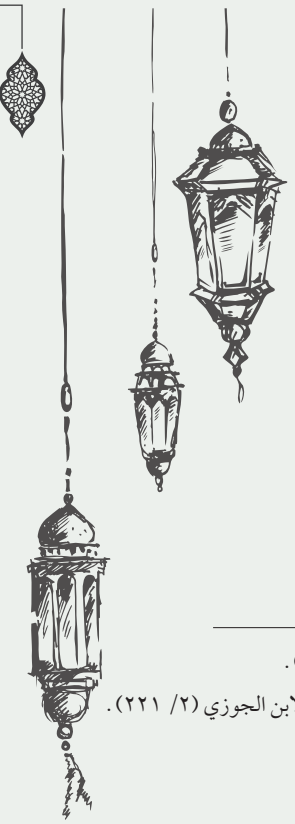
ارْتِفَـــاعُ الأَذَانِ فَـوْقَ الْمَـآذِنْ ... فِي انْبِلَاجِ الصَّبَاحِ وَاللَّيْلُ سَاكِنْ

دَعْوَةٌ تَحْمِلُ الْحَيَـاةَ إِلَى الْكَونِ ... وَسُـكَّانِهِ قُرًى وَمَـــدَائِنْ

وَنِدَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْ ضِ ... إِلَـــى ظَـاهِرٍ عَلَيْهَا وَبَـاطِنْ

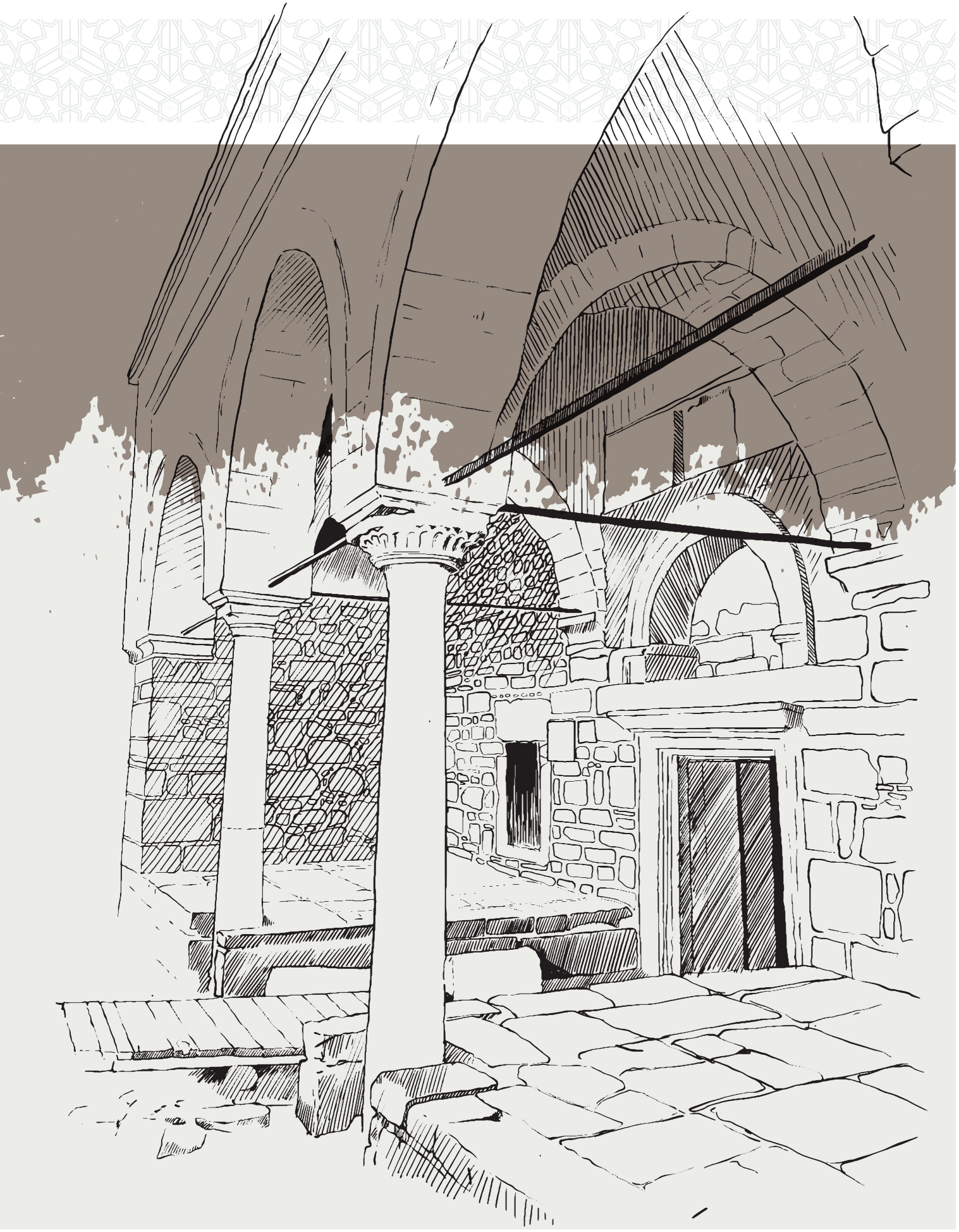
وَلِقَاءٌ بَيْنَ الْمَلَائِكِ وَالإِيـمَانِ ... وَالْمُـؤْمِنِـينَ مِـنْ غَـيْرِ آذِنْ

وَانْطِلَاقٌ إِلَى الْفَلَاحِ إِلَى الْخَيْـرِ ... إِلَى الْحَـقِّ وَالْهُدَى وَالْمَحَاسِنْ



(١) مسلم (٦٥٤).

(٢) «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٢٢١).



عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

١ «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا،

٢ وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا»(١).

(١) مسلم (٦٧١).

آيات

- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].
- ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].
- ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

الراوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتوفي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ أحبَّ الأماكن عند الله تعالى المساجد؛ فهي مواضع ذِكره وعبادته، وأبغَضها إليه الأسواق؛ حيث يَكثُر فيها الأيمان الكاذبة، وينتشر الغشُّ والظلم والغَرَر.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ المساجدَ أحبُّ البِقاع إلى الله تعالى؛ فهي بيتُ الطاعةِ وأساسُ التقوى وموطنُ الذِّكر، ومهْدُ العلمِ، ومنطلَقُ الدعوةِ إلى الله تعالى.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ حريصًا على بناء المسجد أوَّل ما وصَل المدينة المنورة، وكان يحمل الحجارةَ بنفسه ﷺ مع أصحابه رضوان الله عليهم.

فالمسجد هو اللَّبِنة الأولى في تكوينُ دولة الإسلام، ومنه تُنشَرُ الدعوة، وفيه تعليمُ أحكام الإسلام وشرعه، وكان النبي ﷺ منه يدير شؤون الدولة، ويناقش مع الصحابة خُطَط الحروب والغزوات، ويستقبلُ الوفود والرُّسُل، ويُنفِذ السرايا والبعوث، ويفصِل بين الخصوم وغير ذلك.

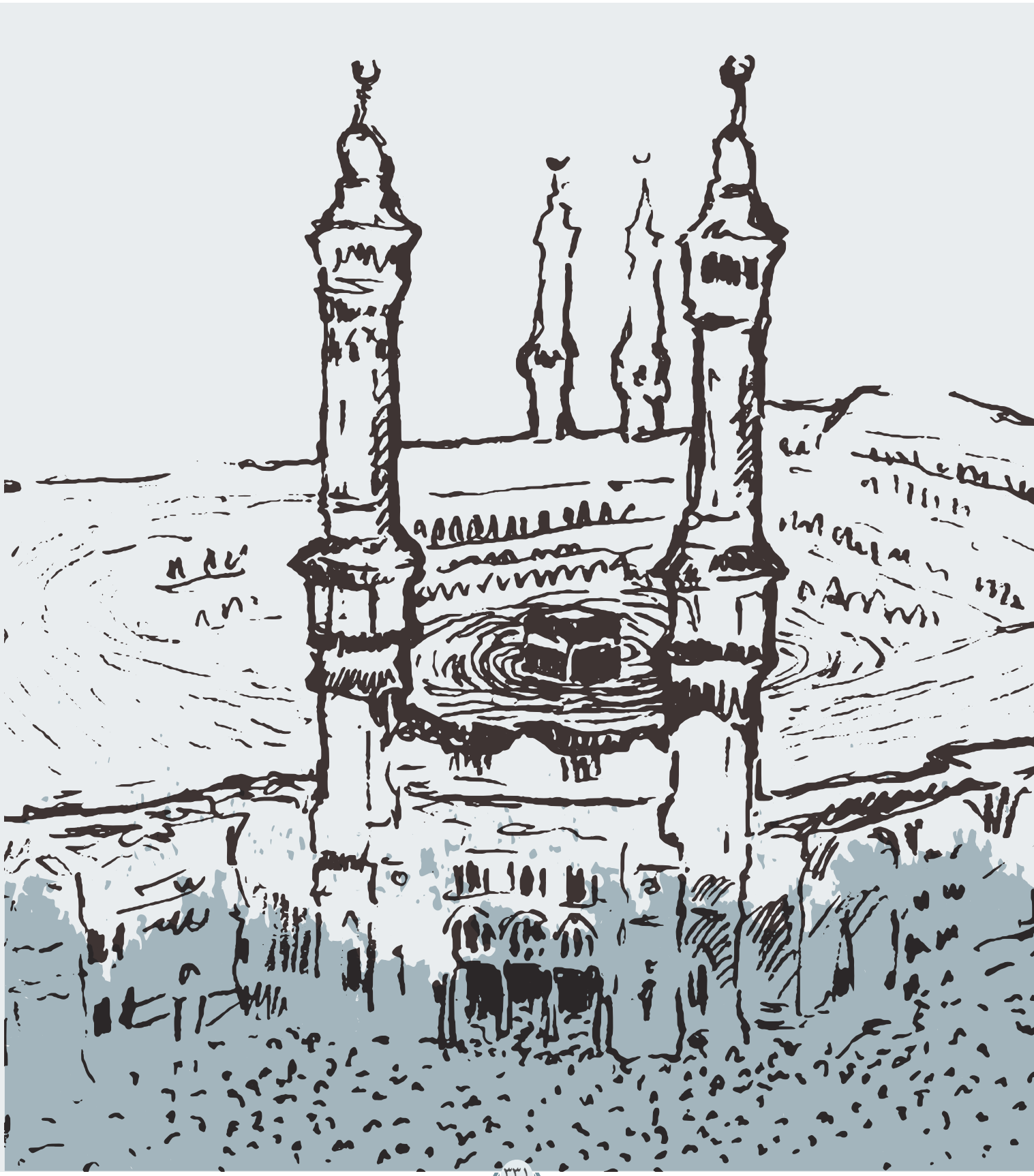
ومن يرتاد المساجد هم أهلُ الإيمان والخشية، الذين قال سبحانه فيهم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧]، ووصفهم بالإيمان بقوله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

ولذلك كان الإنفاقُ على بيوت اللهِ تعالى أعظمَ النفقات، قال ﷺ: «مَن بنى مَسجِدًا يَبْتغي به وجه الله، بَنى الله له مِثله في الجنة»(١).

٢ وأخبر النبي ﷺ أنَّ أبغض البِقاع في الأرض الأسواقُ؛ حيث اللَّغطُ واللغوُ والغشُّ والخداعُ والأيمان الكاذبة والمعاملات الربوية وإخلاف الوعود والغفلة عن ذكر الله ونحو ذلك، ولهذا أخبر سَلمانُ الفارسي ﷺ أنَّ الأسواقَ «معركةُ الشيطان، وبها يَنصِب رايته»(٢).

(١) البخاريُّ (٤٣٩)، ومسلم (٥٣٣).

(٢) مسلم (٢٤٥١).



التَّبَاعي

١ (١) أخبر ﷺ أنَّ المساجدَ أحبُّ الأماكن إلى الله، وذلك يقتضي أن تكون العبادةُ فيها خيرًا من العبادة في غيرها؛ فالصلاة في المسجد خيرٌ من الصلاة في البيت والسُّوق، ومجالس العلم في المسجد خيرٌ منها في غيره، والإنفاق على بناء المساجد أفضلُ وأكثرُ ثوابًا من الإنفاقِ في سائر وجوه البرِّ.

٢ (١) كانت نهضةُ الإسلامِ وسرُّ تقدُّمِه في تفعيل دور المسجد التربوي والدَّعَوي والتعليمي، فلمَّا أُلغي ذلك الدور فَشا الجهلُ والغفلةُ في شباب المسلمين حتى صار كثيرٌ منهم لا يَعرف أركان الإسلام وأحكامه. فإذا أردنا الرجوع إلى رَكْب الحضارة فعلينا أن نهتم بالتنشئة الصحيحة وتفعيل دور المسجد في ذلك المجال.

٣ (١) إذا كان المسجدُ أحبَّ الأماكن إلى الله تعالى، فلا شكَّ أن المُكثَ فيه بنية العبادة وانتظار الصلاة له ثوابٌ عظيمٌ، لا ينبغي على المسلم تفويته قدْرَ الإمكان.

٤ (١) جعل اللهُ سبحانه إدامة الذَّهاب إلى المساجد من أعظم الأعمال التي تُقرِّب العبدَ من ربِّه جلَّ وعلا؛ حتى إنَّه ﷺ ذكَر في السبعة الذين يُظِلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: «ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد»[١].

٥ (١) المساجد بيوت الله تعالى، جُعِلت لها من الآداب التي ينبغي على المسلم الحرص عليها؛ كلُبس أحسن الثياب، وأخْذ الزينة، والتطيُّب بما عند المرء من الطِّيب، وتركُ الأطعمة ذات الروائح الكريهة، كالثُّوم والبصل ونحوها مما يؤذِي الملائكة وبني آدم.

٦ (١) يُستحَب أن يستهلَّ المسلمُ دخولَه المسجد بالأدعية المأثورة؛ لقوله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»[٢].

٧ (١) يُستحبُّ لمن دخل المسجد ألَّا يجلس حتى يصلي ركعتينِ تحيةَ المسجد؛ قال ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ»[٣].

---

(١) البخاريُّ (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

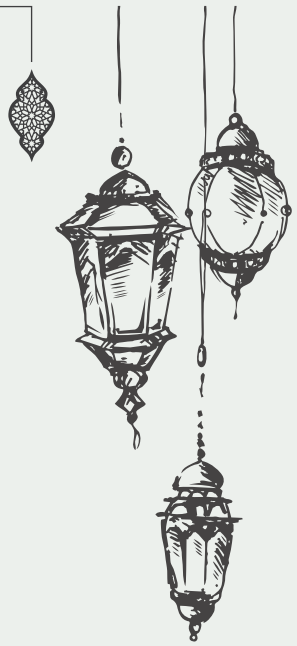
(٢) مسلم (٧١٣).

(٣) البخاريُّ (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤).

٨ (٢) الأسواق شرُّ الأماكن لِما فيها من المعاصي والفجور والجدال وغير ذلك، وما كان مثلَها في العِلَّة يقتضي نفس الحكم، فإذا كان بيتُ الإنسانِ ومحلُّ عمله فيه من الأيمان الكاذبة والفجور والسبِّ والشتم ونحوها؛ كان من شرِّ الأماكن عند الله تعالى.

٩ (٢) يُكرَه للإنسان أن يذهب إلى السُّوق لغير حاجةٍ، أما إذا ذهب لحاجةٍ كالبيع والشراء فلا يُكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

١٠ (٢) ينبغي لمن دفعته الحاجةُ للذهاب إلى السوق ألَّا يكونَ أوَّلَ الداخلين إليها، ولا آخر الخارجين عنها؛ لقول سلمان الفارسي ﷺ: «لَا تَكُونَنَّ -إِنِ اسْتَطَعْتَ- أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ»[1].



قال الشاعر:

مَنْ عَلَّقَ الْقَلْبَ في بَيْتِ الإلهِ وَلَمْ ... يَطْلُبْ سِوَى مِنْ كَرِيمٍ مُنْعِمٍ مَدَدَا

فَذَاكَ مِمَّنْ يُظِلُّ اللهُ حِينَ نَرَى ... لا ظِلَّ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ أَبَدَا

كَمْ خَائِفٍ مِنْ ذُنُوبٍ جَاءَ مُرْتَجِفًا ... وَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ بَيْتِ اللهِ مُلْتَحَدَا

فَسَبَّحَ اللهَ، صَلَّى، قَامَ مُنْكَسِرًا ... بِبَيْتِ مَنْ غَيْرُهُ بِالْحَقِّ ما عُبِدَا

حَتَّى زَكَتْ رُوحُهُ وَالنَّفْسَ هَذَّبَهَا ... فَلا تَرَى ظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ أَوْ حَسَدَا

وَكَمْ غَوِيٍّ أَتَى وَالْوَهْمُ يُغْرِقُهُ ... فَعَادَ يَحْمِلُ فِي أَضْلَاعِهِ رَشَدَا

وَكَمْ جَهُولٍ أَتَى مُدَّثِرًا بِدُجًى ... فَصَارَ بَدْرًا بِنُورِ الْعِلْمِ مُتَّقِدَا

(١) مسلم (٢٤٥١).



عن عبدِ الله بنِ مُعاوية ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ:

١ «ثلاثٌ مَن فعَلهنَّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمانِ:

٢ مَن عبَدَ اللهَ وحدَه، وأنه لا إلهَ إلا اللهُ،

٣ وأعطى زكاةَ ماله طيِّبةً بها نفْسُهُ، رافدةً عليه كلَّ عام،

٤ ولا يُعطي الهَرِمةَ، ولا الدَّرِنةَ، ولا المريضةَ، ولا الشَّرَطَ اللئيمةَ؛

٥ ولكنْ مِن وسَطِ أموالكم؛ فإنَّ اللهَ لم يَسألْكم خيرَه، ولم يأمُرْكم بشرِّه»[1].

(١) أبو داود (١٥٨٢).

آيات

- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].
- ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].
- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

الراوي

هو: عبدُ الله بنُ مُعاويةَ الغاضريُّ، من غاضرةِ قَيسٍ، له صُحبةٌ، وَروى عن النبيِّ ﷺ حديثًا واحدًا، وهو ما بين أيدينا، وروى عنه: جُبيرُ بنُ نُفَيْلٍ، نزل في حِمْصَ وعاش في الشام[1].

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ عن أمورٍ تَكشِف عن إيمان العبد، وهي التوحيد، وإخراج الزكاة مختارًا راضيًا متقرِّبًا بها إلى الله، وأن يَنتقِي الزكاةَ من وسَطِ ماله، فلا يُخرِج المريضة ولا المُسِنَّة ولا المَعِيبة.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٧٨٤)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٩٥)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

١ يُخبِر النبيُّ ﷺ عن ثلاث عبادات من فعَلها فقد عرَف الإيمانَ وأصابه وتمكَّنَ منه. واستخدم الطَّعم مع أمرٍ معنويٍّ غير محسوس ولا مَطعومٍ تأكيدًا، وتشبيهًا بالطعام اللذيذ بجامعِ الالتذاذ ومَيل القلب إليهما.

وقد استعمل القرآنُ الكريمُ ذلك الأسلوب باستخدام لفظ الذَّوق مع العذاب والنَّكال، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]، وأتى بها النبيُّ ﷺ في قوله: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[1].

وطَعمُ الإيمان الذي يَذوقه العبدُ هو تحمُّل المشاقِّ في رضا الله تعالى، والرضا بقَضائه وقدَره، وإيثار الآخرة على الدنيا، وانشراح صَدره بجميع ذلك.

٢ الخَصْلة الأولى التوحيد، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتَشمل العبادةُ جميعَ ما يُحِبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة؛ كالمحبة، والرجاء والخوف، والدعاء والاستعانة، والذَّبح والنذر، والتقرب بأنواع النوافل والطاعات، فلا يجعل شيئًا من ذلك لغيرِ الله سبحانه.

وهذه الخصلة التي أرسل اللهُ عزَّ وجلَّ بها جميع الأنبياء والمرسلين؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولذلك فقد توعَّد مَن ترَك توحيده بالخلود في النَّار وإحباط العمل كائنًا من كان، قال جل وعلا لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

٣ وثاني تلك الخصال أن يُخرج العبدُ زكاة ماله طائعًا مختارًا، تَطِيب نفسه بذلك وتُعِينه على أدائها كلَّ عامٍ.

وقد ذكَر الزكاةَ دون غيرها؛ لأنَّ المال تحبُّه النفوس وتَبخَل به، فإذا جادت به النَّفسُ مختارةً طائعةً كان ذلك علامةً على صحَّةِ إيمانها؛ إذ المنافقون هُم الذين ينفقون على مَضَضٍ وكَراهية، قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) مسلم (٣٤).

٤ والخصلة الأخيرة متعلِّقة بما قبلها، وهي أنَّ العبدَ إذا همَّ بإخراج زكاته، لم يَتحرَّ أفسَدَ وأرْدَأ ما فيها ليخرجها؛ فإذا وجَبت زكاة مواشيه لم يَختَر الكبيرة المُسِنَّة الضعيفة، ولا الجَرْباء، ولا المريضة التي لا يجوز ذَبْحها وأكلها، ولا سائر ما يُستقبَح منها كالعَرْجاء والنَّحيفة والصغيرة جدًّا ونحو ذلك.

وليس معنى ذلك أنَّ المسلِم إذا كانت كلُّ ماشيته مريضةً لم يجزئه إخراج شيءٍ منها، بل المراد تحذيرُ مَن يَنتخِب أسوأَ ما عنده ليُخرِجها في الزكاة، تصديقًا لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

فالمؤمنُ الحقُّ الذي يَجِد حلاوة الإيمان في نفسه يَمتثِل قوله سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

٥ ثُمَّ بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ المطلوب في الزكاة إخراجُ أوسط المال، وهو المعتدِل بين النقيضين؛ فلا يُخرِج أفضلَ ما عنده ولا أسوأَه، وقد كتب أبو بكر الصديق ﷺ لأنس بن مالك ﷺ: «ولا يُخْرَجُ في الصدقة هَرِمةٌ، ولا ذاتُ عَوار، ولا تَيْسٌ، إلا ما شاء المُصَدِّق»[1]، أي: المُتصدِّق، وقال ﷺ لمُعاذ بن جَبل ﷺ حين أرسله إلى اليمن: «وتَوَقَّ كرائمَ أموال الناس»[2]، أي: اجتَنِبْها ولا تَختَرْها.



(١) البخاري (١٤٥٥).

(٢) البخاريُّ (١٤٥٨)، ومسلم (١٩)، عن ابن عباس ﷺ.

الاتباع

١ يجب على الداعية والمُرَبِّي استخدام الألفاظ والأساليب التي تجذِب انتباه السامع وتبعَث فيه الإنصاتَ وحُسن الفَهم لِما يُقال؛ حيث استخدم النبيُّ ﷺ جملةً إجماليةً، أخبر فيها عن خصالٍ ثلاثٍ يتحصَّل لمن أدركها تمامُ الإيمان، ومثل هذا يَستدعي من المستمِع الإنصاتَ وعَدَّ تلك الخصال واحدةً واحدةً؛ حتى لا تُفلِت عنه خصلة منها.

٢ الخصلة الأولى هي أصل كلِّ الخصال المذكورة في هذا الحديث وغيرها؛ فإذا حقَّق الإنسانُ التوحيدَ الصحيح، طابت نفسُه وانشَرَحت للعبادة، وأيقن أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، فسَهُلت عليه التكاليف والمشقَّات في ذات الله تعالى.

٣ من علامات الإيمان التي يستطيع المسلم التحقُّق منها في نفسه أن ينظر في محبته للزكاة وإخراج الصدقات؛ فإنَّ المالَ تحبُّه النفوس، فإذا بذَله العبدُ طائعًا راضيًا مُحتسِبًا، كان ذلك أمارةً على صِدق إيمانه.

٤ كيف يَتصدَّق المؤمنُ بشيء قبيحٍ خَبيثٍ وهو يعلم أنَّه يقع في يدي الله عزَّ وجلَّ قبْل يَدِ الفقيرِ؟!

٥ كان السَّلفُ رضوان الله عليهم يحرِصون على الإنفاق من أفضل ما عندهم؛ فلمَّا سمع أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه قولَه تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، تصدَّق بأحب مالِه إليه، وهو بستانٌ له يُسمى «بَيْرُحاءَ» كان النبيُّ ﷺ يدخله ويشرب من مائه[1]، وكان الربيع بن خُثَيْم رحمه الله يُحبُّ السُّكَّر، فكان يتصدق به على النَّاس؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

قال الشاعر:

يا مَـنْ تَصَـدَّقَ مالُ اللهِ تَبْذلُهُ ... في أوجُـهِ الخيرِ ما لِلمال نُقصانُ

كَمْ ضاعَفَ اللهُ مالًا جادَ صاحِبُهُ ... إنَّ السَّخاءَ بِحُكْـمِ اللهِ رضـوانُ

الشُّـحُّ يُفْضي لِسُقمٍ لا دَواءَ لَهُ ... مالُ البَخيـلِ غَدا إرْثًا لِمَـنْ عانوا

إنَّ التَّصَـدُّقَ إسعادٌ لِمَنْ حُرِموا ... أهلُ السَّخاءِ إذا ما احْتجْتَهُمْ بانوا

(١) البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) «الزهد» لأحمد بن حنبل (ص: ٢٦٧).





الصَّدَقة بالطيب

عن أبي هُريرةَ ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

١ «أيُّها الناسُ، إن اللهَ طيِّبٌ لا يَقبَل إلا طَيِّبًا،

٢ وإن اللهَ أمَر المؤمنين بما أمر به المرسَلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٧٢]،

٣ ثم ذكَر الرجُل يُطِيل السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، ومَلبسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟!»[1]

(١) مسلم (١٠١٥).

آيات

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].
- ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون: ٥١].
- ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

الراوي

عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرينِ، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يخبر ﷺ أنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يَقبَل إلا كلَّ طيِّب، ولذلك أمر جميع الناس بالأكل من الطيِّبات، وأخبر أنَّ الأكل مِن الحرام مانعٌ من مَوانعِ استجابة الدُّعاء.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يُخبِر النبي ﷺ أنَّ الله تعالى طيِّبٌ مُنَزَّهٌ عن النقائص والعيوب. وأصل الطِّيب: الزكاءُ والطهارةُ والسلامة من الخُبث[١].

ولذلك فلا يَقبَل الله تعالى إلا الطيِّب من الأعمال والنفوس؛ فلا يُقرِّب منه سبحانه مَن كان خبيثَ النَّفسِ يَحمل البغضاءَ والضَّغينةَ للناس، ومَن كان يُخالِق الناس بخُلق بَذِيء، ومَن نبَت جسدُه مِن أكل الحرام.

كذلك لا يَقبَل سبحانه من الأعمال إلا الطيِّب، فلا يقبل عملًا دخَله الشِّرك والرياء، ولا يَقبل صدَقةً من مالٍ أُخِذ بغير وجه حقٍّ، قال ﷺ: «ما تصدَّق أحدٌ بصدَقةٍ من طيِّب - ولا يَقبَل اللهُ إلا الطيِّبَ - إلا أخَذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تَمْرةً، فتَربو في كَفِّ الرحمن حتى تكون أعظمَ من الجبل، كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه أو فَصِيله»[٢] -والفَلوُّ ولدُ الحصانِ، والفصيلُ ولدُ الناقةِ- وقال أيضًا: «لا تُقبَل صلاةٌ بغير طُهُور، ولا صَدقةٌ مِن غُلُولٍ»[٣].

ويَدخل في الخبيث الذي لا يَقبله اللهُ تعالى أن يَعمَد الرجلُ إلى أسوأ ما في ماله ليُخرِجه عن زكاة ماله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٢ ثم بيَّن ﷺ أنَّه لا فرق في الأمر بإطابة المطعم والمشرب والمَلْبَس بين الأنبياء والمرسلين وبين أتباعهم من المؤمنين؛ فكما أَمَر اللهُ تعالى جميعَ النَّاس بالأكل من الطيِّبات والعمل الصالح، فكذا أمَر أنبياءَه ورسلَه، فالكلُّ مأمورٌ بطلب الحلال وترْكِ الحرام.

٣ ثم أخبر ﷺ أنَّ الأكلَ من الحرام عاملٌ من عوامل عدم استجابة الدعاء مع توافُر أسبابها؛ فقد يَخرج الرجل مسافرًا في أحد أسفار الطاعات؛ كالحج أو الجهاد أو الدعوة أو نحوها، تبدو عليه آثار السَّفر والإجهاد، فشَعْرُه متفرِّقٌ غير مُهَذَّبٍ، وعلى وجهه وثيابِه آثارُ الغُبار، يرفع يديه إلى السماء داعيًا مُلِحًّا على الله أن يَستجيب له، غير أنَّه عاكفٌ على الحرام؛ فأكلُه وشُربه ومَلْبَسُه وغذاؤه من الحرام؛ فكيف يُستجاب لمثل هذا؟!

وقوله: «فأنَّى يُستجاب» استفهامٌ وقَع على وجه التعجُّب والاستبعاد، وليس صريحًا في استحالة الاستجابةِ ومَنْعها بالكُلية؛ إذ يجوز أن يَستَجيب اللهُ تَفضُّلًا وكرمًا منه سبحانه، ويجوز أن يَستَجيب ليكون ذلك إمْهالًا له وقَطعًا لحُجَّته أمام الله. فيُؤخَذ من هذا أن التوسُّعَ في الحرام والتغذِّيَ به من جُملة موانع الإجابة[٤].

---

(١) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٣/ ٥٣٥)، «الميسر في شرح مصابيح السنة» للتوربشتيِّ (٢/ ٦٥٥).

(٢) البخاريُّ (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٣) مسلم (٢٢٤).

(٤) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٣/ ٦٠)، «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٧٥).



١ (١) المؤمن كلُّه طيِّبٌ؛ قلبُه ولسانُه وجسدُه، وذلك بما سكَن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذِّكر، وعلى جَوارحه من الأعمال الصالحة، التي هي ثمرة الإيمان، وهي داخلة في اسمه كذلك، فهذه الطيِّباتُ كلُّها يَقبلها الله تعالى[١]، فعلى المسلم أن يَزداد إيمانًا حتى يزداد طيبًا وزكاءً.

٢ (١) يُحبُّ اللهُ تعالى أن يَرى اقتداءَ عبده به في بعض صفاته التي لا تختص به؛ كالرحمة واللُّطف والعفو ونحوها؛ يحبُّ أن يرى عبده مُقتديًا به في رحمته ولُطفه وعفوه، وكذلك يُحِب أن يكون عبدُه طيِّبًا بعيدًا عن النقائص والرذائل.

٣ (١) على العبدِ أن يحِرص على إطابة مَطْعمه ونفسه وعمله؛ حتى يحبَّه الله ويتقبَّل عمله؛ قال وَهْبُ بنُ الورد رحمه الله: «لو قُمتَ مَقامَ هذه السَّارية [أي في المسجدِ]، لم ينفعْكَ شيءٌ حتَّى تَنظُر ما يَدخُل بطنَك حلال أو حرام»[٢].

٤ (٢) إذا أراد المُعلِّمُ والمُرَبِّي أن يَفعل تلميذُه شيئًا ما، فعليه أن يكون قدوةً له فيه، فكما يأمره بالحرص على الجماعات، فلْيَكن أوَّلَ الحاضرين إلى الجماعة، وإذا حثَّه على التطوع بالنوافل، كان واجبًا أن يَراه تلميذُه كذلك. ولهذا أخبر ﷺ أنَّ المرسلين مأمُورون بطلب الحلال وترك الحرام شأنُهم شأنُ جميع المؤمنين، لا فرْقَ بينهما.

٥ (٢) في الحديث إعلاءٌ لشأنِ المؤمن؛ حيث وجَّه الله تعالى لهم ما أمَر به المرسَلين، فهمْ أهلٌ لذلك لإيمانهم ورِفعة درجتهم[٣].

٦ (٣) أخبر ﷺ أنَّ السَّفرَ من بواعث إجابة الدعاء؛ إذ هو مَظِنَّةُ حصول انكسار النفْس بطول الغُربة عن الأوطان، وتحمُّل المشاقِّ، والانكسارُ من أعظم أسباب إجابة الدعاء[٤]، قال ﷺ: «ثلاثُ دَعَوات مُستَجابات لا شكَّ فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»[٥]. فإذا كان المسلمُ على سفرٍ فلْيُكثِر من الدعاء؛ فإنه حَرِيٌّ أن يُستجاب له.

٧ (٣) من بواعث إجابة الدعاءِ رفع الأيدي في الدُّعاء مُتضرِّعًا خاشعًا؛ قال ﷺ: «إن ربَّكم تبارَك وتعالى حَيِيٌّ كريمٌ،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٦٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٦٣).

(٣) انظر: «شرح الأربعين النووية» للعثيمين (ص: ١٤٢).

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٦٩).

(٥) أبو داود (١٥٣٦)، والترمذيُّ (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢).

يَستَحيي من عبده إذا رفَع يدَيْه إليه أن يردَّهما صِفْرًا»[1]. فعلى المسلم أن يرفع يده في الدُّعاء في المواضع التي رفع فيها النبيُّ ﷺ يده.

٨ (٣) الإلحاحُ في المسألة من أسباب إجابة الدُّعاء، فلا يَعجَل المسلمُ في دعائه فيدعو مرةً ثم يترك الدعاء، بل يُكثِر من الدعاء ويُلحُّ على ربِّه الكريم، قال ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» متفق عليه[2].

٩ (٣) أكل الحلال من أعظم أسباب إجابة الدعاء، والأكل من الحرام مانعٌ من ذلك. ولهذا قال وَهْب بن مُنبِّه رحمه الله: «مَن سرَّه أن يَستَجيب الله دعوتَه، فلْيُطِبْ مَطْعمَه»، وقال يوسفُ بن أسباطٍ رحمه الله: «بلغَنا أن دعاءَ العبد يُحبَس عن السماوات بسوء المَطْعَم»[3].

١٠ (٣) إذا كان الرجلُ مسافرًا في طاعة من الطاعات، عاكفًا عليها، ولا يُستجاب له لمجرَّد أنَّ طعامه من الحرام، فكيف بمن هو مُنهمِكٌ في الدنيا أو في مَظالِم العباد، أو من الغافلين عن أنواع العبادات والخير؟![4]

١١ حرَص السَّلف رضوان الله عليهم على إطابة مَطْعَمهم، والبُعد عمَّا أورث شكًّا في حِلِّه وحرمته؛ فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبي بكر غلامٌ يُخرِج له الخَراج [أي: يعطيه كل يوم ما عيَّنَه وجعَله عليه من كسبه]، وكان أبو بكر يأكُل من خَراجِه، فجاء يومًا بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلامُ: أتَدْري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تكهَّنتُ لإنسان في الجاهلية، وما أُحسِن الكِهانة، إلا أني خدَعْتُه، فلَقِيَني فأعْطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يدَه، فقاءَ كلَّ شيء في بطنِه»[5].

قال الشاعر:

نحْنُ نَدْعُو الإلهَ في كُلِّ كَربٍ ... ثُمَّ نَنساهُ عِندَ كَشْفِ الكُروبِ

كَيْفَ نَرجُــو إجــابةً لدُعـاءٍ ... قَدْ سَدَدْنا طَرِيقَها بالذُّنوبِ؟!

(١) أبو داود (١٤٨٨)، والترمذيُّ (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥).

(٢) البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٧٥).

(٤) «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد (ص ٤١، ٤٢).

(٥) البخاري (٣٨٤٢).



عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ:

١ «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ

٢ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ،

٣ عَلَى العَبْدِ وَالحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،

٤ وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاَةِ»[1].

(١) البخاريُّ (١٥٠٧)، ومسلم (٩٨٤).

آيات

- ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].
- ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

الراوي

هو: أبو عبد الرحمن عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ بنِ نُفَيلٍ، القُرَشيُّ، العَدَويُّ، أَسلَم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وما زال صغيرًا لم يحتلم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ، فرده النبي ﷺ ولم يشارك في الغزوة، وأَوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وأمُّه وأمُّ أُمِّ المؤمنين حفصةَ: هي زَينبُ بنتُ مَظْعونٍ، أختُ عثمانَ بنِ مَظْعونٍ الجُمَحيِّ، روى عِلمًا كثيرًا نافعًا عن النَّبيِّ ﷺ وعن أبيه، وأبي بكر، وعثمانَ، وَعليٍّ، وبلالٍ، وَصُهيبٍ، وغيرهم ﷺ، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، تُوفِّي سنة (٧٤هـ)[1].

خلاصة

بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ زكاة الفطر تُخرَج عن كلِّ مُسلِمٍ، ذكَرٍ أو أنثى، حرٍّ أو عبدٍ، صغيرٍ أو كبير، على كلِّ فردٍ صاعٌ من طعام، تُخرَج قبل صلاة العيد.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

١ أوجَب النبيُّ ﷺ زكاةَ الفطر على المسلمين، وهي فرضُ عينٍ باتفاق جمهور العلماء[١]، جعلها النبيُّ ﷺ جُبرانًا لصيام رمضان وما وقع فيه من السَّهو والخلل والخطأ، وطُعمةٌ للمساكين؛ لِيَستغنُوا بها عن السؤال يوم العيد، ويشتركوا مع الأغنياء في فرحة العيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ»[٢].

٢ ومِقدارها صاعٌ - وهو: أربعة أمدادٍ بكَفَّي رجلٍ معتدِلٍ - من التمر أو الشَّعير أو الأرز أو غيرها من غالب قُوت النَّاس؛ لقول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ»[٣]. والأقِطُ: اللَّبن المجفَّف.

وفي هذا الحديث وغيرُه بيان أنَّ الواجبَ المجزِئَ في صدقة الفطر إخراجُ الطعامِ لا القيمة، خلافًا لمن أجاز إخراج القيمة.

٣ وهي واجبةٌ على جميع المسلمين؛ الذَّكر والأنثى، والصغير والكبير، وهي واجبةٌ على العبد يُخرجها عنه سيِّده.

وهي واجبةٌ على كلِّ مَن يَملِك ما يَزيد عن قُوته وقُوت أهله ليلةَ العيد ويومَه، فيُخرِجها الرجلُ عمَّن يَعُول من أهله وزوجه وولده وعبيده.

ووقتُ وجوبها غروبُ شمس آخِر يومٍ من رمضان؛ فمَن وُلد له ولدٌ قبل غروب شمس آخِر يوم من رمضان، أو تزوَّج في تلك المدة، فعليه زكاةٌ لمولوده وزوجته، أما بعد غروب الشمس فلا زكاة، كما أنَّ من مات بعد غروب الشمس كان عليه في ماله زكاةٌ، كما لو مات بعد اكتمال الحَوْل على ماله، فإنه يَجِب فيه الزكاة[٤].

وقد دلَّ الحديثُ على أنَّ الزكاة لا تَجِب على غير المسلم؛ لأنَّها طُهرةٌ له.

---

(١) «المجموع شرح المهذَّب» للنوويِّ (٦/ ١٠٤).

(٢) أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧).

(٣) البخاريُّ (١٥٠٦)، ومسلم (٩٨٥).

(٤) انظر: «المغني» لابن قدامة (٣/ ٨٩).

٤ وأمر النبيُّ ﷺ أن تُخرَج الزكاة قبل خروج النَّاس لأداء صلاة العيد، ورخَّص لهم في إخراجها قبل العيد بيوم أو يومين[١]. فمن أخَّرها عن ذلك الوقت لم تُقبَل منه، وكان مؤاخَذًا بتضييعها عن وقتها، قال ابن عباس ﷺ: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ»[٢].

وقد جعَل ﷺ زكاةَ الفطر مقصورةً على الفقراء والمساكين، فلا يجوز صرفُها في سائر مصارف الزكاة؛ لقول ابن عباس ﷺ: «وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ».



(١) قال ابن عمر: «وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين» البخاري (١٥١١).

(٢) أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧).

اتّباعي

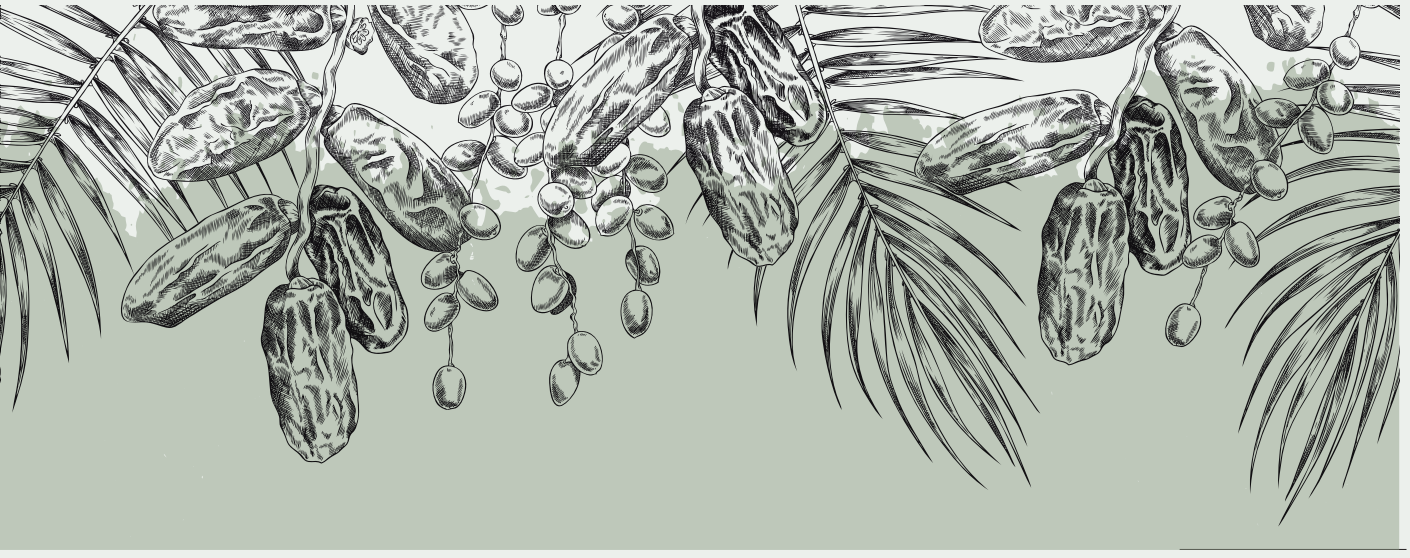
١ (١) زكاة الفطر شرَعها اللهُ عزَّ وجلَّ جُبرانًا للنقص الحادث في صيام رمضان من اللَّغو والمعاصي؛ فبها يَكمُل الصيام، فيَستحقُّ العبدُ الأجرَ كاملًا به، فمن أراد أن يَكمُل أجرُ صومِه فليُخرِج زكاة فِطره.

٢ (١) زكاةُ الفطر شرَعها النبيُّ ﷺ إغناءً للفقير وسدًّا لحاجته يوم العيد؛ حتى تَكمُل فرحة العيد لدى الجميع، فعلى المسلم أن يحرص عليها، طلبًا للأجر، وحتى يُسعِد الفقراء من حوله.

٣ (١) زكاةُ الفطر مما شرَعه النبيُّ ﷺ شُكرًا لله تعالى على إتمام الصيام والتوفيق للعبادة في رمضان. فعلى المسلم أن يسارع في شُكر الله تعالى على ما وهَبه من النِّعم ووفَّقه للعبادات التي صَرَف عنها كثيرًا من الناس.

٤ (٢) زكاة الفطر مقدار يسير لا يُكلِّف المسلمَ كثيرًا، فلا ينبغي أن يَغفُل عنه أحدٌ أو يبخل به.

٥ (٢) الزكوات والصدقات وإن كانت قليلةً إلا أنَّها تقع في يدي الله تعالى، قال ﷺ: «ما تصدَّق أحدٌ بصدقة من طيِّب - ولا يَقبَل اللهُ إلا الطيبَ - إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرةً، فتربو في كفِّ الرحمن حتى تكون أعظمَ من الجبل، كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه أو فَصِيله» متفق عليه[1].



(١) البخاريُّ (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

٦ (٣) زكاة الفطر واجبة على كلِّ مسلم أدرك رمضان وغرَبت عليه شمس العيد، فيجب على كلِّ مسلم أن يُخرجها عن نفسه ومَن يعول.

٧ (٤) ينبغي ألَّا يؤخِّر المسلمُ صدقته حتى يخرج النَّاسُ إلى صلاة العيد، بل الواجب عليه المبادرة بأدائها قبل أن يشغله عنها شاغلٌ فلا تُجزئ عنه بعد ذلك.

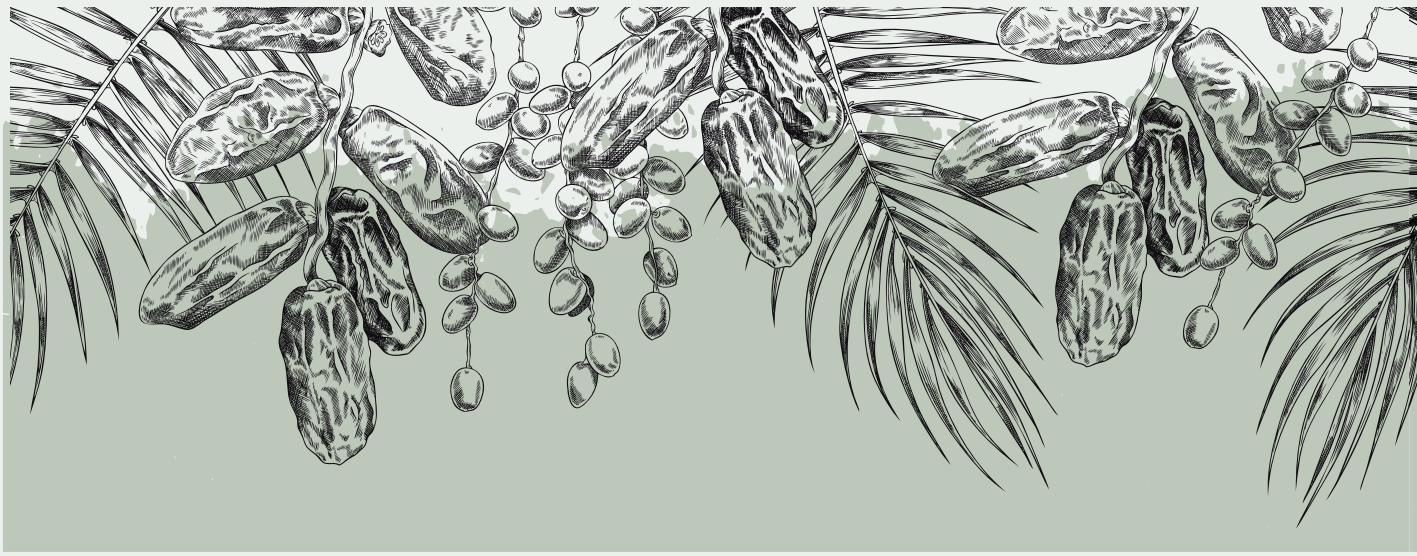
قال الشاعر:

يا مَنْ تَصَدَّقَ مالُ اللهِ تَبْذُلُهُ ... في أوجُهِ الخيرِ ما لِلمال نُقْصانُ

كَمْ ضاعَفَ اللهُ مالًا جادَ صاحِبُهُ ... إنَّ السَّخاءَ بِحُكْمِ اللهِ رضوانُ

الشُّحُّ يُفْضي لِسُقمٍ لا دَواءَ لَهُ ... مالُ البَخيلِ غَدا إرْثًا لِمَنْ عانوا

إنَّ التَّصَدُّقَ إسعادٌ لِمَنْ حُرِموا ... أهلُ السَّخاءِ إذا ما احْتَجْتَهُمْ بانوا





عن أبي هُرَيرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

١ «قال اللهُ عزَّ وجلَّ: كلُّ عمَلِ ابن آدمَ له، إلَّا الصيامَ؛ فإنه لي، وأنا أَجْزِي به،

٢ والصِّيامُ جُنَّةٌ،

٣ وإذا كان يومُ صومِ أحدكم، فلا يَرْفُثْ، ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتَلَهُ، فليقُلْ: إني امرؤٌ صائمٌ،

٤ والذي نفْسُ محمدٍ بيده، لَخُلُوفُ فمِ الصائم أطيبُ عند الله مِن ريحِ المِسْك،

٥ للصائمِ فَرْحتانِ يَفرَحُهما: إذا أفطرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ ربَّهُ فَرِحَ بصومِه»[1].

(١) البخاريُّ (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

آيات

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
- ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].
- ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ عن بعض فضائل الصوم، فمنها أنَّ الله تعالى استأثر بالجزاء عليه بنفسه دون أن يُعلِم أحدًا بثوابه، وأنَّ الصيام مانعٌ من الوقوع في المعاصي والذنوب، وأنَّ رائحة فَمِ الصائم طيِّبةٌ عند الله تعالى وإنِ استَقبَحها النَّاسُ، وأنَّ الصائم يَفرح يوم القيامة إذا رأى جزاء صومه، كما يفرح في الدنيا بأنَّ الله وفَّقه للصوم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يُخبِر النبيُّ ﷺ عن ربِّ العزَّةِ جلَّ جلاله أنَّه قال: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم؛ فإنه لي، وأنا أجزي به»، وإضافة الصوم لله سبحانه دون سائر العبادات وإن كانت له أيضًا؛ إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ، كتَسمية المسجد الحرام بأنه «بيت الله» وقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣].

واختصَّ الصومُ بذلك لأنَّه عبادةٌ لا يَدخلها الرياءُ؛ فإنَّ جميع العبادات لا يُمكِن إخفاؤها عن الملائكة والبشر إلا الصومَ، ولأنَّه عبادةٌ فيها المشقَّة للبدن تتضمَّن كَسْر النفس والصبر على الجوع والعطش، ولأنَّ في الصوم اجتماعَ أنواع الصبر جميعًا؛ فهو صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية؛ حيث يمنعه الصوم عن اللغو والفسوق والمعاصي، وصبرٌ على قَدَر الله؛ حيث يتحمَّل الجوع والعطش[١].

ولهذا استأثر اللهُ عزَّ وجل بمعرفة جزاء الصوم، فإذا كان سبحانه قد أطْلَع الملائكةَ الكَتَبة بأنَّ أجر الصلاة كذا حسنةً، وأجر الزكاة كذا وكذا حَسَنةً، فإنه قد أخفى عنهم جزاء الصيام؛ ليجازي عبادَه عليه بنفسه جلَّ وعلا.

٢ ثم أخبَر ﷺ أنَّ الصيامَ سِترٌ ووقايةٌ؛ فإنَّه يَحُول بين العبدِ وبين النَّار يوم القيامة؛ قال ﷺ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[٢].

وهو كذلك وقايةٌ وسِترٌ عن المعاصي؛ فإنَّه يَكسِر النَّفْسَ ويُضعِف القوة ويُطفِئ الشهوة، ولهذا قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[٣]، أي: وقاية.

٣ ولمَّا كان الصيام وِقايةً للعبد عن النَّار وما يُقرِّب إليها من المعاصي، أرشد النبيُّ ﷺ أُمَّته إلى ترك ما لا يجوز للصائم من الجِماع ومقدِّماته التي تُفضِي إليه، والصِّياحُ ورفع الصوت والخِصامُ، ونحوها. فإنَّ سابَّه أحدٌ أو تَشاجَر معه فلْيَقُل: «إني امرؤٌ صائمٌ»، يقولها في نفسه ليَمتنِع بذلك عمَّا لا يجوز له، ويَجهَر بها لخَصْمه ليَعلم أنَّه إنما ترَكه وسكت عنه لأنه صائمٌ لله تعالى، وإلا فهو قادرٌ على الفَتْك به، فيَنزجِر خَصْمُه بذلك ولا يظنُّ أنَّ سُكوته ذلٌّ منه وضعفٌ، بل رُبَّما كان الآخرُ صائمًا كذلك، فيتوب ويرجع حين يُذَكِّره بصومه[٤].

---

(١) انظر: «أعلام الحديث» للخطَّابيِّ (٢/ ٩٤٦)، «المسالك في شرح موطَّأ مالك» لابن العربيِّ (٤/ ٢٤٠)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٣/ ٢١٢)، «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنَّة» للبيضاويِّ (١/ ٤٩٠)، «الشرح الممتع على زاد المستقنع» لابن عثيمين (٦/ ٤٥٨).

(٢) البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

(٣) البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٤) انظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقِّن (١٣/ ٢٠)، «الشرح الممتع على زاد المستقنع» لابن عثيمين (٦/ ٤٣٢).

٤ ثُمَّ يُقسِم النبيُّ ﷺ بربِّه جلَّ وعلا -وهو الصَّادِقُ المُصَدَّق- أنَّ الرائحة الناتجة عن تغيُّرِ فَمِ الصائم بسبب صيامه أفضلُ عند الله من رِيح المِسْك؛ فإذا كانت تلك الرائحة الكريهة حادثةً بسبب الصيام لله تعالى، فهي أَحَبُّ عنده وأدعى للقُرْب منه من رِيح المِسْك، واللهُ تعالى يجازي عبدَه عليها بأن تَفوح منه يوم القيامة رائحة أطيب وأذْكى من المِسْك، كما يُجازي الشهيد في سبيل الله بأن يكون دمُه برائحة المِسْك، وأنَّ اللهَ تعالى إن كان يُجازي على استعمال المسك حيث نُدِب إليه في الجُمَعِ والجماعاتِ والأعياد ونحوها، فإنَّ عِوَضَ ذلك الخُلُوف والرائحة الكريهة من الثَّواب أعظم من أجر المتطيِّب بالمسك[1].

٥ ثُم يُخبِر ﷺ أنَّ للصائم فرحتَين يَفرحهما؛ إذا أفطر فَرِح بفطره؛ لِما يجده من الطعام والشَّراب بعد الجوع والعطش، وهو فرَح طبيعيٌّ جائزٌ، وفرحٌ بأن أتمَّ اللهُ عليه صومَه ووفَّقه إليه وسلَّمه من الفساد.

والفرحة الأخرى إذا لَقِي الله تعالى، فيَرى ما أعدَّه له من النعيم والجزاء الذي أخفاه عن خَلْقه.



(١) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٤/ ١١٢)، «طرح التثريب في شرح التقريب» للعراقيِّ (٤/ ٩٦).

التَّتبُّع

١ (١) شرَّف اللهُ تعالى الصِّيَام وجعله خاصًّا به، لا يَعلم ثوابَه غيره؛ وذلك لعظيم أجره وفضله، فلْيَغتنِم المسلمُ ذلك ويُكثِر من التطوع بالصيام.

٢ (١) كفى بالصيام شرفًا أنْ أضَافَه الله تعالى إليه قائلًا: «فإنه لي»، وكفى بالمؤمن طاعةً أن يَغتنِم هذا الفضلَ والشَّرف بالإكثار من صيام النوافل بعد صيام الفريضة.

٣ (٢) الصَّومُ وِقايةٌ للإنسان من الشيطان ووساوسه، ولهذا نبَّه ﷺ الشبابَ إليه عند عَجْزهم عن الزواج، فعلى المسلم أن يلجأ إلى الصيام يحتمي به عن الشهوات والفِتَن.

٤ (٢) الصومُ وقايةٌ للعبد من النَّار التي وَقودها النَّاس والحجارة، وقد أخبر سبحانه أنه: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. فمن أراد الفوز والنجاة من النَّار فعليه بالصوم.



٥ (٣) نهى النبيُّ ﷺ الصائمَ عن الصَّخَب والجهل والسِّباب ونحوه، وهي أمورٌ لا تجوز للصائمِ وغيره، تأكيدًا على منزلة الصائم، وأنه لا ينبغي أن يَتدنَّى إلى تلك الدرجة من الجَهالة والبَذاءة.

٦ (٣) يجوز للإنسان أن يُصَرِّح بشيءٍ من عبادته بقصد جَلْب الخير ودفع الشَّر، من غير أن يتعلَّق ذلك بالرياء، ولهذا جاز للصائم إذا سابَّه أحدٌ أو تشاجَر معه أن يَذكر له صيامَه.

٧ (٤) أكَّد النبيُّ ﷺ كلامَه بالقَسَمِ وهو الصَّادقُ المصدوق، زيادةً في توكيد الكلام. فربما يَحسُن بالداعية والمعلم والمُرَبِّي أن يلجأ إلى ذلك أحيانًا من غير أن يُكثِر منه.

٨ (٤) إذا تأذَّى الصائمُ بما يَجِد من كراهية رائحة فمِه، فلْيَطمئِن بأنَّ تلك الرائحة طيِّبةٌ عند الله سبحانه مأجورٌ عليها.

٩ (٤) لا يُفهَم من الحديث كراهية استعمال السواك للصائم؛ فإنَّ تلك الرائحة تخرج من الجَوف لا من الفمِ، كما أنَّه ليس في الحديث الأمرُ بترك تلك الرائحة على حالها، وإنما مواساةُ الصائمِ لِما يجده منها.

١٠ (٥) أفاد الحديثُ أنَّ الفرح بانتهاء الصيام واستطاعة الإنسان الأكلَ والشُّربَ ليس مكروهًا أو محرَّمًا، بل هو فرَحٌ مباحٌ فطَره اللهُ تعالى على حُبِّ الطعامِ والشَّراب.

١١ (٥) إذا كان الفرحُ بالطعام والشراب للصائم مباحًا، فالفرحُ بأنْ أتمَّ اللهُ على العبدِ صومَه ووفَّقَه إليه شُكرٌ لله تعالى على نِعمه، وهي عبادةٌ يُؤجَر الإنسانُ عليها.

قال الشاعر:

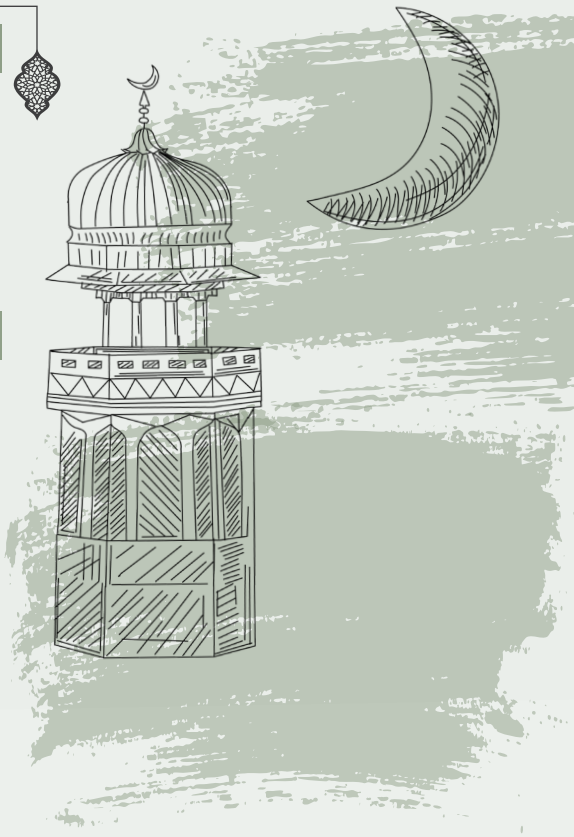
جَاءَ الصِّـيَامُ فَجَاءَ الخَيْرُ أَجْمَعُهُ ... تَرْتِيلُ ذِكْرٍ وَتَحْمِيدٌ وَتَسْـبِيحُ

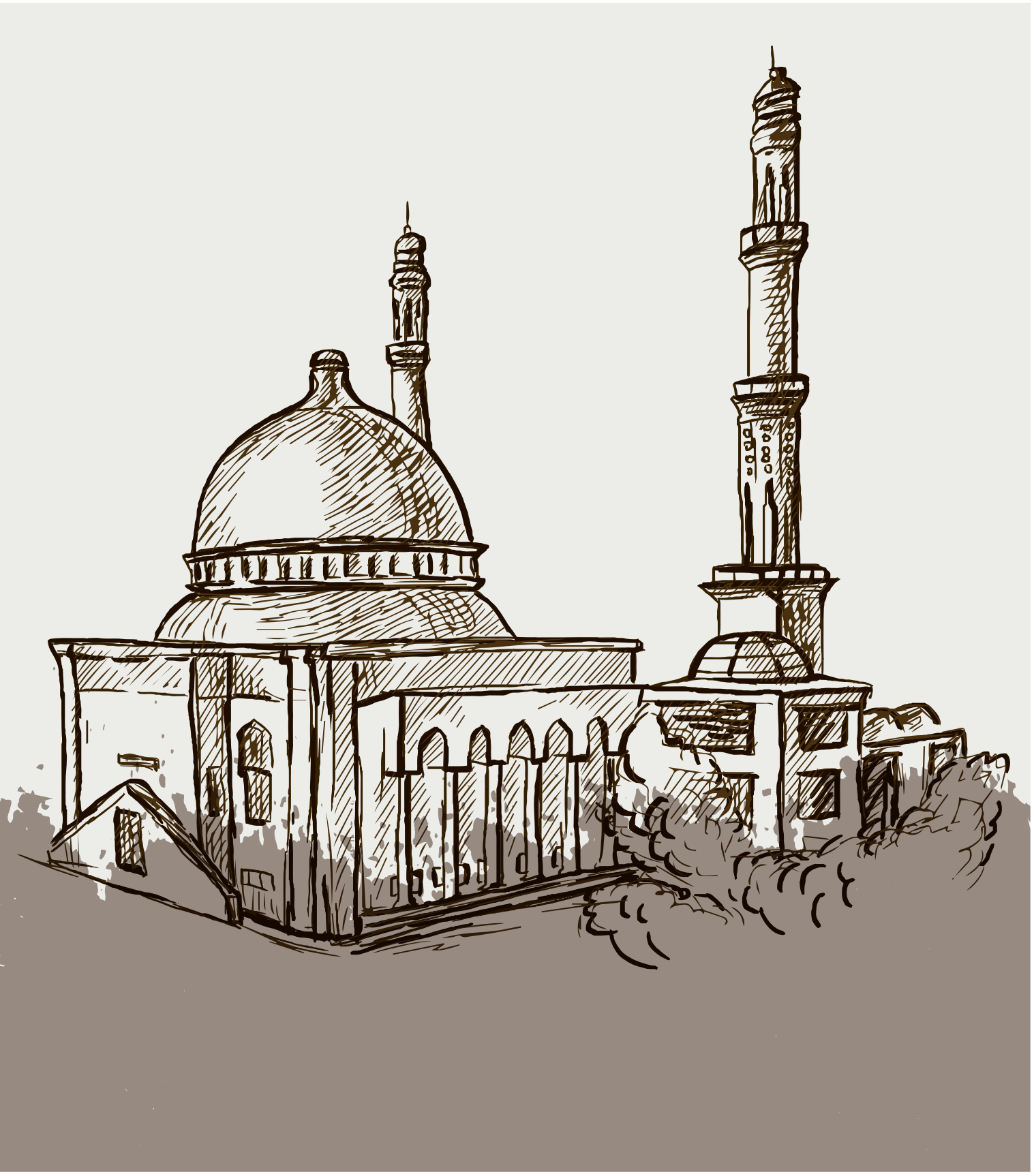
فَالنَّفْسُ تَدْأَبُ فِي قَوْلٍ وَفِي عَمَلٍ ... صَوْمُ النَّهَارِ وَبِاللَّيْلِ التَّرَاوِيحُ

قال غيره:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّـمْعِ مِنِّي تَصَـامُمٌ ... وَفِي مُقْلَتِي غَضٌّ، وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ

فَحَظِّي إِذًا مِنْ صَوْمِيَ الجُوعُ وَالظَّمَا ... وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي صُمْتُ يَوْمًا، فَمَا صُمْتُ





فضلُ رمضانَ وما فيه

عن أبي هُرَيرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

١ «مَن صام رَمَضَانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذَنْبه،

٢ ومَن قام ليلةَ القَدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذَنْبه»(١).

٣ وعن أبي هُريرةَ ﷺ أيضًا، أن النبيَّ ﷺ قال:

٤ «مَن قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبه»(٢).

(١) البخاريُّ (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).
(٢) البخاريُّ (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

آيات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥].

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ١ - ٤].

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [القدر: ١ - ٥].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهرُ ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خيبرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتوفي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ أنَّ من صام رمضان مؤمنًا بأنه فرضٌ واجبٌ عليه، محتسِبًا الأجر على الله سبحانه، غفَر الله له ما سبق من ذنوبه، ومَن قام ليلة القدر كذلك مؤمنًا محتسِبًا، غُفِر له ما سبق من ذنوبه، ومن باب أَولى من قام رمضان كلَّه؛ فإنَّه يُغفَر له ما تقدَّم من ذَنْبه كذلك.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يَذكر النبي ﷺ أنَّ مَن صام شهر رمضان مؤمنًا بأن اللهَ عزَّ وجلَّ قد فرَضه عليه، ومُصَدِّقًا بموعود الله تعالى للصائمين وما أعدَّه لهم، ومحتسِبًا الأجرَ والثوابَ من الله سبحانه، لا يرجو جزاءَ ذلك من أحدٍ غيره، بل يريدُ به وجهَ الله تعالى من غير رياءٍ أو سُمعة، مُتلقِّيًا الشهر بطِيب نفسٍ، مغتنِمًا الأوقاتِ في طاعة الله تعالى والقُرب منه - فجزاؤه أنَّ اللهَ سبحانه يَغفر له ما تقدَّم من ذَنْبه.

والصِّيامُ: الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة، بِنية العبادة لله تعالى، من أذان الفجر إلى أذان المغرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «يَدَعُ شَهْوَتَه وطعامَه من أجْلي»[١].

٢ ثم أخبَر ﷺ أنَّ مَن قام ليلة القدر بالصلاة والدعاء والذِّكر وقراءة القرآن ونحو ذلك من العبادات، شريطةَ الإيمان والاحتساب كذلك؛ فقد غُفر له ما تقدَّم من ذَنْبه. ولا يُشترَط في ذلك أن يقوم العبدُ الليلةَ كلَّها، بل يحصل ذلك بقيام جزءٍ منها ولو يسيرًا، كما في مُطلَق التهجُّد أو إدراك صلاة القيام مع الإمام[٢].

وقد سُمِّيت ليلةُ القدْر بهذا الاسم لأنَّها عظيمة القَدْرِ عند الله؛ ففيها نزل القرآنُ إلى بيت العزة في السماء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وفيها نسخُ مقادير العباد التي تَحدُث في تلك السَّنة من اللَّوح المحفوظ، فتُساق إلى مواقيتها[٣]. وقد منَّ اللهُ سبحانه على عباده بمُضاعَفة الحسنات في تلك الليلة، فهي كما قال سبحانه: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

وليلةُ القدر مُبهَمةٌ في العشر الأواخر من رمضان، فمن قام العشرَ جميعًا فقد أدرك ليلةَ القدر لا مَحالة؛ قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان النبيُّ ﷺ إذا دخل العشْرُ، شدَّ مِئْزَرَهُ، وأحْيا ليله، وأيقَظ أهله»[٤]، وهي أحرى أن تكون في الوتر من تلك الليالي؛ لقوله ﷺ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»[٥].

---

(١) البخاريُّ (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

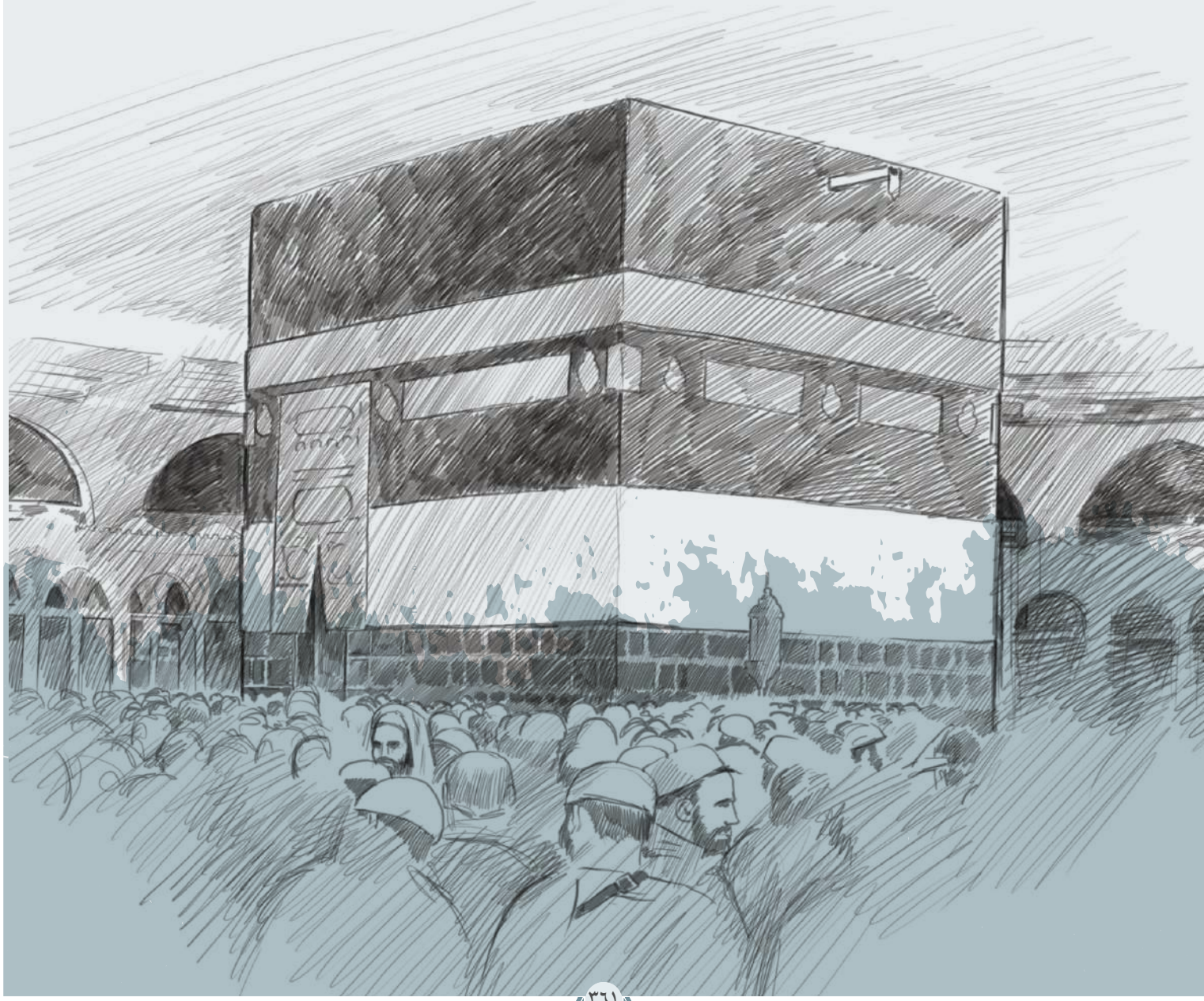
(٢) انظر: «طرح التثريب في شرح التقريب» للعراقي (٤/ ١٦١).

(٣) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٢/ ٣٩٠).

(٤) البخاريُّ (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٥) البخاري (٢٠١٧)، ومسلم (١١٦٩).

٣ وفي الحديث الآخر أخبَر ﷺ أنَّ من قام جميع ليالي رمضان مؤمنًا محتسِبًا، فقد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه. ولا تعارض بين مغفرة الذنوب بقيام رمضان كله وبقيام ليلة القدر؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما صالحٌ لتكفير السيئات، إلَّا أنَّ في كلِّ واحدٍ ما ليس في الآخر؛ فقيام جميع رمضان شاقٌّ إلا أنَّ قائمَه يُدرِك ليلة القدر لا مَحالة، فيُغفَر له بقيام رمضان وبإدراك ليلة القدر، وقيام ليلة القدر ليست في مَشقة قيام الشهر كلِّه، إلَّا أنَّها تحتاج إلى تَحَرٍّ وتخمينٍ، وقد يصيبُها المرءُ بعد ذلك وقد لا يصيبها، فصار الأفضل قيام جميع الشهر؛ لِما فيه من الأجر، ولتَيَقُّن قيام ليلة القدر.



١ (١) مِن عظيم لُطف الله بنا أن جَعَل لبعض الأزمنة والأماكن فضائلَ ومزايا ليست لغيرها؛ فجَعَل يومَ عرفةَ خيرَ أيَّام العام، ويومَ الجُمُعة أفضلَ أيام الأسبوع، وجعل الكعبةَ أفضلَ البقاع، وشهرَ رمضان أفضلَ الشهور، وليلةَ القَدْر أفضلَ الليالي جميعًا. وقد جعل الله في تلك الأوقات والأماكن من الفَوز العظيم والفلاح المُبين ما يُحفِّز الإنسانَ على العمل، واغتنام النَّفَحات.

٢ (١) لا بُد في الأعمال من الإيمان والاحتساب؛ فإنَّ الأعمال لا تُقبَل من غير المؤمن، ولا يُؤجَر عليها مَن لم يَحتسِب العملَ أو جعَله رياءً وسمعةً؛ لقوله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنِّيَّات»[1]. فعلى المسلم أن يَستحضر النيَّة الخالصة في جميع أعماله، وأن يحتسِبَ كلَّ ما يعمله ابتغاءَ مرضات الله عزَّ وجل.

٣ (١) الإيمان والاحتساب أصلُ كلِّ عملٍ، حتى إنَّهما اجتمَعا في تعريف طَلْق بن حَبيب رحمه الله تعالى للتقوى بقوله: «أن تَعمَل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تتركَ مَعصية الله، على نُور من الله، تَخاف عِقاب الله»، فلا بدَّ لكل عملٍ أن يكون مَبدؤُه الإيمانَ، وغايتُه ثوابَ الله، وابتغاءَ مرضاته[2].

٤ (٢) أخفى اللهُ عزَّ وجل ليلةَ القدر ليَجتهِد العبدُ في طاعة الله تعالى في جميع الأوقات، فلا يَجتهد في ليلةٍ ويَدَع سائر الليالي، كما أخفى سبحانه ساعةَ الإجابة يوم الجمعة لذلك؛ كي يدعوه عبادُه في جميع اليوم.

٥ (٢) المعاصي من أكبر الأسباب التي تَحُول بين العبد وبين التوفيق لاغتنام الطاعات؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ خرج يُخبِر النَّاسَ بليلة القدر، فوجد رجُلَين يتشاجرانِ في المسجد، فنَسِي النبيُّ ﷺ وقتَها بسبب ذلك[3]. فعلى المسلم أن يبتعد عن المعاصي حتى ينير اللهُ قلبَه ويوفِّقَه لاغتنام النَّفَحات والطاعات.

٦ (٣) أمامك طريقان لتَنال غُفران الله؛ أحدهما فيه مشقَّة لا تخلو عن لذَّة الطاعة والقُرب من الله تعالى، بقيام ليالي رمضانَ كلِّها. والآخَر: يسير، وهو الاقتصار على قيام ليلة القدر وتحرِّيها، فالأول يقين، والآخر مَبْناه على الظنِّ والتَّخْمِين، فأيَّهما تختار: الظنَّ أم اليقين؟

---

(١) البخاريُّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) انظر: «الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه» لابن القيم (١/ ١٠)، «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٤٥٩).

(٣) البخاري (٢٠٢٣).

٧ (٣) قال ابن رجب رحمه الله: «المحبُّون تطُول عليهم الليالي فيَعُدُّونها عدًّا لانتظار ليالي العشر في كل عام، فإذا ظَفِروا بها نالوا مَطلوبهم، وخدَموا مَحبوبهم»[١].

قال الشاعر:

رَمَضَـــانُ بِالحَسَنَاتِ كَفُّكَ تَزْخَـرُ ... وَالكَوْنُ فِي لَأْلاءِ حُسْنِكَ مُبْحِرُ

يَـا مَوْكِبًـا أَعْـــلامُهُ قُدْسِـــيَّةٌ ... تَتَزَيَّنُ الدُّنْيَـا لَهُ تَتَعَطَّـــــرُ

أَقْبَلْتَ رُحْمًا فَالسَّـمَاءُ مَشَـاعِلٌ ... وَالأَرْضُ فَجْرٌ مِنْ جَبِينِكَ مُسْفِرُ

هَتَفَتْ لِمَقْدِمِكَ النُّفُوسُ وَأَسْرَعَتْ ... مِنْ حُـوبِهَا بِدُمُوعِهَـا تَسْتَغْفِرُ



(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (ص: ٢٠٤).



عن أبي هريرة ﷺ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعَمَلَ به والجهلَ، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَع طعامَه وشَرَابَه»[1].

آيات

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
- ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].
- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].
- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

الغرض من الصيام هو التقوى وحفظ اللسان والأعضاء عن الحرام، فإذا لم يَتحقَّق ذلك وخاض الإنسان في المحرَّمات مع صيامه، فلا قيمةَ لذلك الصيام عند الله تعالى.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

(١) البخاري (٦٠٥٧).

١ يُبيِّن النبيُّ ﷺ أنَّ الغرضَ الأسمى من الصيام التقوى وحفظُ اللسان والأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فمن صام عن الطعام والشراب ولم تَصُم أعضاؤه عن قول الزُّورِ والعمل به - وهو كلُّ باطلٍ من الكلام، فيَشمل الكذبَ والنميمة والغِيبة ونحوها من آفات اللسان - ولم يَنتهِ عن السَّفاهة والطَّيش وعدم الحِلم وما يترتب على ذلك من الشِّجار والقتال والضَّجيج المنهيِّ عنه بقوله ﷺ: «وإذا كان يومُ صومِ أحدكم، فلا يَرفُثْ، ولا يَصخَبْ، فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتَلَهُ، فلْيَقُلْ: إني امرؤٌ صائمٌ»[١]، فلا يُقبل صيامُه ولا يُعتدُّ به.

٢ وعبَّر ﷺ بقوله: «فليس للهِ حاجةٌ» للدلالة على عدم الالتفات والمبالاة والقبول والمَيل، كما تقول: لا حاجةَ لي في فلان. وإلا فاللهُ عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن العالمين، لا يحتاج إلى شيءٍ منهم، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

٣ وقد نهى الله عزَّ وجلَّ عن قول الزُّور فقال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وامتدح عباده الذين لا يَشهدون الزور؛ فلا يقولونه ولا يعملون به ولا يجلسون في مجلسه، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وذكر النبيُّ ﷺ أنَّ شَهادة الزُّور من أكبر الكبائر، فقال ﷺ: «ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلسَ وكان متَّكِئًا فقال: ألا وقولَ الزُّور»، قال: فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: ليْتَه سكتَ[٢].

٤ والمقصود من إيجاب الصوم وشَرْعِه، ليس نفْسَ الجوع والعطش؛ بل ما يَتبَعُه من كَسْر الشهوة، وإطفاء ثائرة الغضب، وتطويع النفْس الأمَّارة للنفْس المطمئنَّة، فإذا لم يحصُل للصائم شيءٌ من ذلك، ولم تتأثَّر به نفْسه، لم يكُن له مِن صيامه إلا الجوعُ والعطشُ؛ لقوله ﷺ: «رُبَّ صائمٍ ليس له مِن صِيامه إلا الجوعُ، ورُبَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلا السَّهَرُ»[٣]. وحينئذٍ لا يُبالي الله تعالى بصومه، ولا ينظر إليه نظرَ قَبولٍ؛ إذ لم يحقِّق المقصودَ من صيامه[٤].

---

(١) البخاريُّ (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) البخاريُّ (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) رواه النسائيُّ في «السنن الكبرى» (٣٢٣٦)، وابن ماجه (١٦٩٠).

(٤) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاويِّ (١/ ٤٩٧).

١ إذا كان اللهُ تعالى قد اختصَّ بأجْر الصيام، وأخبر بقوله جل جلاله: «كلُّ عمَلِ ابن آدمَ له، إلا الصيامَ؛ فإنه لي»[١]، دلالةً على عِظَم أجره ورِفعة منزلته، ثم تأتي كلمةٌ يقولها العبد من سَخَط الله فتَهدِم كلَّ هذا الأجر وتُحبِطه؛ فهذا دليلٌ على خطورة قول الزُّور والعمل به، وأنه من المَهالِك والمُوبِقات التي تُورِث الإنسانَ خسران الدنيا والآخرة، فعلى المسلم أن يَحذَر من تلك المعصية، ويَنأى بنفسه عن إحباط عمله.

٢ إن الله تعالى أراد من عباده أن يتَّقُوه ويطيعوه ويَجتنِبوا مَحارمه، ولم يُرِد أن يضيِّق عليهم بترك الأكل والشُّرب والجِماع؛ بل أراد أن يَمتثِلوا أوامره، ويَجتنبوا نواهيَه؛ حتى يكون الصيام مدرسةً يتعوَّدون فيها على تَرْكِ المحرَّمات، وعلى القيام بالواجبات.

٣ الغرضُ من الصيام كسْرُ النَّفْس وترْكُ المناهي التي هي مُحَرَّمةٌ، لا تركُ الطعام والشراب فقطْ اللَّذينِ هما مباحانِ[٢].

٤ اعلم أنه لا يتِمُّ التقرُّبُ إلى الله تعالى بتَركِ هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرُّبِ إليه بتَرْك ما حرَّم الله في كلِّ حال من الكذب، والظُّلم، والعُدوان على الناس في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم[٣].

٥ حرَّم اللهُ تعالى قولَ الزُّور كما حرَّم العملَ به، فيَشمَلُ ذلك الغيبةَ والنَّميمة والإيقاع بين النَّاس والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وغير ذلك من باطل القولِ.

قال الشاعر:

يَـا ذَا الّـذِي صَـــامَ عَنِ الطُّعْـــمِ ... لَيْتَكَ قَدْ صُمْتَ عَنِ الظُّـلْمِ
هَـــلْ يَنْفَعُ الصّـــوْمُ امْرَأً ظَـالِمًا ... أَحْشَـــاؤُهُ مَـلْأَى مِنَ الإِثْـمِ

قال غيره:

حَصِّنْ صِيَامَكَ بِالسُّكُوتِ عَنِ الخَنَا ... أَطْبِقْ عَلَى عَيْنَيْكَ بِالأَجْفَانِ
لا تَمْشِ ذَا وَجْـهَيْنِ مِنْ بَيْنِ الـوَرَى ... شَـــرُّ البَرِيَّةِ مَنْ لَهُ وَجْـهَانِ

(١) البخاريُّ (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).
(٢) «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهريِّ (٣/ ٢٤).
(٣) «لطائف المعارف» لابن رجب (ص: ١٥٥).



عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال النبيُّ ﷺ: «مَن حَجَّ هذا البيتَ فلم يَرفُثْ، ولم يفسُقْ، رجَعَ كيومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ»(١).

(١) البخاريُّ (١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠).

آيات

- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].
- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرينِ، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

الحجُّ المبرور كفَّارةٌ للذنوب، فمن حجَّ ولم يأتِ بشيءٍ من مفسِدات الحجِّ من الجماع والمعاصي وغيرها، رجَع إلى أهله بلا ذنْبٍ كيوم ولدتْه أمه.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

١ يُرشِد النبيُّ ﷺ إلى بابٍ من أعظم أبواب تكفير الذنوب، وهو الحجُّ المبرور، فيخبِر ﷺ أنَّ من حجَّ حجًّا سليمًا مقبولًا، مُحِيَت ذنوبُه وعاد من حَجِّه مطهرًا كيوم ولدته أمه، والحج المبرور هو الذي لم يأتِ فيه صاحبُه بشيء من محظورات الحجِّ، كالرَّفَثِ وهو ما يريده الرجل من المرأة من جِماعٍ ومقدِّماته، أو الفسوق وهو الخروج عن الطاعة وارتكاب المعاصي.

٢ والحديثُ يشملُ الحجَّ والعمرةَ معًا؛ بدليل رواية مسلم: «مَن أتى هذا البيت»، وقوله ﷺ: «العمرةُ إلى العمرة كفَّارةٌ لما بينَهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنةُ» متفق عليه[1].

٣ وهذه المغفرة إنما هي عامَّة في حقوق الله تعالى؛ فإن الله عزَّ وجلَّ يَغفرها، أما حقوق الآدميين فلا تَسقُط إلا باسترضاء الخصوم، أو أداء الحقوق لأصحابها[2].



(١) البخاريُّ (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر: «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» للكرمانيِّ (٩/ ٣١).

الثّباتُ

١ استَخدم النبيُّ ﷺ التشبيه في قوله: «رجع كيوم ولدته أمه» لتوكيد معنى المغفرة وتكفير السيئات. فيحسُن بالداعية والمُربِّي أن يستخدم تلك الوسائل البلاغية وضرب الأمثال في تقريب المعاني وتوكيدها.

٢ أرشد النبيُّ ﷺ إلى بابٍ عظيم من أبواب مغفرة الذنوب، وهو الحج المبرور، وأيُّنا لا يحتاج إلى مغفرة الذنوب وتكفير السيئات؟!

٣ في الحديث التأكيدُ على مكارم الأخلاق، وأنها سببٌ في قَبول العمل أو رَدِّه.

٤ إياك وظلمَ العبادِ وهضْمَ حقوقهم؛ فإنَّ الذنوب المتعلقة بهم لا تَسقط إلَّا بردِّ المظالم وترضيتهم، أما ما اقترفتَه في حقِّ اللهِ سبحانه - غير الشرك - فداخلٌ في المشيئةِ؛ إن شاء عفا وإن شاء عذَّب.

٥ من مقاصد الحج تذكيرُ الإنسانِ بالآخرة؛ حيث يخرج الإنسان عن زِينته ومكانته ليَرتدِيَ إزارًا ورداءً كالكفن، وينعزل عن الدنيا ولذَّاتها، ووقف على عرفات في جموع الحَجيج كما يجتمع الناسُ في أرض المحشر، الجميع سواسية، لا فرق بين كبيرٍ وصغيرٍ ووزيرٍ وخَفيرٍ. فإذا أدرك الحاجُّ ذلك عاد زاهدًا في الدنيا مُستعدًّا للآخرة.



قال الشاعر:

إِلَيْـــكَ إِلَهِـي قَـدْ أَتَيْتُ مُلَبِّيًا ... فَبَـــارِكْ إِلَهِي حَـجَّتِي وَدُعَـائِيَا

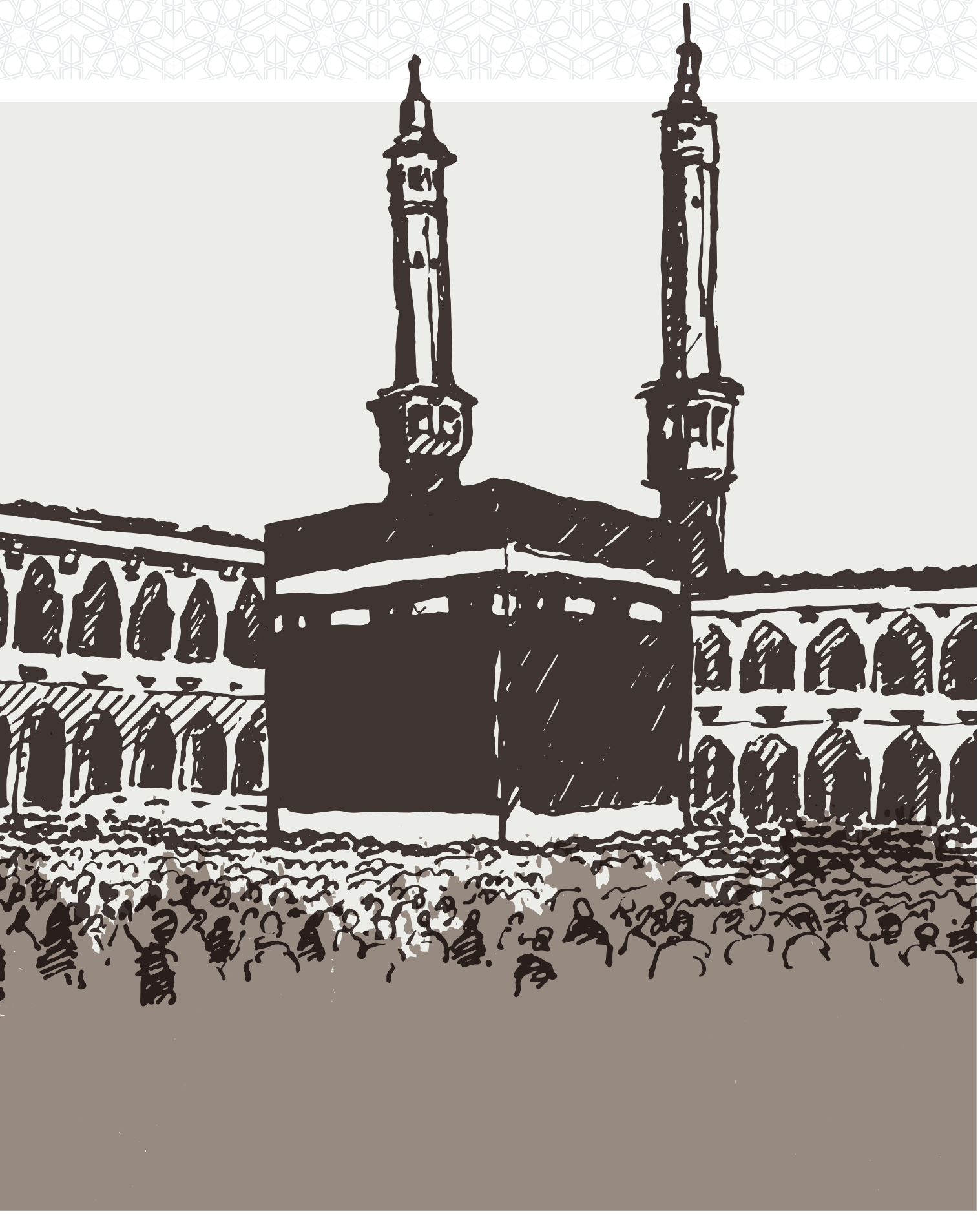
قَصَدْتُكَ مُضْطَرًّا وَجِئْتُكَ بَاكِيًا ... وَحَـــاشَـــاكَ رَبِّي أَنْ تَـرُدَّ بُكَـائِيَـا

كَفَـانِيَ فَخْـرًا أَنَّنِي لَكَ عَـابِدٌ ... فَيَا فَرْحَتِي إِنْ صِـرْتُ عَبْدًا مُوَالِيَا

إِلَهِي فَأَنْتَ اللَّهُ لا شَيْءَ مِثْـلُهُ ... فَأَفْعِـمْ فُـؤَادِي حِـكْمَةً وَمَعَانِيَـا

أَتَيْتُ بِـلا زَادٍ وَجُودُكَ مَطْعَمِي ... وَمَا خَابَ مَنْ يَهْفُو لِجُودِكَ سَـاعِيَا

إِلَيْكَ إِلَهِي قَدْ حَضَرْتُ مُؤَمِّلًا ... خَـلاصَ فُـؤَادِي مِنْ ذُنُوبِي مُلَبِّيَا



عن أبي هُرَيرة ﷺ، قال:

١ خطَبَنا رسولُ الله ﷺ، فقال: «أيُّها الناسُ، قد فرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ؛ فحُجُّوا»،

٢ فقال رجُلٌ: أكلَّ عامٍ يا رسولَ الله؟ فسكَتَ حتى قالها ثلاثًا،

٣ فقال رسول الله ﷺ: «لو قلتُ: نَعمْ، لوجَبتْ، ولَمَا استطعتم».

٤ ثم قال: «ذَروني ما تركتُكم؛

٥ فإنما هلَك مَن كان قبلَكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم،

٦ فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأْتوا منه ما استطعتم، وإذا نَهيتكم عن شيء فدَعوه»[1].

(١) برقم: (١٣٣٧).

آيات

- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].
- ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].
- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].
- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].
- ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتوفي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

أخبر النبيُّ ﷺ أصحابه بوجوب الحجِّ عليهم، فسأله أحدهم: أكلَّ عام يجِب الحجُّ؟ فسكت ﷺ ولم يُجِبْ، والرجل يكرِّر ذلك ولا يسكت، فأرشدهم إلى الاكتفاء منه ﷺ بما قال، وترك التشديد على أنفسهم بالسؤال؛ فإنه سببُ هَلاك الأمم السابقة.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ خطَب النبيُّ ﷺ في أصحابه يومًا فأخبرهم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أمرهم بحجِّ بيته الحرام؛ تصديقًا لقوله عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. فعليهم أن يستجيبوا لأمره ويؤدُّوا الفريضة.

والحجُّ قصدُ بيت الله الحرام في أوقات معيَّنة لأداء شعائر مخصوصة بنية التقرُّب إلى الله عز وجل[١].

٢ فسأله أحدُ الصحابة رضوان الله عليهم - وهو الأقرَعُ بن حابِس ﷺ - أيجِبُ الحجُّ كلَّ عامٍ يا رسول الله ﷺ؟ لأنَّه لم يَفهَم ما اقتضاه ذلك الأمرُ بالحجِّ؛ أيكون أمرًا بالأداء مرةً أم أمرًا بالتَّكرار؟

وإنما سكت النبيُّ ﷺ عن جواب الرجل مرتينِ زجرًا له عن مثل هذا السؤال؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ بُعث ببيان الشريعة وتمامها، فلم يكُنْ ﷺ لِيَسكُت عن بيانِ ما تحتاج الأُمَّةُ إليه، فلو كان الحجُّ واجبًا على التَّكرار لَأخبَر بذلك ﷺ، فكان مثل هذا السؤال تقديمًا بين يدَي الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد نهى اللهُ عزَّ وجلَّ عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

٣ فلمَّا لم يَنزجِر الرجل بسكوته ﷺ في المرتين، أخبره ﷺ بأنه إنما امتنع عن الجواب شَفقةً ورأفةً بالمؤمنين؛ فلو أجابه النبيُّ ﷺ بالإيجاب لَوَجب على المسلمين أن يحجُّوا في كلِّ عامٍ، وفي ذلك من المشقة ما لا يُقدَر عليه.

٤ ثم أرشد النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى أنَّه لا يجوز لهم أن يُشدِّدوا في السؤال، ويُكثِروا من الاستفهام عمَّا يأتي مقيَّدًا أو مُجمَلًا؛ فإذا أُمِرْتم بأمرٍ فافعَلوا ما يقع عليه اسمُ ذلك الفعل؛ فإذا أُمِرتم بالصَّدقة أو الحجِّ أو غير ذلك، فيُجزِئكم ما تقع عليه التسمية، فأقل الصَّدقة تُجزِئ، والحجُّ مرةً واحدةً كافٍ، وذلك هو مَدلولُ اللفظ، وما زاد عليه من التَّكرار المحتمَل من اللفظ يُتغافَل عنه[٢].

وفي ذلك بيانُ أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة، وأنَّه لا حُكم إلا بوُرود الشرع، فما سكَت الشرعُ عنه فهو على أصله[٣].

٥ وعلَّلَ النبيُّ ﷺ ذلك بأنَّ هلاك الأمم السابقة كان في كثرة سؤالهم لأنبيائهم عمَّا لم يأتِ بيانُه؛ فإنَّه أولًا دليلٌ على عدم التصديق؛ فإنَّ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مأمورون بإرشاد النَّاس إلى مصالح دُنياهم وآخرتهم، ولا يجوز لهم أن يَسكتوا عند الحاجة إلى البيان، فكان مِن واجب عموم النَّاسِ ألَّا يُعاجِلوهم بالسؤال، بل الواجب حُسنُ الإنصاتِ واغتنامُ ما سكتوا عنه.

---

(١) انظر: «الميسر في شرح مصابيح السنة» للتوربشتيِّ (٢/ ٥٨٦)، «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاويِّ (٢/ ١٢٠).

(٢) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٣/ ٤٤٧)، «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاويِّ (١/ ١٣٠).

(٣) انظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (٩/ ١٠١)، «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد (ص: ٥٧).

ثم إنَّ ذلك أورثهم ثانيًا تشديدَ اللهِ سبحانه عليهم بتشديدهم على أنفسهم في السؤال، فثَقُلت التكاليفُ عليهم بذلك، فأهملوها، فأهلكهم الله تعالى. ولهذا نهى اللهُ سبحانه عن مثل هذا السؤال وحذَّر من عاقبتها بقوله جلَّ جلالُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ١٠١، ١٠٢].

فمن ذلك أنَّ بعضَ بني إسرائيل سألوا نبيَّهم أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى، فلمَّا فُرض ذلك عليهم تولَّوا وفرُّوا، وفيهم أنزل سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦].

ومنه أيضًا أن موسى ﷺ لمَّا أمر قومه بذَبْح بقرةٍ، ظلُّوا يتشدَّدون في بيان مواصفاتها فشدَّد الله سبحانه عليهم، ولو ذبَحوا أيَّ بقرةٍ من البداية لَأجْزَأتهم.

ولهذا نهى النبيُّ ﷺ أصحابَه عن السؤال؛ قال أنس بن مالك ﷺ: «نُهينا أن نسألَ رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجُل من أهل الباديةِ العاقلُ، فيسأله، ونحن نسمع»[1]، فإنما رخَّص لأهل البادية؛ لعدم علمهم، وعدم وصول أوامر الشرع إليهم، بخلاف أصحابه الملازمين له ﷺ.

وقال ﷺ: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرمًا: مَن سأل عن شيءٍ لم يُحرَّم على المسلمين، فحَرُمَ عليهم من أجْل مسألته»[2].

٦ ثم أرشد ﷺ إلى ما ينبغي على المسلم فعلُه، وهو أنَّه إذا أتاه الأمرُ أتى منه بالمستطاع؛ فهو مأمورٌ بالصلاة بهيئتها وأركانها وواجباتها وسُننها المعروفة، فإذا عجَز المسلمُ عن الإتيان بها كما ينبغي، أتى بها على ما يَستطيع؛ فإذا عجَز عن الصلاة قائمًا صلَّى قاعدًا أو على جَنْبٍ، وإذا عجَز عن غَسل جميع أعضائه أتى بالممكِن، وهكذا، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن: ١٦].

وإذا جاءه النَّهيُ عن شيءٍ امتنع عنه تمامًا؛ إذ لا يكون الإنسانُ منتهيًا عن شيءٍ وهو يَقترِف بعض أجزائه، فإذا نُهي الإنسانُ عن شرب المسكرات مثلًا، فانتهى عن بعض أنواعها دون البعض لم يكُن منتهيًا حتى يمتنع عنها جميعًا. ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر: ٧].

---

(١) مسلم (١٢).

(٢) البخاريُّ (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

١ (١) استَعمل النبيُّ ﷺ أبسط الأساليب في بيان الأحكام الشرعية؛ حيث قال: «إن الله قد فرَض عليكم الحج». فعلى الفقيه والمُفتي أن يكون حريصًا على إيراد الحكم الشرعي في أوضح صوره، بحيث لا يكون قولُه مُلبِسًا أو غامضًا.

٢ (١) دلَّ الحديث على أنَّ الحجَّ فرضٌ من الفرائض التي كتبها اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه، ويجب على المسلم المستطيع المبادرة إليه قبل أن يَشغَله عنه شاغلٌ أو يمنعه عنه مانع.

٣ (٢) يجوز للعالِم والداعية والفقيه إذا سُئل عن شيءٍ أن يسكت عن الجواب زَجْرًا لصاحب السؤال عن الخَوض في مثله.

٤ (٢) إذا لم يَفهَم السائلُ أنَّ سكوت الفقيه أو المفتي لزجره، فينبغي على العالِم أن يبيِّن له الحكم الشرعي، وأن ينهاه عن مثل تلك الأسئلة.

٥ (٣) ينبغي على العبد أن يتأمَّل مَواضع شَفقته ورحمته ﷺ بأُمَّته، كيف أنَّه يخاف عليهم، ويَسكت عن الجواب خشيةَ أن تَثقُل عليهم التكاليف، ولا يخرج لصلاة القيام في رمضان لئلا تُفرَض على النَّاس، وينهى الصحابةَ عن السؤال فيما لا نصَّ فيه من أجْل ذلك. فإن العبد إذا تأمَّل ذلك أحبَّ النبيَّ ﷺ وارتفعت في قَلبه منزلتُه.

٦ (٤) على الإنسان ألَّا يتكلَّف الخوضَ في المسكوت عنه، ويحاول أن يَجعل له حكمًا شرعيًّا، فما لا نصَّ فيه ولا عِلة يُقاس عليها، يُؤخَذ فيه بحُكم الأصل، وهو الإباحة.

٧ (٤) النهيُ عن السؤال كان في زمانه ﷺ لئلا يُحرَّم شيء بسؤالهم، فيكون فيه مشقَّةٌ عليهم، أما الآن فلا يجوز للإنسان أن يفعل الشيء، ويَسكت عن السؤال عنه أحلالٌ هو أم حرامٌ؟ بل يَجِب عليه أن يتعلَّم العلم، فيَعرِف الحلال فيفعله، والحرام فيَجتنِبه[1].

٨ (٤) السؤال المنهيُّ عنه الآن هو السؤال فيما لا طائلَ منه؛ أو السؤال الذي يَترتَّب عليه شَرٌّ ومفسدة، كالتقوُّل في أسماء الله وصفاته بغير عِلم، والسؤال عن كيفية صفاته وأفعاله[2].

٩ (٥) يَحسُن بالداعية أن يبيِّن علة الأمر والنهي والحكمة منه إن تيسَّر معرفةُ ذلك؛ فهو أدعى للامتثال، وأرجى للقبول عند المدعوِّين.

---

(١) انظر: «شرح الأربعين النووية» للعثيمين (ص: ٣١٥).

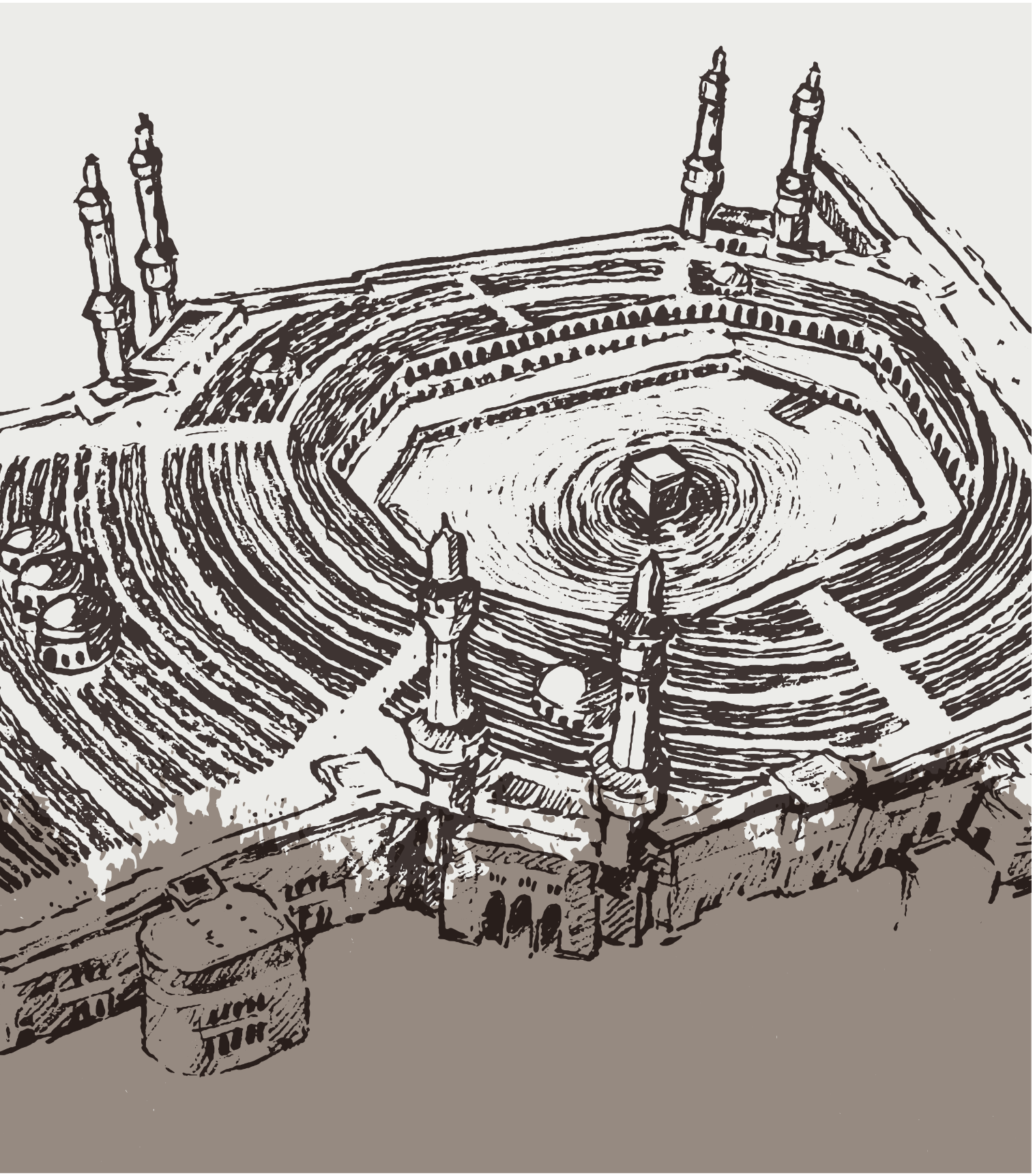
(٢) انظر: «شرح الأربعين النووية» للعثيمين (ص: ٣١٥).

١٠ (٦) دلَّ الحديثُ على أنَّ على العباد أن يَفعلوا المأمورات ما استطاعوا؛ فلا يُكلَّف الفقيرُ بالصَّدقة، ويجوز للمريض والمسافر الإفطار وقَضاء الصوم، وليس على غير المستطيع الحجُّ، بل الواجبُ أداءُ ما يَستطيعه المسلمُ في كل المأمورات.

١١ (٦) ترك المعاصي أَولى من إتيان الفرائض، ألا ترى أنَّ المأمورات تتقيَّد بالاستطاعة، والمناهي يَتحتَّم على العبد الانتهاءُ عنها وعمَّا يُقَرِّب إليها؟!

١٢ (٦) الانتهاء عن المعاصي لا يتمُّ حتى ينتهي المسلمُ عن جميع ما تَشمله المعصية؛ فالنهي عن الشِّرك يقتضي النهيَ عن وسائله التي لا تُعَدُّ شِركًا في نفسها، كالحلِف بغير الله من غير اعتقادِ تعظيمِ المحلوف به، وقول: «ما شاء الله وفلانٌ» ونحو ذلك من ذَرائع الشِّرك وأبوابِه.





عن جابر ﷺ قال:

١ رأيتُ النبيَّ ﷺ يَرْمي على راحلتِهِ يومَ النَّحْرِ،

٢ ويقول: «لِتأخُذوا مناسككم؛

٣ فإني لا أدْري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حَجَّتي هذه»(١).

(١) برقم: (١٢٩٧).

آيات

- ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].
- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].
- ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤].
- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

الراوي

هو: أبو عبد الله، جابرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، شَهِد بَيعة العقبة الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، وكان والده من النُّقباء البدريين، وكان آخِرَ مَن مات ممن شهِد ليلة العقبة الثانية، وقيل: شهِد بَدرًا وأُحدًا، وشَهد صِفِّين مع عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، وهو مُفتي المدينة في زمانه، تُوفِّي سنةَ (٧٨هـ)(١).

خلاصة

رمى النبيُّ ﷺ جمرة العقبة الكبرى يوم النحر راكبًا على ناقته، وأمر أصحابه أن يأخذوا عنه شعائر الحجِّ، فلعلَّه لا يحجُّ بعد حجَّته تلك، وقد كان.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

في هذا الحديث بيانُ لقاعدةٍ عظيمةٍ من قواعد الإسلام؛ وهي أنَّ أفعالَ النبيِّ ﷺ حُجَّةٌ، وأنَّها كقولِه في الاتِّباع والامتثال.

١ أخبر جابرٌ رضي الله عنه أنَّه رأى النبيَّ ﷺ يَرمي جَمْرة العقبة يوم عيد الأضحى راكبًا على ناقته؛ ليَرى أصحابُه كيف يؤدِّي ﷺ شعائرَ الحجِّ، ويبيِّن لهم كيف يرمي الجمرات، وما يقوله حين يَرميها، ونحو ذلك، وليُبيِّن لهم أنَّ الرميَ يجوز ماشيًا وراكبًا[١].

٢ ثم أمَر ﷺ أن نأخذ عنه شعائرَ الحجِّ وأفعالَه، فنَقتدي به في فِعْلِ ما فَعَلَ وتَرْكِ ما تَرَكَ، وتَقْدِيمِ ما قَدَّمَ وتأخيرِ ما أخَّر.

وأفعالُ النبيِّ ﷺ التي تكون بيانًا لأمرٍ مُجمَلٍ من واجبات الدِّين وفُروضه -كالصلاة والزكاة والحَجِّ ونحو ذلك- واجبةُ التَّأسِّي بها؛ كقوله ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتُموني أُصلي»[٢]، إلا ما دلَّ الدليلُ على عدمِ الوجوب[٣].

وقد قال ﷺ ذلك يوم النَّحر بعد انتهاء أهمِّ فرائضِ الحجِّ وواجباته وأركانِه؛ كأنه يقول: هذه الأمورُ التي أتيتُ بها في حَجَّتي من الأقوال والأفعال والهيئات هي أمور الحجِّ وصِفته، وهي مناسكُكم فخُذوها عني، واقْبَلوها، واحفَظوها، واعملوا بها، وعلِّموها الناسَ[٤].

٣ وقد علَّل النبيُّ ﷺ ذلك الأمرَ بالاقتداء بأنَّه يَغلِب على ظنِّه -إن لم يكن أيقَنَ- أنَّه لا يحُجُّ بعد ذلك العامِ مرةً أخرى.

وقد جاءه ﷺ من المُنبِّئات ما يدلُّ على قُرب موته ﷺ، منها أنه نزَل عليه يومَ عرفة قوله تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، وما روَته فاطمة رضي الله عنها أنَّه ﷺ أسَرَّ إليها في مرض موته: «إن جِبريل كان يُعارِضُني القرآن كلَّ سَنة مرةً، وإنه عارضَني العام مرتينِ، ولا أراه إلا حضَر أَجَلي»[٥]. فلعلَّه ﷺ قال ذلك بناءً على تلك المُرَجِّحات إنْ لم يكن قد أخبَره ربُّه جلَّ وعلا بذلك.

وهذه الحَجَّة التي حجَّها النبيُّ ﷺ هي حَجَّته الوحيدة بعد الهجرة وبعد ما فُرِض الحج، وسُمِّيتْ حَجَّةَ الوداع لأنَّه ﷺ كان يُوَدِّع فيها أصحابَه بقولِه: «لعلي لا أحُجُّ بعد حَجَّتي هذه».

---

(١) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (٣/ ٤٠٠)، «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهريِّ (٣/ ٣١٢).

(٢) البخاري (٦٠٠٨).

(٣) انظر: «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (١٠/ ٣٤٥)، «المفهم» للقرطبيِّ (٣/ ٣٩٩).

(٤) «شرح النوويِّ على مسلم» (٩/ ٤٥).

(٥) البخاريُّ (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

الاتِّباع

١ (١) على الداعية والمُعلِّم والمُرَبِّي أن يَجهَر ببعض العبادات ويَعملها أمام الناس؛ حتى يأخذَها الناسُ عنه، ويتعلَّموها منه.

٢ (١) لا بدَّ للعلماء والدعاة أن يتصدَّروا المشاهِد والوفود؛ حتى يتسنَّى للنَّاس أن يَستفتوهم ويأخُذوا عنهم الأحكامَ.

٣ (١) قد يُغني بيانُ الشيء بالفعلِ والأمرِ بالتقليد عن شَرحه بالقول.

٤ (٢) على الدَّاعية أن يَهتمَّ بقضايا الواقع المعاصِر ويؤخِّر بيان ما لا يحتاجه الناسُ الآن؛ فالنبيُّ ﷺ لم يَذكر تفاصيل الحجِّ وأحكامَه حتى خرج بالنَّاسِ حاجًّا.

٥ (٢) على المسلم أن يحرِص دائمًا على اتِّباع النبيِّ ﷺ في أقواله وأفعاله، فأحسنُ الهَدْيِ هَدْيُه ﷺ.

٦ (٣) على الداعية والمُعلِّم أن يُحفِّز طُلَّابَه ومُستمِعيه بأن يبادروا إلى الأخذ عنه والتلقِّي منه، قبل أن يَنشغِلوا أو يَقضي اللهُ أمرًا.

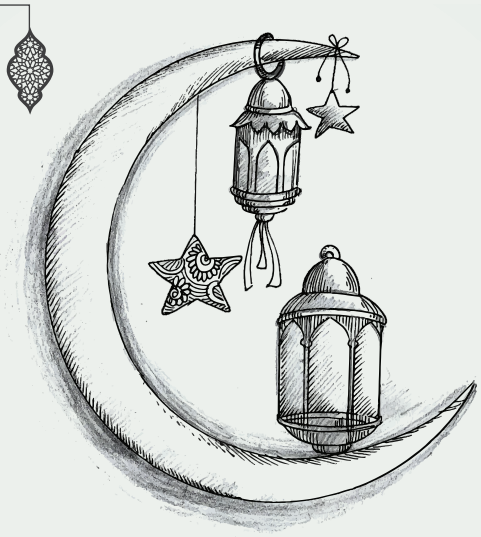
٧ (٣) يجوز للإنسانِ أن يتنبَّأ بأمرٍ مُستقبليٍّ إذا كان ذلك مبنيًّا على وقائعَ وأحداثٍ تُمَهِّد للأمرِ، من غير أن يَجزِم بذلك أو يعتقِد أنَّه يَعلم الغيب، وإنما يعتقد أنَّ ذلك مِن حُسن الظنِّ والربط بين الأمور، والأمرُ للهِ أولًا وآخرًا.

قال الشاعر:

يَا رَاحِلِينَ إِلَى مِنًى بِقِيَادِي ... هَيَّجْتُمُ يَوْمَ الرَّحِيلِ فُؤَادِي

سِرْتُمْ وَسَارَ دَلِيلُكُمْ يَا وَحْشَتِي ... الشَّوْقُ أَقْلَقَنِي وَصَوْتُ الْحَادِي

وَحَرَمْتُمُ جَفْنِي الْمَنَامَ بِبُعْدِكُمْ ... يَا سَاكِنِينَ الْمُنْحَنَى وَالْوَادِي





عن عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ،

عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»(١).

(١) البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٣٠٠)، والترمذيُّ (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (ص: ١٢٧).

آيات

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].
- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

الراوي

هو: أبو سلمة، عُبَيدُ الله -وقيل: عبدُ الله- بْنُ مِحْصَنٍ، الخَطْمِيُّ الأَنصارِيُّ، مختلَفٌ في صُحبته، قال ابنُ حِبَّانَ: له صُحبة. وقال ابن السَّكن: يُقال: له صحبة. وقال ابن عبد البرِّ: أكثرهم يُصحِّح صُحبته(١).

خلاصة

الأمنُ والعافيةُ والرزقُ نِعَمٌ لا يعرف قدرَها كثيرٌ من النَّاس.

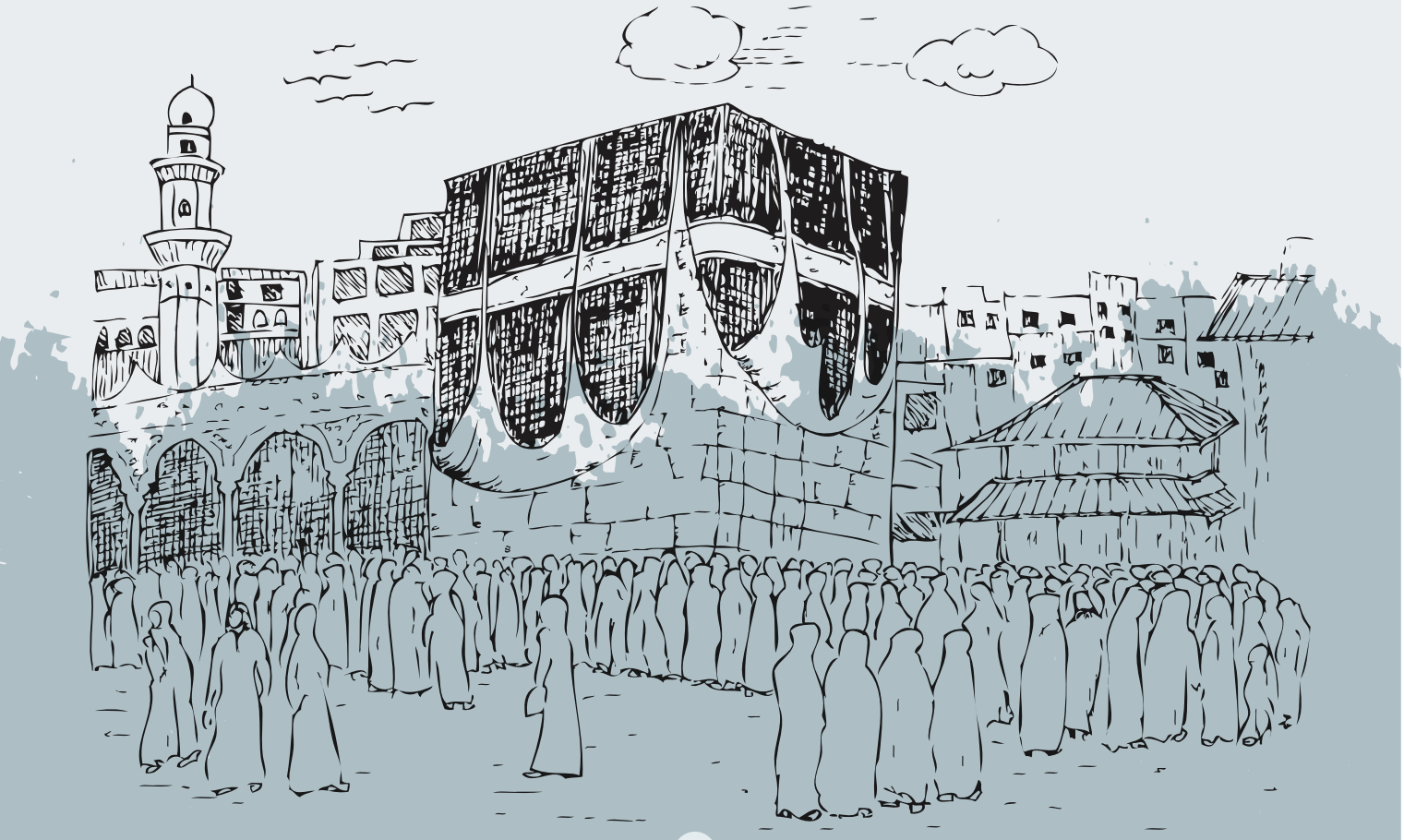
(١) تُراجع ترجمته في: «التاريخ الكبير» للبخاريِّ (٥/ ٣٧٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٣٣٤)، «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٥/ ٣٩٠).

فقـــه

١ يبين النبيُّ ﷺ أنَّ فضلَ اللهِ تعالى على عبادِه لا يُحصى، وأنَّنا غارقون في نعم الله تعالى التي لا نُدرك أهميتها ولا نُوفيها حقَّ شكرِها، وذكر من تلك النِّعم في هذا الحديث ثلاثًا، وهي الأمان والعافية والرزق.

٢ فمَن استقبلَ يومَه وهو آمنٌ في نفسه وبيته وأهله ووطنه، مطمئنٌ لا يخشى عدوًّا أو وباءً أو ظُلْمًا يقعُ عليه، مُعافًى في بدنه صحيحًا سليمًا ليس به داءٌ أو مرضٌ يمنعه عن الحركة وأداء مهام يومه، عنده ما يكفيه من قوت يومه فلا يحمل هَمَّ الرزقِ - فقد جُمعت له الدُّنيا بأسرها؛ فماذا يريدُ بعدَ تلك النِّعم؟!

٣ وقد امتنَّ اللهُ تعالى على عبادِه بتلك النِّعم، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤]. وعاب على الكافرين الذين كفروا تلك النعم، فعاقبهم بسلبها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].



١ أَحسِن الظنَّ باللهِ تعالى، فرزقُك وقدرُك وأمورُك كلُّها بيد اللهِ تعالى.

٢ اشكر اللهَ تعالى على نعمةِ الأمن؛ فكم من مُطارَدٍ وخائفٍ وأسيرٍ يتمنى شيئًا مما عندك.

٣ من عظيم نعمة الأمن أن اللهَ تعالى وعد المؤمنين بها، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فكن منهم يصيبك ما يصيبهم من موعود الله سبحانه.

٤ الصِّحةُ نعمةٌ عظيمةٌ تستوجب شكرَ اللهِ تعالى عليها؛ حيث سوَّاك في أحسن صورة وأكمل بنيان، ومنحك العافية التي تُخَوِّلُك من العمل.

٥ كان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْت»[1] فاحرص على هذا الدُّعاء النبوي.

٦ قال ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغُ»[2]. فلا تكن من الجاحدين لنعم اللهِ تعالى.

٧ احمَد اللهَ تعالى على رزقك واقنع بما آتاك، فغيرُك جائعٌ لا يجد ما يسدُّ رمقه.

٨ يجب على المرء أن يُدرِك قيمة نعم الله عليه، وأنه محاسَبٌ عليها، فيسعى ويحرص على شكرها بطاعة الله تعالى وما يُرضيه؛ فإن الله سائلُه يوم القيامة عنها، فإن اغتنمها في خير وما يُرضي الله تعالى، نجا وسَلِم، وإلا فهو الخسران الْمُبين.

٩ لا يُدرك المرء قيمة نعمة الماء إلا حين يَفقِده، فيشتدُّ عليه العطش، وهكذا كلُّ النِّعم، لا يُدركها الإنسان إلا حين يفقدها؛ فكن من الشاكرين!

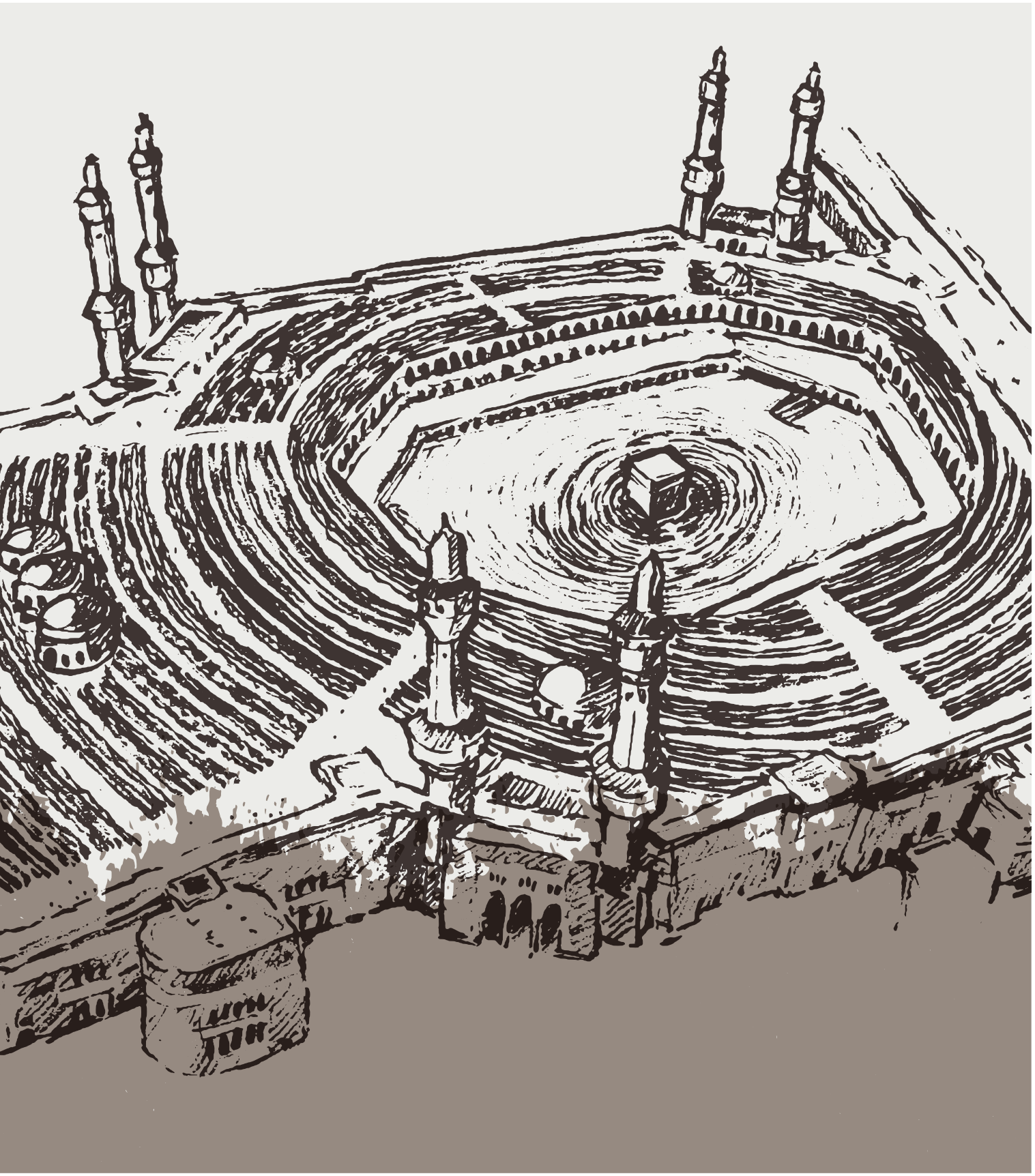
قال الشاعر:

إِذَا ما كَسَاكَ الدَّهْرُ ثَوْبَ مَصَحَّةٍ ... وَلَمْ يَخْلُ مِن قُوتٍ يُحَلَّى ويَعْذُبُ
فَلا تَغْبِطَنَّ الْمُتْرَفِينَ فَإِنَّهُ ... عَلَى حَسْبِ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ

قال غيره:

إِذَا مَا الْقُوتُ يَأْتِي لَكَ وَالصِّحَّةُ وَالأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ فَلا فَارَقَكَ الْحُزْنُ

(١) البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأحمد (٢٠٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠).
(٢) البخاريُّ (٦٤١٢).



الجمعُ بين الإيمانِ وطلبِ الرِّزق

عنْ عمرَ ﷺ، عنْ النّبيِّ ﷺ قال:

١ «لو أنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ على اللهِ حقَّ توكُّلِه، لرُزِقْتُمْ كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ،

٢ تَغْدو خِماصًا، وتَرُوحُ بِطانًا»[1].

(١) أحمد (٢٠٥)، والنسائيُّ (١١٨٠٥)، والترمذيُّ (٢٣٤٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣١٠).

آيات

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢].
- ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].
- ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الراوي

هو: أبو حفص عمرُ بنُ الخطَّاب بنِ نُفيل، القرشيُّ، العَدويُّ، يجتمع مع رسول الله ﷺ في كعبِ بنِ لُؤيٍّ، الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، وأوَّل مَن لُقِّب بأمير المؤمنين، وهو وزير رسول الله ﷺ، توفي سنةَ (٢٣هـ)[1].

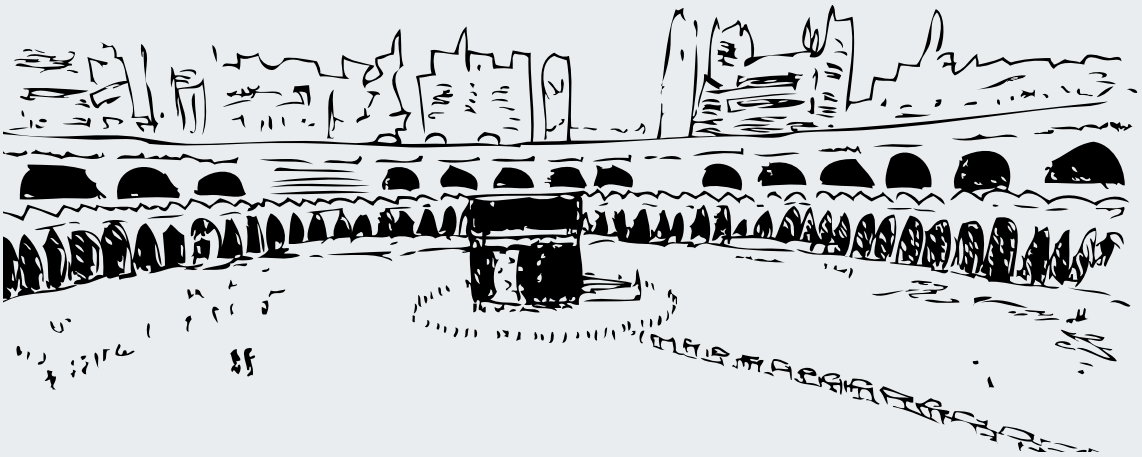
خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّنا لو صدقنا في التوكُّل على الله، وتوكَّلنا عليه كما ينبغي، لرزقنا كما يرزق الطير، تُصبح جائعةً وتعود شَبعانة.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٣٨)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٢٣٨)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٦٤٢).

١ التوكُّل من العبادات القلبية، ويتحقَّق بالثقة بالله تعالى والاعتماد عليه مع الأخذ بالأسباب، وقد أخبر ﷺ أننا لو توكَّلنا على الله حقَّ التوكُّل لَرَزقنا كما يَرزق الطير.

٢ ٢- والطير تذهب في الصباح جائعةً فارغة البطن من الجوع، وتَرجع في آخر النهار شَبعانة ممتلئة البطن، فلو أنَّنا صدقنا في اعتمادنا وتوكُّلنا على الله تعالى لرزقنا كما يرزق الطير الذي لا حيلة له، ولكنَّ أكثرنا يعتمد على الغشِّ والكذب والخداع في المعاملات، أو يلجأ إلى التواكُل وطرح الأسباب، أو يعتمد على الأسباب اعتمادًا كُلِّيًّا بحيث يرى أنَّ موافقةَ الأسبابِ يفيد وقوع الرزق حتمًا[1].



وحقُّ التوكُّلِ أن يأخذَ الإنسانُ بالأسبابِ مع الثقةِ بالله تعالى في أنَّ الأمر كله بيده، لا أن يَدع الأسبابَ ويجلس مُنتظِرًا رزقَه، فهذا من التَّواكل المذموم لا التَّوكل المحمود؛ فالنبيُّ ﷺ لَبِس في معاركه الدروع، وحفر الخندق في الأحزاب، وخرج يوم الهجرة متخفِّيًا، واستخدم الدليلَ لطريق هجرته، واختبأ في الغار، وأعدَّ للمعاركِ خُطَطَها، وهو خيرُ من يتوكَّل على الله سبحانه. وقد أمر جل وعلا بالتوكل مع العزم والأخذ بالأسباب فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) ينظر: «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» لابن علان الصديقي (١/ ١٩٧-١٩٨).



١ إذا أَهَمَّ المسلمَ أمرُ الرزقِ، فلا عليه إلا أن يتوكَّلَ على اللهِ تعالى، ويرضى بما يقسمه له، ويُوقِنَ تمامَ اليقينِ أنَّ له ربًّا يُدَبِّر أمرَه، ثم يأخذَ بالأسبابِ بعد ذلك.

٢ كثيرٌ من النَّاس يُكثِر من قول: «توكلتُ على الله» دون أن يكون متوكِّلًا حقًّا؛ فالتَّوَكُّلُ ليس قولًا باللسان، وإنما تسليمٌ للهِ تعالى ورِضًا بقَضائه، مع الإيمانِ به.

٣ المتوكِّلُ على الله حقَّ التوكُّل مُوَفَّقُ القصد، محفوظٌ عن نَزَغات الشيطان ووساوسه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩]. فمن أراد أن يحفظه الله تعالى من الشيطان ويبعده عنه، فليُحسِن التوكل عليه سبحانه.

٤ مَن سرَّه أن يحفظه الله في جميع أموره، وأن يكفيه ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة، فلْيَلجأ إلى الله تعالى ويُفَوِّض الأمر إليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ قَالَ - يَعْنِي: إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ -: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ»[1].

٥ حقُّ التَّوَكُّل على اللهِ تعالى أن يرضى بما يفعلُ اللهُ به، وأن يثقَ به سبحانه، وأن يُسَلِّم الأمرَ له. قال بشرٌ الحافي -رحمه الله-: يقول أحدهم: توكَّلت على الله، يَكذِب على الله؛ لو توكَّل على الله رَضِيَ بما يفعل الله، وسُئل يَحيى بنُ معاذ -رحمه الله-: متى يكون الرجل متوكِّلًا؟ فقال: إذا رَضِي بالله وكيلًا[2].

٦ عندما أراد اللهُ سبحانَه أن يُطعِم السيدة مريم ﵂ وهي في مَخاضِ ولادتِها، أمرها أن تَهُزَّ جذع النخلة، فأيُّ قوةٍ من امرأةٍ تضعُ ولدَها تهزُّ النخلةَ حتى يسقط منها التمر! بل لو هزَّ رجلٌ قويٌّ جَلْدٌ النخلةَ ما أسقطت شيئًا منها، ولكنه سبحانه يحبُّ أن يأخذ العبدُ بالأسبابِ ويدع النتائج لله سبحانه.

٧ لَقِي عمر بن الخطاب ﵁ جماعةً من المتواكِلين الذين لا يأخذون بالأسباب من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون. قال: بل أنتم المتَّكِلون؛ إنّما المتوكِّل الَّذي يُلقي حبَّه في الأرض، ويتوكَّل على الله[3].

---

(١) الترمذيُّ (٣٤٢٦).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٣) البخاري (١٥٢٣).

٨ ينبغي على الداعية والمُرَبِّي أن يُكثر من استخدام الصُّوَر البلاغية وضربِ الأمثالِ التي تُوضِّح المعاني وتُقَوِّي الأفكار.

٩ الْتَقى عبد الله بن سَلَام وسلمان ﷺ، فقال أحدهما لصاحبه: إن متَّ قبلي فالْقَني، فأخبِرْني ما لقِيتَ من ربك، وإن متُّ قبلك لَقِيتُك، فأخبرتُك. فقال أحدهما للآخر: أوَتَلقى الأمواتُ الأحياءَ؟ قال: نعم، أرواحهم تذهب في الجنة حيث شاءت. قال: فمات فلانٌ، فلقيه في المنام، فقال: «توكَّل وأبشر، فلم أرَ مثل التوكل قطُّ، توكَّل وأبشِر، فلم أرَ مثل التوكل قط»[1].

١٠ قال لقمان -رحمه الله- لابنه: «يا بني، الدنيا بحرٌ غَرِق فيه أناس كثير، فإن استطعت أن تكون سفينتك فيها الإيمان بالله، وحشوها العمل بطاعة الله عز وجل، وشِراعها التوكُّل على الله؛ لعلك تنجو»[2].

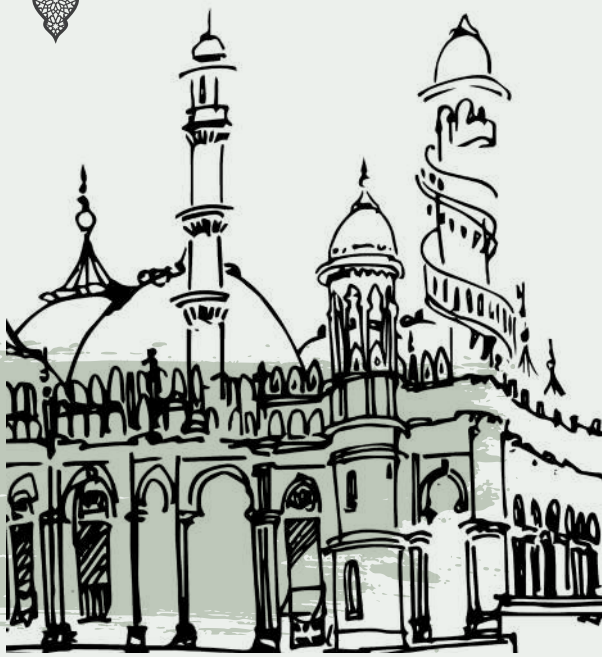
قال الشاعر:

تَوَكَّـلْتُ في رِزقِي علَى اللهِ خالقِي ... وَأَيْقَنْتُ أنَّ اللهَ لا شَـكَّ رازِقي

وَمَـا يَكُ مِنْ رزقِي فَلَيْسَ يَفُوتُني ... وَلَوْ كَـانَ فِي قَاعِ البِحارِ الغَوَامِقِ

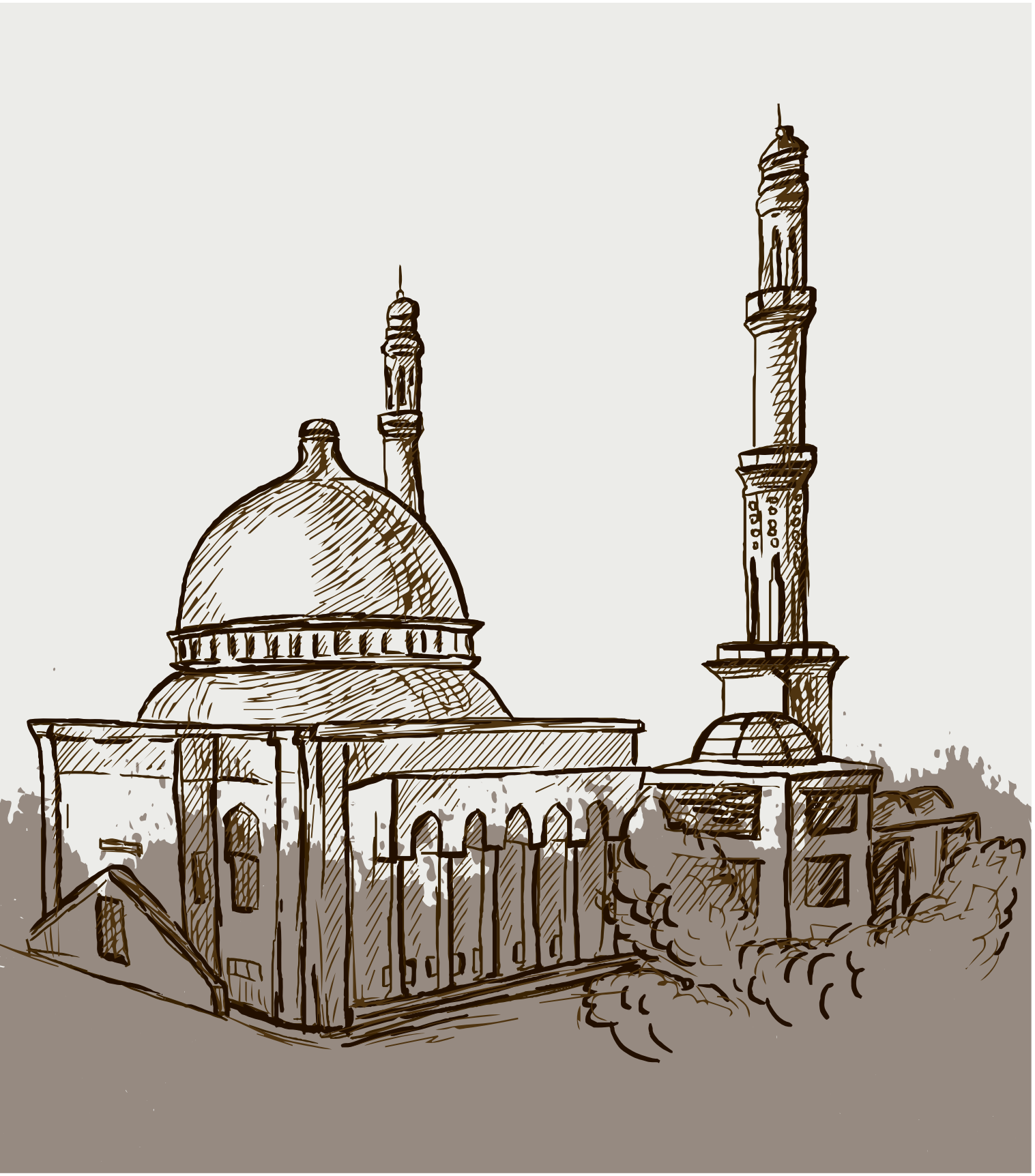
سـيأتي بِهِ اللهُ العظيـمُ بِفَضـلِهِ ... ولو لم يكـنْ مِنِّي اللِّسَـانُ بنَاطِقِ

ففي أيِّ شيءٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً ... وَقَدْ قسَّمَ الرَّحمنُ رِزقَ الخلائِقِ



(١) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (ص: ٥١).

(٢) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (ص: ٤٩).



بيعُ المحرَّمات

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ:

١ «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ،

٢ وَالْمَيْتَةِ،

٣ وَالخِنْزِيرِ،

٤ وَالأَصْنَامِ»،

٥ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ؛ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ»،

٦ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ؛ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا، جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»[1].

(١) البخاريُّ (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

آيات

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].
- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].
- ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الراوي

أبو عبد الله، جابرُ بنُ عبدِ الله بن عمرِو بن حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، شهد بيعة العقبة الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، وكان والده من النُّقباء البدريين، وكان آخِرَ مَن مات ممن شهد ليلة العقبة الثانية، وقيل: شهد بَدرًا وأُحدًا، وشهد صِفِّين مع عليِّ بن أبي طالب ﷺ، وهو مُفتي المدينة في زمانه، تُوفِّي سنة (٧٨هـ)[1].

خلاصة

بيَّن النبي ﷺ في الحديث عددًا من الأشياء التي يحرم بيعُها، وبيَّن أنَّ اللهَ تعالى إذا حرَّم شيئًا حرَّم استعمالَه وحرَّم ثمنَه؛ فإنه ﷺ لمَّا أخبر أنَّ الميتة حرامٌ، سأله أصحابه ﷺ عن شَحمِها واستخدامه في الطِّلاء والإنارة ونحو ذلك، فأخبرهم أن ذلك لا يجوز، وأنَّ اليهود استحقُّوا غضَبَ الله بذلك؛ فإنه لمَّا حرَّم عليهم الشَّحم تحايَلوا على الشرع فأذابوه وباعوه.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

١ حرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ ونبيُّه ﷺ الخمرَ؛ لأنَّها تُذْهِب العقلَ الذي هو مَناط التكليف، وتَحملُ الإنسانَ على ارتكاب المعاصي والإفساد في الأرض؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وإذا كانت الخمرُ حرامًا كان ثمنُها حرامًا كذلك، وقد قال أنسٌ ﷺ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالْمُشْتَرِي لَهَا، وَالْمُشْتَرَاةَ لَهُ»[١]، وسأل أبو طَلحةَ ﷺ النبيَّ عن أيتامٍ وَرثوا خمرًا، فقال ﷺ: «أَهْرِقْهَا» قَالَ: أَفَلاَ أَجْعَلُهَا خَلاًّ؟ قَالَ: «لاَ»[٢].

٢ وحرَّم بَيْعَ المَيتة كذلك؛ إذ يَحرم أكلُها والانتفاعُ بها؛ لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، إلا ما استُثني من الانتفاع بجلدِ ما كان طاهرًا مباحًا في الحياة -كالشاةِ والبقرة ونحوهما- بعد الدِّباغ؛ فعن ابنِ عباسٍ ﷺ قال: «تُصُدِّقَ على مَولاةٍ لمَيمونةَ بشاةٍ، فماتتْ، فمرَّ بها رسولُ الله ﷺ، فقال: هلَّا أخذتُم إهابَها، فدَبَغتُموه، فانتفعتُم به، فقالوا: إنَّها مَيتةٌ، فقال: إنَّما حَرُم أكْلُها»[٣].

ويُستثنى كذلك جوازُ أكلِ مَيتة السَّمَكِ والجرادِ؛ لقوله ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ؛ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ»[٤].

٣ ويَحرُم كذلك بيع الخنزير؛ إذ حرَّم اللهُ سبحانه أكلَه وقضى بنجاسته بقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

٤ ويَحرُم أيضًا بيعُ الأصنام وصُنعُها، سواءً كانت تُتَّخَذُ للعبادةِ أم لا؛ لأنَّ ذلك ذريعةٌ إلى الشِّركِ، وإنما دخَل الشِّركُ في الأرض مع اتِّخاذ تلك الأصنام وإن كانت مصنوعةً في البداية لغيرِ العبادة، خاصَّةً وأن النبيَّ ﷺ أخبَر أنَّه: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ»، وَكَانَتْ صَنَمًا تَعْبُدُهَا دَوْسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ[٥].

---

(١) الترمذيُّ (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١).

(٢) أبو داود (٣٦٧٥).

(٣) البخاري (١٤٩٢)، ومسلم (٣٦٣).

(٤) أحمد (٥٧٢٣)، وابن ماجه (٣٣١٤).

(٥) البخاريُّ (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

٥ فلمَّا ذكَر النبيُّ ﷺ لهم حُرمةَ بيع الميْتة واستخدامها سألوه عن استخدام شُحوم الميتة ودُهنِها في غيرِ الأكل؛ فهل يجوزُ استعمالها في تَلطيخ السُّفن ودِهان الجلود ووَضعها في المصابيحِ للإنارة؟ فنَهاهم النبيُّ ﷺ عن ذلك وأخبَرهم أنَّه حرامٌ لا يجوز.

وإنَّما سألوه عن الانتفاع بشُحومِ الميتة وبيعِها لظَنِّهم أنها مثلُ الحُمر الأهلية؛ حيث حرَّم ﷺ أكلَها إلا أنَّه أجاز بَيعها وركوبَها ونحوَ ذلك، فبيَّن لهم ﷺ أن الأمر مختلِفٌ؛ فالميتة نَجِسةٌ، ولذلك لا يجوزُ أكلُها أو الانتفاعُ بها، ولهذا حَرُم بيعُها كذلك.

٦ ثم دَعا النبيُّ ﷺ على اليهود؛ فإنَّهم احتالوا على شَرعِ اللهِ تعالى حين نهاهم عن أكلِ الشُّحوم واستعمالها وبيعِها كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، فأذابوا الشُّحوم وباعوها وأكَلوا ثمنَها.



١ (١) يَحرُم على المسلم بيعُ الخمر، سواءً باعها لمسلمٍ أم لكافرٍ؛ فإنَّ ثمنها حرامٌ على المسلمين.

٢ (١) اهتمَّ الإسلامُ بعقل الإنسان، وندَبه إلى التفكير والتأمُّل في خلْق الله تعالى، وأوجَب عليه طلبَ العلمِ، وحرَّم عليه ما يُفسِده من شُرب المُسكِراتِ ونحوها.

٣ (٢) يَدخل في بيعِ الميتة بيعُ الحيوانات المُحَنَّطة، فلا يجوز للإنسان شِراؤها وبيعُها.

٤ (٣) كما يَحرُم على المسلِم أكلُ الخنزير، فكذا يَحرُم عليه بيعُه، سواءً باعه لمسلمٍ أو لكافرٍ؛ لأنَّه مِن التعاوُن على الإثم والعدوان.

٥ (٤) لا يجوز اتِّخاذُ الأصنام وصناعتها؛ فإنَّ ذلك من الكبائر، وقد قال ﷺ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُونَ»(١).

٦ (٤) دلَّ الحديثُ على وجوبِ الحذرِ من الوقوع في بَوادِر الشِّرْك؛ فقدْ نَذَر رجلٌ على عهد رسول الله ﷺ أن يَنحَر إبِلًا ببُوَانةَ - موضع بأسفل مكةَ - فأتى النبيَّ ﷺ، فقال: إني نذَرتُ أن أَنحَر إبلًا ببُوَانةَ، فقال النبيُّ ﷺ: «هل كان فيها وَثَنٌ من أوثانِ الجاهلية يُعبَدُ؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيدٌ مِن أعيادهم؟»، قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «أَوْفِ بنَذْرِكَ؛ فإنه لا وفاءَ لنَذر في مَعصيةِ الله، ولا فيما لا يَملِك ابنُ آدم»(٢).

٧ (٥) لم يَستحِ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم مِن سؤال النبيِّ ﷺ عن شُحوم الميتة، وليس ذلك من السؤال المذموم ولا مِن الاعتراض على حُكمه، وإنَّما لِما رأوه مِن الفائدة المرجوَّة التي لا تتعلَّق بالأكل والشُّربِ، وظنِّهم أنَّ الحرمة متعلِّقةٌ بالأكل. فينبغي ألَّا يَرُدَّ الحياءُ سائلًا عن مَسألته.

٨ (٦) التحايُل على شرع اللهِ تعالى ليس من طِباع المؤمنينَ الذين قال سبحانه فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وإنما هو مِن أخلاقِ اليهود المغضوبِ عليهم؛ فاحذَرْ أن تكون منهم.

---

(١) البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩).

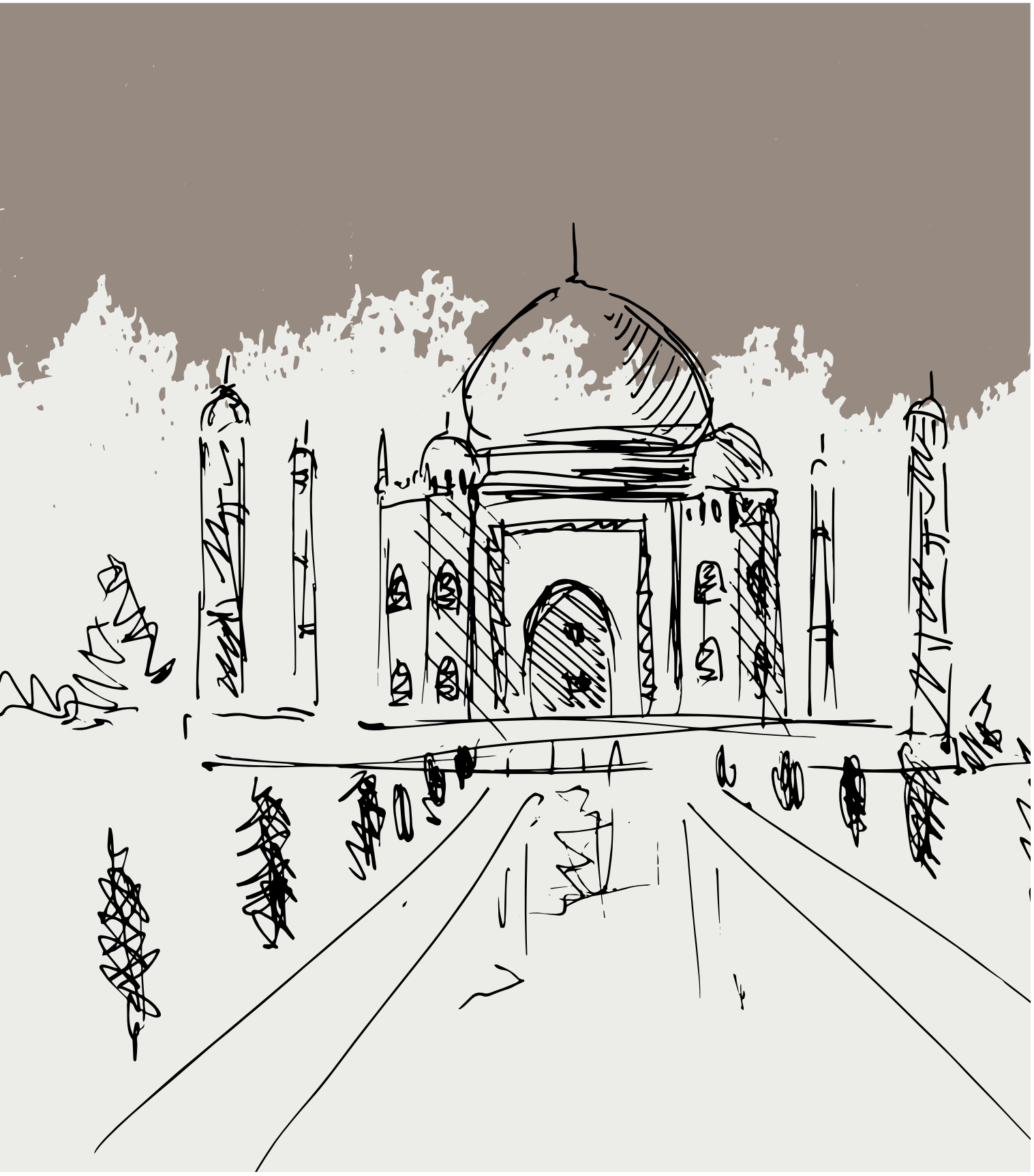
(٢) أبو داود (٣٣١٣).

٩ (٦) حذَّر ﷺ مِن اتِّباع اليهود في تحايلهم على الشَّرع، فقال ﷺ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ»[1].

١٠ (٦) كانت عاقبةُ التحايُل على شَرع الله تعالى أنَّه مسَخ أصحاب السبتِ قِردةً حين تحايَلوا على نهيِه عن الصَّيدِ يومَ السبت، فرَمُوا الشِّبَاكَ يوم الجمعةِ وترَكوها للسبت؛ فلْيَخْشَ الذين يَتحايَلون أن يُصابَوا بمِثلِ ما أصابِهم.



(١) رواه ابن بطة العكبري في إبطال الحيل (ص: ٤٧).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه

١ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا،

٢ فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ،

٣ قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟!

٤ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

(١) مسلم (١٠٢).

آيات

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].
- ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

تفقَّد النبيُّ ﷺ بضاعةَ تاجرٍ فوجد في باطن الطعام بللًا، فأخبره أنَّ ذلك لا يجوز، وأنَّ الغشَّ حرامٌ لا يجوز.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ بينما النبيُّ ﷺ يمرُّ في السُّوق يتفقدُ أحوال النَّاسِ ويتابعُ البيعَ والشراء، إذ وجد رجلًا يبيع طعامًا، فأدخل يدَه ﷺ في تلك الكَوْمَة التي هيَّأها البائعُ بحيث يكون ظاهرُها جذَّابًا مُغريًا، فوجد ﷺ في باطن الطعامِ بللًا، وذلك يدلُّ على فسادٍ أصابَ الطَّعام قد غطَّاه الرجلُ وأخفاه حتى لا يراه المشتري.

٢ فسأله النبيُّ ﷺ عن ذلك مستنكرًا فِعلَته حيث جعل المبلولَ من الطَّعام بالأسفل واليابس بالأعلى، بحيث يظنُّ المشتري أن الجميع يابسٌ لا عيبَ فيه. فأخبره الرجلُ أنَّ المطر سقط على الطَّعام فأفسد أكثره.

٣ فأخبره ﷺ أنَّه كان ينبغي عليه أن يرفع الفاسدَ منه بحيث يراه النَّاس، فذلك مقتضى الأمانةِ والصِّدق في البيع، وقد قال ﷺ: «إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا، إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ»[1].

٤ ثم ذكر ﷺ قاعدةً عامَّة يُرجع إليها، وهي أنَّ الغاشَّ خارجٌ عن سُنَّةِ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ المكر والخديعة والتدليس صفاتُ الكاذبين والمنافقين، ولا يليق بالنبيِّ وأتباعه أن يتصفوا بتلك الصفات.

وليس المرادُ خروجَ الغاشِّ من الإسلام، وإنما بيانُ مخالفته للدين، وأنه أتى ذنبًا يُوجِب له غضبَ اللهِ تعالى وعقابَه؛ لأنَّه استحلَّ مالَ أخيه المسلم، وأوغر صدرَه، وأورثه البغضاء والكراهية، فأعقب ذلك تفكك الروابط التي تجمع المسلمين.

وهذه القاعدة ليست مقصورةً على البيع والشراء فحسب؛ بل تشمل جميع المعاملات؛ فيدخل فيها غشُّ الإمامِ للرعية وعدم مراعاة مصالحهم واستغلال منصبه في مصالحه الشخصية، لقوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[2]، كما يشملُ ذلك أيضًا غشَّ الدين، وهو أعظم أنواع الغش وأفدحها أثرًا وأشدُّها جُرمًا، وهو أن يكتم العلماءُ ما أمرهم اللهُ تعالى بإبلاغه أو يُحَرِّفوه عن مواضعه ابتغاءَ المناصبِ والأموال، كما وَصَمَ القرآنُ بني إسرائيل بذلك.

(١) الترمذيُّ (١٢١٠)، وابن ماجه (٢١٤٦).

(٢) البخاريُّ (٧١٥٠)، ومسلم (٢٢٧).



١ (١) ينبغي على الدعاة وطلبة العلم أن يَمُرُّوا بالأسواق، ينظروا ما فيها من المخالفات الشرعية في البيوع، وينصحوا النَّاس، ويذكروهم باللهِ تعالى.

٢ (١) كان من سُنَّة النبيِّ ﷺ وأصحابه وتابعيهم في القرون الأولى أن يسيرَ المحتسبُ في الأسواق لتفقد السِّلَع، فحبَّذا إن أعادت الحكوماتُ ذلك لتنظيم حركة البيع والشراء وحفظ حقوق النَّاس.

٣ (٢) بادر النبيُّ ﷺ إلى سؤال البائع عن البلل الحاصل قبل أن يتَّهمَه بشيءٍ من الغِشِّ؛ إذ ربما لم يعلم به البائع. فيجدر بنا أن نستبين الأمورَ قبل الحكم على ظواهرها.

٤ (٢) على الباعة أن يتعاهدوا بضائعهم بين الحين والآخر، ليروا إن طاله فسادٌ أو ضررٌ أو غير ذلك.

٥ (٣) يجب على المسلم أن يكون صادقًا في بيعه وشرائه وجميع تعاملاته، ويحذر أن يأكل حرامًا؛ فقد قال ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»[١].

٦ (٣) إياك والتدليس في البيع؛ فإنه سبيلٌ إلى الخسران ومحق البركة في الرزق، قال ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»[٢].

٧ (٣) كان جريرُ بنُ عبد الله ﷺ إذا قام إلى السِّلعة يَبيعُها، بصَّر المشتري بعيوبِها ثم خيَّره، وقال: «إنْ شئتَ فخُذْ، وإنْ شئتَ فاترك. فقيل له: إنك إذا فعلتَ مثلَ هذا لم يَنفُذ لك بيعٌ، فقال: إنا بايعْنا رسول الله ﷺ على النُّصح لكلِّ مسلم[٣].

٨ (٣) على المسلم أن يحرص على تحرِّي الحلال في طعامه وشرابه؛ فإنَّ الأعمالَ لا تُقبل مع أكل الحرام؛ قال وهب بن الورد رحمه الله: «لو قُمْتَ مَقامَ هذه السارية، لم ينفعك شيء حتى تَنْظُر ما يدخل بَطْنَك حلال أو حرام»[٤].

٩ (٤) ليعلمْ كلُّ غاشٍّ آكلٍ للحرام أنه لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع، منها: «وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟»[٥]. فكيف تُجيب ربَّك حينئذ؟!

---

(١) الترمذيُّ (٦١٢).

(٢) البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى - متمم الصحابة» (ص ٨٠٣)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٢٥١٠).

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٦٣).

(٥) الترمذيُّ (٢٤١٧).

١٠ (٤) كيف ترجو إجابة الدعاء أيها الغاشُّ الذي يأكل أموالَ النَّاسِ بالباطل، وقد ذكَر النبيُّ الرجُلَ يُطِيل السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، ومَلبسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟!»[1].

١١ (٤) الأَوْلَى في مثل الأحاديث التي فيها «ليس مني» و«ليس منا» ونحو ذلك تركُها على إطلاقها من غير تفسيرٍ؛ فإنَّ ذلك أشدُّ ردعًا وزجرًا للنَّاس.

١٢ (٤) قال ابن عباس ﷺ: «لا يزال الرَّجل يزداد في صحَّة رأيه ما نصح لمستشيره، فإذا غشَّه سلبه الله نُصحه ورأيَه[2].

قال الشاعر:

فَيـا بائعـًا بالغِشِّ أَنْتَ مُعـرَّضٌ ... لِدَعْوَةِ مَظْلُومٍ إلى سـامِعِ الشَّكْوَى
فَكُلْ مِنْ حَلالٍ وَارْتَدِعْ عَنْ مُحَرَّمٍ ... فَلَسْتَ عَلَى نارِ الجَحِيمِ غدًا تَقْوَى

قال غيره:

قل للذي لَسْـتُ أَدْرِي مِنْ تَلَوُّنِه ... أناصِـحٌ أم على غِشٍّ يُدَاجِـيني
إنـي لَأَكْثَرُ مِمَّا سُـمْتَني عَجَبـًا ... يَدٌ تَشُجُّ وأخـرى مِنْكَ تَأْسُـوني
تَغْتَابُني عِنْدَ أقـوامٍ وتَمْدَحُـني ... في آخَـرِينَ وكـلٌّ عنـك يأتيني
هَـذَانِ أَمـْرَانِ شَتَّى بَوْنُ بَيْنِهِمَـا ... فَاكْفُفْ لِسَـانَكَ عِنْ ذَمِّي وتَزْيِيني



(١) مسلم (١٠١٥).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهانيِّ (ص ٢١١).



النهيُ عن الربا

عَنْ جَابِرِ بنِ عبدالله رضي الله عنهما قَالَ:

١ «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

٢ آكِلَ الرِّبَا،

٣ وَمُؤْكِلَهُ،

٤ وَكَاتِبَهُ،

٥ وَشَاهِدَيْهِ»،

٦ وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»(١).

(١) مسلم (١٥٩٨).

آيات

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٢].
- ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

الراوي

هو: جابرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، أبو عبد الله، شهد العقبة الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، وكان والده من النُّقباء البدريين، وكان آخرَ مَن شهد ليلة العقبة الثانية مَوتًا، وقيل: شهد بَدرًا وأُحدًا، وشهد صِفِّين مع عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، وهو مُفتي المدينة في زمانه. تُوفِّي سنةَ (٧٨هـ)(١).

خلاصة

لعن النبيُّ ﷺ الرِّبا، وآخذه، ومعطيه، ومَن يكتب عقدًا فيه ربا، ومن يشهد على ذلك، وبيَّن أنهم جميعًا في الوزر سواء.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

١ يخبر النبي ﷺ عليه وسلم عن ربه عز وجل : بأنه يطرد من رحمته أشخاصًا متعددين اشتركوا في جريمة واحدة .

٢ وهو في هذا الحديث يخبر بلعن آكِل الرِّبا ، وهو الذي يأخذ المالَ من النَّاس في التعاملات الربوية ، وسواء استعمله في أكل الطعام أو أي استهلاك .

والربا زيادةٌ يأخذها أحدُ المتعاقدين في مقابلة مالٍ بمالٍ بلا عوض ، كأن يُقرض إنسانٌ أو مصرفٌ أو متجرٌ إنسانًا ألفًا ؛ على أن يأخذها بعد شهرٍ ألفًا ومائتين ، أو يشترط عليه بأن التأخير عن موعد السداد فيه غرامة مالية ، أو يشتري سندًا ماليًا كتب عليه ألف ومائتان يحصِّله في تاريخ كذا ، وهو لم يدفع إلا ألفا ، ولها أنواع وصور أخرى ، وقد تسمى في التعاملات المالية باسم الفوائد ، أو غرامات تأخير ، أو غيرها .

٣ كما أن اللعنة أيضا تلحق مَن يُعطي الزيادة الربوية ، وهو المتعاقد الذي رضي بأن يدفع المال الزائد مقابل التأخير ونحوه ، فهو قد أعان على أكلِ الرِّبا ، وفي الغالب أنها ليست ضرورة تتوقف عليها حياة الناس ، بل أكثرها لتحسين مسكن أو مركب أو غيرها .



والربا قد يكون زيادة المال النقدي وقد يكون بغيره؛ كأن يعطيه هدية ويقول: أقرضني ألفًا؛ فحتى لو رد عليه ألفًا تمامًا فقد زاد الهدية.

٤ كما يخبر ﷺ بلعن الكاتبِ الذي يكتب عقدَ التعامل الرِّبوي، أو يُسهم في كتابته؛ سواء كتبه باليد، أو بالآلة، أو بتصميم الوثائق، أو بإدخال البيانات، أو نغير ذلك.

٥ وكذلك لعن الشاهدَين اللذين يشهدان لإثبات حقُّوق المتعاقدين.

٦ وأخبر أنهم كلهم سواء في حصولهم على اللعنة، لأنهم يتعاونون على الإثم والعدوان، وقد نهى اللهُ تعالى عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].



١ كلنا نحتاج إلى رحمة الله تعالى، وكلنا يتوسل إلى الله تعالى أن يرحمه، فمتى ما سمعت أمرًا لعنه الله أو لعن صاحبه فاهرب منه.

٢ قد يتسخط بعضهم على القدر، أو لتألمه وتأخر إجابة الله تعالى لدعائه، ويوسوس في نفسه لِم لمْ يرحمني الله؟ مع أنه ربما كان واقعًا في أنواع توجب اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى ولا يبالي.

٣ يغترَّ الإنسان، فيتساهل في الرِّبا، مع أن الربا من المُوبقات[١]، فهي تهلك ماله ودنياه وأخراه، فلا تطع من يدعوك للرّبا؛ سواء كان صاحبًا تاجرًا، أو تقريرًا اقتصاديًا، أو إعلانًا مبهرجًا، فإنَّ الله تعالى ينزع البركةَ من مالِ المُرابي، قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٤ الربا محرم ومعلون كل مشارك فيه، فلا يجوز المشاركة في أي عقد ربوي، حتى لو قال المقترض مثلاً: «إني أستطيع أن أرد المبلغ في الوقت المحدد بدون ربا»، لأن نفس كتابة العقد محرم، ولعن الله كاتبه.

٥ احرص على ألَّا تكسب إلا المال الحلال؛ فإنَّ أكل الحرام يحول بين العبد وبين إجابة الدُّعاء. وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ ذكَر الرجُلَ يُطِيل السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، ومَلبسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام؛ فأنَّى يُستجاب لذلك؟!»[٢].

٦ حرص السَّلفُ رضوان الله عليهم على إطابة المطعم، وتحذير النَّاس من أكل الحرام؛ قَالَ وَهْبُ بْنُ الْوَرْدِ رحمه الله: «لو قمتَ مَقامَ هذه السّارية، لم ينفعْكَ شيء حتّى تَنظُر ما يَدخُل بطنَك حلال أو حرام»[٣]، وسُئل الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله: بمَ تَلين القلوب؟ ثم أطرَقَ ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: بأكل الحلال[٤].

٧ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ، رَمَى

(١) لحديث: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «... وَأَكْلُ الرِّبَا...» الحديث، البخاري (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) مسلم (١٠١٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٦٣).

(٤) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزيِّ (ص ٢٦٩).

الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ، رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبا»[1].

٨ إن اللهَ سبحانه إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنَه، والمعاونةَ عليه، وشهودَه من غير إنكارٍ على فاعلِه، فلا تسهم في معصية حتى لو قلتَ: إني لم أعملها.

٩ إذا كنتَ تتعاملُ بالرِّبا وأردتَ التوبة، فأعد الزيادة الربوية إلى أربابِها، ولا تأخذ غير حقِّك المشروع؛ فإن ردَّ المظالم شرطٌ في التَّوبة.

١٠ إذا كان هناك من يتعامل بالرِّبا، فينبغي نُصحُه ودعوتُه إلى الحقِّ، وربما ينفع معه هجرُ التعامل معه تأديبًا وزجرًا له، ومنه البنوك التي لها تعامل ربوي وتعامل إسلامي، ولكن لا بأس أن يتعامل بشيءٍ مباحٍ لا يوجد عند غيره، أو يصعب حصولُه من غيره؛ فقد تعاملَ النبيُّ ﷺ مع اليهود وباع واشترى منهم، وهم أهلُ الرِّبا.

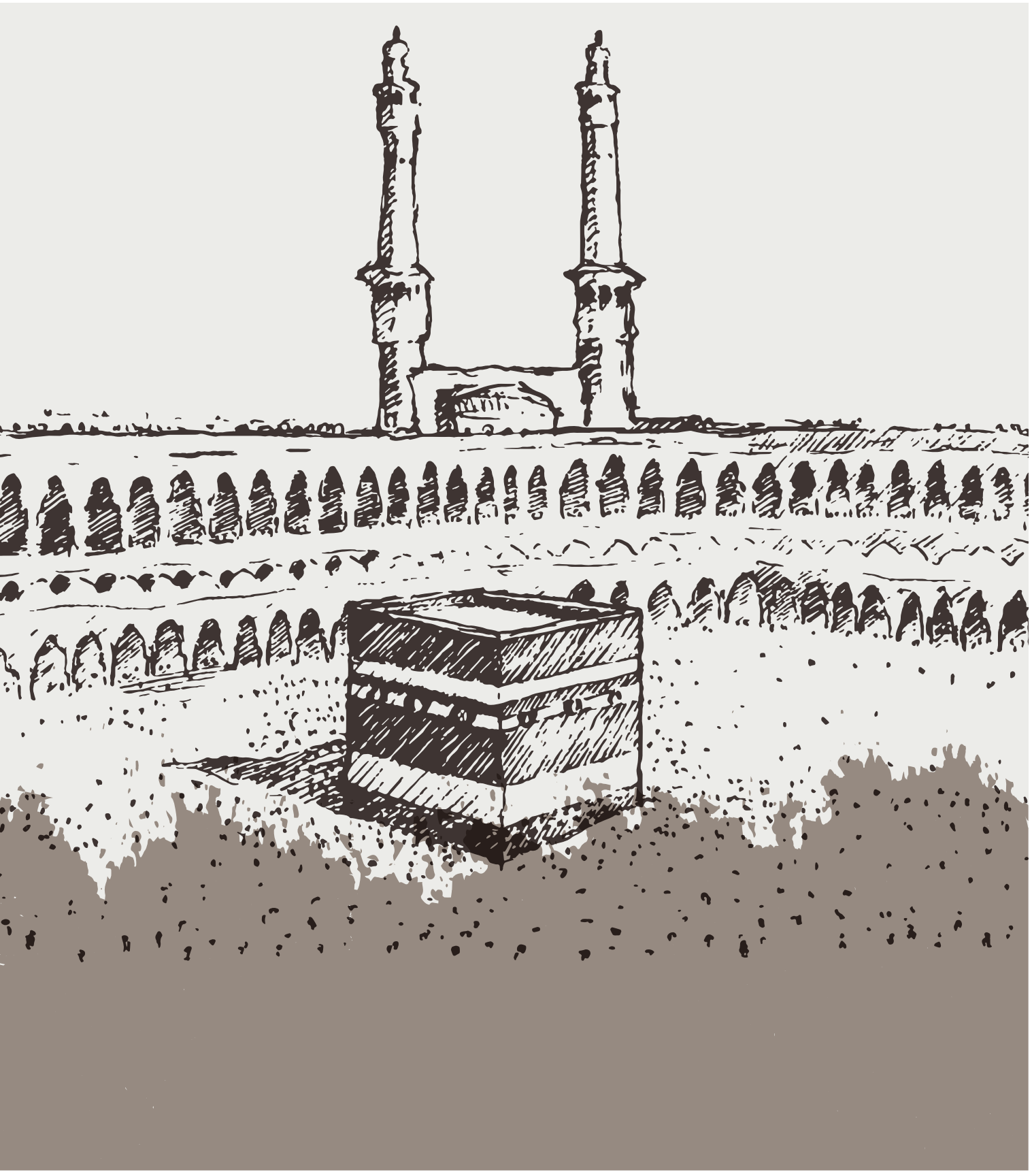
قال الشاعر:

رَأَيْتُ حَلالَ الْمَالِ خَيْرَ مَغَبَّةٍ ... وَأَجْدَرَ أَنْ يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ

وَإِيَّاكَ وَالْمَالَ الْحَرَامَ فَإِنَّهُ ... وَبَالٌ إِذَا مَا قُدِّمَ الْكَفَنَانِ



(١) البخاريُّ (٢٠٨٥).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ:

١ «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ،

٢ وَعَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ»(١).

(١) مسلم (١٥١٣).

آيات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩].

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣].

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكُن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

نهى النبيُّ ﷺ عن بعض البيوع التي يدخلها الغشُّ أو جهالة أحد طَرَ في البيع (السلعة والثمن)، ومن ذلك أن يَرمي المشتري حصاةً، فإذا وقعت على شيءٍ لَزِمه شراؤه، ومنها البيوع التي فيها جهالةٌ تُفسِد العقد، كشراءِ شيءٍ مجهولٍ في كِيس لا يُدرى ما هو.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

لمَّا كانت حياةُ الناس قائمةً على البيع والشِّراء، حتى إنَّ حياتَهم لا تَستقيم بدونها، نظَّم الإسلامُ أحكام ذلك، فجعَل الأصلَ في البيوعِ الإباحة، إلا ما دلَّ الدليلُ على تحريمه لفسادِه أو دُخولِ الجَهالةِ أو الربا فيه.

١ ومن تلك البيوعِ التي حرَّمها اللهُ سبحانه بيعُ الحصاة، وهو بيعٌ كان متداولًا في الجاهلية، وله صُوَرٌ متعددة؛ منها أن يقول البائعُ: بِعتُك مِن هذه الأرض مِن هنا إلى حين تَنتهي الحصاةُ، ثم يَرمي بالحصاة، ومنها أن يكون البيعُ بالخيارِ إلى حين تَسقُط الحصاةُ مِن يدِ المشتري، ومنها أن يَرمي حصاةً على قطيعٍ من غَنَمٍ، وأيَّ شاةٍ أصابتها الحصاةُ وقَع عليها البيع، ومنها أن يَقبِض على الحصى ويقولَ: لي بكلِّ حصاةٍ درهمٌ ثمنًا للسِّلعة. إلى غير ذلك من الصور التي يتضمَّنها جميعًا الجهالةُ والخَطَر وأكْلُ أموال الناس بالباطل.

٢ وحرَّم كذلك بيعَ الغَرَر، وهو كلُّ بيعٍ كان المقصودُ منه مجهولًا غيرَ معلوم، أو كان غيرَ مَقدورٍ على تَسليمه؛ كبيع السَّمَك في البحر، وبيعِ جَنِين الحيوانِ في بطْنِ أمِّه، وبَيع اللَّبن في الضَّرع. فكلُّ ذلك من الغَرَر المنهيِّ عنه لِما فيه من الجَهالة؛ فالسَّمَك لا يُدرى عددُه ولا حجمه، وربما عجَز المرءُ عن صيدِه، والجنينُ لا نَعلم أيخرُجُ حيًّا أم ميتًا، كاملًا أم ناقصًا، واللَّبنُ في الضَّرْع لا يُدرى صِحته من فسادِه، ولا يُعلَم وزنُه. وبيعُ الحصاةِ من بيوعِ الغررِ، إلَّا أنَّ النبيَّ ﷺ أفردَه بالذِّكر لكثرةِ وقوعِه في الجاهلية.

على أنَّ الشرعَ أحلَّ بعض البيوع التي فيها غَررٌ يسيرٌ لأجل الحاجة، فإنْ لم يكُن للبائعِ والمشتري حاجةٌ فلا يجوزُ البيعُ، وإن كان الغررُ كبيرًا لم يَجُزْ كذلك. فمِن الغرَرِ اليسيرِ أن يَبيع الشاةَ بولدِها في بطنِها، وأن يبيعَها باللبنِ في ضَرعِها، وأن يشتريَ الرجلُ شربةَ ماءٍ بدِرهم مثلًا، مع اختلاف حاجاتِ الناسِ إلى الماء، فربما يَشربُ رجلٌ أكثر من رجُل. فلمَّا كان الغررُ يسيرًا وللناسِ في تلك البيوع حاجةٌ جاز ذلك[1].

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٠/ ١٥٦).

١ (١) على المسلم أن يهتمَّ بمعرفة ما يحِلُّ ويَحرُم من البيوع؛ حتى لا يقع في البيوع المحرَّمة ويأكلَ أموال النَّاس بالباطل.

٢ (١) يَدخل في بيعِ الحصاةِ الآن بعضُ الألعاب المحرَّمةِ التي تَعتمد على أن يرمي الرجلُ عُملةً مَعدنيةً نحو شيءٍ معيَّن، فإن أصابه فاز به، وإن أخطأه خَسِر.

٣ (١) احرِص أن يكون بيعُك وشراؤك صحيحًا شرعًا؛ فيكون الشيءُ معلومًا، وثمنُه معلومًا، وأجلُه - إن لم يكن يدًا بيد - معلومًا.

٤ (٢) الأصل في البيوع الحِلُّ، إلا أنَّ الحُرمةُ قد تتطرَّق للبيع من إحدى ثلاثة أمور: الأول: حُرمة العين كبَيع الميتة والخنزيرِ والخَمر ونحوها، الثاني: الغرَر لجهالة شيءٍ في المبيع أو الثَّمن أو عدم القدرة على تسليمِه، الثالث: وقوعُ الرِّبا في البيع. فاحرِص على أن يَخلو بيعُك وشراؤك من تلك الأمور.

٥ (٢) مِن صُوَر بيع الغرر المنتشِرة: بيع ما لم تَرَه، وهو أن يشتري الإنسانُ شيئًا لم يَرَه ولم يتحقَّق مِن مُواصفاته.

٦ (٢) مِن صُوَر بيع الغرر أن يشتري الإنسانُ شيئًا مجهولًا؛ كأن يشتري ثوبًا من أثواب، بأن يرى أثوابًا مختلِفةً يَشتري منها واحدًا لا على التعيينِ، بل حسَبِ ما يخرُج له في اختيار عشوائي.

٧ (٢) من أكثر صُوَر بيعِ الغرَرِ المنتشرة الآن: صناديقُ الهدايا المجهولة، وهو أن يَشتري الإنسان صندوقًا بمبلغٍ معيَّنٍ، ولا يدري ما فيه.

٨ (٢) من صُوَر بيع الغرَرِ المنتشرة: أن يَشتري الطفلُ كِيسًا فيه هديةٌ لا يَدري ما هي، وربما لم يكن فيه شيءٌ، وهو ما يُسمى بالبخت أو ورَقِ الحظ.

٩ (٢) مِن أبرز صُوَر بَيع الغرَرِ المنتشِرة: أن يبيعَ الرجلُ محصولَ أرضه لسِنينَ قادمة.

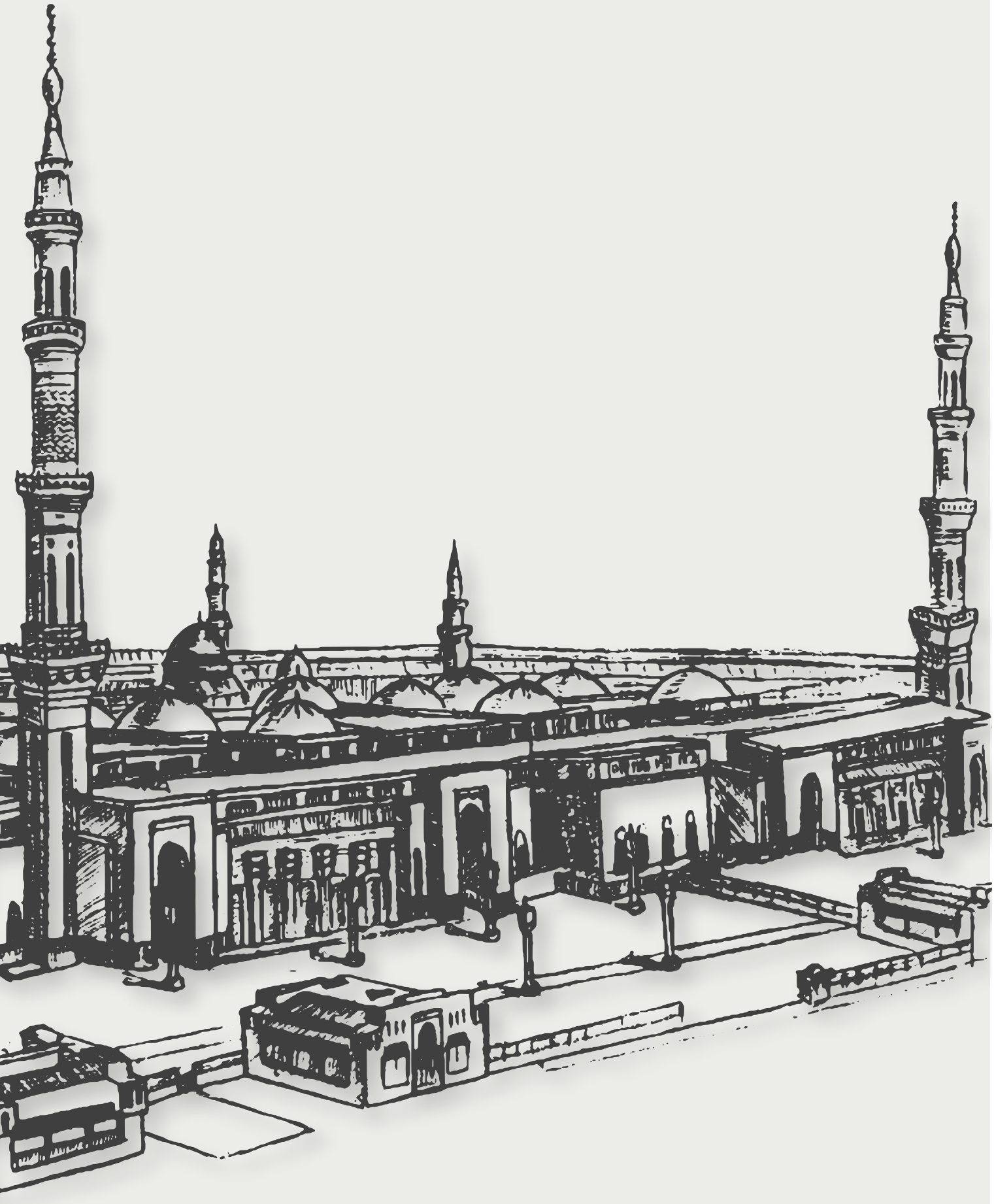
قال الشاعر:

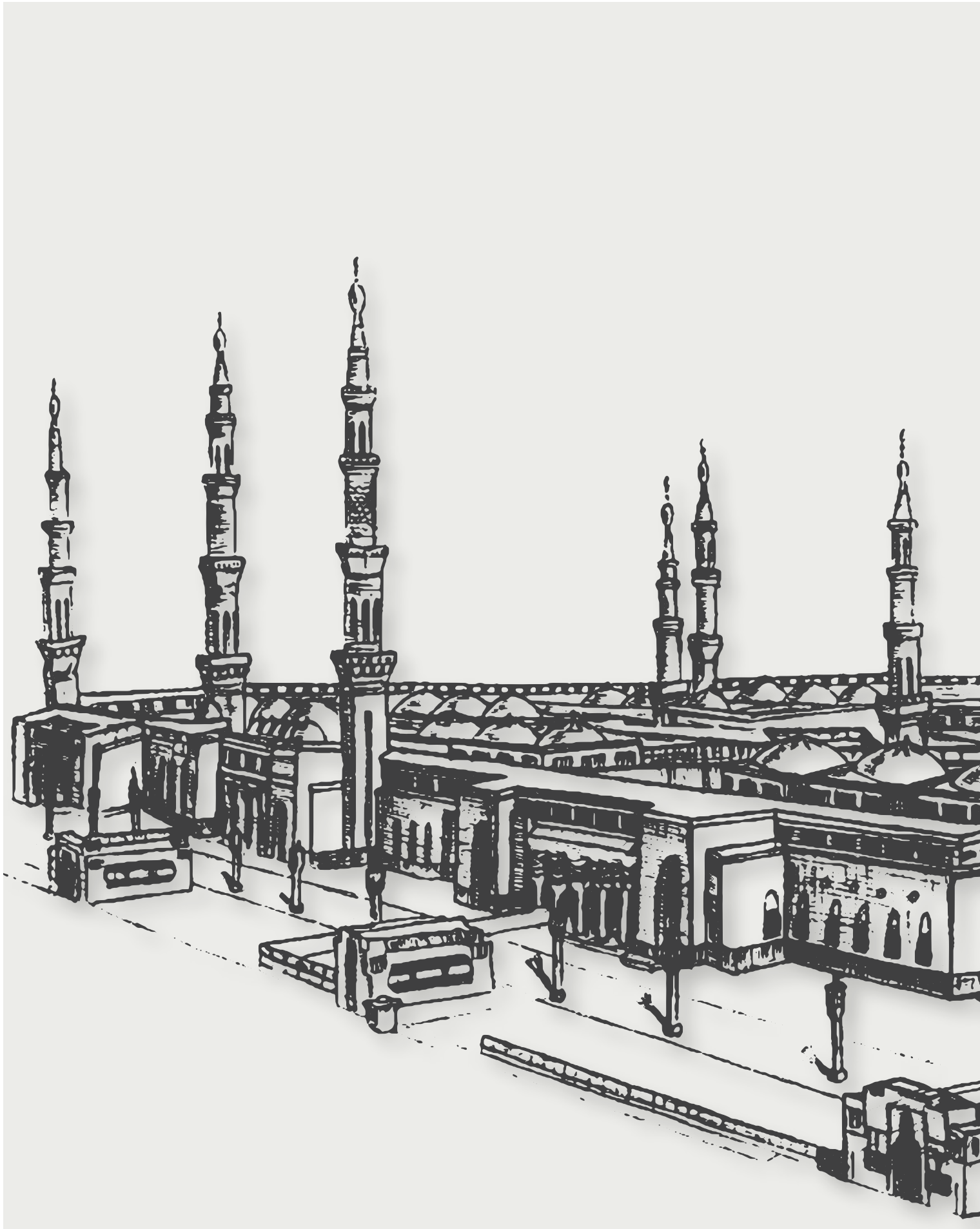
وَفِي النَّاسِ مَن ظُلْمُ الوَرَى عَادةٌ لهُ ... وَيَنْشُرُ أَعْذارًا بها يَتأوَّلُ

جَرِيءٌ على أَكْلِ الحرامِ ويدَّعِي ... بأنَّ لـه في حِلِّ ذلك مَحْمَلُ

فَيَا آكِلَ الْمَالِ الحرامِ أَبِنْ لَنَا ... بأيِّ كتابٍ حِلُّ مَا أَنْتَ تَأكُلُ؟

ألَمْ تَدْرِ أَنَّ اللهَ يَدْرِي بما جَرَى ... وبينَ البَرايَا في القِيامةِ يَفْصِلُ





﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء].

الناس في أشد الحاجة إلى هذه الرحمة المهداة، والنعمة المسداة...، ففي كل تفصيل من قوله وفعله رحمة.

وقد تمثلت هدايته ﷺ بعد وفاته في سنته وأحاديثه، فهي ميراثه ﷺ إلى العالمين، وصلته في هدايتهم إلى خير الدنيا والآخرة.

والعالم -كل العالم باختلاف شعوبه ولغاته وبلدانه- بحاجة إلى هذا الهدي العظيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة ابراهيم]

ومن هنا كان هذا المشروع النوعي في ترجمة أصول الأحاديث النبوية، وشرحها، ونشرها بأهم لغات العالم، تبصرة وتذكرة، وسبيلاً إلى الفلاح الدنيوي والأبدي في الآخرة.

سائلين أن ينفع الله تعالى به كل من شارك فيه بعلم، أو برأي، أو تصميم، أو طباعة، أو نشر، أو دعم لأي من ذلك، والله ذو الفضل العظيم.



مركز أصول
www.osoulcenter.com
وقف خادم الحرمين الشريفين
الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولية